

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة باتنة -1-

نيابة العمادة لما بعد التدرج

كلية العلوم الإسلامية باتنة

والبحث العلمي والعلاقات الخارجية

قسم أصول الدين

البعد التاريخي والرسالي

للسيرة النبوية

في القرآن الكريم

أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه علوم تخصص الكتاب والسنة

تحت إشراف:

أ-د: أحمد رحمانني

من إعداد الطالبة:

صونية حسيني

اللجنة المناقشة

الاسم واللقب	الدرجة العلمية	الجامعة الأصلية	الصفة
صالح عسكر	أستاذ	جامعة باتنة -1-	رئيسا
أحمد رحمانني	أستاذ	كلية الدراسات الإسلامية والعربية دبي	مقررا
أمال لواتي	أستاذ	جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة	عضوا مناقشا
حسين شرفة	أستاذ	جامعة باتنة -1-	عضوا مناقشا
صونيا وافق	أستاذ محاضر	جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة	عضوا مناقشا
سامية دبي	أستاذ محاضر	جامعة باتنة -1-	عضوا مناقشا

السنة الجامعية: 1437هـ-1438هـ/2016م-2017م

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة باتنة -1-

كلية العلوم الإسلامية باتنة

نيابة العمادة لما بعد التدرج

قسم أصول الدين

والبحث العلمي والعلاقات الخارجية

ل بعد التاريخي والرسالي

للسيرة النبوية

في القرآن الكريم

أطروحة مقدمة لتليل درجة الدكتوراه علوم تخصص الكتاب والسنة

تحت إشراف:

أ-د: أحمد رحمانى

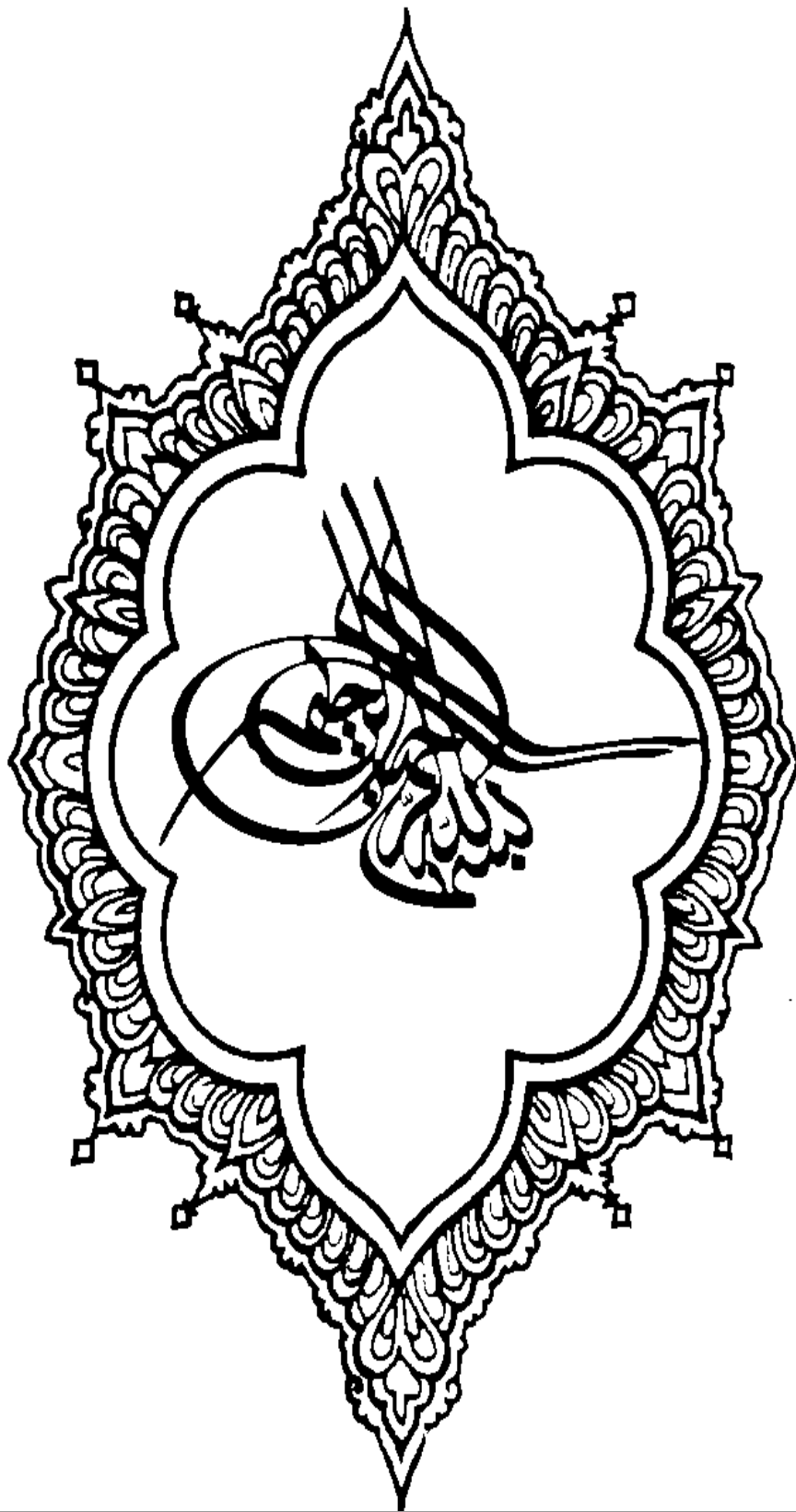
من إعداد الطالبة:

صونية حسيني

اللجنة المناقشة

الاسم واللقب	الدرجة العلمية	الجامعة الأصلية	الصفة
صالح عسكر	أستاذ	جامعة باتنة -1-	رئيسا
أحمد رحمانى	أستاذ	كلية الدراسات الإسلامية والعربية دبي	مقررا
أمال لواتي	أستاذ	جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة	عضوا مناقشا
حسين شرفة	أستاذ	جامعة باتنة -1-	عضوا مناقشا
صونيا وافق	أستاذ محاضر أ	جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة	عضوا مناقشا
سامية دبي	أستاذ محاضر أ	جامعة باتنة -1-	عضوا مناقشا

السنة الجامعية: 1437هـ-1438هـ/2016م-2017م



إهداء

أهدي هذا العمل المتواضع إلى
نبينا الكريم محمد صلى الله عليه وسلم
وأهديه إلى والديّ الكريمين نفعهما الله تعالى بالصحة والغفران
لأنهما سبب وجودي وسبيل اجتهادي في دروب العلم
ولا أنس إهداء هذا العمل إلى أفراد أسرتي
وإلى العائلة الكبيرة بكل أفرادها

شكر وتقدير

قال ﷺ: ﴿ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾

(النمل: 40).

عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

﴿ مَنْ لَأَشْكُرُ النَّاسَ لَأَشْكُرُ اللَّهَ ﴾ قَالَ هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ

رواه الترمذي في السنن رقم 1954

الحمد لله كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه الذي وفقني لإتمام هذا العمل. والشكر الكبير للزوج الكريم والأسرة الغالية على ما بذلوا معي من جهد، وما صبروا عليّ وتحملوا من عناء خلال الأيام الطويلة والمجهدّة في إنجاز هذا البحث. كما أتقدم بالشكر والتقدير العظيم إلى أستاذي الفاضل فضيلة الأستاذ الدكتور أحمد عثمان رحماني، على قبوله الإشراف على هذه الرسالة، والذي لم ييخل عليّ بوقته ولا بنصائحه وإرشاداته وتقييمه الدقيق للبحث في كل مراحلها، فجزاه الله عني خير الجزاء، ونفع طلاب العلم بعلمه. وأتقدم بعظيم الشكر والامتنان إلى الأساتذة الأفاضل الذين تشرفت بقبولهم مناقشة الرسالة، والصبر على قراءتها، وما بذلوه من جهد مثمر في النقد والتنقيح، فأسأل الله تعالى أن يحسن ثوابهم في الدنيا والآخرة.

كما أتقدم بعظيم الشكر والتقدير إلى كلية العلوم الإسلامية ممثلة بعميدها الأستاذ الدكتور بن حرز الله، وجميع العاملين بالمكتبة الذين بذلوا مع الطلبة الباحثين جهداً مضاعفاً للاستفادة من المراجع والمرافق الموجود بمكتبة الكلية، وتوفير الجو المناسب للبحث والدراسة. وأخيراً أسأل الله ﷻ أن يتقبل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن يجعله في ميزان الحسنات يوم القيامة، إنه سبحانه ولي ذلك والقادر عليه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى:

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ
وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ (الأحزاب: 40).

وقال جلالة:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾
(الأنبياء: 25)

قال جلالة:

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ
لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (الأعراف: 158).

وقال سبحانه وتعالى:

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ (آل عمران: 144).

مُقَدِّمَةٌ:

الحمد لله سبحانه الذي نستعينه ونستغفريه ونستهديه ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، ونسبحه سبحانه كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، هزم الأحزاب والكفار في يوم من أيامه تبارك اسمه وتجلى، ونشهد أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وكفى بالله شهيدا .

قال ﷺ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران: 102).
وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ مَرْقِيًا ﴾ (النساء: 01).

وبالكلمة الطيبة على لسان النبي محمد عليه الصلاة والسلام ظهر الحق وتجلى، أما بعد:
ولد النبي ﷺ في عام الفيل قبل أربعين سنة من بعثته، وبعد البعثة النبوية قضى النبي ﷺ ثلاث عشرة سنة في مكة داعيا إلى دين الله تعالى، ثم هاجر إلى المدينة المنورة، وبقي فيها عشر سنين. انتقل هذا الرجل العظيم إلى الرفيق الأعلى تاركا وراءه دولة لم يسبق لها مثال في تاريخ البشرية، تفوقت على دولتي الفرس والروم في القرن السادس الميلادي، استطاع تكوين الأمة التي حملت رسالة التوحيد إلى البشرية جيلا بعد جيل دون كلل أو تعب، ولا تأليه لصاحب هذه الأمانة العظيمة.

لقد كانت معجزة هذا النبي القرآن الكريم، هذا الكتاب الذي صور في نصوصه شخصية محمد ﷺ الذي حمل رسالة ربه إلى العالمين، قال ﷺ: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (الأحزاب: 72).

إن المتدبر لنصوص الوحي يقرأ رحلة النبي ﷺ عبر مراحل مختلفة، حيث تجوب به سيرته في كل وقت، وفي كل لحظة حاسمة من تاريخ نبي مع القوم، ومع الجماعة المسلمة، ودعوة الناس للإيمان بالله الواحد ونبذ الأوثان، وتكوين الدولة التي تخضع للتشريع الإلهي.

هذا الرجل العظيم الذي جاء مبلغاً عن الله ﷻ ورسالته، والذي كان آخر الأنبياء الذين اصطفاهم الله تعالى من دون البشر لتأدية الرسالة عبر رحلة النبوة العظيمة.

هذا النجاح الذي حققه محمد عليه الصلاة والسلام، كان في تشكيل النواة الأولى للمسلمين في مكة المكرمة كقاعدة لتكوين الأمة الإسلامية؛ وجعلها تسير في إطار متكامل من التشريعات الإلهية التي كانت تتنزل عليه في المدينة، قال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ مِرْحَمَاءٌ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَمَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الفتح: 29).

إن هذه الدراسة الأكاديمية هي محاولة البحث ضمن إطار منهج التفسير الموضوعي، وتدبر الآي القرآني ونصوصه حول سيرة الرسول محمد ﷺ، ودراستها بالتحليل والشرح لبيان الهدف العميق الذي حققته سيرة هذا النبي في تاريخ الأمة الإسلامية، وذلك ببيان البعد التاريخي الذي حققه النبي ﷺ وهو يُبلغ رسالة الله تعالى، ومنه حفظ هذه الرسالة للأمة من بعد لبلوغ مرضاة الله سبحانه والسير وفق المنهج الرباني الذي جاء به محمد عليه الصلاة والسلام الذي خُتمت النبوة عنده، قال ﷻ: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ (الأحزاب: 40).

ولهذا جاء هذا البحث في إطار التفسير الموضوعي، من أجل الإجابة عن الإشكالية الهامة في مجال السيرة النبوية والذي يمكن تحديده في العنوان التالي:

"البعد التاريخي والرسالي للسيرة النبوية في القرآن الكريم"

إشكالية الموضوع:

هذا العنوان يبحث ضمن الإطار العام وهو القرآن الكريم، من أجل الإجابة عن الأسئلة التي تثيرها الدراسات المعاصرة، وضمن هذه الأسئلة التي جاءت مفصلة في الخطة، يمكن صياغة إشكالية الموضوع في العناصر التالية:

1- ماهي مساحة السيرة النبوية في القرآن الكريم؟

أ- لماذا يركز القرآن الكريم على فترة دون أخرى في سيرة النبي ﷺ؟

ب- أين سيرة النبي الخاتم من قصص الأنبياء السابقين؟.

2- ما هو البعد التاريخي الذي رسمته سيرة الرسول محمد ﷺ في التاريخ الإسلامي؟

3- وما هو البعد الرسالي الذي بعثه النبي محمد ﷺ في الأمة الإسلامية، وما هو الهدف

الرسالي الذي بينته السيرة النبوية؟

4- لماذا كانت نبوة محمد ﷺ هي النبوة الخاتمة لجميع النبوات في الأرض؟

أسباب اختيار الموضوع:

البحث في السيرة النبوية من خلال القرآن الكريم يحتاج إلى تنسيق كبير بين جزئيات الموضوع والدراسة الموضوعية بقدر الإمكان، والأسباب وراء اختيار هذا الموضوع، وبهذا العنوان المفتوح يعود إلى ما يلي:

1- أهم هذه الأسباب وأقواها هو البحث في السيرة النبوية بمنهج جديد؛ أي تطبيق منهج التفسير الموضوعي على النصوص القرآنية لسيرة النبي محمد عليه الصلاة والسلام، لأن القرآن الكريم هو كتاب المسلمين، ولا يتأتى فهمه إلا بمدارسة آياته وتدبرها باعتماد مناهج جديدة وتحقيق القراءة المنهجية الموضوعية الصحيحة للنصوص القرآنية.

2- المنهج النبوي في تكوين الأمة الإسلامية يُعد أفضل التجارب الإنسانية، نتيجة للظروف التاريخية التي تحققت زمن البعثة النبوية، وكذا الجهد الدعوي العظيم الذي قام به الرسول ﷺ، حتى يصدق فيه معيار النبوة الخاتمة لجميع النبوات السابقة، والدين الكامل والمهيمن على جميع الأديان. وهي نبوة لا تتوقف زمن نزول القرآن على محمد ﷺ، ولكنه أمر امتد في تاريخ الإنسان .

3- العودة إلى دراسة شخصية النبي محمد ﷺ من خلال القرآن الكريم، والبحث في زواياه الكثيرة، والاستفادة من هذا المنهج الإسلامي في تزكية النفوس أولاً، وبناء المجتمع المسلم .

أهمية الموضوع:

السيرة النبوية نصوص ودراسات خصبة تستدعي الاهتمام والبحث أكثر، ولذلك نجد العقول الغربية تبحث في كل لحظة عن فرضية لضرب الإسلام، من خلال أحداث وروايات السيرة النبوية، فكيف لا يكون للمسلمين وازع ديني أعمق من أجل البحث في سيرة نبيهم بمناهج مختلفة، من أجل بيان أهمية شخصية محمد ﷺ في قلوب المسلمين والرد على المستشرقين والمستغربين المغرضين، من منطق الدفاع العلمي عن الدين الإسلامي ضد الهجوم الصليبي بمنطق الفكر والقلم.

أهداف هذا الموضوع:

الصورة التي يحاول هذا الموضوع طرحها هي البحث في أغوار الإنسان المسلم عن إجابات لأسئلة، وعن واجب هذا المسلم نحو دينه أولاً، ثم نبيه المصطفى ﷺ، وأهم هذه الأهداف التي يسعى هذا البحث للخروج بها كانت كما يلي:

1- المنهج النبوي في الدعوة الإسلامية هو المنهج الوحيد الذي يمكن الاعتماد عليه للتواصل مع الحياة الإنسانية بموضوعية وواقعية؛ لأنه منهج رباني لا ينطق عن الهوى بينه النبي صلى وجسده في المدينة المنورة واستطاع إنشاء مجتمع إسلامي متكامل، تحقق من خلاله الدور الحقيقي للإنسان في عالم الشهادة.

- ولهذا فإن هذه الدراسة تريد العودة إلى البحث في السيرة النبوية والاعتبار بمنجزات النبي العظيم والافتداء به للعمل أكثر نحو بناء الحضارة الإسلامية وفق مناهج موضوعية.

- تحقيق عمل صالح من أجل خدمة الدين الإسلامي، وذلك من خلال بحث أكاديمي يجب عن مجموع الأسئلة حول سيرة النبي محمد ﷺ من خلال القرآن الكريم.

2- البحث في القرآن الكريم باستقراء الآيات القرآنية وتدبرها حول سيرة الرسول العظيم، وما حققته من آثار عميقة وقوية في التاريخ الإنساني من أجل فكرة الأمة الإسلامية.

3- بيان عظمة النبي ﷺ أين تكمن، وكيف حققت عالمية للدين الإسلامي وكانت خاتمة النبوات في الأرض، وأن الأمة الإسلامية اليوم بحاجة إلى منهج نبوي بغية النهضة بالأمة، من غير الاعتماد على الحياة التي عاشها الرسول ﷺ زمن البعثة النبوية.

الصعوبات التي واجهت البحث:

مثل جميع البحوث والدراسات فإن صعوبات عديدة تواجه الباحث في إتمام البحث، ليس اعتذارا منه ولكن لإحاطة الموضوع المدروس بإطاره العام وأهم هذه الصعوبات نجد:

1- رسم منهج متكامل في دراسة هذا الموضوع، من خلال رؤية واضحة تحدد لها الخطة المنهجية الموضوعية لهذه الدراسة، نتيجة للأبعاد المختلفة لهذا الموضوع.

2- صعوبة الاطلاع والاستقراء الكلي للمصادر والمراجع التي تخدم هذا البحث، في جوانبه المتعددة حتى تكون النتائج الخاتمة أكثر دقة، لأن دراسة موضوعية تاريخية في السيرة النبوية تبحث عن الإمام بالمصادر والمراجع والبحوث والدراسات الجامعية التي كتبت في السيرة النبوية، والتاريخ الإسلامي، وكذا الدراسات العديدة في المنهج النبوي، وهذا الأمر يعود إلى الاعتماد على المصادر والمراجع المتوفرة بين يدي الباحث ضمن الإطار الذي وجد فيه.

3- طول المدة الزمنية التي استغرقها إنجاز البحث، والباحث بشر لا يمكنه أن يحافظ على جميع قدراته ليكون موضوعيا في كل المراحل التي يمر بها البحث في الدراسات الموضوعية .

4- البحث في مضمونه دُرس من خلال القرآن الكريم، طلبا من الأستاذ المشرف ورغبة مني، لكن العنوان الذي سُجل أول مرة، جعله يُطرح في القرآن الكريم بالرغم من طلب التعديل المتكرر، إلا أنه بقي على التسجيل الأول: "البعد التاريخي والرسالي للسيرة النبوية في القرآن الكريم"، وهذا البحث جاء دراسة موضوعية من خلال القرآن، ولم يوضع في إطار القرآن الكريم فقط.

الدراسات السابقة:

البحث في السيرة النبوية لم يتوقف، والمكتبة الإسلامية زاخرة بأهميات الكتب والمؤلفات في سيرة المصطفى ﷺ، كما أن الجامعات والمعاهد لا تتوقف عن طرح رسائل وأبحاث في دراسة زوايا السيرة النبوية بمختلف المناهج الموضوعية والمبتكرة محاولة من الجميع الكشف عن حقائق

وأبعاد جديدة في سيرة الرسول العظيم، وأهم الدراسات التي أرادت تصحيحا للروايات الكثيرة في هذا المجال نجد مؤلف "صحيح السيرة النبوية" للأستاذ أكرم ضياء العمري، ومؤلف "محمد رسول الله ﷺ" للأستاذ محمد الصادق إبراهيم عرجون، أما الدراسات التي كانت تبحث عن السيرة النبوية بمنهج جديد لسبر أغوار الروايات المختلفة نجد: "دراسة في السيرة" لعماد الدين خليل، "السيرة النبوية تحت ضوء الكتاب والسنة" لمحمد فريد وجدي، وغيرها من المؤلفات التي كانت تبحث عن الموضوعية في دراسة السيرة النبوية وفق منهجية أصيلة، ولعل أكثرها اتصالا بالموضوع دراسة المستشرق وات مونتجومري بعنوان: "محمد في مكة" و"محمد في المدينة"، ذلك لأنه ينطلق في الغالب من التراث الإسلامي في تاريخ سيرة الرسول محمد عليه الصلاة والسلام.

منهج البحث:

من خلال العنوان الموضوع للبحث، يمكن اعتماد مناهج عديدة لتحقيق دراسة موضوعية، من أجل الوصول إلى نتائج طيبة في خاتمة هذا البحث، ولهذا كان الاعتماد على مجموعة من المناهج التي تخدم البحث وهي كما يلي:

- 1- المنهج التاريخي الوصفي لأحداث السيرة النبوية، وذلك بالعودة إلى السرد التاريخي التحليلي لنصوص السيرة النبوية من خلال القرآن الكريم كأول وأهم مصدر للدراسة، ثم كتب السيرة النبوية والحديث النبوي، والتاريخ الإسلامي.
- 2- المنهج التحليلي: وذلك باعتماد الشرح والتحليل للنصوص القرآنية، والروايات التاريخية المتعلقة بالسيرة النبوية، ومحاولة فهم هذه النصوص ضمن السياق الذي وضعت فيه، لوضع منهج متكامل للبحث عن الأبعاد الحقيقية التي ميزت السيرة النبوية في مسارها التاريخي.
- 3- المنهج الاستقرائي: وذلك بمحاولة استقراء أكبر عدد ممكن من النصوص القرآنية والتاريخية التي تخدم الموضوع من الجوانب التي يُطرح فيها.
- 4- منهج التفسير الموضوعي التجميعي: من خلال سبر أغوار الآيات القرآنية وضمها في إطار واحد، للخروج بنتيجة أو تصور حول السيرة النبوية وما حققته من معرفة للأمة المسلمة، وما تركته من آثار رسالية عميقة في التاريخ الإنساني.

منهجية إنجاز البحث:

هذا البحث هو عبارة عن دراسة أكاديمية تحاول الإجابة عن مجموعة من الأسئلة التي تكون الإشكالية، والبحث في تكوينه والمناهج والأساليب المستخدمة في طرحه جاء بمنهجية معينة كانت:

1- كتابة النصوص القرآنية بخط مغاير للخط المعتمد في كتابة البحث، مع نقل النصوص مضبوطة بالشكل وترقيم الآيات القرآنية في متن البحث.

2- نصوص وروايات الحديث الشريف والآثار جاءت منقولة من مصادرها مضبوطة بالشكل وبيان الرواة، وتخريج هذه الروايات من مصادرها الأصلية، وذلك بذكر الترتيب المناسب في ذكر المصادر من الصحاح إلى أصحاب السنن ثم المسانيد والمستدركات والمصنفات، وبيان درجة الحديث وأقوال العلماء في المتن أو السند إن اقتضت الضرورة.

- إذا كانت الرواية ضعيفة لعل ما فإن اعتمادها في البحث للاستئناس في قضية أو حادثة معينة، ومحاولة إيجاد رواية تتوفر فيها شروط الصحة قدر الإمكان.

- تكرار ذكر الروايات كان نتيجة التكامل والارتباط الموجود بين عناصر البحث.

3- بيان المعلومات الكاملة للمصادر والمراجع المعتمدة عند أول استعمال للكتاب في متن البحث، وفي آخر البحث وضع هذه المصادر والمراجع في فهرس واحد مرتب.

4- اعتماد خط مغاير للشواهد اللغوية المذكورة في البحث، وتخريج هذه النصوص من مصادرها التي وجدت فيها.

5- اعتماد طبعة واحدة لجميع المصادر والمراجع المذكورة في متن البحث، إلا ما كان في مصدر تفسير القرآن العظيم لابن كثير، فكان الاعتماد على طبعتين، الأولى طبعة دار طيبة بالمملكة العربية السعودية في بداية البحث، والطبعة الثانية دار قرطبة بالقاهرة في الجزء الثاني من البحث، والمصدر الثاني هو معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم، الطبعة الأولى دار القلم، دمشق، والطبعة الثانية من دار الكتب العلمية بيروت.

6- الاعتماد على ترقيم التهميش الآلي لكل من المدخل والباب الأول، والثاني، والثالث.

7- وضع فهرس عامة في آخر البحث مرتبة ترتيباً ألفبائياً تتكون من:

فهرس الآيات القرآنية: (مرتبة حسب ترتيب المصحف الشريف، رواية حفص عن عاصم).

فهرس الأحاديث النبوية والآثار.

فهرس المصادر والمراجع.

8- وضع ملخصات للبحث باللغة العربية واللغة الفرنسية واللغة الإنجليزية.

خطة البحث ومبرراتها المنهجية:

البحث الموضوع للدراسة جاء وفق خطة منهجية، يحاول الإجابة عن الإشكالية المطروحة فكان تقسيمه كما يلي:

مدخل وثلاثة أبواب وثمانية فصول وخاتمة بنتائج البحث التي سعى الباحث للوصول إليها.
- المدخل جاء تحت عنوان: "المفاهيم الأساسية للبحث"، وهو محاولة شرح وتحليل المفاهيم الاصطلاحية المكونة لعنوان البحث.

- الباب الأول الذي تناول السيرة النبوية في القرآن الكريم بعنوان: "محطات السيرة النبوية في القرآن الكريم"، من أجل وضع الأرضية الأولى للدراسة واستخلاص جميع المفاهيم من خلال هذه الصورة الموضوعية التي تبحث في سيرة رسول الله ﷺ في نصوص القرآن الكريم، وهي أولوية لمعرفة العمل النبوي الذي تجسد من خلال حياة أعظم شخصية في التاريخ الإنساني، التي عملت على بعث الرسالة الربانية في الأمم.

- الباب الثاني والموسوم "بالبعد التاريخي للسيرة النبوية"، والمقسم إلى فصلين: الأول يتحدث عن التوحيد والثاني عن النبوة، وهذا الباب بنيت جميع مباحثه ومطالبه من خلال الباب الأول، لأن العمل النبوي والجهد الدعوي الذي قام به النبي ﷺ يجب أن يترك أثرا عميقا في الأمة الإسلامية.

الباب الثالث: عرفته "بالبعد الرسالي للسيرة النبوية"، وهذا البعد هو جزء من البعد التاريخي لأن عمل النبي ﷺ وجهده في إتمام البناء يعتمد على ثلاثة أمور: التوحيد، والنبوة، والرسالة، حتى يكون البناء الذي وضعه مع الأنبياء السابقين حقيقيا ومنطقيا لمسار النبوة في الأرض، وإقامة الحضارة التي تقوم على التوحيد الخالص لله تعالى.

وختمت البحث بخاتمة أجملت فيها النتائج التي توصلت إليها من خلال مسار هذا الموضوع وأهميته والأبعاد التي صنعتها السيرة النبوية لخاتم الأنبياء والمرسلين عليه الصلاة والسلام.

والخطة التفصيلية لموضوع "البعث التاريخي والرسالي للسيرة النبوية في القرآن الكريم" كانت

كما يلي:

المقدمة

مدخل: المفاهيم الأساسية للبحث.

المطلب الأول: مفهوم البعث.

أولاً: البعث لغة

ثانياً: البعث في اصطلاح العلماء

المطلب الثاني: تعريف التاريخ.

أولاً: التاريخ لغة.

ثانياً: المعنى الاصطلاحي.

المطلب الثالث: تعريف الرسالة.

أولاً: المعنى اللغوي.

ثانياً: المعنى الاصطلاحي.

المطلب الرابع: تعريف الرسالة.

أولاً: المعنى اللغوي.

ثانياً: المعنى الاصطلاحي.

الباب الأول: محطات السيرة النبوية في القرآن الكريم.

الفصل الأول: مرحلة الإعداد الإلهي (قبل البعثة).

المبحث الأول: محمد ﷺ في الكتب السابقة.

المطلب الأول: الكتب السماوية.

المطلب الثاني: روايات المشركين.

المبحث الثاني: الامتداد الجغرافي والتاريخي للجزيرة العربية.

المطلب الأول: الامتداد الجغرافي.

المطلب الثاني: الامتداد التاريخي للجزيرة العربية.

- المبحث الثالث: محمد ﷺ قبل البعثة النبوية.
المطلب الأول: محمد ﷺ في مرحلة الطفولة.
المطلب الثاني: حياة محمد ﷺ في مكة.
الفصل الثاني: البعثة النبوية.
المبحث الأول: المرحلة المكية.
المطلب الأول: بداية الوحي.
المطلب الثاني: الدعوة السرية.
المطلب الثالث: الدعوة الجهرية.
المبحث الثاني: المرحلة المدنية.
المطلب الأول: الهجرة إلى المدينة.
المطلب الثاني: الدولة الإسلامية في المدينة.
الباب الثاني: البعد التاريخي للسيرة النبوية.
الفصل الأول: الرؤية التاريخية لعقيدة التوحيد ضد الوثنية.
المبحث الأول: الوثنية.
المطلب الأول: مفهوم الوثنية.
المطلب الثاني: تاريخ الوثنية.
المبحث الثاني: عقيدة التوحيد.
المطلب الأول: مفهوم التوحيد.
المطلب الثاني: الفطرة السليمة.
المطلب الثالث: دعوة الأنبياء المرسلين إلى التوحيد.
الفصل الثاني: النبوة.
المبحث الأول: النبوة وتفسيرها.
المطلب الأول: تعريف النبوة.
المطلب الثاني: تفسير النبوة.

- المبحث الثاني: توالي ظاهرة النبوة.
المطلب الأول: تتابع ظهور الأنبياء.
المطلب الثاني: شهادة النبي على صدق دعوته.
المبحث الثالث: مظاهر النبوة الخاتمة.
المطلب الأول: نبوة محمد عليه الصلاة والسلام.
المطلب الثاني: شهادة الأنبياء على نبوة محمد ﷺ.
المطلب الثالث: خصائص النبوة الخاتمة.
الباب الثالث: البعد الرسالي للسيرة النبوية.
الفصل الأول: الجانب الأخلاقي.
المبحث الأول: صفات النبي وأخلاقه.
المطلب الأول: صفات النبي محمد ﷺ.
المطلب الثاني: أخلاق الرسول ﷺ مع الناس.
الفصل الثاني: الجانب الدعوي.
المبحث الأول: محمد ﷺ رسول من الله.
المطلب الأول: الداعي إلى الله تعالى.
المطلب الثاني: مرسل إلى الأمة.
المبحث الثاني: تبليغ رسالة الله سبحانه تعالى.
المطلب الأول: التبشير والإنذار.
المطلب الثاني: الجهر بالدعوة.
المطلب الثالث: الإنذار بالوحي.
المبحث الثالث: الدعوة إلى الله تعالى.
المطلب الأول: طرق الدعوة إلى الله.
المطلب الثاني: وسائل الدعوة إلى الله.
الفصل الثالث الجانب الحضاري.

المبحث الأول: الدعوة الإسلامية.

المطلب الأول: الحكم لله تعالى.

المطلب الثاني: طاعة الله سبحانه.

المبحث الثاني: الفتح والانتشار.

المطلب الأول: بعثة النبي ورسالته.

المطلب الثاني: عالمية الرسالة.

الخاتمة

تمهيد:

البحث الأكاديمي، أو البحث العلمي يطلب من الباحث مجموعة أساسية من الشروط، أهمها تكوين الإطار المناسب لأي دراسة أولاً، وثانياً التعريف الجيد بالبحث؛ وهذا لا يتأتى إلا باستخدام مجموع المفاتيح الموضحة، واختيار أهم المصطلحات الدالة على الموضوع، التي من خلالها يمكنولوج بشكل جيد إلى الدراسة العلمية، وفي أطر منهجية مناسبة.

وبناء على ما تقدم أردت التعريف بأهم المصطلحات الدالة على موضوع:

"البعد التأريخي والرسالي للسيرة النبوية في القرآن الكريم".

وشكلت لها مدخلا جاء ليرز مفاهيم البحث الأساسية، وكان لابد من اختيار مصطلحات العنوان كدلائل للتعريف بالموضوع، لأن العنوان هو المرآة العاكسة للبحث واختياره هو البوابة الرئيسة لأي دراسة واستكمالها للخروج بنتائج طيبة في نهاية البحث.

المطلب الأول: مفهوم البعد:

أولاً: البعد لغة.

البعد مفرد جمعه أبعاد، وقد أخذ أشكالا عدة في معاجم اللغة العربية فهو:

1- البُعدُ: ضد القرب، وقد بُعِدَ بالضم فهو بعيد، أي: تَبَاعَدَ، وأبعده غيره، وبَاعَدَهُ، وبعَّده تَبَعِيداً¹. وبعُدَ بُعُداً وبعادا، وابتعد².

والبُعْدُ بالتحريك جمع باعد، قال النابغة الذبياني:

فتلك تُبَلِّغُنِي النعمان إنَّ له فضلا على الناس في الأدنى والبعدِ.

وقد ضبطه الجوهري بالتحريك جمع باعد، كخادم وخدم.

والأبعاد خلاف الأقارب كما أنشد الشاعر:

إذا أنت لم نُعْرِكْ بِجَنِّبِكَ بعض ما يريب من الأدنى رماك الأبعاد³.

ويذكر ابن سيده أن بُعِدَ باعد على المبالغة، وإذا دعوت به فالمختار النصب⁴.

يقول الشاعر:

مدا بأعناق المطي مدا حتى توافي الموسم الأبعداً.

وكما جاء في قوله **عَبَّكَ**: ﴿بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ (سبأ: 08).

¹ - الجوهري: أبو نصر بن حماد، الصحاح في اللغة وصحاح العربية، ت: إميل بديع يعقوب ومحمد نبيل طريفي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1420هـ/1999م، 17/2. مادة (ب.ع.د).

² - ابن عباد: إسماعيل بن عباد، المحيط في اللغة، ت: محمد حسن آل ياسين، عالم الكتب، بيروت، ط1، 1414هـ/1994م، 432/1، مادة (ب.ع.د).

³ - ابن فارس: أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، ت: عبد السلام محمد هارون دار الفكر، 1399هـ/1979م، 268/1، مادة (ب.ع.د)، والبيت من الطويل وهو للحطيفة، ينظر: إميل بديع يعقوب، المعجم المفصل في شواهد اللغة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1417هـ/1996م.

⁴ - ابن سيده: أبو الحسين علي بن إسماعيل بن سيده المرسي الأندلسي، المحكم والمحيط الأعظم، ت: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1421هـ/2000م، 31/2، وينظر: الفيروزآبادي: مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، ت: مكتبة تحقيق التراث بمؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة، ط8، 1426هـ/2005م، 278/1، مادة (ب.ع.د).

أي درجة الضلال والعذاب التي أصبحوا فيها بعيدة، حتى لا يرجى عودتهم منها، والخلاص من عذاب الله سبحانه وتعالى.

2- البعد خلاف القبل: نقول جاء من بعد، كما نقول في خلافه جاء من قبل، وجئت بعديك، أي جئت بعدك⁵، يقول الشاعر:

أَلَا يَا أَسْلَمًا يَا دِمْنِي أُمِّ مَالِكٍ وَلَا يَسْلَمَنَّ بَعْدِيكُمَا طَلَلَانِ⁶.

3- البعد الهلاك: بَعِدَ بَعْدًا: هلك⁷.

وقد ذكر ابن فارس، أن البُعْدَ والبُعْدَ الهلاك، مصداقا لقوله تعالى: ﴿الْبُعْدَاءُ لَمَدِينٌ كَمَا بَعْدَتْ شُمُودٌ﴾ (هود:95).

أما الجوهري، فقد ضبطه: بَعِدَ بالكسر فهو بَاعِدٌ⁸.

4- البعد يعني اللعن: البَعْدُ والبِعَادُ اللعن، وأبعده الله نحاه عن الخير ولعنه⁹.

ومنهم من يقول بَعْدَ في المكان، وبعِدَ في الهلاك¹⁰.

5- البعد: الرأي والحزم.

يقال: إنه لذو بُعدٍ بضم فسكون، أي لذو رأيٍ وحزم؛ يقال ذلك للرجل إذا كان نافذ الرأي، ذا غور وذا بعد رأي¹¹.

ثانيا: البعد في اصطلاح العلماء .

تعددت معاني البعد في اصطلاحات العلماء، حسب استخدامهم لمفهوم البعد، وكما اختلفت معاني البعد في اللغة، جاء الاختلاف أيضا في الاصطلاح.

⁵ - ابن عباد، المحيط في اللغة، 433/1، مادة (ب.ع.د).

⁶ - البيت من الطويل وهو بلا نسبة، ينظر: الزبيدي: السيد محمد بن محمد الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1428هـ/2007م، 438/7، مادة (بعد)، وإميل بديع يعقوب، المفصل في شواهد اللغة العربية.

⁷ - ابن عباد، المحيط في اللغة، 432/1، مادة (ب.ع.د).

⁸ - الجوهري، الصحاح، 18/2، مادة (ب.ع.د).

⁹ - الفيروزآبادي، القاموس المحيط، 278/1، مادة (ب.ع.د).

¹⁰ - ينظر: ابن منظور: أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي بن أحمد الأنصاري الإفريقي، لسان العرب المحيط، دار لسان العرب، بيروت، 1408هـ/1988م، 231، 232/1، والزبيدي، تاج العروس، 32/2، مادة (ب.ع.د).

¹¹ - الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، 453/7، مادة (ب.ع.د).

- 1- البعد في عرف العلماء هو امتداد بين شيئين لا أقصر منه، وهذا الامتداد كان مساويا له كما في بعد المركز عن المحيط، أو كان زائدا عليه كما في غيره¹².
" فمن قال بالخلاء جعل البعد امتداد مجردا عن المادة، قائما بنفسه، ومن أنكر الخلاء جعله قائما بالجسم"¹³
- 2- البعد عند المتكلمين هو امتداد موهوم مفروض في الجسم أو في نفسه صالح لأن يشغله الجسم، وينطبق عنده بعده الموهوم أيضا ويسمى خلاء أيضا¹⁴. يقول الرازي: "المادة إما أن يكون لها في حقيقة ذاتها وخصوصية ماهيتها بعد وامتداد وإما لا يكون، فإن كان لها في حقيقة ذاتها بعد وامتداد فتكون المادة لذاتها لا لصفة مغايرة لها ممتدة في الجهات"¹⁵.
- 3- البعد في مصطلحات الفلسفة، هو بعد مكاني، وبعد زمني، وبعد في الكيفية، كما أن البعد المكاني تابع للجسم، والبعد الزمني تابع للحركة، فإنه امتداد للحركة، كما أن ذلك امتداد لأقطار الجسم¹⁶.
- والبعد عند الحكماء امتداد موجود، وهو عند القائلين بالخلاء له نوعان، قالوا: إذا حل الامتداد الموجود في مادة فجسم تعليمي، وإن لم يحل فخلاء، أي امتداد مجرد عن المادة قائم بنفسه، ويسمى بالبعد المفطور والفراغ المفطور، وبالجملة البعد عندهم إما قائم بجسم وهو عرض، وإما بنفسه وهو جوهر مجرد¹⁷.
- 4- البعد في الهندسة، هو بُعد جمعه أبعاد، والأبعاد ثلاثة، الطول، العرض، والعمق " البعد في علم الهندسة هو المقدار الحقيقي الذي يحدد بنفسه أو بغيره مقدار شكل قابل للقياس (كالخط أو السطح أو الحجم) مثال ذلك أبعاد الجسم"¹⁸.

12 - التهانوي: محمد علي بن علي بن محمد، كشاف اصطلاحات الفنون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1418هـ/1998م، 156/1.

13 - جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1982م، 213/1.

14 - التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، 156/1.

15 - سميح دغيم، موسوعة مصطلحات الإمام فخر الدين الرازي، من موسوعة سلسلة مصطلحات أعلام الفكر العربي والإسلامي، مكتبة لبنان، ط1، 2001، 143/6.

16 - حيرار جهامي، موسوعة مصطلحات الفلسفة عند العرب، مكتبة لبنان، ط1، لبنان، (د.ت)، ص 154، بتصرف.

17 - التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، 156/1.

18 - جميل صليبا، المعجم الفلسفي، 213/1.

- 5- البعد: بُعْد "démension" معنى سيكولوجي: أبعاد الشعور هي سماته أو مظاهره، وعمليات الشعور مثل الشدة أو الضعف، الوضوح أو الغموض¹⁹.
- 6- البعد امتداد موهوم غير محسوس كالبعد الثقافي والحضاري²⁰، "إنما هو أمر اعتباري ويستعمل في المحسوس وفي المعقول، ولكن استعماله في المحسوس أكثر؛ مثاله في المعقول قوله تعالى: ﴿قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (النساء: 167)"²¹.

ثالثاً: البعد في القرآن الكريم .

جاء البعد في القرآن الكريم للدلالة على عدة معان، كما أن لفظ بُعْد أخذ أشكالاً كانت كما يلي:

- ذكر لفظ بعيد وهو خلاف القرب في خمس وعشرين (25) موضعاً من القرآن الكريم، يقول عَجَلًا: ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ (إبراهيم: 3)، والبعد المذكور في الآية جاء للدلالة على البعد الموهوم الغير حسي، وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَتَدَوَّنُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ (فصلت: 44)، يقول ابن عباس: "سألوا الرد حين لا رد، وقيل من مكان بعيد: من الآخرة إلى الدنيا"²².

- وجاء بلفظ بُعْد مرة واحدة في قوله سبحانه: ﴿فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ (المؤمنون: 44)، وكان بُعْدًا ست مرات (06)، لقوله تعالى: ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (المؤمنون: 41)، وجاء أيضاً في قوله تعالى: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّلْمَدِينِ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ﴾ (هود: 95). بمعنى الهلاك، وكان بلفظ بَعَدَتْ مرة واحدة، والمستقرئ لآي القرآن الكريم، يلاحظ أن استعمال القرآن الكريم للفظ البعد، كان بُعْدًا،

¹⁹ - يوسف خياط، معجم المصطلحات العلمية والفنية، دار لسان العرب، بيروت، (د.ت)، ص 69، وينظر: نديم مرعشلي وأسامة مرعشلي، الصحاح في اللغة والعلوم، دار الحضارة العربية، بيروت، ط 1، 1974م، ص 100.

²⁰ - ينظر: لاروس، المعجم العربي الأساس، ص 165، 166.

²¹ - الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ص 165، مادة (ب.ع.د)، وينظر: الراغب الأصفهاني: أبو القاسم الحسين بن محمد بن الفضل الراغب، معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم، ت: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط 3، 1423هـ/2002م، ص 133.

²² - ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، دار طيبة، الرياض المملكة العربية السعودية، ط 2، 1420هـ/1999م، 131/4.

ككْرُم أي تباعد فهو بعيد، قال تعالى: ﴿ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ (النساء: 167) ، وقوله أيضا:
 ﴿ ذَلِكْ بَأَنَّ اللّٰهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ (البقرة: 176)،
 واللفظ هنا جاء للدلالة على أن الضلال والكفر أمر بعيد عن فطرة الإنسان، ومن دنا منه من
 الناس كان في عذاب بعيد يصعب الرجوع منه، ولا أدل على ذلك من أن يقال: بعد بعدا، والبعد
 أكثر ما يقال في الهلاك .

- أما لفظ قريب فقد جاء أكثر ذكره في القرآن الكريم للدلالة على قرب المؤمن من الجنة،
 وقرب الله سبحانه وتعالى من عباده المؤمنين، قال ﷻ: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ
 أُجِيبُ دُعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (البقرة: 186)، وقوله ﷻ:
 ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَكَمَا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ
 وَزَلُّوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللّٰهَ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللّٰهِ قَرِيبٌ ﴾ (البقرة: 144).

رابعا: تعريف البعد في سياق البحث:

والبعد في مفهوم البحث واستخدامه لهذا اللفظ يأتي من المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي
 للفظ البعد، فالبعد هنا هو نتيجة الفعل العظيم الذي تحقق من خلاله أثر امتد في الزمان والمكان
 ولم يقتصر على فترة زمنية ولا مكان واحد، ولكنه امتد على طول التاريخ الإنساني وفتراته.

المطلب الثاني: تعريف التاريخ.

على اعتبار أن التاريخ علم، تحكمه قواعد منهجية، فإن تحديد مفهومه كمصطلح يرتكز على عناصر مهمة، ولهذا فإن لفظة "تاريخ" تحتاج إلى وضعها في الإطار المستخدم من أجل تحديد مفهوم يتلاءم مع موضع الكلمة وسياقها في هذا البحث، أولاً تحديد المفهوم اللغوي، ثم البحث عن إصطلاحات هذه الكلمة، وأخيراً التركيز على المعنى الإصطلاحي للتاريخية من حيث دورها في عنوان هذا البحث.

أولاً: التاريخ لغة.

التاريخ تعريف الوقت مطلقاً

والتاريخ مثله، وأرخت الكتاب بيوم كذا، وَوَرَّخْتُهُ بمعنى²³، والتاريخ قليل الاستعمال. وتاريخ كل شيء غاية ووقته الذي ينتهي إليه، يقال: فلان تاريخ قومه أي إليه ينتهي شرفهم ورياستهم²⁴. وتاريخ المسلمين، أرخ من زمن هجرة النبي صلى الله عليه وسلم، ثم كتب في خلافة عمر رضي الله عليه وصار تاريخاً إلى اليوم²⁵.

التاريخ عرفاً:

تعيين وقت لينسب إليه زمان يأتي عليه، وقيل تعريف الوقت بإسناده إلى أول حدوث أمر شائع من ظهور ملة أو دولة، أو أمر هائل مما يندر وقوعه، حيث يكون مبدأ للمعرفة بأن هذا الحدث وغيره من الحوادث، وقيل عدد الأيام والليالي مما مضى من السنة والشهر وإلى ما بقي²⁶.

²³ - الجوهري، الصحاح، 4/1، مادة (أ.ر.خ).

²⁴ - ينظر: الزبيدي، تاج العروس، 250/2، مادة (أ.ر.خ)، وجميل صليبا، المعجم الفلسفي، 227/1.

²⁵ - ابن منظور، لسان العرب، 44/1، مادة (أ.ر.خ).

²⁶ - المعلم بطرس البستاني، دائرة المعارف، دار المعرفة، بيروت، لبنان، (د.ت)، 9/6، بتصرف.

علم التاريخ:

هو مصطلح من مصطلحات الثقافة العلمية، الخاص بتدوين ضروب الحوادث الحولية²⁷ ومعرفة تراجم الرجال وسيرهم، فهو: " معرفة أحوال الأمم وبلدانهم ورسومهم وعاداتهم وصنائعهم وأنسابهم وأفرادهم ووفياتهم إلى غير ذلك"²⁸.

ثانياً: المعنى الإصطلاحي:

لفظة تاريخ استعملت في الإصطلاح للدلالة على معنيين مختلفين:

الأول: تستعمل ويراد بها مضمون المادة التاريخية .

والثاني: يطلق ويراد به طريقة التعامل مع هذه المادة. ومن خلال هذين الإطلاحين، وكيفية استخدام لفظة تاريخ، أدى الأمر إلى خلط في فهم معنى هذا المصطلح، يقول شريعتي: " يوجد تناقض لفظي في موضوع التاريخ كما هو الملاحظ في كل من اللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية، مفهومان مختلفان عن بعضهما للدلالة على كلمة واحدة ... أما في التاريخ فالمفهومان (موضوع التاريخ) و(علم التاريخ) إشتراكاً بلفظة واحدة وهي (التاريخ) لبيان مدلولاتهما"²⁹. ونتيجة لهذه الإزدواجية حاول مجموعة من الباحثين ضبط هذا المصطلح، منهم قاسم عبده الذي تكلم عن عملية تدوين التاريخ كعملية فكرية إنشائية، وهناك إطلاقات أخرى منها "تفسير التاريخ" و "فلسفة التاريخ"، والملاحظ أن هذه المصطلحات تطلق ويراد بها الاستخدام، وكيفية فهم المادة التاريخية؛ أي معرفة المادة التي يراد إطلاق مصطلح تاريخ عليها، يقول ابن خلدون: " في ظاهره لا يزيد على إخبار عن الأيام، والدول والسوابق من القرون الأولى، تنمو فيها الأقوال، وتضرب فيها الأمثال، وتؤدي إلينا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال ... وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبادئها، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق ..."³⁰.

27 - دائرة المعارف الإسلامية، يصدرها باللغة العربية: أحمد الشنتاوي، إبراهيم زكي حورشيد، عبد الحميد يونس، دار المعرفة، بيروت، لبنان،

(د.ت)، 4/483.

28 - المعلم بطرس البستاني، دائرة المعارف، 6/9.

29 - علي شريعتي، الإنسان والتاريخ، ترجمة خليل علي، دار الصحف للنشر، طهران، إيران، ط1، 1211 هـ، ص 15.

30 - ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد، المقدمة، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، ط 2، 1996م، 7/1.

فالتاريخ عند ابن خلدون هو أداة ومضمون، وهو من ناحية أخرى طريقة التعامل مع هذه المادة، التي أخذت إطلاقات مختلفة عند الباحثين.

التاريخ في اللغة هو الوقت، وتاريخ الشيء وقته وغايته، والتاريخ علم يبحث في الوقائع التاريخية والأحداث الماضية، فالتاريخ خبر وواقع مضى، وهو أيضا الطريقة المثلى في دراسة تلك الوقائع الماضية من التاريخ الإنساني.

وحقيقة التاريخ هي: أنه خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل: التوحش والتأنس، والعصبيات، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعدتهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع، وسائر ما يحدث في ذلك العمران³¹.

³¹ - ابن خلدون، المقدمة، ص57، بتصرف.

المطلب الثالث: تعريف الرسالة:

أولاً: المعنى اللغوي:

الرسالة لفظ يطلق ويراد به المضمون، وتطلق أيضا ليراد بها عملية توصيل مضمون الرسالة. الرُّسْلُ في اللغة يدل على الاسترسال واللين، وكذا على الانبعاث والامتداد³². فالرُّسْلُ: السير السهل وناقاة رسالة: لينة المفاصل³³. والرُّسْلُ: اللين؛ وقياسه ما ذكرناه، لأنه يترسل من الضرع³⁴. ويقال اء القوم أرسالا يتبع بعضهم بعضا، وجاءوا رِسْلَةَ رِسْلَةَ، أي جماعة جماعة³⁵. يقول الجوهري: "وأرسلت فلانا في رسالة، فهو مرسل ورسول، والجمع رُسْلٌ ورُسْلٌ"³⁶.
لقد كذب الواشون ما بحت عندهم بسر ولا أرسلتهم برُسُولٍ³⁷.

تحت هذه المعاني كان لفظ الرسالة يدل على مضمونها ومحتواها، وجمعها رسائل، أما الرسول والمرسل فهو الحامل لهذا المحتوى إلى هة أخرى، وقد حمل هذا اللفظ دلالة الرف والتؤدة من الرُّسْلُ والرِسْلَةَ. واللفظين يحملان المعنى ذاته فالرسالة هي الرسول، كما جاء في بيت كثير، لأنه أراد "برسول" أي لم أرسلهم برسالة، يقول الأنباري: "الرسول معناه في اللغة الذي يتابع أخبار الذي بعثه، أخذنا من قولهم جاءت الإبل رسلا أي متتابعة".
ويحمل أيضا معنى توالي بعث الرُّسْلُ إلى القوم، من وجهت إليك رُسْلا أي أرسالا متتابعة واحدا رَسَلٌ³⁸.

32 - ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، 392/2، مادة (ر.س.ل).

33 - ينظر: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، مادة (ر.س.ل)، وابن عباد، المحيط في اللغة، 303/8، مادة (ر.س.ل).

34 - ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، 292/2، مادة (ر.س.ل).

35 - ابن سيده، المحكم والمحيط، 473/8، مادة (ر.س.ل).

36 - الجوهري، الصحاح، 522/4، مادة (ر.س.ل).

37 - البيت من الطويل وهو لكثير في ديوانه، ص110، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، 283/11.

38 - ابن عباد، المحيط في اللغة، 304/8، مادة (ر.س.ل).

ثانياً: المعنى الإصطلاحي:

جاء في المعنى اللغوي للفظ الرسول، أنه يأتي بمعنى الانبعاث، وإما مشتق من الرّسل وهو التابع، فالرسول هنا هو المبعوث من الله تعالى إلى قومه، وهو الذي يتابع أخبار الوحي المنزل إليه. وبما أن المفهوم يتعلق بالمعنى الشرعي، فهناك اختلاف في تحديد مفهوم للنبي والرسول والعلاقة بينهما، وكذا الفرق بينهما. إلا أن هناك إجماعاً يكاد يكون قريباً ...

فرسول الله هو الذي: "أرسله الله تعالى إلى خلقه برسالاته وعرفه ما يبلغه إلى خلقه من أحكام عباداته ووعده ووعيده وثوابه وعقابه"³⁹

من خلال الإطلاقات اللغوية المذكورة للفظ الرسول:

(الرّسل) بمعنى الاسترسال واللين، الانبعاث والامتداد، (أرسّالاً) بمعنى التابع، (الرّسل)

اللين قياساً على الاسترسال.

فالرسالة هي ذلك التشريف العظيم من الله سبحانه وتعالى لعبده المصطفى، يحمل هذه القضية الشرعية إلى قوم من الأقسام، عبر امتداد الأزمان، بتتابع الأخبار والتشريعات التي يتلقاها الرسول عن الله تعالى وتبليغها لقومه في لين ويسر وسهولة ورفق.

وهذا يدل على تتابع خبر الله تعالى في الأرض منذ وجود الخليقة، بإرسال الأنبياء والرسل عبر مختلف المراحل الزمانية والإمتدادات المكانية .

³⁹ - سميح دغيم، موسوعة مصطلحات علم الكلام الإسلامي، مكتبة لبنان، ط1، 1998م، 615/1.

المطلب الرابع: تعريف السيرة:

أولاً: المعنى اللغوي:

السيرة ، السير، وهو مدار البحث الذي بنيت عليه جميع المصطلحات المكونة لعنوان البحث المدروس. والسيرة لفظ يدور على معنيين: الطريقة والهيئة .
وبما أن السيرة إسم من السَّير : سَارَ يَسِيرُ سَيْراً، وسَارَ الدابة يسيرها: أي سَيرها⁴⁰ والمراد: التوجيه السليم للدابة في مسيرتها أو طريقها . ثم إنتقل المعنى إلى الطريقة، سار بهم طريقة حسنة⁴¹ .
والسيرة أيضاً: الهيئة⁴² قال الراغب الأصفهاني: "السيرة: الحالة التي يكون عليها الإنسان وغيره غريزيا كان أو مكتسبا، يقال: فلان له سيرة حسنة وسيرة قبيحة"⁴³ .

وجاءت في القرآن الكريم للدلالة على الحالة السابقة، قال **عَلَّامٌ**: ﴿سَنَعِدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ (طه:21)؛ أي الحالة التي كانت عليها من كونها عودا.
السيرة أيضا: السنة، فلان يَسْتَارُ بكذا: أي يَسِيرُ به ويستن⁴⁴ .
يقول خالد بن زهير:

فلا تجزعن من سنة أنت سِرَّتْهَا فَأَوْلُ رَاضٍ سُنَّةً مَن يَسِيرُهَا⁴⁵ .

الأصل الذي اشتقت منه السيرة هو " سير " ويراد به سلك أو الذهاب في الأرض، ثم انتقل إلى معنى آخر وهو طريقة الحياة، أو السنة التي يسير عليها الإنسان، وهذا التطور الذي عرفه اللفظ

40 - ابن عباد، المحيط في اللغة، 375/8، مادة (س.ي.ر).

41 - الجوهري، الصحاح، 37/2، مادة (س.ي.ر)، ينظر: ابن فارس، مجمل اللغة، 480/1، ابن منظور، لسان العرب، 1/ 643، 644، مادة (س.ي.ر)، والتهانوي، كشف اصطلاحات الفنون، 255/2.

42 - ابن سيده، المحكم والمحيط، 573/8، مادة (س.ي.ر).

43 - الراغب الأصفهاني: أبو القاسم الحسين بن محمد بن الفضل الراغب، معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1418هـ/1997م، ص283، 284 .

44 - ابن عباد، المحيط في اللغة، 376/8، مادة (س.ي.ر).

45 - البيت من الطويل وهو لخالد بن زهير في شرح أشعار الهذليين ص213، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، 390/4، مادة (س.ي.ر).

جاء ليعبر عن طريقة الناس في أحوالهم العامة، ثم انتقل إلى المعنى الشرعي، وهو حياة النبي ﷺ أو الترجمة المأثورة لحياة الرسول محمد عليه الصلاة والسلام.⁴⁶

ثانياً: المعنى الإصطلاحي:

السير جمع سيرة، وقد غلب استعمالها في التاريخ للدلالة على أحوال الناس، وأخبارهم العامة، ثم استخدم لفظ سير للدلالة على أحوال النبي، في زمن محمد بن مسلم الزهري كما ذكر الأصبهاني في كتابه⁴⁷، بعد أن كان لفظ المغازي هو الغالب في استعمال المسلمين، "المصطلح سير يجيء في جل الإشارات التي لدينا عن المؤلفات العربية الأولى الخاصة بترجمة حياة النبي ﷺ، مقترنا دائما بلفظ المغازي"⁴⁸.

والمغازي هي الصورة الأولى للدلالة على حياة النبي ﷺ قبل البعثة النبوية، وإلى انتقاله إلى الرفيق الأعلى، والمغازي سميت سيرا لأن أول أمورها كان السير نحو الغزو.

والسيرة جاءت في الاصطلاح بتعاريف عدة نذكر منها:

1- السيرة هي الترجمة المذكورة لحياة النبي ﷺ⁴⁹، وظهر استخدام لفظ سيرة في أشهر مؤلف للسيرة النبوية، وهو السيرة النبوية لابن هشام، وهناك مصدر أول تحدث عن حياة النبي عُرف بالمغازي للواقدي، ثم إنتقل هذا اللفظ عند المتأخرين للدلالة على فصل من فصول السيرة النبوية يختص بأخبار غزوات ومعارك النبي ﷺ وأصحابه في العهد المدني.

2- هي الحديث عن نشأة النبي ﷺ، وذكر آياته، وما سبق حياته من أحداث لها صلة بشأنه، وحياة أصحابه الذين أبلوا معه في إقامة الدين وحملوا رسالته.

3- جاء في اللغة أن السيرة: السنة من سارت سيرتها، والسنة في الإصطلاح: "هو ما أثر عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو وصف"⁵⁰، وبما أن سيرة الرسول ﷺ هي ترجمة لهذه المظاهر في صور تطبيقات عملية فهي جزء من السنة النبوية.

46 - دائرة المعارف الإسلامية، يصدرها باللغة العربية: أحمد الشنتاوي، إبراهيم زكي حورشيد، عبد الحميد يونس، 439/12.

47 - أبو الفرج الأصبهاني، الأغاني، 59/19.

48 - دائرة المعارف الإسلامية، 440/12.

49 - ينظر: دائرة المعارف الإسلامية، 439/12.

50 - مصطفى السباعي، السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، المكتب الإسلامي، دار الرواق بيروت، لبنان، ط1، 1421هـ/2000م، ص 47.

فحياة النبي محمد عليه الصلاة والسلام هي التفسير الحقيقي للرجل الذي قال فيه الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم:04)، لأن مجموع الأخلاق والصفات المميزة التي عرف بها النبي عليه الصلاة والسلام جعلته الصادق الأمين بين قومه، ومكنته من العمل المتواصل وفق المنهج الرباني لتبليغ رسالة الله تعالى، التي كانت خاتمة الرسالات في الأرض. فكان محمد ﷺ النبي المرسل من الله تعالى يحمل بين يديه آخر معجزة في الأرض، والتي كانت قرآنا عربيا مبينا يشهد بالإعجاز والتحدي في كل عصر وحين.

من خلال ما تقدم في هذا المدخل وبيان مفاهيم البحث الأساسية نجد أن: الموضوع المدروس يتحدث عن الفعل الذي جاءت به السيرة النبوية لتحقيق الأثر العظيم في التاريخ الإنساني، وهذا الفعل امتد أثره في التاريخ الإسلامي إلى اليوم، فالعنوان يتحدث عن الفعل التاريخي الممتد والذي يحققه العمل الرسالي الذي جاء به النبي محمد ﷺ وتابع العمل فيه منذ البعثة النبوية إلى انتقاله إلى الرفيق الكريم.

"البعث التاريخي والرسالي للسيرة النبوية في القرآن الكريم"

جاء العنوان على هذا النحو لبيان ذلك التداخل بين البعدين التاريخي والرسالي، لأن مفهوم البعث في هذا الموضوع هو الأثر الممتد الذي لم يقتصر على فترة زمنية معينة، بل كان فعلا ممتدا لتحقيق الأمور العظيمة في التاريخ الإنساني:

- التوحيد ضد الشرك.

- والنبوة أمام الاستبداد والاستكبار.

- والرسالة الربانية أمام الدساتير والقوانين الوضعية .

كل ذلك للوصول إلى الأمة المسلمة التي تبني حضارة العبادة لله تعالى والاستخلاف في الأرض. والبعث الرسالي هي جميع الإنجازات المذكورة التي حققها النبي ﷺ وسار عليها الخلف الصالح.

الباب الأول: محطات السيرة النبوية في القرآن الكريم

تمهيد:

الشعوب القديمة عرفت بروز شخصيات عظيمة في إدارة الممالك والدول ، وقد عُرف هؤلاء الحكماء بالعظماء والأبطال، وكانت لهم سير مليئة بالإنجازات السياسية والعسكرية، وحتى الثقافية والعلمية، وكان لكل شخصية طريقة سنها للحياة حتى تمكنه من البروز في مجال من المجالات الحياتية، وسياسة دولة، أو بناء أمة .

وهكذا كانت سيرة النبي ﷺ، ترجمة لمنهج حياة متكامل، كان يحمل الأسس العظيمة قبل البعثة النبوية، التي جعلت منه الشخصية الهامة لتكوين أعظم أمة في التاريخ الإنساني.

السيرة النبوية ليست طريقة حياة فقط، بل هي منهج رباني متكامل، جسده النبي ﷺ في حياته البشرية والنبوية معا، عن سعد بن هشام بن عامر قال: أتيت عائشة، فقلت: يا أم المؤمنين أخبريني بخلق رسول ﷺ، قالت: ﴿ فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ الْقُرْآنَ ﴾¹ .

لقد اصطفى الله ﷻ بشرا من خلقه، وجعلهم أنبياء ورسلا لتبليغ رسالته إلى الناس أجمعين، وهي رسالة التوحيد، قال تعالى: ﴿ مَرْسَلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (النساء: 165) ، فكان الرسل والأنبياء أئمة للخلق على مر العصور واختلاف الأزمان، منذ سيدنا آدم عليه السلام، وختاما بسيدنا محمد ﷺ، الذي كانت سيرته ميزانا صادقا للبشرية في أعمالها وعبادتها، ومن خلال جيل الصحابة نُقلت سيرة سيد البشرية إلى الأجيال المتوالية بأدق تفاصيلها وميزاتها عن طريق الرواية، إلى أن جمعت في مؤلفات ضخمة تزخر بها المكتبة الإسلامية اليوم، وهذه المرجعية التاريخية لمصادر السيرة النبوية يتصدرها دائما القرآن الكريم: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ (يوسف: 03)، وسيرة النبي ﷺ من بين أحسن القصص في القرآن الكريم، حيث يورد الله تعالى الأخبار دون التفاصيل التي لا

¹ - رواه مسلم في صحيحه، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض، رقم: 746، 169/2، والنسائي في السنن، كتاب: الصلاة، باب: كيف الصلاة في شهر رمضان، رقم: 1641، 244/1، النسائي: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب، السنن الكبرى، ت: حسن عبد المعتم شليبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1421هـ/2001م، رواه أحمد بن حنبل في مسنده، رقم: 24150، 277/17، ورقم: 24482، 379/17، ورقم: 25178، 26689. ابن حنبل: أحمد بن محمد بن محمد بن حنبل، المسند، ت: حمزة أحمد الزين، دار الحديث، القاهرة، ط1، 1416هـ/1995م، والدارمي، السنن، كتاب: الصلاة، باب: صلاة رسول الله ﷺ، رقم: 1516، 924/2، والدارمي: أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام، مسند الدارمي المعروف بـ(سنن الدارمي)، ت: حسين سليم أسد، دار المعني، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، 1421هـ/2000م .

تفيد القصة؛ لأن الغرض ليس السرد القصصي، وإنما الفائدة والعبرة من الحادثة التي تخدم الهدف الأساسي للقرآن الكريم، وهو تعريف الخلق بخالقهم وربطهم به.

القرآن الكريم يحمل بين دفتيه دستور الحياة الربانية التي ارتصاها الله سبحانه وتعالى لعباده، فهو ليس كتاب تاريخ، أو موسوعة علمية، أو اجتماعية، بالرغم من وجود هذه المضامين في آياته وسوره، فهو كتاب الله لخلقه قال عَلَيْكَ: ﴿الْم، ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا مَرِيبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: 1-2).

فهو كتاب هداية للبشر أشار إلى الإنسان وتفاصيل حياته، والكون وأفقه، والتاريخ وأطواره، قال تعالى: ﴿مَا فَزَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ (الأنعام: 38)، فالكثير من الأحداث التاريخية وسير الأنبياء والرسل جاء ذكره في هذا الكتاب المقدس، منذ آدم عليه السلام إلى خاتم المرسلين محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ وَأَخْرَجْنَا مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (الجمعة: 2-4).

وباشتمال القرآن الكريم على مختلف الموضوعات، من تاريخ وقصص، وعلوم وتشريعات، وآيات كونية وطبيعية، إلا أنه لا يمكن وصفه بأنه موسوعة علمية، أو كتاب تاريخ، بل وحتى موسوعة تشريعية، لأنه كتاب هداية وإرشاد للإنسانية، جاء من أجل تشريع رباني حياة فاضلة للخلق "كتاب هداية وإرشاد لا دائرة معارف علمية تفصيلية"²، ومجموع القصص التاريخي عن الأنبياء لم تذكر في القرآن الكريم من أجل السرد التاريخي، لأن الكثير من الأحداث التي توردها كتب التاريخ والسير لم يرد ذكرها في القرآن الكريم، "نادرا ما يتحدث القرآن عن تاريخ (محمد) الإنسان: إن آلامه العظمى أو مسراته لم ترد فيه قط ولو تخيلنا النازلة التي أصابته في أوج دعوته لفقد عمه وزوجه لأدركنا مدى الدوي الرهيب لحدث كهذا، في حياة (رجل) كان حتى آخر لحظاته يبكي خديجة وأبا طالب عندما كان إسماهما يذكران أمامه، وعلى الرغم من هذا لا نجد أي

² - علي عبد العظيم، فلسفة المعرفة في القرآن الكريم، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، 1973م، ص11.

صدى لموتهما في القرآن، بل ولا اسم الزوجة الحانية، الزوجة التي تقبلت في حجرها انبثاق الإسلام الوليد³، هذا لأن منهج القرآن الكريم الإعجازي يهدف إلى أداء المقاصد الشاملة لحاجات الأفراد والمجتمعات.

والحديث عن شخصية النبي ومراحل سيرته الشخصية والنبوية كان منوعا وأخذ مساحات واسعة في القرآن الكريم، كما أخذ ميزات مختلفة عن الأنبياء السابقين. والحديث عن مختلف هذه المحطات التاريخية لحياة النبي ﷺ جاء بتقسيمها إلى مرحلتين، حددتها الضرورة المنهجية للبحث، وكذا الترتيب المنطقي كما جاء في كتب التاريخ والسير .
أولا: مرحلة الإعداد الإلهي (قبل البعثة النبوية).
ثانيا: البعثة النبوية.

³ - مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، سورية، دار الفكر، الجزائر، ط4، 1987م، ص196.

الفصل الأول: مرحلة الإعداد الإلهي (قبل البعثة النبوية).

المبحث الأول: محمد ﷺ في الكنب السابقة.

المطلب الأول: الكذب السماوية.

خلق الله سبحانه وتعالى هذه الأرض في أحسن صورة، ثم اختار أن يستخلف فيها بشرا من طين، ليكون هذا الإنسان خليفة الله تعالى في الأرض، والعبادة الخالصة لله تعالى. وكانت سنته سبحانه وتعالى منذ خلق آدم عليه السلام وتوالي نسله في هذه الأرض، إرسال رسل مبشرين ومنذرين إلى البشرية، وكلمتا طال عليها الأمد جاء من يذكرها بأصلها الثابت، ودينها الواحد وطريق الله الواحد. قال ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل: 43).

وهذه حكمة الله تعالى أن يكون جميع الرسل والأنبياء بشرا، حتى يسهل اتصافهم بالإنسانية ويجري على الرسل ما يجري على الأقسام المرسلين إليهم، "ومن هنا كانت آيات القرآن الكريم تترى مؤكدة بشرية الرسول، وأنه إنسان إصطفاه الله على علم، وهو أعلم بمن خلق، لحمل رسالته الإنسانية وتبليغها للناس"⁴.

وتتوالى الرسائل السماوية تباعا، يختار فيها الله تعالى عبدا من عباده الأصفياء ليرسله رسولا إلى قومه، ليخرهم من الظلمات إلى النور، إلى أن بلغت الرسالة الخاتمة التي حملها النبي إلى العالمين، دون تفريق أو تحديد لجنس معين، بعد أن طال العهد بالناس في العالم كله عن التوحيد الخالص لله تعالى، ومست الوثنية أصقاع عديدة، وأخذت أقوام أخرى ببقايا الديانات السماوية السابقة بالرغم مما مسها من التحريف والتصحيف وحتى الكذب، فكان محمد ﷺ آخر الأنبياء عهدا برسالات السماء إلى العالم أجمع، قال ﷺ: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكُفْرَهُ الْمُشْرِكُونَ﴾ (الصف: 09)

4 - محمد علي الهاشمي، شخصية الرسول ودعوته في القرآن الكريم، عالم الكتب، بيروت، ط3، 1403هـ/1983م، ص14.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَالْأَنْبِيَاءِ إِخْوَةٌ لِعَلَّتْ أُمَّهَاتُهُمْ شَتَى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ﴾⁵، والمعنى أن الأنبياء جميعاً إخوة لأب واحد، وأمّهات شتى، جاءوا بدين واحد لتبليغ عقيدة واحدة، وإن اختلفت الشرائع والفروع بعد ذلك . والرسالات السماوية كانت تحمل في مضامينها بشارة بنبي مُستقبل، الذي تنتهي عنده الرسالة وتكون الخاتمة والناسخة لما سبقها من الأديان، " كانت بعثة الرسول محمد ﷺ إمتداداً لرسالات الله إلى البشر، وإختتاماً لدينه الواحد، الذي عرضت جوانبه الرسالات السابقة، بما يتناسب ورشد الأمم، والعصور التي عاشت فيها وما إكتنفها من ظروف وملابسات"⁶.

الفرع الأول: أهل الكتاب:

وردت عدة أخبار في كتب اليهود والنصارى، تشير إلى بعثة نبي خاتم، وتحمل أوصافه وميزاته، وأبرز ما جاء في التوراة، دليل على قرب موعد ظهور نبي آخر الزمان، وكذلك بعض أوصاف هذا النبي وميزاته وزمن بعثته، وقد ذكر القرآن الكريم ذلك في مواضع عدة.

قال الله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (الصف: 06)، وقال: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ مِرْحَمًا بِمُؤْمِنِيهِمْ تَرَاهُمْ مَرْكَبًا سَجْدًا يَتَّعُونَ فَضلاً مِنَ اللَّهِ وَمَرْضوانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ لَكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ﴾ (الفتح: 29).

وبالرغم من التحريف الذي طال كتب اليهود، وخاصة فيما يتعلق بأوصاف هذا النبي، والبشارة بقرب مبعثه إلى الإنسانية جمعاء، " لم يح ذلك ما فيها من إشارات بينات واضحات إلى

⁵ - رواه البخاري في صحيحه، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قول الله: ﴿وَإِذْ كُنَّا فِي الْكُتُبِ مَرَّامًا إِذْ أَنْبَأْتُ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ (مریم: 16)، رقم: 3187، 260/11. البخاري: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، ت: محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية ومكتبها، القاهرة، ط1، 1403هـ.

⁶ - محمد علي الهاشمي، شخصية الرسول ودعوته في القرآن الكريم، ص114.

رسالته عليه السلام مما جعل اليهود يعرفونه على وجه اليقين، كما يعرفون أبناءهم، واستفتحهم على المشركين به قبل أن يُبعث⁷.

والقرآن الكريم يقرر أن أهل الكتاب هم من يملك الدليل على نبوة محمد ﷺ، ويقرؤون ذلك في كتبهم المقدسة، فهم أولى الأقوام بتصديق هذا النبي والإيمان بدينه، لأنهم عرفوا رسالات السماء، والناموس الذي يحمل هذه الرسالات، فهم أحرى الناس بمؤازرة الرسول ﷺ في حربه ضد مشركي قريش، وعبدة الأوثان.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الأعراف: 156-157).

والآية صريحة في وجود الدليل المادي على بعث النبي الرسول، يأمر بشريعة الله في الأرض، من أمر بالمعروف ونهي عن المنكر، وحل الطيبات وتحريم الخبائث...، إلا أن أهل الكتاب جحدوا أمر هذه الرسالة وحاولوا إخفاءها، "وكان أمر النبوة معروفا لدى الخاصة والعامة من اليهود الذين انتظروا جيلا بعد جيل ظهور نبي مثل موسى⁸.

أولا: النبي ﷺ في التوراة:

من النصوص التي تدل على نبوة محمد ﷺ مما نجده في التوراة ما يلي:

1- جاء على لسان موسى عليه السلام قوله: "أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به"⁹. النص يتحدث صراحة عن النبي ﷺ، والمقصود بإخوتهم هم أبناء إسماعيل عليه السلام، ولم يوجد نبي بعد موسى عليه السلام في تعاقب الأنبياء إلى سيدنا عيسى عليه السلام من ادعى أنه النبي الموعود في هذه النبوة، ولا يمكن لأنبياء بني إسرائيل أن

⁷ - محمد أبو زهرة، خاتم النبيين ﷺ، الدوحة، قطر، 1400هـ/1980م، ص93.

⁸ - محمد بن محمد أبو شهبة، السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، دار القلم، دمشق، ط5، 1419هـ، 1999م، 1/249.

⁹ - سفر تثنية الإشتراع، الإصحاح 18، الفقرة 18.

حملوا خلافة هذا النبي لأنه ليس فيهم أحد مثله، وهم جاءوا من أجل تنفيذ شريعة بني إسرائيل، وهم لا ينتمون إلى سلالة إسماعيل عليه السلام.

2- حوار دار بين يحيى عليه السلام والقوم الذين وفدوا عليه يسألوه: "من أنت؟ . فاعترف ولم ينكر، وأقر أنني لست المسيح. فسألوه: إذن ماذا؟ إيليا أنت؟ . فقال: لست أنا. ذلك النبي أنت؟ فأجاب: لا ، فقالوا: ما بالك إذن تعمد إذ كنت لست إيليا، ولا المسيح، ولا النبي." ¹⁰ .
اليهود كانوا يترقبون دائما ظهور ثلاثة أنبياء: إيليا، وثانيهم المسيح، وثالثهم نبي ذو شهرة إلى درجة رأوا معها أنه لا يمكن وصفه بأي صفة أخرى (ذلك النبي)، ومن النص يظهر أن هذا النبي هو سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام.

3- ونص آخر يبشر بمبعث نبي جديد، "إن الرب جاء من سيناء ونهض من ساعير لهم، وسطع من جبل فاران، وجاء من عشرة آلاف قديس وخرج عن يمينه نار شريعة لهم" ¹¹ . وفاران منطقة بمكة ورد ذكرها كثيرا في نصوص التوراة، موسى النبي الذي جاء من سيناء، والنهوض من ساعير إشارة إلى عيسى عليه السلام، والسطوع من جبل فاران إشارة إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ومن خلال هذا النص فإن عشرة آلاف المذكورين هم محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه عندما خرجوا في غزواتهم إلى مكة والشام فقد بلغوا هذا العدد.

4- نص آخر يدل على بشارة أخرى بالنبي صلى الله عليه وسلم في كتب اليهود: " قال لي الرب: قد أحسنوا في ما تكلموا. أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم، مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به، ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي لا يتكلم به باسمي أنا أطلبه. وأما النبي الذي يطغى، فيتكلم باسم آلهة أخرى، فيموت ذلك النبي. وإن قلت في قلبك كيف نعرف الكلام الذي لم يتكلم به الرب؟ فما تكلم به النبي باسم الرب، ولم يحدث ولم يصر، فهو الكلام الذي لم يتكلم به الرب، بل بطغيان تكلم به النبي، فلا تخف منه" ¹² .

¹⁰ - سفر يوحنا الإصحاح الأول، الفقرة 19-21.

¹¹ - تثنية الاشرع، الإصحاح 23، الفقرة 1.

¹² - سفر التثنية، الإصحاح، 18، الفقرة، 17-22.

3- عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص - وكان يقرأ التوراة - فقلت: أَخْبَرْتَنِي عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي التَّوْرَةِ قَالَ: ﴿ أَجَلُ وَاللَّهِ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي الْقُرْآنِ ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ .
 وَحِرْزًا لِلْأُمِّيِّينَ أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي سَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكَّلَ لَيْسَ بَفِظٍ وَلَا غَلِيظٍ وَلَا سَخَابٍ¹³ فِي الْأَسْوَاقِ وَلَا يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ وَلَكِنْ يَغْفُو وَيَغْفِرُ وَلَنْ يُقْبِضَهُ اللَّهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعُوجَاءَ بِأَنْ يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَيُفْتَحَ بِهَا أَعْيُنًا عُمِيًّا وَأَذَانًا صُمًّا وَقُلُوبًا غُلْفًا¹⁴ .

"وهذه هي البركة التي بارك بها موسى رجل الله بني إسرائيل قبل موته، فقال: جاء الرب من سيناء، وأشرق لهم من سعير وتلاًلاً من جبل فاران، وأتى من ربوات القدس وعن يمينه نار شريعة لهم"¹⁵.

هذه النصوص من كتب التوراة، تثبت ذكر النبي ﷺ في الكتب السماوية، وتبشير الأنبياء عليهم السلام به، مع دعوة أقوامهم إلى إتباعه وعدم الإعراض عنه، وهي حجة ثابتة على نبوته .
 هذا الدليل الثابت على نبوة الرجل، الذي أدركه اليهود من خلال النصوص التوراتية التي تُبشر بقدوم نبي جديد في الجزيرة العربية، وأماراته وأوصافه الخلقية والخلقية، إلا أنهم أنكروا كل هذا وكذبوا محمد ﷺ، وأنكروا وجود ذلك في كتبهم، "ومع أن اليهود والنصارى قد حرفوا التوراة والإنجيل ولا سيما فيما يتصل بالنبي من أوصاف وبشارة فقد بقي من نصوصهما نبوءات تدل على البشارة بالنبي وبعضها يكاد يكون نصاً في هذا"¹⁶ .

كانت نصوص القرآن الكريم الشاهد الوحيد على كذب اليهود، وادعائهم تكذيب ما جاء في التوراة، لأن القرآن الكريم هو الكتاب الذي يحمل أخبار التاريخ مفصلة ودقيقة عن الأزمنة الغابرة؛ ويذكر مختلف الديانات السماوية التي سبقته، ويشد على حبل الوصال بين هذه الديانات.

¹³ - السَّخْبُ وَالصَّخْبُ: بفتح السين أو الصاد المهملتين مع فتح الحاء المعجمة الصياح، وهو اضطراب الأصوات للخصام، وقال ابن فارس: الصاد والحاء والباء أصل صحيح، يدل على صوت عال من ذلك الصخب، الصوت والجلبة، ولم يذكره في السين، ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، 336/3، وقال ابن منظور: الصاد والسين يجوز في كل كلمة فيها حاء، ابن منظور، لسان العرب، 444/1.

¹⁴ - رواه البخاري في صحيحه، كتاب: البيوع، باب: كراهية السَّخْبِ فِي الْأَسْوَاقِ، رقم: 2125، 96/2، وفي كتاب التفسير، باب: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾، رقم: 4838، 293/3-294، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، ورواه أحمد في المسند، رقم: 6622، 185/6.

¹⁵ - سفر التثنية، الإصحاح 33، الفقرة، 1-2.

¹⁶ - أبو شهبه، السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، 250/1.

قال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران: 64).

القرآن يدعو اليهود إلى كلمة الحق، التي جمعت أنبياء ورسول بني إسرائيل من قبل، وهي طريق التوحيد إلى الله تعالى، ولكنهم أنكروا على محمد ﷺ، وردوا على صدق كلامه بإنكار ما يجدوه مكتوبا عندهم في التوراة.

قال تجلّت قدرته: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ مِرْضَوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (المائدة: 15-16).

يقول محمد الصادق عرجون: "فهم قبل أن يستبين لهم حظهم من رسالته كانوا يظهرون ما عندهم من دلائل وأمارات يعرفون بها أمارات محمد ﷺ معرفة لا يداخلها شك، ولما طغت عليهم نزعات البغي والحسد دفعتهم إلى كل خبيثة من خبائث الفجور والغدر وكتمان ما علموا من الحق وتحريف ما وجدوا من الآيات إلا من عصم الله من خيرتهم الذين استجابوا لله وللرسول¹⁷.

وكرر القرآن الكريم نداءه إلى اليهود بالإيمان برسالته، ويقطع عليهم حجتهم بطول الأمد بينهم وبين الأنبياء والرسل، قال ﷺ: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى قَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (المائدة: 19).

ثانيا: محمد ﷺ في كتب النصارى:

هذا ما سجله القرآن الكريم من علم اليهود ببشارة مبعث النبي الخاتم ﷺ، والبشارة بقرب مواعده في أرض العرب، وأوصاف وأمارات هذا النبي، وكذا ما نقله أحبار اليهود وأتباعهم من وجود هذه البشارات في كتب التوراة.

أما النصارى فقد تحدثوا بما سمعوه عن أسلافهم، ونقلوا بعض أحاديث وروايات اليهود عن البشارات وأوصاف النبي المبعوث التي جاءت في كتبهم.

17 - محمد الصادق إبراهيم عرجون، محمد رسول الله ﷺ - منهج ورسالة، بحث وتحقيق -، دار القلم، دمشق، ط 2، 1415هـ/1995م.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٥٦﴾﴾ (الصف: 06).

هذا قول صريح من النبي عيسى عليه السلام، بقرب مبعث النبي الجديد، واسمه أحمد، وهذا إقرار صريح بما جاء في التوراة من بشارة بمبعث محمد صلى الله عليه وسلم، "وكان طبعيا أن يسارع أهل الكتاب إلى الإيمان بالدين الجديد، ما دامت كتبهم تتحدث عنه وتذكر رسوله الأمي الذي سيكلف بحمله وتبليغه للناس" ¹⁸.

كما سجل القرآن الكريم على أهل الكتاب، وجود صفات النبي محمد صلى الله عليه وسلم ومزاياه ودعوته في كتبهم لتكون حجة عليهم، قال جل جلاله: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ (الأعراف: 157).

كان صوت النصرانية أقل من اليهودية في جزيرة العرب، لبعث استقرار النصارى بعيدا عن المنطقة في الشام، والحبشة واليمن، وهذا لم يمنع المسيحية من إنتشارها عند بعض العرب، أمثال قس بن ساعدة، وورقة بن نوفل . وقد تحدث النصارى بما كان يتحدث به اليهود من البشارات والأمارات بمبعث نبي جديد، التي ذكرتها كتبهم، ورواها القسيسون والرهبان.

هذه البشارات التي جاءت في نصوص كتب اليهود والنصارى، والتي أقر القرآن الكريم بوجودها، بالرغم من التحريف الذي طال هذه الكتب، وهذه النصوص وما حملته من بشارات بمبعث النبي محمد صلى الله عليه وسلم وصفاته ومزاياه، كانت آية صدق وشاهد قاطع على صدق هذا النبي الخاتم، ودليل صدق على رسالته إلى العالمين، وحجة على أهل الكتاب.

قال ابن إسحاق:

"وكانت الأحبار من اليهود، والرهبان من النصارى، والكهان من العرب قد تحدثوا بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه لما تقارب من زمانه. أما الأحبار من يهود، والرهبان من النصارى فيما

¹⁸ - محمد علي الهاشمي، شخصية الرسول ودعوته في القرآن الكريم، ص 115

وجدوا من صفته في كتبهم وصفة زمانه لما كان في عهد أنبيائهم إليهم فيه، وأما الكهان من العرب فتأنيهم به الشياطين من الجن فيما يستقون من السمع إذ كانت وهي لا تحجب عن ذلك بالقذف بالنجوم، وكان الكاهن والكاهنة من العرب لا يقع منهما ذكر بعض أمره لا تلقى العرب فيه بالاً حتى بعثه الله عز وجل¹⁹.

1- في إنجيل يوحنا قال يسوع: " إن كنتم تحبوني فاحفظوا وصاياي، وأنا أطلب من الأب فيعطيكم معزيا آخر ليمكث معكم إلى الأبد، روح الحق، الذي لا يستطيع العالم أن يقبله، لأنه لا يراه، ولا يعرفه، وأما أنتم فتعرفونه لأنه ماكن معكم فيكون فيكم"²⁰.

2- ويقول: "وأما المعزي الروح القدس الذي سيرسله الأب باسمي، فهو يعلمكم كل شيء، ويذكركم بكل ما قلته لكم"²¹.

3- ويقول: "ومتى جاء المعزي الذي أرسله أنا إليكم من الأب، روح الحق الذي من عند الله الآب ينبثق فهو يشهد لي"²².

فهذه البشارات تكاد تكون نصاً صريحاً على نبوة محمد ﷺ، وهذا النبي عرف بالمعزي والمخلص²³. المعاني الموجودة في الترجمة الحديثة للإنجيل ليست دقيقة، لأن أصلها باللغة اليونانية، وفيها المعزي (بيركليتوس) وفي التراجم العربية المطبوعة سنة 1821م، 1831م، 1844م، في لندن تجدها (فارقليط) وهي أقرب إلى العبارة اليونانية (بيركليتوس)، أما ترجمتها في الطبقات الحديثة إلى المعزي فهو من التحريف الذي طال هذه الكتب المقدسة²⁴.

4- "وأما الآن فأنا ماض إلى الذي أرسلني، وليس أحد منكم يسألني أين تمضي؟ لكن لأنني قلت لكم هذا، قد ملاً الحزن قلوبكم. لكنني أقول لكم الحق، إنه خير لكم أن أنطلق. لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزي. ولكن إن ذهبت أرسله إليكم. ومتى جاء ذلك؛ بيكت العالم على خطيئه، وعلى بر، وعلى دينونة"²⁵.

19 - ابن إسحاق: محمد بن إسحاق بن يسار بن خيار أبو بكر القرشي المدني المطلي، السيرة النبوية، ت: أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1424هـ-2004م، 34/1.

20 - يوحنا، الإصحاح 14، الفقرة 15-17.

21 - يوحنا، الإصحاح 14، الفقرة 26.

22 - يوحنا، الإصحاح 15، الفقرة 26.

23 - ينظر: محمد بن محمد أبو شهبة، السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، 252/1-254.

24 - ينظر: عمر سليمان الأشقر، الرسل والرسالات، مكتبة الفلاح، دار النفائس، ط4، 1410هـ/1989م، ص 176-177.

25 - إنجيل يوحنا، الإصحاح 16، الفقرة 5-8.

5- ويقول: "لكني أقول لكم الحق إنه خير لكم أن أنطلق، لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزي، ولكن إن ذهبت أرسله لكم"²⁶.

6- ويقول: "إن لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم، ولكنكم لا تستطيعون أن تحملوا الآن، وأما متى جاء ذلك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق"²⁷.

7- جاء في إنجيل متى في الإصحاح الحادي والعشرين.

- قال لهم يسوع: "أما قرأتم قط في الكتب: الحجر الذي رفضه البنائون هو ذا قد صار حجر الزاوية. من قبل الرب كان هذا هو عجب في أعيننا. الفقرة: 42.

- لذلك أقول لكم أن ملكوت الله يترع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره. الفقرة: 43.

- ومن سقط على هذا الحجر يترضض ومن سقط هو عليه يسحقه". الفقرة: 44.

الحجر الذي تكلم عنه المسيح عليه السلام في هذه النصوص هو سيدنا محمد عليه السلام، وهو الحجر الذي أخره البنائون وصار رأساً للزاوية وهذا النص موافق للحديث الذي رواه البخاري ومسلم في صحيحهما: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ﴿مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بُنْيَانًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلَّا مَوْضِعَ لَبَنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَائِيهِ فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ هَذَا وَضِعَتْ هَذِهِ اللَّبَنَةُ قَالَ فَاِنَّا اللَّبَنَةُ وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ صلى الله عليه وسلم﴾²⁸.

وقول عيسى عليه السلام: إن ملكوت الله يترع منكم ويعطى لأمة أخرى، موافق لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (الأنبياء: 105)، وقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾ (النور: 55).

هذه بشارات واضحة في كتب النصارى وهي بمثابة نص قطعي على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وصدق دعوته، ومن خلال نصوص القرآن الكريم وبعض نصوص التوراة والإنجيل نخرج بنتيجتين هامتين:

²⁶ - إنجيل يوحنا، الإصحاح 16، الفقرة 7.

²⁷ - إنجيل يوحنا، الإصحاح 16، الفقرة 12، 13.

²⁸ - رواه البخاري في صحيحه، كتاب: المناقب، باب: خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم، رقم: 3535، و5534، و513/2، ومسلم في صحيحه، كتاب: الفضائل،

باب: ذكر كونه صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين، رقم: 2286، و2287 عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه مثله، 64/7-65.

أولاهما: القرآن الكريم ذكر صراحة وجود ذكر للنبي، اسمه ووصفه ورسالته ودعائم شريعته في كتب اليهود والنصارى، قال الله: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ (سورة الأعراف: 157).

ثانيها: وبالرغم من المعرفة التي خص بها أهل الكتاب بالرسالة الخاتمة، إلا أن اليهود منهم خصوا هذه البشارات التي تحملها كتبهم بالتحريف أولاً، ثم التأويل.

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: 146).

القرآن الكريم يتحدث عن نبوة محمد ﷺ وذكره ودعوته، وكذا ذكره في الكتب السماوية السابقة كحجة على أهل الكتاب أنه رسول الله الصادق في دعوته، كما أن الأنبياء والرسل السابقين بشروا به وبمجيئه في ختام النبوات، وأمروا أقوامهم بتصديق هذا النبي واتباعه، لكن أهل الكتاب أخفوا حقيقة بشارات كتبهم بالنبي الخاتم وكذبوا دعوته وكفروا به بعد بعثته في مكة المكرمة، فكان القرآن الدليل على كذب اليهود والنصارى وأخبر عن فعلهم بنبوءات نصوص التوراة والإنجيل، قال ﷻ: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ (المائدة: 15).

المطلب الثاني: روايات المشركين:

في منطقة الحجاز، الممتدة من اليمن إلى بلاد الشام، يتخللها وديان وسلسلة الجبال الكثيرة، وسمي حجازاً، لأنه حجز بين إقليم نجد شرقاً وبلاد قحاة غرباً²⁹، وفي هذا الإقليم الكبير عاش العرب وسادت حضارات عظيمة لهم، مثل حضارة سبأ باليمن، وحضارة عاد بالأحقاف، وحضارة ثمود بالحجاز، وقد اشتهرت الحجاز بمدن كثيرة أهمها: يثرب، مكة، الطائف، وجدة.

وعلى الرغم من ديانة التوحيد التي كانت الديانة الأصيلة للمنطقة، إلا أن طول العهد بالرسول والصالحين جعل العرب ينقسمون إلى أديان وثنية مختلفة، منهم من عبد النجوم، وآخر عبد الكواكب، وأكثرهم أله الأصنام، قال ﷺ: ﴿ وَعَهْدُنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ (البقرة: 125)، ولم يعتقد العرب أن هذه الأوثان تخلق، أو تدبر الكون، وإنما قالوا أن الخالق هو الله، قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ (الزخرف: 87)، وقال ﷺ: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ (العنكبوت: 61). لكن العرب اختاروا وسيلة أخرى لتوصلهم، أو لتمد أواصر العبادة بينهم وبين الله تعالى، وهي وسائط الأوثان، قال ﷺ: ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ (الزمر: 3).

ومن بين الأمور التي انتشرت في البيئة العربية، إنكار البعث بعد الموت، عبادة الملائكة، وإنكار الرسل، قال تعالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا السَّاحِرُ مُبِينٌ ﴾ (يونس: 2).

²⁹ - ياقوت الحموي: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1397هـ/1977م،

في هذه البيعة الوثنية جاءت بعثة النبي ﷺ في مكة المكرمة ثم المدينة المنورة، التي انتقلت منها الرسالة الخاتمة إلى العالم. وقام النبي ﷺ بتبليغ رسالة ربه، وبدأ بقومه العاكفين على عبادة الأصنام، قال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء:214).

وقد عُرف النبي ﷺ بين قومه القرشيين بالصادق الأمين، وبما أن البيعة الدينية والثقافية للعرب لم تحمل مرجعية عميقة، لأن القرشيين لم يتوارثوا كتباً لرسالات سماوية، لأن الوثنية كانت الأمر الواقع منذ أمد بعيد. الأمر الذي جعل الجزيرة العربية بعيدة عن تأثير الديانة اليهودية والمسيحية، إلا قلة من الذين دانوا بالحنيفية السمحة أو بعض الوافدين من دولتي الروم والفرس، وحتى الحبشة، لكن التأثير في هذا الوسط المغلق كان صعباً.

وكل ما تناقله من خبر بعث نبي جديد، أخذه من روايات اليهود، وبعض المتحنيين.

من خلال ماتقدم من الأخبار والروايات الواردة في كتب اليهود والنصارى، وعلم الأخبار والرهبان عن توالي حادثة النبوة، وعن ظهور نبي جديد في منطقة الجزيرة العربية، وأوردت بعض النصوص أوصافه وميزاته، وانتقل بعض هذا العلم إلى سكان مكة المكرمة. وقد أقر القرآن الكريم تبشير الكتب السماوية بالنبي الخاتم. قال الله ﷻ: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ مِرْحَمَاءٌ لِّبَنِيهِمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ﴾ (الفتح:29)، وأقر بعلم الأخبار والرهبان بميلاد هذا النبي وأوصافه، قال ﷻ: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الأعراف:157).

إن هذا العلم الذي حملة اليهود والنصارى وحتى متحنثة العرب، ومن سمع منهم هذه الأخبار والروايات يؤكد أن أهل الكتاب حملوا في رواياتهم فرضية توالي ظاهرة النبوة بعد أن كانت فيهم، وعرفها بنو إسرائيل وعرفوا ميزاتهما، والرسالات السماوية التي جاء بها الأنبياء والرسول.

ومن هذه الروايات المبشرة بمبعث النبي محمد ﷺ ما يلي:

1- وَحَدَّثَنِي عَاصِمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ، عَنْ رِجَالٍ مِنْ قَوْمِهِ، قَالُوا: إِنَّ مِمَّا دَعَانَا إِلَى الْإِسْلَامِ، مَعَ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَهَدَاهُ لَنَا، لَمَّا كُنَّا نَسْمَعُ مِنْ رِجَالِ يَهُودَ، وَكُنَّا أَهْلَ شِرْكِ أَصْحَابِ أَوْثَانٍ، وَكَانُوا أَهْلَ كِتَابٍ، عِنْدَهُمْ عِلْمٌ لَيْسَ لَنَا، وَكَانَتْ لَا تَزَالُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ شُرُورٌ، فَإِذَا نَلْنَا مِنْهُمْ بَعْضَ مَا يَكْرَهُونَ، قَالُوا لَنَا: إِنَّهُ قَدْ تَقَارَبَ زَمَانُ نَبِيِّ يُبْعَثُ الْآنَ نَقْتُلُكُمْ مَعَهُ قَتْلَ عَادٍ وَإِرْمٍ فَكُنَّا كَثِيرًا مَا نَسْمَعُ ذَلِكَ مِنْهُمْ. فَلَمَّا بَعَثَ اللَّهُ رَسُولَهُ ﷺ أَجَبْنَاهُ، حِينَ دَعَانَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَعَرَفْنَا مَا كَانُوا يَتَوَعَّدُونَنَا بِهِ، فَبَادَرْتَاهُمْ إِلَيْهِ، فَأَمَنَّا بِهِ، وَكَفَرُوا بِهِ، فَفِينَا وَفِيهِمْ نَزَلَ هَؤُلَاءِ الْآيَاتُ مِنَ الْبَقَرَةِ: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: 89) ³⁰.

2- عَنْ سَلَمَةَ بْنِ سَلَامَةَ بْنِ وَقْشٍ وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ بَدْرِ قَالَ (كَانَ لَنَا جَارٌ مِنْ يَهُودَ فِي بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ قَالَ فَخَرَجَ عَلَيْنَا يَوْمًا مِنْ بَيْتِهِ قَبْلَ مَبْعَثِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَسِيرٍ فَوَقَفَ عَلَيَّ مَجْلِسِ عَبْدِ الْأَشْهَلِ قَالَ سَلَمَةُ وَأَنَا يَوْمَئِذٍ أَحَدْتُ مَنْ فِيهِ سِنًّا عَلَيَّ بُرْدَةٌ مُضْطَجِعًا فِيهَا بِنَاءٌ أَهْلِي فَذَكَرَ الْبَعْثَ وَالْقِيَامَةَ وَالْحِسَابَ وَالْمِيزَانَ وَالْجَنَّةَ وَالنَّارَ فَقَالَ ذَلِكَ لِقَوْمِ أَهْلِ شِرْكِ أَصْحَابِ أَوْثَانٍ لَا يَرُونَ أَنَّ بَعْنَا كَاتِبًا بَعْدَ الْمَوْتِ فَقَالُوا لَهُ وَيْحَكَ يَا فُلَانُ تَرَى هَذَا كَاتِبًا إِنَّ النَّاسَ يُبْعَثُونَ بَعْدَ مَوْتِهِمْ إِلَى دَارٍ فِيهَا جَنَّةٌ وَنَارٌ يُجْزَوْنَ فِيهَا بِأَعْمَالِهِمْ قَالَ نَعَمْ وَالَّذِي يُخْلَفُ بِهِ لَوْ أَنَّ لَهُ بِحِظِّهِ مِنْ تِلْكَ النَّارِ أَعْظَمَ تُنُورٍ فِي الدُّنْيَا يُحْمَوْنَهُ ثُمَّ يُدْخِلُونَهُ إِيَّاهُ فَيُطَبَّقُ بِهِ عَلَيْهِ وَأَنْ يَنْجُوَ مِنْ تِلْكَ النَّارِ غَدًا قَالُوا لَهُ وَيْحَكَ وَمَا آيَةُ ذَلِكَ قَالَ نَبِيُّ يُبْعَثُ مِنْ نَحْوِ هَذِهِ الْبِلَادِ وَأَشَارَ بِيَدِهِ نَحْوَ مَكَّةَ وَالْيَمَنِ قَالُوا وَمَتَى تَرَاهُ قَالَ فَانْظُرْ إِلَيَّ وَأَنَا مِنْ أَحَدْتِهِمْ سِنًّا فَقَالَ إِنْ يَسْتَفِيدُ هَذَا الْعُلَامُ عُمُرَهُ يُدْرِكُهُ قَالَ سَلَمَةُ فَوَاللَّهِ مَا ذَهَبَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ حَيٌّ بَيْنَ أَظْهَرِنَا فَأَمَنَّا بِهِ وَكَفَرَ بِهِ بَعْيًا وَحَسَدًا فَقُلْنَا يَا فُلَانُ أَلَسْتَ بِالَّذِي قُلْتَ لَنَا فِيهِ مَا قُلْتَ قَالَ بَلَى وَلَيْسَ بِهِ ³¹.

³⁰ - ابن هشام: أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري، السيرة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت، ط6، 1418هـ/1998م، 211/1، البيهقي: أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، ت: عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ودار الريان للتراث، القاهرة، 1408هـ/1988م، 75/2-76، ابن كثير: عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، البداية والنهاية، ت: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، مصر، ط1، 1417هـ/1997م، 502/3.

³¹ - ينظر: ابن إسحاق، السيرة النبوية، ص63-64، وابن هشام، السيرة النبوية، 212/1، ورواه البيهقي في دلائل النبوة، 78/2-79، وأحمد في المسند، رقم: 15785، 339-340 حديث سلمة بن سلامة بن وقش، وابن كثير، البداية والنهاية، 495/3.

روايات اليهود والنصارى على نبوة محمد ﷺ، وأنه مرسل من الله تعالى، هذا العلم جاء آية صدق محمد ﷺ في رسالته، قال عز من قائل: ﴿أَوْ كَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (الشعراء:197).

وكان هذا تصديق للرسالات السماوية بعضها لبعض، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (الصف:6)، وهذا التصديق لأن الرسل عليهم السلام عاهدوا الله على ميثاق عظيم، أن الدين عند الله تعالى هو إخلاص العبادة له وحده، وهو الدين الواحد الذي صدق أوله آخره، قال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ التَّيِّبِينَ لَمَا أَثْبَتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ، فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ، أَفَغَيَّرَ دِينَ اللَّهِ يَبْغُونَ وَكَهْ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ (آل عمران:81-83).

عن ابن عباس رضي الله عنهما: قال: ﴿مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا أَخَذَ عَلَيْهِ الْمِيثَاقَ لِنُبُوحِ مُحَمَّدٍ وَهُوَ حَيٌّ لِيُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلِيَنْصُرُنَّهُ، وَأَمْرُهُ أَنْ يَأْخُذَ عَلَىٰ أُمَّةِ الْمِيثَاقِ لِنُبُوحِ مُحَمَّدٍ وَهُمْ أَحْيَاءٌ لِيُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلِيَنْصُرُنَّهُ وَلِيَتَّبِعُنَّهُ﴾³².

منطقة الجزيرة العربية كانت تتوزع فيها ثلاث ديانات، اليهودية متمثلة في بعض القبائل التي كانت تقطن يثر، خيبر وما حولها، والنصرانية تتمثل في نجران وغيرها وغيرها من الذين اختاروا المسيحية نتيجة للتبعية إلى اليمن والحبشة، وكذلك القبائل مما يلي الشام في أطراف الحجاز التي كانت قريبة من الإمبراطورية الرومانية.

³² - رواه ابن جرير في التفسير، 540/5، الطبري: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي أبو جعفر، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري)، ت: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، القاهرة، ط1، 1422هـ/2001م، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 100/3، ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، تفسير القرآن العظيم، ت: مجموعة من العلماء، مؤسسة قرطبة، ومكتبة أولاد الشيخ للتراث، القاهرة، ط1، 1421هـ/2000م، وفي البداية والنهاية، 496/3.

أما الوثنية فهي ديانة وضعية دانت بها أكثر قبائل العرب، التي كانت تدعي صلتها بإسماعيل عليه السلام وإبراهيم عليه السلام، هذه الديانات كانت تنقل أخبار وروايات كتب الديانات السماوية إلى الناس عبر أجيال وكان الإنتظار هو خيار اليهود والنصارى لمبعث النبي الجديد.

والقرآن الكريم يتحدث عن إرسال محمد ﷺ في أكثر من مناسبة وعن الكتب السابقة التي بشرت بمبعثه ليجعل هذه الكتب تظهر حقيقة محتواها وإن تم تحريف أغلبه، إلا أن نبوءات هذه الكتب كانت عديدة، وجاء القرآن الكريم ليكشف عن هذه النبوءات التي أراد أصحابها إخفاءها بعد ظهور النبي ﷺ في مكة المكرمة رسولا من العرب إلى الناس جميعا، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَاٰمِنُوْا بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (الأعراف: 158)، وقال ﷺ: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (الصف: 9).

القرآن الكريم كان يخاطب أهل الكتاب من خلال الآيات القرآنية الدالة على بشارات الكتب السابقة بمبعث محمد ﷺ نبيا رسولا، وهذا الخطاب كان دليل على صدق الرسالة وعلى استمرار النبوات في الأرض وتواصلها من أجل هدف واحد وهو تحقيق التوحيد للناس جميعا.

الأمر الثاني أن أهل الكتاب خاصة اليهود منهم كانوا يكثرون مجادلة محمد ﷺ لأنهم عاشوا بمقربة منه في المدينة وكان بينهم ميثاق وضعه النبي ﷺ ليعيش اليهود مع المسلمين في إطار قوانين الدولة الإسلامية، لكنهم أكثروا من الجدل والعتل لذلك خاطبهم القرآن وأكد الحجة عليهم بأن دليل صدق النبي في كتبهم وكتب النصارى، وأنهم يعرفون محمد ﷺ كما يعرفون أبناءهم ولا أدل من هذا الكلام حجة على اليهود والنصارى، يقول أبو زهرة: "رسالة النبي عليه الصلاة والسلام ما كانت تستمد من شهادة السابقين، إنما كانت قوتها تستمد من ذاتها، وتحمل في نفسها الشهادة بصدقها، والبيانات القاطعة بأنها حق، وأنها من الله العزيز الحكيم" ³³.

وذلك من خلال الميثاق الذي أخذه الله سبحانه منهم بالإيمان به وتصديق دعوته وهو يلزم الأتباع بالأمر ذاته في كل زمان.

وهكذا توالى النبوات وبعث الأنبياء في الأقوام، كل في وقته وزمانه والقوم المرسل إليهم برسالة الله تعالى الواحدة، قال ﷻ: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ (النساء:36). لتحقيق الهدف الأساس من كل رسالة نزلت إلى الأرض ومن كل نبي ورسول بعثه الله تعالى لإنقاذ قومه من الشرك وعبادة الأوثان، وظلم الناس لأنفسهم عبر التاريخ الإنساني.

المبحث الثاني: الامتداد الجغرافي والناشط للجزيرة العربية.

المطلب الأول: الامتداد الجغرافي.

منطقة شبه الجزيرة العربية، هذه المساحة الشاسعة عرفت إرسال بعض الأنبياء والرسل منذ القديم، وقد كان هذا الجزء الذي يقع في الجنوب الغربي من قارة آسيا يجمع الجنس العربي، الذي حافظ على نسبه ولغته وديانته، حيث لم يختلط سكان الجزيرة بالأقوام المجاورة لها نظرا لطبيعة المنطقة القاسية، ورغبة قوية من الإنسان العربي في الحفاظ على مكتسباته وإرثه.

الطبيعة الصحراوية القاسية، والمميزات الخاصة للجنس العربي، جعلته يُقيم أعظم الحضارات في المنطقة، وحتى أنشأ حضارات عظمى تضاهي حضارة السومريين، "تلك الموجة التي خرجت من بلاد العرب في بداية الألف الثالثة قبل الميلاد، والتي استطاع أصحابها على أيام العاهل الأكدي (سرجون الأول) (2370-2315 ق.م) من أن يقيموا دولة اتسعت فتوحاتها حتى وصلت إلى آسيا الصغرى، وبديهي أنهم لن يستطيعوا أن يفرضوا أنفسهم على شعب ذي حضارة كالسومارين، إلا إذا كانوا قد وصلوا إلى درجة من التقدم تجعلهم يعرفون كيف يستفيدون من غيرهم، وتصبح لهم السيطرة على البلاد، وأن تظل لغتهم الأصلية وكثير من مظاهر ثقافتهم، ملازمة لهم قرونا طويلة"³⁴، هذه المنطقة التي توسطتها مكة المكرمة، مدينة التاريخ العظيم ومهد الرسالة الخاتمة، تُبرز بوضوح أن المكان والزمان جمع العديد من الصفات والمؤهلات لحمل رسالة محمد ﷺ إلى العالمين، والتي أحدثت أعظم وأكبر تغيير في العالم، وتحقيق للعبودية المطلقة لله سبحانه وتعالى.

الفرع الأول: الطبيعة الجغرافية للجزيرة العربية.

شبه جزيرة العرب هي أكبر جزيرة في العالم، تبلغ مساحتها حوالي مليون ميل مربع، يحدها من الشمال البحر الأبيض المتوسط، ومن الجنوب البحر العربي والمحيط الهندي، ومن الشرق الخليج العربي ونهر الفرات، ومن الغرب البحر الأحمر وقناة السويس، هذا الموقع الهام جعلها تربط بين القارات الثلاث: آسيا، إفريقيا وأوروبا، "من الناحية الحضارية للعالم قبل الإسلام فهي تربط بين الحضارتين السائدتين حينئذ: الحضارة الرومانية والحضارة الفارسية"³⁵.

³⁴ - محمد بيومي مهران، العرب وعلاقتهم الدولية في العصور القديمة، الرياض، 1976م، ص 297-437.

³⁵ - أبو شهبة، السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، 44/1.

وشبه جزيرة العرب أرض صحراوية تتخللها جبال كثيرة، هذه المرتفعات تشرف على أرض سهلة ضيقة تعرف (بتهامة) وسواحل الجزيرة تطل على البحر الأحمر حيث يصعب رسو السفن فيها لخلوها من المرافئ الصالحة لوجود الشعب المرجانية. وفي شبه الجزيرة حرار كثيرة، وهي أرض ذات حجارة سوداء تكونت من فعل البراكين، وهناك مناطق الحرار التي عرفت بالخصوبة والنماء مثل أراضي المدينة وخيبر. وقد قسم الجغرافيون المنطقة إلى عدة أقسام منها³⁶ :

1- الحجاز.

2- تهامة.

3- نجد.

4- العروض.

5- اليمن.

الحجاز عبارة عن سلسلة الجبال الكثيرة، الممتدة من بلاد اليمن إلى بلاد الشام، وما حول هذه الجبال وخلالها من الوديان، وعرف باسم الحجاز لأنه حجز بين إقليم نجد شرقا وبلاد تهامة غربا. وأشهر مدن الحجاز مكة، والمدينة (يثرب)، الطائف، وجدة. ومكة المكرمة هي أشهر مدينة لأنها بلد الله الحرام، وفيها الكعبة المشرفة التي بناها سيدنا إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وهي تقع في سهل غير ذي زرع، تحيط به الجبال من كل جانب، وفي شمال مكة يوجد جبل (حراء)، وفي جنوبها يقع جبل ثور. ومكة مدينة عين زمزم وبيت الله الحرام، وهي بلد الله التي يأمن فيها الإنسان والحيوان والطير، قال سبحانه: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ (البقرة:125)، هذه المدينة الصحراوية القاسية لم يستسلم أهلها لقساوة الحياة، وصعوبة المنطقة بل قاوموا ذلك وأسسوا حياة خاصة بهم، بعيدة عن المدنات المعاصرة والحضارات المجاورة، "مكة بلد محمد ﷺ لم تستسلم للطبيعة تحبسها في واديها الأجرد، بين جبالها السود المكفهرة القاسية، بل تداركتها العناية الإلهية فأهدت إليها "الكعبة" بيت الله الحرام، فصارت بها مكة بلد الله الحرام"³⁷.

³⁶ - ينظر: جواد علي، المفصل في تاريخ العرب، جامعة بغداد، ط2، 1413هـ/1993م، 1/167-181، ياقوت الحموي، معجم البلدان، 3/218.

³⁷ - محمد الصادق إبراهيم عرجون، محمد رسول الله ﷺ، 1/43.

أقيمت الكعبة في رحبة واسعة في وسط مكة المكرمة، والكعبة بناء لا نوافذ له، مكعبة الشكل ذات سطح مستو مصنوع من الحجر الرمادي، ويبلغ ارتفاعها أربعين قدماً، ويغطيها غطاء أسود، موسى بالذهب ومطرز بآيات من القرآن الكريم، وهذا الغطاء يُعرف بالكسوة ويجدد في كل عام، والكعبة قبلة المسلمين في صلواتهم وبيت الله الحرام³⁸.

مكة هي تلك البلدة الصغيرة في أقاصي الصحراء، مهد سيدنا محمد ﷺ وموطن آباءه وأجداده فيها ولد وترى وترعرع، وبعث فيها نبيا رسولا إلى العالمين، إنها الإرث البيئي والاجتماعي لخاتم المرسلين في هذه المنطقة من العالم، وآيات القرآن الكريم في حديثها عن مكة تبين بوضوح أصل النبي ﷺ ونسبه في مكة المكرمة، قال ﷺ: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ أَهْلَكَ نَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ (محمد:13).

وتكررت ألفاظ في القرآن تدل على الانتساب العميق الذي يربط بين محمد ﷺ وبين قومه القرشيين في مكة، مثل: أنفسهم منكم منهم وأنفسكم، وجاءت كما يلي:

قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (البقرة:129).

قال ﷺ: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (آل عمران:164).

قال ﷺ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة:128).

قال ﷺ: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ أُمَّةً مُطْمَئِنَةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا مِنْ غَدَاةٍ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (النحل:112-113).

³⁸ - ر.ق. بودلي، حياة محمد الرسول، ترجمة: محمد محمد فرج وعبد الحميد جوده السحار، مكتبة مصر، جمهورية مصر العربية، (د.ت)، ص17،

هذا الارتباط العميق بين النبي ﷺ والقرية المذكورة في القرآن الكريم وهي اسم مكة كما أورد ذلك العديد من علماء التفسير، يبين مدى الصلة التي كانت بين محمد ﷺ وقومه وبيئته التي ولد وعاش فيها وبعث فيها لإخراج أهلها من ظلم الشرك إلى نور توحيد الله سبحانه وتعالى. كما ورد في القرآن الكريم أنه من قوم الأميين الذين لم يعرفوا كتابا سماويا من قبل، بالرغم من الأنبياء الذين بعثوا في هذه الصحراء الواسعة، قال ﷺ: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَلَّمْتُ وَجْهِي لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعْنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسَلَّمْتُ فَإِنْ أَسَلَّمُوا فَقَدْ أَهْتَدُوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (آل عمران: 20)، وقال: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ﴾ (الأعراف: 157)، وقال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (الجمعة: 2).

البيئة الصحراوية في مكة المكرمة ولد فيها محمد ﷺ الذي بُعث نبيا إلى القوم بالرسالة الخاتمة، الصلة المتينة بين النبي والبيئة وبين محمد صلى وقومه جعلته يقاوم كل ذلك العنت والإصرار من القوم على تكذيب رسالته، ويجدد عزمه في كل لحظة على الدعوة بكل ثبات ويقين من الله جل جلاله.

والأمر هنا يتعلق برسالة سماوية لا برسالة دنيوية مادية تربط الإنسان بالمال وتبعده عن ربه سبحانه وتعالى، ومن المعالم الأساسية التي جعلت مكة نقطة تحول في العالم أمرين:

1- ورد ذكر مكة في القرآن الكريم بأسماء عدة وهذا المكان القاسي البيئة والبعيدة عن كل مظاهر المدنية والحضارات السابقة، هو كونه أول مسكن للعرب بعد أن خلف فيه خليل الله إبراهيم عليه السلام ابنه إسماعيل عليه السلام وزوجه هاجر، هذا المكان عرف وضع أساس بيت الله على يدي إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام حين رفعا بنيان البيت لأجل عبادة الله تعالى وحده لا شريك له وإقامة عقيدة الله تعالى بعد ما أصابها من التحريف بعد زمن نوح عليه السلام وحادث الطوفان.

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران: 96)، وقال: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ (البقرة: 125).

2- الأمر الثاني دعاء إبراهيم عليه السلام ربه الذي أراد من خلاله خيرا لأهل المكان، لأنه بيت الله الذي يحقق الوحيد الخالص لله تعالى عبر أجيال ومنه إلى سكان الأرض كلهم، والكعبة تكون فيها قبلة المؤمنين في كل أرض وفي كل زمن، قال عليه السلام: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُّسْلِمَةٌ لَكَ وَأَمْرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (البقرة: 127-129).

رفع إبراهيم عليه السلام وابنه إسماعيل عليه السلام قواعد الكعبة؛ أي رفعوا أصل البيت من أجل بنائه وإنشاء بيت الله تعالى، وكان هذا أمر من الله تعالى إلى نبيه إبراهيم³⁹، فكان الرفع والبناء وهما يريدان تقبل هذا العمل من الله عز وجل، لأنه عمل عظيم من أجل الحفاظ على دين الله تعالى ودعوة الناس إليه، وقوله: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ﴾ أي: مطيعين مستسلمين منقادين لحكمك، والمسلم هو المستسلم لأمر الله تعالى، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُّسْلِمَةٌ﴾ كل قوم نسبوا إلى نبي فأضيفوا إليه فهم أمته، وكل جيل من الناس هم أمة على حدة، والمقصود في الآية أمة محمد صلى الله عليه وسلم التي تحمل خاتم الرسالات السماوية⁴⁰.

يقول أبو السعود في قوله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُّسْلِمَةٌ﴾ أي واجعل بعض ذريتنا وإنما خصهم بالدعاء لأنهم أحق بالشفقة ولأنهم إذا صلحوا صلح الأتباع وإنما خصا به بعضهم لما علما

³⁹ - ينظر: عبد العزيز بن عبد الله الحميدي، تفسير ابن عباس ومروياته في التفسير من كتب السنة، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية، (د.ت)، ص18، والسيوطي: أبو الفضل عبد الرحمن جلال الدين، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، ت: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للدراسات العربية والإسلامية، القاهرة، ط1، 1424هـ/2003م، 126/1، الشوكاني: محمد بن علي بن محمد، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط4، 1428هـ/2007م، 143/1.

⁴⁰ - الواحدي: أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، الوسيط في تفسير القرآن المجيد، ت: مجموعة من العلماء، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1415هـ/1995م، 211/1، بتصرف.

أن منهم ظلمة وأن الحكمة الإلهية لا تقتضي اتفاق الكل على الإخلاص والإقبال الكلي على الله عز وجل "41".

مدينة مكة وهي موطن النبي محمد ﷺ، كانت نقطة تحول في التاريخ الإنساني بعد بناء الكعبة من قبل إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام وتحقيق التوحيد في المنطقة، من أجل تصحيح مسار العقيدة، وتوحيد الصف لتكون الأمة التي تحمل لواء النبوة الخاتمة من ذرية إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وهي الأمة الوحيدة التي تتحقق فيها جميع المقومات الأساسية لحتم الرسالة الإلهية في الأرض، وتبليغها للعالمين ولكل الأتباع القادمين، لأن الأمة على عهد محمد ﷺ بلغت مرحلة النضج العقلي الذي يمكنها من التدبر العميق في كل كلمة وعبارة، هذه الأمة خاطبها الله تعالى برسالة عقلية تطلب من الإنسان التفكير والتدبر، لقبول الحقيقة والإيمان بها.

"المؤمنون لا يترددون في أن يتلوا كلمته تعالى: ثم لا يجدون حرجا في أن يتدبروا، كما أمرهم دينهم، حكيمته تعالى في سننه، وأن ينظروا في واقع الحياة قبل المبعث، وموضع منزل الوحي في عالم كان حينذاك، يريد أن ينقض.

وتاريخنا الديني يمكن أن يعطينا ما ندرك منه الحكمة في اصطفاء مكة لمبعث خاتم المرسلين، وقد كانت من قديم العصور حرما مقدسا، وعلى أرضها قام أول بيت عُبد فيه الله سبحانه على الأرض"42.

أما المدينة الثانية فهي يثرب مدينة رسول الله ﷺ، تقع شمال مكة بنحو ثلاثمائة ميل، وهي منطقة خصبة تشتهر بالبساتين والنخل، والفواكه والزروع، ولهذا فقد عمل المهاجرون الأوائل من صحابة رسول الله ﷺ في الفلاحة عندما وفدوا إلى المدينة الجديدة .

يسكن المدينة قبيلتا الأوس والخزرج وارتحل إليها بعض اليهود بعد الاضطهاد الذي تعرضوا له، فاستغلوا خصب المنطقة وموقعها الهام في تكوين الثروة. فالمدينة تقع على طريق القوافل التجارية بين الجنوب والشمال، و بين مكة والشام، وبعد مجيء الإسلام أصبحت العاصمة الأولى للدولة الإسلامية، وقطب الحضارة الإسلامية. وأصبحت حرما آمنا مثل مكة المكرمة، في صحيح مسلم عن النبي ﷺ قال: **إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ وَدَعَا لِأَهْلِهَا وَإِنِّي حَرَّمْتُ الْمَدِينَةَ كَمَا حَرَّمَ إِبْرَاهِيمُ**

41- أبو السعود: محمد بن مصطفى العمادي المولى الرومي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ت: عبد القادر أحمد عطا، دار الرياض

الحديثة، الرياض، (د.ت)، 260/1.

42- عائشة عبد الرحمن - بنت الشاطئ-، مع المصطفى ﷺ، دار المعارف، القاهرة، جمهورية مصر العربية، (د.ت)، ص15.

مَكَّةَ وَإِنِّي دَعَوْتُ فِي صَاعِهَا وَمُدَّهَا بِمِثْلِي مَا دَعَا بِهِ إِبْرَاهِيمُ لِأَهْلِ مَكَّةَ ﴿٤٣﴾.

مدينة رسول الله عليه الصلاة والسلام كانت تعرف قبل مجيئه ﷺ بيثرب وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم في قوله جل وعلا: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَاصْرَبُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ (الأحزاب: 13). والاسم الذي أطلقه النبي ﷺ عليها ورد ذكره في القرآن الكريم ووصفها به خمس مرات في معرض الحديث عن دعوة النبي ﷺ مع المؤمنين وصراعهم مع الكفار والمنافقين.

الفرع الثاني: سكان الجزيرة العربية.

يعتبر العرب من الجنس السامي⁴⁴، ولقد حافظ هذا الجنس على الكثير من خصائصه وميزاته وحتى على لغته، التي كانت اللغة العربية، وهذه المحافظة ترجع إلى الانعزالية والمحافظة على الأنساب وحب التفاخر بهم التي توارثها الإنسان العربي عبر القرون، وبما أن الطبيعة الصحراوية للمنطقة كانت جد قاسية فقد انعكست على الحياة الاجتماعية للعرب، فكانت لهم ميزات وخصائص عُرفوا بها .

وتكون العرب منذ العصور القديمة من أقسام، تناسلت عبر فترات من التاريخ وتكاثرت في المنطقة ومن هذه الأصناف، تذكر كتب التاريخ⁴⁵:

1- العرب البائدة: وسبب التسمية يعود إلى إبادةها الكاملة بسبب كفر وطغيان هذه الأقسام، ويذكر القرآن الكريم بعض هذه الأقسام في السور التي تسرد قصص الأمم الغابرة، وأشهر هذه القبائل: قبائل عاد، وثمود، والعمالق، وطسم وجديس وأميم وجرهم، وحضرموت، ومن يتصل بهم. وقد أخبر القرآن الكريم عن تكذيب قوم عاد وثمود بالأنبياء وطغيانهم في الأرض وخاتمهم الأليمة التي كانت عبرة في التاريخ الإنساني، قال ﷻ: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ (الحاقة: 4-6). وقال ﷻ: ﴿وَتِلْكَ

⁴³ - رواه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب: فضل المدينة، ودعاء النبي ﷺ فيها بالبركة، وبيان تحريمها وتحريم صيدها وشجرها. وبيان حدود حرماها، رقم: 1315، 4/112.

⁴⁴ - نسبة إلى سام بن نوح عليه السلام، وهم الشعوب الذين يتكلمون بالعربية والعبرية والسريانية، والحبشية، والعرب بأقسامهم الثلاثة: العرب البائدة، والعرب العاربة، والعرب المستعربة يعودون إلى أصل واحد هو سام بن نوح ﷻ. ينظر: جواد علي، المفصل في تاريخ العرب، 1/222.

⁴⁵ - ينظر: ابن كثير، البداية والنهاية، 106-100/3.

عَادُ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ (هود:59)، وقال: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِينِهِمْ وَزَيْنِ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ (العنكبوت:38)، وقال: ﴿فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ مَرِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (فصلت:15-17).

حكم هذه الأقوام ملوك امتد ملكهم إلى الشام ومصر. والعرب البائدة تُقسم إلى قسمين :
العماليق وهم نسل لاوز بن سام بن نوح، ومن عداهم من نسل إرم بن سام بن نوح، الأولون يعرفون بالساميون، والآخرون الآراميون.

2- **العرب العاربة:** وهم أولاد قحطان، الذين يسكنون الجنوب، اليمن وما حولها، ومنهم ملوك اليمن، ومملكة معين، ومملكة سبأ وحمير. وقد خرجت منهم جماعات وقبائل في ظروف متعددة من أهمها انهيار سد مأرب، ونزلوا بمناطق أخرى من الجزيرة العربية منهم "اللخميون" الذين نزلوا الحيرة على تخوم فارس وكونوا ملوكا بها، ومنهم ملوك الغساسنة الذين كانوا يسكنون على حدود بلاد الروم، ومنهم ملوك كندة الذين كانوا بحضر موت، ومنهم الأزديين تفرع منهم الأوس والخزرج، ومنهم الجراهمة الذين حطوا رحالهم بالقرب من واد في مكة، والعرب العاربة هم الأصلاء في نسبهم إلى يعرب بن يشجب بن قحطان، ولذا يُقال لهم القحطانيون.

3- **العدنانية:** نسبة إلى عدنان الذي ينتهي نسبه إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، المعروفون باسم العرب المستعربة. وهم عرب الشمال، موطنهم الأصلي مكة، وهم إسماعيل عليه السلام وأبناؤه، و الجراهمة الذين تعلم منهم إسماعيل العربية، وصاهرهم، ونشأ أولاده عربا مثلهم، ومنهم عدنان جد النبي ﷺ، ومن عدنان جاءت قبائل العرب و بطونها.

المطلب الثاني: الامتداد التاريخي للعرب.

الفرع الأول: الوجود التاريخي.

تمكن الجنس العربي من تحقيق توسع ملحوظ في مناطق الجزيرة العربية عبر التاريخ، واستطاعت أن توفر أجواء مناسبة، ومقومات أساسية لقيام حضارات عظيمة في المنطقة، وقد تكونت مدنات عريقة في الجزيرة العربية منها:

أولاً: حضارة سبأ في اليمن: استفاد سكان اليمن من مياه الأمطار والسيول التي كانت تضيع في البحار، فأقاموا الخزانات والسدود بطرق هندسية بديعة، منها سد مأرب، واستخدموا المياه في الزروع المتنوعة والحداث ذات الأشجار والثمار، كما استطاعوا إنشاء حضارة عظيمة اعتمدت على الطبيعة وخصب الأرض والإنسان المبدع في عمران المنطقة، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَيِّفِي مَسْكَنَهُمْ آيَةً جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ مَرْحِقٍ مَرِيكُمُ وَأَشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ (سبأ: 15).

ثانياً: حضارة عاد: في الأحقاف شمال حضرموت كانت قبيلة (عاد)، القوم الذين بعث الله إليهم نبيه هود عليه السلام، قال جلالة: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (الأعراف: 65)، وهذه القبيلة عُرفت بالبيوت المشيدة والمصانع، والجنات والزروع والعيون، قال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِينِهِمْ وَرَيْنَ﴾ (العنكبوت: 38)، وقال: ﴿كَذَبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَتُؤْنُونَ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ (الشعراء: 123-134).

ثالثاً: حضارة ثمود بالحجاز: هذه الحضارة التي عُرفت في بلاد الحِجْر، وكانت هذه القبيلة تتمتع بقوة عظيمة جعلتها أفضل في حمل لواء الحضارة بعد قوم عاد.

قال ﷺ: ﴿كَذَبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَحُوهُمْ صَالِحٌ أَيَّا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمَنِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ (الشعراء: 141-150).

في منطقة الصحراء العربية كان إنشاء مدينة مكة، مدينة العرب الأولى من الناحية التاريخية ومن ناحية الأهمية، وقد أنشأها خليل الله تعالى إبراهيم ﷺ وأتم البناء ابنه إسماعيل وأصهاره من قبيلة جرهم القحطانية ومن جاء بعده من الذرية الطيبة، وبذلك تحقق دعاء نبي الله تعالى إبراهيم ﷺ في تحقيق المكانة العظيمة لسكان مكة وتفضيلهم بختم الرسالة في ديارهم على يد واحد من أبناء مكة المكرمة، قال ﷺ: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَامْرُؤُهُمْ مِنَ الشَّمْرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ (إبراهيم: 37-40).

بعد تمام بناء الكعبة من نبي الله تعالى إبراهيم ﷺ وابنه إسماعيل ﷺ توجهوا بالدعاء إلى الله ﷻ راجيين منه القبول والإجابة، قال ﷺ: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (البقرة: 129)، وقد عاش سيدنا إسماعيل ﷺ بجوار الكعبة مع أصهاره من قبيلة جرهم اليمانية القحطانية إلى أن بعثه الله تعالى إليهم نبياً، قال سبحانه: ﴿وَأذْكَرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ (مريم: 54).

وقد أنجب إسماعيل عليه السلام أولادا بلغوا اثنا عشر ولداً، منهم نابت وهو أكبرهم وهو حلقة من سلسلة النسب الشريف للنبي صلى الله عليه وسلم، واختفت السلسلة بين نابت وعدنان نتيجة ظروف غامضة غير معروفة، وكان عدد الآباء بين نابت بن إسماعيل وعدنان يقدر بستة آباء، والجميع عاشوا بالحرم المكي، وبذلك ينتهي نسب النبي صلى الله عليه وسلم إلى عدنان من ذرية إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام⁴⁶.

الفرع الثاني: الحياة الاجتماعية والسياسية للعرب.

العرب بأقسامهم الثلاثة يعود نسبهم إلى سام بن نوح عليه السلام نبي الله سبحانه وتعالى، الذي جاء لينقض البشرية من ظلم نفسها باتخاذ أصنام من دون الله تعالى في العبادة والطاعة. أما عن العرب الذي يعود نسبهم إلى إسماعيل عليه السلام فهم العرب المستعربة أو القحطانيون الذين عاشوا في مكة المكرمة تحت حماية بيت الله الحرام الذي أقاموا فيه عبادة الله تعالى وأضافوا مسيرة عظيمة للتاريخ العربي في المنطقة إلى مبعث محمد صلى الله عليه وسلم الذي غير التاريخ الإنساني باتخاذ الإسلام ديناً عالمياً. وقد انقسمت مناطق الجزيرة إلى ممالك ومدن، وقرى، ومناطق بادية كثيرة، وقد عاش العرب كبدو وحضر في بيئة اجتماعية لا تختلف كثيراً عن منطقة وأخرى.

فالنظام القبلي هو النظام السائد، حتى وإن كانت مملكة يحكمها أمير أو مالك، "والقبيلة العربية مجموعة من الناس، تربط بينهما وحدة الدم (النسب) ووحدة الجماعة، وفي ظل هذه الرابطة نشأ قانون عرفي يُنظم العلاقة بين الفرد والجماعة، على أساس من التضامن بينهما في الحقوق والواجبات، وهذا القانون العرفي كانت تتمسك به القبيلة في نظامها السياسي والاجتماعي"⁴⁷. و من أهم الخصائص التي تميز العرب الحرية، فهي ميزان الإنسان العربي، تفننت البيئة الصحراوية في رسم خطوطها المطلقة، بالرغم من وجود قوانين وأعراف تحكم أفراد القبيلة الواحدة وحتى القبائل المجاورة. والقبيلة تتكون من طبقات:

1- طبقة الأحرار: وهم سادة القوم وأشرفهم تجمعهم وحدة النسب والدم، وهذه الطبقة تتمتع بعدة حقوق، لكن تعمل على تحقيق واجبات كثيرة، منها الجماعة أو المجلس الذي يرأسه

⁴⁶ - ينظر: ابن هشام، السيرة النبوية، 8/1. وذكر الأقوال المختلفة حول أسماء الآباء: وابن عساکر: أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين، تاريخ مدينة دمشق، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1415هـ/1995م، قسم السيرة، 65-47/3، الذهبي، السيرة النبوية، ص18-22.

⁴⁷ - أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرق، أخبار مكة وما جاء من الآثار، المطبعة الماحدية ومحمد سعيد عبد المقصود، جدة، 2،

الشيخ، أو السيد، وتقوم على سن القوانين وتكوين الجيش والحفاظ على القبيلة.

2- طبقة الموالي: العرب الذين انضموا إلى القبيلة بطريق الحلف، أو الجوار أو العتقاء من الرق فيها.

3- طبقة العبيد: وهي أسرى الحرب، والمعارك والغزو وغيرها من أنواع الشراء والأسر.

وقد قامت في الجزيرة العربية ممالك وحضارات عريقة⁴⁸، بالرغم من الشكل القبلي للمنطقة، إلا أن هذه الدول تطورت بشكل ملحوظ وازدهرت في أزمنة وعصور مختلفة ومن هذه الممالك:

مملكة سبأ: التي قامت في اليمن، وأهلها عرفوا بأهل الفن الهندسي الدقيق، والخبرة في إقامة السدود والخزانات، حيث استغلوا الأمطار التي تهطل على اليمن وقاموا ببناء سد مأرب، وجعلوا له أبواباً وعيوناً يصرفون منها المياه، واستخدموا مياهه في الزراعة وازدهرت المنطقة بشكل ملحوظ.

ومن ملوك سبأ: الملكة بلقيس التي حكمت المنطقة بسياسة الشورى، وقوة العقل وحجة

البيان، قال **عجلالاً**: ﴿ قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلَقَهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ

تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى

تَشْهَدُونَ قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿ (النمل: 27-33) .

وهناك أيضاً مملكة حمير التي قامت على أنقاض مملكة سبأ، وكذا مملكة الأنباط، التي لا

تزال أعمدة المعبد الشاهقة شاهداً على رقي هذه الحضارة إلى اليوم.

هذا عن الأحوال السياسية والاجتماعية لمنطقة الجزيرة، أما مدينة مكة، أو بلد الله الحرام

فلم تختلف صفاتها كثيراً عن المناطق الأخرى، قال سبحانه: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي

بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مِّمَّا مَكَرَ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ

حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿ (آل عمران: 96-97) .

فمكة منخفضة جاء موقعها بين جبال، وطبيعتها توحى بالشح والقحط والجذب، وبالرغم

من ذلك فإن بعض الحياة التي قامت هناك جعلت الناس يستقرون في مكة، ويطلبون العيش بالرغم

48 - ينظر: ابن كثير، البداية والنهاية، 145-142/2، وأبو شهبة، السيرة النبوية، 69-62/1.

من قساوة المناخ والطبيعة.

والكعبة الشريفة التي بناها سيدنا إبراهيم مع ابنه إسماعيل عليهما السلام، كانت حرم العرب الشريف، والمكان المقدس لأبناء مكة وساكنيها .

لقد أضحت مكة بلد الله الحرام ومحج العرب من كل مكان، يأتيها الناس من الشمال والجنوب لأجل العبادة والتجارة، والمعارف وغيرها من النشاطات الاجتماعية، "أصبحت مكة شيء آخر غير كونها واديا مجرد محصورا بين الجبال، بل أصبحت متعبد العرب قاطبة، تَهْفُوا إليها قلوبهم تحتها فيها و تعبدا بالطواف حول بيتها المحرم يقُدسونها تقديسا لا يفوته تقديس، ويفدون بيتها المعظم بالمهج والأرواح" ⁴⁹.

أما الحديث عن الصفات والميزات التي كان يتحلى بها العربي قبل البعثة النبوية، فإننا نجد المؤرخين يجعلون هذه المرحلة من تاريخ العرب، مرحلة الانحطاط والجهالة في جميع المجالات والتركيز أكثر على الناحية السلبية من الحياة الاجتماعية و السياسية للعرب.

والعرب عُرفوا منذ العهد الجاهلي بصفات الحرية التي فرضتها ظروف الطبيعة الصحراوية للجزيرة العربية، ومعها الشجاعة والشرف، فالعرب فرسان في الحرب والسلم ، ولهم قوة التحمل وشجاعة المخاطرة، والصبر على الصعاب، مع ما عرفوه من هجرات سابقة لمناطق أخرى في الجزيرة العربية أو خارجها، أو احترام العهود ورقة العيش والتقشف، فضلا على أنهم يختارون سيد قبيلتهم أو ملكهم، بصفات لا غنى عنها: السخاء النجدة والصبر والحلم والتواضع، والبيان. وقد برع العرب في علوم البلاغة والبيان، جعلت قبائل تقوم وأخرى تُهان لأجل بيت شعر أُرِده شاعر القوم، وذلك لتمكن العربي من الوصف وبيان مشاعره النفسية وإخراجها في صورة بيانية باللغة العربية، جعلت هذه اللغة تتطور وتأخذ مجريات أخرى عبر الحياة.

وقد عُرفت اللغة العربية بأنها أرقى اللغات الإنسانية، وأغناها من حيث دلالات المعاني وشموليتها، "لا نستطيع أن ندعي أن الإسلام هدم المجتمع العربي الجاهلي هدمًا تامًا وكاملًا وشاملاً من أساسه وأقام بين ليلة وضحاها مجتمعا آخر ليكون "خير أمة أخرجت للناس" هذا لا يمكن أن يحدث في عالم الاجتماع. فإن حضارة الأمم لا تولد فجأة و بلا مقدمات، و إنما هي في واقع الأمر نتيجة لتطور طويل جدا، ومفاهيم أخلاقية ترسب في نفسية الجماعة جيلا بعد جيل وتؤهلها

للقيام بدور حضاري معين⁵⁰.

الفرع الثالث: العقيدة الدينية عند العرب.

التدين حالة طبيعية في حياة الإنسان، بل هو فطرة في الإنسان، فنجد ظهور الدين في الجماعات البشرية منذ أقدم العهود، فلا توجد قبيلة لا تعقد لنفسها منحنا روحياً تُشرع من خلاله لحياتها النظم والقوانين، "إذا كان الإنسان مدني بالطبع، فكذلك يمكن القول أن الإنسان متدين بالطبع، لأن الله تعالى فطره على فطرة تستدعي الإقرار والاعتراف بالخالق جل وهو الله تعالى والإلتجاء إليه والطلب منه وغير ذلك من لوازم ومقتضيات الإيمان بخالقية الله وعموم ربوبيته للمخلوقات"⁵¹.

الارتباط القوي للإنسان في قبيلته بما وراء الطبيعة يشده وينمي إحساسه أكثر بالحياة، وربما تفسير (الموت) البحث عن ما بعد الموت نتيجة وعيه الثقافي، كيف خُلق؟، ومن خلقه؟. وعند النظر ومراقبة التغيرات الكونية، أو الفراغ الذي يقربه أكثر بالحياة الروحية، هذه الممارسات الدينية تساعد الإنسان على التطور والإبداع وبناء حضارات خاصة إذا كان الدين سماوياً، "يرى من يتتبع حياة هذه الجماعات أنه كان للدين عليها الفضل كله -حين لم يكن لديها علم تعول عليه- في تهذيب طباعها و ترقية آدابها، وصرفها تدريجياً عن الصفات الوحشية إلى صفات أقرب إلى العدل الرحمة والفضيلة، فكيف يكون للدين هذا السلطان على النفوس، إن لم يكن مستندا إلى قوة أدبية فطرية في الإنسان؟"⁵².

كانت مكة المدينة المقدسة بالنسبة للعرب، قد عظموها لأن فيها بيت جدهم إبراهيم عليه السلام، وأصبحت مكة الحرم المقدس الآمن، الذي يحتمي فيه الخائف، وينصر فيه المظلوم، ويكرم فيه الضيف والعابر.

لقد كان دين سيدنا إبراهيم وابنه عليهما السلام التوحيد الخالص، قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْمِرْ قُوهْلَهُ مِن الثَّمَرَاتِ

50- جلال مظهر، محمد رسول الله سيرته وأثره في الحضارة، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1971م، ص12.

51- عبد الكريم زيدان، موجز الأديان في القرآن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1418هـ/1998م، ص20.

52- جلال مظهر، محمد رسول الله، ص49-50.

مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمْتِعْهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبُئْسَ الْمَصِيرُ ﴿البقرة: 125-126﴾، وسارت ذرية سيدنا إسماعيل عليه السلام على هذه العقيدة، ثم طرأت الوثنية لأسباب مختلفة⁵³، فانتشرت عبادة الأصنام في الجزيرة العربية، ومن أشهر آلهتهم، هبل، واللات والعزى، ومناة في منطقة مكة .

واختار بعض العرب عبادة الكواكب، والمخلوقات والأحجار التي رأوا فيها قربانا من الله تعالى⁵⁴، قال سبحانه: ﴿أَلِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُرْقًا إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿الزمر: 03﴾.

هذه العقيدة جاءت لتنقذ القوم من الفراغ الذي صنعتها الحياة بهم وبعدهم عن زمن الصالحين، حيث تمسك القوم بذكرى أوليائهم واتخذوا لهم أصناما، حتى أصبحت هذه التماثيل آلهة تُعبد، "وهي وثنية جامدة بليدة في شكلها وموضوعها لا تتفلسف ولا تتعلم، ولكنها تقوم على التقليد الأبله والوراثة المتعصبة التي لا تسمع لصوت العقل ولا تصغي إلى الشعور ونداء الوجدان"⁵⁵.

انتشرت عبادة الأوثان في الجزيرة العربية منذ عهد طويل نتيجة التقليد وحب الافتخار بما صنعه الآباء والأجداد، قال عز وجل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا آفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ كُنَّا كَمَا كَانُوا آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ۗ صُمُّ بَكُمْ عُمِّي فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿البقرة: 170-171﴾، وبالرغم من تعدد الآلهة عند العرب، حتى صارت كل قبيلة تملك صنما تُعرف به، وكل بيت يسكنه وثن يصنعه صاحب البيت أو يشتريه من السوق، إلا أن اعتقاد الربوبية في هذه الأحجار لم يكن واردا عند أحد منهم، قال تعالى: ﴿وَكَلَّنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿الزخرف: 87﴾ وقال أيضا: ﴿وَكَلَّنَ

⁵³ - ينظر: ابن إسحاق، السيرة النبوية، ص 60-61، ومحمد أبو زهرة، خاتم النبیین، ص 38-39، ومحمد بن رزق بن طرهوني، صحيح السيرة النبوية المسماة السيرة الذهبية، دار ابن تيمية، القاهرة، ط 1، 1410هـ، ص 65/1-69.

⁵⁴ - ينظر: ابن إسحاق، السيرة النبوية، ص 61-65، وابن هشام، السيرة النبوية، ص 78/1-88.

⁵⁵ - محمد الصادق عرجون، محمد رسول الله ﷺ، ص 45/1.

سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿العنكبوت: 61﴾، ولكنه التقليد واعتقاداً من العرب أنها تقربهم إلى الله زلفى، ولكن القرآن الكريم أجابهم على هذه البلادة، فقال سبحانه: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ (يوسف: 106)، فنفى الله سبحانه الوسائط بينه وبين خلقه في العبادة، وأمرهم بعبادته وطاعته ونفى الشرك عنه .

"إذا كانت الوثنية قد ضعفت في آخر أمرها قوة الأوثان، فإن أوثان العرب خلقت فكرتها ضعيفة يوجد ما ينازعها، أو يجعلها قلقة غير مستقرة إذ هي في نفسها تحمل عوامل ضعفها وردها، ولكنه التقليد الأعمى الذي يسد مسالك الإدراك في العقل"⁵⁶.

يرى العالم الياباني توشييهيكو إيزوتو، أن مفهوم الله عند العرب⁵⁷ كان قريباً من مفهومه الإسلامي وعبر عن ذلك بالتوحيد الوقي، و استدل على هذه النظرة من خلال آيات القرآن الكريم، التي تظهر العرب يؤمنون أن :

- 1- الله هو خالق العالم.
- 2- أنه واهب المطر و خالق السموات والأرض.
- 3- أنه الوحيد المهيم على أقدس الإيمان.
- 4- الإخلاص في دينهم لله.
- 5- الله هو رب الكعبة حرم العرب المقدس⁵⁸.

والسؤال الذي يطرح دائماً، لماذا تمسك العرب بنظرة الوسيط مع الله؟، وحاربوا الإسلام حين جاء محمد ﷺ يدعو إلى توحيد الله الخالص ودرء جميع الأوثان والأنصاب؟، قال ﷺ: ﴿وَكُنَّ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنَ بَعْدِ مَوْتِهَا لِيَقُولَنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (العنكبوت: 63)، هو التقليد الأعمى للآباء الذي صدهم عن الوصول إلى الحقيقة بعقولهم، لأنهم عطلوا جميع حواس الإدراك عندهم للتدبر والتأمل في خلق الله ﷻ والوصول إلى حقيقة أن للكون خالقاً واحداً هو الأحق بالعبادة والطاعة من مخلوقاته. ومع هذه الأصنام والأوثان المنتشرة

⁵⁶ - أبو زهرة، حاتم النبیین، ص 40.

⁵⁷ - ينظر: توشييهيكو إيزوتو، الله، الإنسان في القرآن - علم دلالة الرؤية القرآنية للعالم - ترجمة: هلال محمد الجماد، مركز دراسات الوحدة

العربية، بيروت، ط 1، مارس 2007م، ص

58 - نفسه، بتصرف.

في كل مناطق الجزيرة العربية، نجد مجموعة من العرب من يعتقد بأديان أخرى، مع وجود لليهود في حير ويثرب، وقلة قليلة من النصارى بنجران ومجموعة أخرى اتخذت من حنيفة سيدنا إبراهيم عليه السلام خلاصا لها من الوثنية الصماء، ومن الذين دانوا بها نجد: ورقة بن نوفل، وعبيد الله بن جحش، وعثمان بن الحويرث، وزيد بن عمرو بن نفيل على ما ذكره ابن هشام في السيرة النبوية .

من خلال ما تقدم في هذا المبحث الذي جاء بعنوان: الامتداد التاريخي والجغرافي للجزيرة العربية يظهر أن مدينة مكة تقع في منطقة هامة من الجزيرة العربية تتوسط مجموعة من الحضارات كانت بعيدة عنها في كل شيء، إلا أن ميزة التوسط هذه جعلتها تكون محور العالم بعد البعثة النبوية في القرن السادس الميلادي ونقطة تحول هامة في التاريخ الإنساني، بدءا من رفع القواعد الذي قام به نبي الله إبراهيم عليه السلام وابنه إسماعيل، ودعائه إلى أهل المنطقة، والفضل العظيم الذي لقيه ساكنة الأرض، إلى أن بعث الله تعالى إليهم محمد عليه السلام خاتم المرسلين.

المبحث الثالث : محمد ﷺ قبل البعثة النبوية .

المطلب الأول: محمد ﷺ في مرحلة الطفولة.

كانت سنة الله في خلقه على وجه هذه الأرض أن يرسل رسوله بشرا إلى أقوامهم، وكان النبي ﷺ واحدا منهم، وقد كانت حكمة الله تعالى في ذلك أن يتجانس الأنبياء والرسل مع أقوامهم، وتكون رسالة الله إلى البشر واضحة في أنبيائه أولا ثم تنتقل إلى الناس، قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (النحل: 43)، وقد أعلن النبي ﷺ عن بشريته بعد أن عاش في قومه زمنا، عرفوه وخبروه جيدا، قال ﷺ: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ (الكهف: 110)، "والله قادر على كل شيء ولكنه خلق لهذا الوجود نواميس، وبرأ مخلوقاته وفق هذه النواميس بقدرته واختياره، وقدّر أن تمضي النواميس في طريقها، لا تستبدل ولا تتحول، وتلك حكمة الله في الخلق والتكوين، ولكن القوم لا يعلمون" ⁵⁹.

بعث الله تعالى رسوله محمد ﷺ إلى العرب وهو رجل منهم، وكان آخر الأنبياء عهدا بالأرض وتبليغ رسالات الله تعالى إلى الناس، ودلالة كون النبي ﷺ من قريش له أثر عظيم في نفس القوم (من أنفسكم)، فالنبي ﷺ أشرف الناس نسبا وأعرقهم سلالة فهو خيار من خيار، فكان اختيار الله تعالى له ليكون النذير والبشير في مكة المكرمة مدينة سيدنا إبراهيم عليه السلام، كما في الحديث الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه عن واثلة بن الأسقع أنه قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿ إِنْ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَكْدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ ﴾ ⁶⁰.

59- محمد علي الهاشمي، شخصية الرسول ودعوته في القرآن الكريم، ص13.

60- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الفضائل، باب: فضل نسب النبي ﷺ، رقم: 2276، 58/7، والترمذي في السنن، كتاب المناقب، باب: في فضل النبي ﷺ، رقم: 3605، 3606، 6-5/6، وقال: هذا حديث حسن صحيح، الترمذي: أبو عيسى محمد بن عيسى، الجامع الكبير، ت: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1996م، وأخرجه أحمد في المسند، رقم: 16923، 224-223/13.

وقال النبي ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ خَلْقِهِ وَجَعَلَهُمْ فِرْقَتَيْنِ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ فِرْقَةٍ وَخَلَقَ الْقَبَائِلَ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ قَبِيلَةٍ وَجَعَلَهُمْ بُيُوتًا فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ بَيْتًا فَأَنَا خَيْرُكُمْ بَيْتًا وَخَيْرُكُمْ نَفْسًا﴾ 61.

شخصية النبي ﷺ جمعت مجموع صفات عائلته الشريفة، فبنو هاشم عُرفوا منذ أجدادهم الأوائل بصفات الشهامة والكرم والشرف العتيد، والخلق النبيل، وقد استطاعوا حماية الكعبة المشرفة

من الاندثار، لأنهم قاموا بالسقاية والرفادة فيها، وإطعام وسقاية الحجيج والمحافظة على تراث العرب في مكة المكرمة، يقول أبو طالب بن عبد المطلب عم الرسول ﷺ:

إذا اجتمعت يوما قريش لمفخر فعبد مناف سرها ووصيمها
فإن حصرت أشراف عبد منافها ففي هاشم أشرافها وقديمها
وإن فخرت يوما فإن محمدا هو المصطفى في سرها وكرمها⁶².

ففي صبيحة اليوم الثاني عشر من ربيع الأول من عام الفيل، الموافق سنة سبعين وخمسمائة، من ميلاد المسيح، وكادت السيدة آمنة بنت وهب سيدنا محمد ﷺ بن عبد الله بن عبد المطلب، وبشرت جده عبد المطلب بميلاد حفيده، فحمد الله على نعمته أمام الكعبة المشرفة، وسماه "محمد"، إلهاما من الله تعالى وإنفاذا لأمره، وتحقيقا لما قدره وذكره في الكتب السماوية.

يقول تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ (آل عمران: 144)، وقال ﷺ: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (الصف: 06).

اسم (محمد) مفعول من التحميد للمبالغة، يقال: حمده إذا نسبه إلى كثرة المحامد والفضائل، أو هو الذي حمد مرة بعد الأخرى كالممدح، قال الأعشي:

إليك أبيت اللعن كان وجيفها إلى الماجد القرم الجواد الحمد.

61- رواه الترمذي في السنن، كتاب: المناقب، باب: في فضل النبي ﷺ، رقم: 3607، 653/5، وقال: هذا حديث حسن، ورواه أحمد في المسند، رقم: 1788، 307/3، والبيهقي، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، 168/1، وأبو نعيم: أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران دلائل النبوة، ت: محمد رواس قلعي وعبد البر عباس، دار النفائس، بيروت، ط2، 1406هـ/1986م، 58/1.

62- ابن هشام، السيرة النبوية، 269/1.

ومحمد ﷺ قد اجتمع فيه المعنيان، فقد تكاملت فيه الخصال المحمودة، والأخلاق الفاضلة العظيمة. أما (أحمد) فهو أفعل تفضيل أي أكثر الناس حمداً، فهو علم منقول من صفة، وقد ثبت في الحديث الصحيح أنه يفتح عليه في المقام المحمود. بمحمد لم يفتح بها على أحد قبله، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام حمادون وهو أحدهم أي أكثرهم حمداً، أو أعظمهم في صفة الحمد، وهو صاحب لواء الحمد يوم القيامة، وهو ﷺ بلغ الغاية في الإنصاف بالحمد والفضائل، والغاية في حمد الله والثناء عليه بما هو أهله، وشكره على نعمائه. وقد ورد هذا الاسم في القرآن مرة واحدة على لسان عيسى عليه السلام في التبشير بالنبي أحمد ﷺ.

من الأحداث التي مرت على النبي ﷺ خلال تكوينه الأول هو اليتيم الذي عاشه، مع الفقر والحاجة لصعوبة العيش في صحراء مكة المكرمة، فقد مات والده عبد الله بن عبد المطلب في رحلة إلى الشام، وهو مار بأحوال أبيه عبد المطلب بن عدي بن النجار، ودفن بيثرب، والنبي محمد ﷺ حمل في بطن أمه آمنة كما توفيت أمه آمنة بنت وهب، في رحلة جمعتها مع وليدها وأم أيمن إلى أحوال عبد المطلب من بني النجار وقد توفيت في رحلة العودة إلى مكة، ودفنت بقرية الأبواء. وتركت محمد ﷺ، غلاماً لا يجاوز السادسة من عمره بيكي أبويه اللذين لم يطب له العيش في كنفهما طويلاً، عن أبي هريرة قال: زار النبي ﷺ قبر أمه، فبكى وأبكى من حوله، ثم قال:

﴿ اسْتَأذَنْتَ رَبِّي فِي زِيَارَةِ قَبْرِ أُمِّي ، فَادْنِ لِي ، وَاسْتَأذِنْتَهُ فِي اسْتِغْفَارِ لَهَا ، فَلَمْ يَأْذَنْ لِي ۖ ﴾⁶³ ، ثم كفل الجد عبد المطلب حفيده وأخذ به بعين العطف والحنان إلى أن توفي بعد عامين من كفالته، وعهد به إلى عمه أبو طالب، "لم يكن أبو طالب بأكبر بني عبد المطلب ولا بأكثرهم مالا ولكنه كان أشرف قريش وأعظمها مكانة وأكرمها، وقد أحب أبو طالب ابن أخيه محمداً حباً شديداً، لا يحبه أحداً من ولده"⁶⁴ .

63 - رواد مسلم في صحيحه، كتاب: الجنائز، باب: استئذان النبي ﷺ ربه عز وجل زيارة قبر أمه، رقم: 976، 65/3، والترمذي في السنن، أبواب الجنائز، باب: ما جاء في الرخصة في زيارة القبور، رقم: 1054، 357/2-358، ورواه ابن ماجه في السنن، كتاب الجنائز، باب: ما جاء في زيارة قبور المشركين، رقم: 1572، 93/3. ابن ماجه: أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، سنن، ت: بشار عواد معروف، دار الجيل، بيروت، ط1، 1418هـ/1998م، ورواه أبو داود في السنن، كتاب: الجنائز، باب: في زيارة القبور، رقم: 3234، 361/3. أبو داود: سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي، سنن أبي داود، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 1418هـ/1997م، والنسائي في السنن، كتاب: الجنائز، باب: زيارة قبر المشرك، رقم: 2033، 395/2.

64 - محمد أبو شهبة، السيرة النبوية، 207/1.

المطلب الثاني: حياة محمد ﷺ في مكة .

عاش محمد ﷺ تحت كنف عمه أبا طالب، ولكنه أبا القعود دون عمل يروض به نفسه ويساعد عمه الذي عُرف بكثرة العيال وقلة المال، فكان يرعى الغنم في شعاب مكة.

قال ﷺ: **مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الْغَنَمَ فَقَالَ أَصْحَابُهُ وَأَنْتَ فَقَالَ نَعَمْ كُنْتُ أُرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطٍ⁶⁵ لِأَهْلِ مَكَّةَ⁶⁶ .**

والحكمة من رعي الغنم كما ذكر أبو شهبة، التمرن على قيادة الأمم ورعاية مصالحهم⁶⁷، أما عن مشاركة النبي ﷺ في التجارة، تذكر كتب التاريخ والسير أن للنبي ﷺ رحلتان إلى الشام، الأولى كانت مع عمه أبي طالب، وفيها كان عمره اثنا عشر سنة. وفي هذه الرحلة التقى الراهب بحيرى، الذي جذب انتباهه الغيمة التي تظل شخصا من القافلة. وحضر النبي ﷺ في شبابه حرب الفجار⁶⁸ بين قريش وغيرها من قبائل كنانة وأحلافها، وبين قيس وأحلافها، وحضر النبي ﷺ هذه الحرب مع أعمامه، حيث كان يرمي معهم، وينبل لهم⁶⁹.

بعد حرب الفجار التي دامت أعواما جاء حلف الفضول، الذي اشتهر بأنه أشرف حلف وأكرمه في العرب حيث اجتمعت بنو هاشم وزهرة، وبنو تميم بن مرة في دار عبد الله بن جدعان، وتحالفوا في الشهر الحرام (ذو القعدة) وتحالفوا بالله ليكونن يدا واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يرد حقه⁷⁰، روى ابن كثير من طريق الحميدي عن سفيان بن عيينة عن عبد الله عن محمد وعبد الرحمن بن أبي بكره قالوا: قال رسول الله ﷺ: **لَقَدْ شَهِدْتُ فِي دَارِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُدْعَانَ حِلْفًا مَا أُحِبُّ أَنْ لِي بِهِ حُمْرَ النَّعَمِ وَلَوْ أَدْعَى بِهِ فِي الْإِسْلَامِ لَأَجَبْتُ⁷¹ .**

⁶⁵ - قراريط جمع قيراط، وهو جزء من الدرهم أو الدينار يعني يرعاها بأجر.

⁶⁶ - رواد البخاري في صحيحه، كتاب: الإجارة، باب: رعي الغنم على قراريط، رقم: 2262، 130/2.

⁶⁷ - ينظر: محمد أبو شهبة، السيرة النبوية، 209/1.

⁶⁸ - الفجار: سميت بذلك لوقوعها في الأشهر الحرم التي حرم فيها القتال عند العرب.

⁶⁹ - ابن هشام، السيرة النبوية، 241/1.

⁷⁰ - ينظر: ابن سعد: محمد بن سعد بن منيع الزهري، كتاب الطبقات الكبير، ت: علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1421هـ/2001م، 128/1، وابن كثير، البداية والنهاية، 315/2، وابن الأثير: مجد الدين المبارك بن محمد الجزري، النهاية في غريب الحديث، ت: محمود محمد الطناحي، دار الفكر، بيروت، لبنان، (د.ت)، 456/3، والشامي: محمد بن يوسف الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية لجنة التراث الإسلامي، القاهرة، مصر، 1418هـ/1997م، 209/2.

⁷¹ - أورده ابن هشام، السيرة النبوية، 182-183/1، وهو حديث مرسل، وابن كثير في البداية والنهاية، 315/2.

كما شهد النبي ﷺ أعظم حدث في حياة العرب أيام الجاهلية، وهو إعادة بناء الكعبة المشرفة ووضع الحجر الأسود في مكانه، مع جمع كلمة القرشيين على رأي واحد، فعندما بلغ محمد ﷺ خمساً وثلاثين سنة من عمره وهو الرأي الذي قاله ابن إسحاق، ورجحه جمهور المؤرخين و مؤلفي المغازي والسير.

وخرج النبي ﷺ في رحلة تجارة إلى الشام بمال السيدة خديجة بنت خويلد، التي رأت فيه صدق الحديث وعظم الأمانة، وكرم الأخلاق. فخرج محمد بتجارة خديجة مع غلام لها يدعى (ميسرة)، وسار النبي ﷺ إلى الشام وباع واشترى، وربح كثيراً وضرب أسمى معاني الصدق والأمانة بشهادة ميسرة غلام خديجة بنت خويلد.

ثم كان زواج النبي ﷺ من السيدة خديجة بنت خويلد، المرأة الحازمة والشريفة، وهي أوسط قريش نسبا، وأعظمهم شرفا، وأكثرهم مالا. ورزق منها الولد، وتقاسم الزوجان الحياة بكل معانيها.

مرت حياة محمد ﷺ قبل البعثة النبوية طبيعية، شهد خلالها حوادث عظيمة، كانت سماها البارزة قوية في تكوين شخصية هذا الرجل، لقد حفظه الله تعالى من كل وثنيات الجاهلية ودنائسها.

روى البخاري ومسلم أن عمرو بن دينار سمع جابر بن عبد الله رضي الله عنهما يقول:
 ﴿لَمَّا بُنِيَتْ الْكُعْبَةُ ذَهَبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَبَّاسٌ يَنْقُلَانِ حِجَارَةً فَقَالَ الْعَبَّاسُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اجْعَلْ إِزَارَكَ عَلَيَّ عَاتِقِكَ مِنْ الْحِجَارَةِ فَفَعَلَ فَخَرَّ إِلَى الْأَرْضِ وَطَمَحَتْ عَيْنَاهُ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ قَامَ فَقَالَ إِزَارِي إِزَارِي فَشَدَّ عَلَيْهِ إِزَارَهُ ۗ﴾⁷².

اختار النبي محمد ﷺ بفطرته السليمة اعتزال الحياة العامة لأهل مكة، وذهب يبحث بتفكيره في ملكوت الله جل وعلا، ويؤمن نظره في بدائع صنع الخالق، الذي لا يتصور أن يكون وثنا من حجر منحوت في ركن من أركان الكعبة المشرفة، وحب إليه الخلوة بغار حراء؛ وهو جبل في أعلى مكة على ثلاثة أميال منها عن يسار المار إلى منى، له قمة مشرفة على الكعبة منحنية، ويرجع اختيار المكان إلى أمرين، أولاهما: أن غار حراء كان مترويا في انعطاف وميل عن

⁷² - رواه البخاري في صحيحه، كتاب: مناقب الأنصار، باب: بيان الكعبة، رقم: 3829، 50/3، ومسلم في الصحيح، كتاب: الحيز، باب:

الاعتناء بحفظ العورة، رقم: 76-77، 134/1.

طريق مرور الناس، الأمر الذي يمكن المختلي فيه من البعد عن الناس وضوءاء الحياة، ويساعد على التفرغ للعبادة. وهي أمور كان النبي ﷺ يقصد إليها في خلائه وتعبده بالتفكر في مخلوقات الله وبدائع ملكوته، وثانيها: أن غار حراء يقع في مكان يبصر منه المعتكف بيت الله الحرام، الكعبة المشرفة، والنظر إلى البيت الحرام عبادة، تُذكر بأعظم متعبد بقي على تقلبات الحياة وصرورها⁷³. وبالرغم من أن الروايات التاريخية لا تذكر صفة تعبد النبي ﷺ، وعلى أي شرع كان؟ وهل كان متدينا قبل البعثة؟ يذكر محمد الصادق عرجون أن: "تعبده ﷺ في خلواته واعتزاله قبل مبعثه كان أساسه التفكير في آيات الله الكونية، والتأمل في مظاهر الطبيعة ودلائل الإبداع الإلهي في نظام الوجود، وسيره على سنن متناسقة مقدرة، تدل على حكمة التدبير."⁷⁴.

في هذه المرحلة من حياة محمد ﷺ قبل البعثة النبوية، والتي دامت أربعين سنة (40)، عاش خلالها محمد في المدينة التي ولد فيها وتربى فيها وكبر خلالها يتيما، وتعايش مع البيئة الصحراوية القاسية، فرعى الغنم وخرج للتجارة إلى الشام كغيره من القرشيين، إلا أن رعاية الله كانت الحافظ لهذه الشخصية العظيمة، والتي أيدها الله برعايتها وحفظها تمهيدا لحمل الرسالة الخاتمة.

ومن خلال الأحداث التي مرت، تأتي آيات القرآن الكريم قليلة في بيان تاريخ النبي ﷺ، بالرغم من الأحداث العظيمة التي مرت بالمنطقة، وكانت حدثا في حياة النبي ﷺ.

الأمر الأول: بشرية النبي ﷺ: قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ (الكهف: 110)، وهو تأكيد أن المبعوث إلى الناس ما هو إلا بشر يمتلك جميع الصفات البشرية كغيره من الأنبياء والمرسلين، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل: 43)، بالرغم من أن الكفار قديما وحديثا أنكروا على محمد بشريته، واصطفاء الله تعالى له، وهو أحق المخلوقات بحمل رسالة ربه إلى العالمين ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾ (يونس: 02).

73 - محمد بيومي مهران، السيرة النبوية الشريفة 162/1-163.

74 - محمد الصادق عرجون، محمد رسول الله ﷺ، 217/1.

"وهذه الصورة الفطرية الطبيعية تصور محمدا ﷺ في ميلاده إنسانا ولدته أمه في يسر وبهجة وضيئا نظيفا، حلو الملامح جميل الحيا كما تلد كثير من الولدان أمهاتهم" ⁷⁵.

أما الأمر الثاني الذي يرجح الكثير من رواة التاريخ والسير وقوعه، حادثة شق صدر النبي ﷺ، ويجمع الكثير اليوم أن رواية ابن إسحاق التي نقلها الطبري وابن هشام وابن الأثير وابن كثير، يمكن الاحتجاج بها بالرغم من الإرسال، لأن ابن إسحاق رواها عن رجل لم يسمه، وبعض أسانيدنا جيدة، وقد رواها مسلم في صحيحه مجملة ⁷⁶.

وبالرغم من وجود روايات مختلفة ⁷⁷ في كتب التاريخ والمغازي والسير، والحديث عن حادثة شق الصدر ومكانها وزمانها وعددها، إلا أن الأمر يتعلق بأمر إلهي يخص به نبيه محمدا ﷺ، وإن فاقت الحادثة السنن والقوانين الكونية للحياة، وحتى منطق العقل، إلا أن حدوثها واقع بشهادة الروايات المسندة منها والمرفوعة إلى النبي ﷺ، وحتى إلى مدارك العقل، أن الله تعالى لا يمكن أن تعوزه القدرة على القيام بهذا الأمر لأجل نبيه ورعاية له من أدران الآثام والجاهلية.

أما الأمر الثالث: الذي عايشه محمد ﷺ، وحتى قبل ميلاده هو اليتيم المبكر له قال ﷺ:

﴿لَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ (الضحى: 6-7).

شخصية محمد ﷺ اكتملت معالمها الآن وأصبحت جاهزة لأمر عظيم، هو الاصطفاء الرباني لحمل الرسالة الخاتمة، هذا الرجل الذي كان عليه الاتصال المباشر بالملك من أجل تلقي تعاليم الإسلام، إنه الأمر الجلل الذي حدث في ليلة القدر من شهر رمضان، ومحمد ﷺ معتكف في غار حراء.

⁷⁵ - بيومي مهران، السيرة النبوية الشريفة، 101/1 .

⁷⁶ - ينظر: أبو شهبة، السيرة النبوية، 201-196/1.

⁷⁷ - ينظر: محمد الصادق عرجون، محمد رسول الله ﷺ 143/1-151، بيومي مهران، السيرة النبوية الشريفة، 110، 104/1 .

من خلال هذه المباحث الثلاثة للفصل الأول، الذي جمع مساحات الجزيرة العربية، وعرف بأهلها وأرضها، وبين أهمية الحضارات في عصور مختلفة وأماكن مختلفة من شبه الجزيرة العربية، يوضح أهمية مكان مقدس، أو مدينة مقدسة عرفت أعظم مراحل التاريخ وأهمها، وهي مرحلة النبوة الخاتمة التي دامت سنين عددا في مدينة مكة المكرمة وما جاورها، من خلال هذه التفاصيل المهمة للحياة الأولى لشخصية النبي المختار محمد ﷺ تأتي مجموعة من النتائج كما يلي:

1- بيت الله الحرام أول بيت وضع للناس في الأرض، بناه جد العرب الأول إبراهيم عليه السلام ليكون رمزا للحقيقة المطلقة وهي حقيقة التوحيد، توحيد التوجه إلى الله، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران: 96).

2- سكان شبه الجزيرة العربية يحملون عراقة تاريخية، وقدرة على حمل الرسالة الخاتمة ومتابعة نشرها في أرجاء الدنيا.

3- معجزة الإسلام كانت القرآن الكريم، وذلك نتيجة لما وصل إليه العقل العربي من النضوج العقلي والكمال الفكري، "إن الإنسانية-لعهد محمد- كانت قد تجاوزت طور الصبا، وبلغت أشدها ورشدها...، وهي بهذا جديرة أن تستقل بنفسها، وأن تستهدي بما أودع الله فيها من عقل، وبما حملت إليها السماء من وصايا... ومن هنا ندرك السر في أن الرسالة الإسلامية كانت رسالة "عقلية" "منطقية" تخاطب العقل، وتجيء لإقناعه عن طريق الحجة القائمة على البراهين الاستدلالية، التي يستقيم عليها تفكير الناس جميعا... عامتهم وخاصتهم على السواء!"⁷⁸.

4- قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران: 33).

فكان محمد خيار من خيار، العربي الهاشمي الذي حمل رسالة ربه إلى العالمين، "ولقد اختار لها من يعلم أنه لها أهل، ولعله -سبحانه- لم يشأ أن يجعل لهذه الرسالة سندا من خارج طبيعتها، ولا قوة من خارج حقيقتها، فاختار رجلا ميزته الكبرى: الخلق...، وهو من طبيعة هذه الدعوة، وسمته البارزة: التجرد...، وهو من طبيعة هذه الدعوة، ولم يختره زعيم قبيلة ولا رأس عشيرة، ولا صاحب جاه، ولا صاحب ثراء...، كي لا تلتبس قيمة واحدة من قيم هذه الأرض بهذه الدعوة النازلة من السماء، ولكي لا تزدان هذه الدعوة بحلية من حلى هذه الأرض ليست من حقيقتها في

78- عبد الكريم الخطيب، النبي محمد ﷺ، دار الفكر العربي، ط2، 1976م، صص 114، 115.

شيء، ولكي لا يكون هناك مؤثر مُصاحب لها خارج عن ذاتها المجردة، ولكي لا يدخلها طامع ولا يتزهر عنها متعفف"79.

5- آيات القرآن الكريم تتحدث عن بيت الله تعالى الذي بناه إبراهيم وابنه إسماعيل وفضل الله تعالى على هذا المكان بأن جعله مقدسا، واختار القوم الذين سكنوه من العرب لحمل الرسالة الخاتمة وبعث رسول منهم، وقد سماهم إبراهيم المسلمين.

الجزيرة العربية عرفت العديد من الأحداث والمذكور في القرآن الكريم هو عن الأقسام الذين بعث إليهم أنبياء وفضلهم على غيرهم، لكنهم كذبوا الرسل واختاروا الكفر عن الإيمان فأبادهم الله سبحانه ليكونوا عبرة في التاريخ الإنساني.

أما السيرة التاريخية للنبي ﷺ فكان الحديث عنها في بشارات الأنبياء السابقين وما حمله أهل الكتاب من نبوءات بعثة النبي ﷺ في نصوص كتبهم زمن عهد النبوة حتى يكونوا أمام حجة صدق دعوة محمد ﷺ وأنه خاتم الأنبياء والمرسلين الذي بشر به عيسى عليه السلام، قال ﷺ: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿﴾ (الصف:6).

وقد سرد القرآن الكريم بعض من مشاهد حياة النبي ﷺ منها اليتيم والحياة العائلية، كذا حادثة شق الصدر التي تعرض لها النبي عليه الصلاة والسلام وهو غلام.

79- محمد علي قطب، إرهابات نبوة خاتم المرسلين محمد ﷺ، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ط1، 1425هـ/2004م، 133-134.

الفصل الثاني: البعثة النبوية.

المبحث الأول: الفترة المكية.

تمهيد:

القرآن الكريم كتاب الله الذي نزل على نبيه محمد ﷺ، وهو كتاب مكمل للكتب السابقة، لأنه آخر الكتب نزولا من السماء، فهو الكتاب الذي يُقر الحقائق، ويثبت الوقائع. جاء ليبين حقيقة النبوة ورسالة الله إلى الناس، فهذا الكتاب يظهر مسيرة النبوة عبر التاريخ الطويل للإنسان في الأرض، فهو يقرر وقوعها كل مرة في مكان يختاره الله تعالى من أجل هداية قوم إلى دين الله سبحانه، ثم جاء الإقرار الخاتم ليعيد إلى الأذهان حقيقة النبوة مرة أخرى ويعيدها إلى مسار التاريخ من جديد.

الحديث عن سير الأنبياء والرسول الذي جاء في سور القرآن الكريم وآياته يظهر ذلك الارتباط بين الناس والأنبياء وتلك العلاقات القويمة في إرساء دعائم الحضارة الإسلامية، وهذا الارتباط يأتي كل مرة تحت مسمى النبوة، قال ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (الشورى: 52).

المطلب الأول: بداية الوحي.

جاءت نبوة محمد ﷺ في القرن السادس الميلادي لتعيد مسار النبوة في حياة الناس، وبعث العنوان الصحيح للحياة فكانت مهمة هذا النذير هي إنقاذ المشركين من أمراض الوثنية التي حالت بين العرب وبين ربهم، وجعلتهم أجسادا من دون روح قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَيَّ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (الحديد: 09).

كما أمره الله تعالى ببيان كذب أهل الكتاب، وبيان الجوهر النقي لدينهم الذي تراكمت حوله الأساطير والأباطيل، قال ﷺ: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ مِرْضَوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (المائدة: 15-16).

القرآن الكريم يبين أن محمد هو رسول الله إلى الناس جميعا جاء ليبلغ رسالة ربه الواحدة والشاملة على امتداد من رسالات الأنبياء السابقين قال تعالى: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل: 44)، وقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (الفرقان: 01).

في صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: ﴿أَوَّلُ مَا بُدِيَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْوَحْيِ الرَّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ ثُمَّ حَبَبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ وَكَانَ يَخْلُو بَغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّنُ فِيهِ وَهُوَ التَّعَبُّدُ اللَّيَالِي ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ وَيَتَزَوَّدَ

لَذَلِكَ تَمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ... ﴿٨٠﴾ .

هذا الإعداد الإلهي للنبي محمد ﷺ كان لتهيئته للأمر الجليل الذي ينتظره وهو حمل رسالة ربه للعالمين، فالنبوة اصطفاء من الله تعالى لأحد عباده الأخيار للدعوة إلى الله، فهي: "صورة من صور الوحي الإلهي لا تعتمد تكليف التبليغ الذي إذا وقع فلا يقصد به الدعوة الواجبة وجوب التكليف العقيدية و التعبدية، والتزام أصول الفضائل عملاً إيجابياً واجتناب الرذائل كفا سلبياً"81.

كانت بداية النبوة بأمر من الله تعالى بإرسال جبريل عليه السلام إلى محمد ﷺ وهو في غار حراء، قال تعالى: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَمَرْبُكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (العلق: 1-5).

هذا إعلان صريح ببداية النبوة، حين أمر جبريل محمداً بالقراءة (اقرأ)، فأجابته (ما أنا بقارئ)، فقال جبريل: (اقرأ باسم ربك الذي خلق)، فهي دعوة من الله تعالى بالتوحيد، كما أمره بالعلم والعبادة باسم الله الواحد الأحد، وهنا ظهور صريح لوحي النبوة أمام النبي باتصال محمد بجبريل ملك الوحي. أما البداية الأولى من قول عائشة رضي الله عنها: (أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي، الرؤيا الصادقة في النوم...)، كانت من دون علم محمد ﷺ بأنه نبي، أما في غار حراء فالأمر كان عيان أمام محمد ﷺ بالرغم من الفزع والهول الذي أصابه من عظم الأمر .

بعد إعلان الاصطفاء النهائي، جاء وقت التفسير لماذا كان هذا الاختيار؟، وما الهدف منه؟

قال ﷺ: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَمَرْبُكَ فُكِّبَرُ وَيَتَّابِكُ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ (المدثر: 1-5).

وهنا يظهر بأن النبوة عادت للظهور مجدداً، وبيانا لحكمة الله تعالى في الأرض بأن اختار أحد عباده لحمل رسالة الإسلام إلى العرب ومنهم إلى الإنسانية من بعد، قال ﷺ: ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبْرُكٌ مُصَدِّقٌ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ (الأنعام: 92)، وفيها أخذ محمد ﷺ مهمة التبليغ التي كلفه بها ربه،

80 - رواه البخاري في صحيحه، كتاب: بدء الوحي، باب: 03، رقم: 03، 14/3-15، وفي كتاب: التعبير، باب: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من

الوحي الرؤيا الصالحة، رقم: 6982، 296-295/4، وفي كتاب التفسير، باب: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾، رقم: 327/3-328، ورواه مسلم في

كتاب: الإيمان، باب: بدء الوحي الى رسول الله ﷺ، رقم: 161، 98-97/1.

81 - محمد الصادق عرجون، محمد رسول الله، 466/1.

بعد أن آمن بصدق البلاغ الذي آتاه من جبريل عليه السلام، "إيمان النبي صلى الله عليه وسلم برسالته، وتقديره لعظمتها، وعرفانه بأثقال أعبائها هو الأساس الذي يقوم على دعائمه بناء رسالته الخالدة، و لا أساس لها غيره، وقد بلغ النبي صلى الله عليه وسلم بإيمانه أعز وأرفع مراتب المرسلين" 82.

قال تعالى: ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفَرَقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ (البقرة: 285).

هذا الإيمان الصادق من النبي صلى الله عليه وسلم كان راسخا في قلبه قبل الدعوة إلى الله سبحانه، بالرغم من ثقل الأمانة وصعوبة المهمة، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَاْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (الأعراف: 158).

والآيات القرآنية الدالة على إيمان محمد صلى الله عليه وسلم برسالته كثيرة، لأنها جاءت على لسانه، قال صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴾ (الحجر: 89).

وقال صلى الله عليه وسلم: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنِّي إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ (ص: 65)، وقال أيضا: ﴿ إِنِّي نُوحِي إِلَيْكَ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ (ص: 70).

كما جاء خطاب الله تعالى إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم بتبليغ رسالته، قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ (الفتح: 08).

وقال صلى الله عليه وسلم: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (المائدة: 67).

إن هذا التبليغ الذي أمر الله تعالى به نبيه يكون عبر شرع سماوي ينقله محمد صلى الله عليه وسلم إلى الناس، وهذا الشرع هو الرسالة السماوية التي نزلها الله تعالى على محمد صلى الله عليه وسلم وحيأ أوحاه إليه. وكانت آيات بينات أنزلها الله تعالى من اللوح المحفوظ، ثم نزلت منجمة على نبيه المصطفى على مدى ثلاث وعشرين عاما، قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْهُ

أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿البقرة: 119﴾.

وقال عز من قائل: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (البقرة: 252).

وقال: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ لِمَنْ يَرِيْبُ

فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ (الشورى: 07).

إن امتداد إرسال الرسل كما يسميه محمد علي الهاشمي، هو تبليغ واحد للرسالة السماوية، ولإطلاق الحقيقة المطلقة وهي التوحيد، وإن اختلف الزمان والمكان إلا أن الظاهرة النبوية واحدة،

قال **حجّاج**: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ

يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (آل عمران: 144).

وقال: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ

وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾

(النساء: 163). وقال تعالى على لسان نبيه: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدُعَا مِنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا

بِكُمْ إِنْ أَتَعْبُوا إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (الأحقاف: 09).

الرسالة الإلهية إلى الناس كانت رسالة واحدة وثابتة عبر الأزمان ومختلف العصور، فاصطفى الله تعالى لتبليغها مجموعة من البشر، اختارهم على علم من إيمانهم بالرسالة أولاً،

وصدقهم في التبليغ ثانياً. "فدين الإسلام الذي يقوم على التوحيد هو الصورة الكاملة الواضحة

لدين الله الواحد الذي بعث به الرسل على فترات من الزمن وهو الصورة النهائية الشاملة لرسالة

الله الواحدة القديمة منذ أن أرسل الله أبا الأنبياء إبراهيم **عليه السلام**"⁸³.

محمد **ﷺ** نبي بعثه الله إلى العرب للتبشير والإنذار، فهو رجل من القرشيين من أهل مكة،

ذو نسب شريف فيهم، فهو من بيت بني هاشم، ومن نسل إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام.

قال **عليه السلام**: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾

83 - محمد علي الهاشمي، شخصية الرسول ودعوته في القرآن الكريم، ص71.

(الأعراف: 158).

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة 128).

وقال ﷺ: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (الجمعة: 04).

الرسول من القوم وهو مبعوث فيهم، جاء لتبليغ رسالة ربه إلى القوم الذين غرقوا في عبادة الأوثان، وابتعدوا عن عبادة الله الحق، وصاروا إلى أصنام شكلتها أيديهم، وتعلقت بها قلوبهم. المشركون عبدوا هذه الأوثان لتقربهم من الله زلفى، وإن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولون الله. ومع تجدد المصلحة التي تقتضيها تجارة سادة القوم، وكسب العيش الذي اعتاد عليه سكان مكة، و ما تجلبه لهم وفود الحجيج كل عام إلى الكعبة، بالرغم من العناية والتقديس الذي يولون به بيت الله الحرام. فجاء محمد ﷺ ليصحح هذه النظرة أو يغير هذه العقلية الوثنية ويبيّن إطار للمرجعية الواحدة نحو النظر الصحيح إلى العبادة والتقديس لشعائر الله ﷻ.

قال ﷺ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق 1-5).

هذه كانت أول كلمات الوحي التي جاءت على لسان جبريل عليه السلام، إعلاناً عن نبوة محمد ﷺ ودعوة إلى توحيد رب الخلق كلهم؛ لأن الأمر بالقراءة باسم الرب، هو عبارة عن توجيه النظر إلى الخالق الواحد ونبد جميع الأوثان، وتصفية ذهن العربي من مخلفات العصور والفترات الطويلة من حياته في هذه الصحراء بعيداً عن حقيقة العبادة.

وبما أن عنوان الرسالة كان الأمر بالعلم، فلا أخص أن يجعل الله تعالى بدايته باسمه، "...كن قارئاً إعجازاً، ولولم تكن من القارئین تعلماً، اقرأ مستعينا باسم ربك الذي أعدك بتربيته معلماً للدنيا..."⁸⁴.

هذا النبي الذي بعثه الله تعالى إلى القوم، جاء يحمل رسالة من ربه، وقد حملت اسم الوحي.

قال ﷺ: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعِ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾
(النحل: 123).

وقال ﷺ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ
الْغَافِلِينَ﴾ (يوسف: 3).

وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ لَأَ
مَرِيْبٍ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ (الشورى: 7).

وقال سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا
الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (الشورى: 52)،
كان الوحي من الله تعالى، نزل به الأمين جبريل عليه السلام على سيدنا محمد ﷺ، فما هو الوحي؟ وما
هي صفته وكيفيته؟.

1- الوحي لغة: يطلق على الإعلام الخفي السريع⁸⁵، وهو أعم من أن يكون إشارة، أو
كتابة أو رسالة أو إلهام غريزي أو غير غريزي، وهو بهذا المعنى اللغوي لا يختص بالأنبياء
وحدهم⁸⁶.

2- الوحي شرعاً: هو إعلام الله أنبيائه، ورسله بما يريد أن يبلغه إليهم من شرع، أو كتاب
بواسطة أو بغير واسطة.

وهو أيضاً ما أنزله الله على أنبيائه، وعرفهم به من أنباء الغيب، والشرائع.

3- أما صفته وكيفيته حدوثه، فقد جاءت الآية القرآنية لتبين هذه الحقيقة والصفة من
وقوع الوحي على الأنبياء والرسول.

قال ﷺ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ

⁸⁵ - ينظر: الراغب الأصفهاني، معجم مفردات القرآن، ص 858، مادة (و.ح.ي).

⁸⁶ - ينظر: محمد رشيد رضا، الوحي المحمدي، مؤسسة عز الدين، بيروت، لبنان، ط 2، 1352هـ، ص 81-82، ومحمد بن محمد أبو شهبه، المدخل
لدراسة القرآن الكريم، دار الجيل، بيروت، 1412هـ/1992م، ص 23.

بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿ (الشورى: 51) .

والوحي بجميع أنواعه المذكورة في الآية، يصاحبه علم يقين بأن ما ألقى إليه حق من عند الله، ليس من حديث النفس أو وسوسة الشيطان، وهذا هو الفرق بين الوحي والإلهام، وقد بين الحديث الذي ترويه عائشة أن أول الوحي الذي بدأ به محمد ﷺ هي الرؤيا الصادقة: " أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم " .

كما بينت الآيات القرآنية أن هذا الوحي الذي نزل على محمد ﷺ هو قرآن كريم من الله تعالى، قال ﷻ: ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (البقرة: 250)، وقال سبحانه: ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الأعراف: 2)، وقال: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ لَا مَرِيبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ (الشورى: 7) . القرآن الكريم المنزل على محمد ﷺ هو كتاب الله الذي يحمل آيات بينات للناس، وفي هذا الكتاب معجزة محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿ وَأَوْحِي إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنذِرَ كُفْرًا بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَتَيْنَاكُم تَشْهَدُونَ أَنْ مَعَ اللَّهِ إِلَهٌ آخَرُ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ (الأنعام: 19) .

وهذا دليل صدق النبي ﷺ وآية إعجازه، وبرهان أنه مرسل من الله تعالى، كما كان لكل نبي من الأنبياء والرسل السابقين آية معجزته .

قال ﷻ: ﴿ مَا مِنْ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا وَقَدْ أُوتِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا آمَنَ عَلَىٰ مِثْلِهِ الْبَشَرُ وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيته وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ 87 .

في هذه الفترة النبوية التي بدأت بكلمة "اقرأ" كعنوان للرسالة الخاتمة، التي شرف الله تعالى

87- رواه البخاري في صحيحه، كتاب: فضائل القرآن، باب: كيف نزل الوحي وأول ما نزل، رقم: 4981، 336/3، وفي كتاب: الاعتصام بالسنة، باب: قول النبي ﷺ: ﴿ بعثت مجوامع الكلم ﴾، رقم: 7274، 359/4، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته، رقم: 152، 93-92/1، كلاهما عن أبي هريرة رضي الله عنه، وأحمد في المسند رقم: 8472، مسند أبي هريرة، 204/8، ورقم: 9789، مسند أبي هريرة، 324/9. والبيهقي في السنن الكبرى، كتاب: السير، باب: مبتدأ البعث والتزليل، رقم: 17712، 7/9، وفي كتاب التفسير، سورة المدثر، رقم: 17722، 11/9. البيهقي: أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي، السنن الكبرى، ت: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3، 1424هـ/2003م.

بها نبيه محمد ﷺ، مبعوثا إلى الناس لإخراجهم من ظلمات الجهل والوثنية، حيث تذكر الروايات التاريخية⁸⁸ أن أول الآيات نزولا بعد فترة الوحي عن الرسول ﷺ هي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَمَرْبِّكَ فَكْبِّرْ وَبَيَّاكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ (المدثر: 1-5).

هذه الآيات تأمر محمد ﷺ بالإنذار والدعوة إلى توحيد الله سبحانه وتعالى، وعبادته وحده وترك عبادة غيره من الأصنام والأوثان.

روى البخاري في صحيحه بسنده عن جابر بن عبد الله أنه سمع رسول الله ﷺ يحدث عن فترة الوحي، فقال في حديثه: ﴿بَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ فَرَفَعْتُ بَصْرِي فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيِّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ فَرَعَبْتُ مِنْهُ فَارْجَعْتُ فَقُلْتُ زَمَلُونِي زَمَلُونِي فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَمَرْبِّكَ فَكْبِّرْ وَبَيَّاكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ (المدثر: 1-5) فَحَمِي الْوَحْيُ وَتَتَابَعُ 89 .

من خلال ما تقدم نلاحظ أن الفترة الأولى من بدء نزول الوحي بينت معالم النبوة كما يلي:

- 1- الإنذار: وهذه مهمة النبي ﷺ التي اضطلع بها منذ بدء الوحي، أي تبليغ الناس بمحتوى الرسالة التي جاء بها، وبيان للقرآن الكريم الذي أنزله الله تعالى على نبيه وكان معجزة الإسلام.
- 2- الدعوة إلى التوحيد: وهو العنوان الأول لهذه الرسالة، لأنه أول الركائز في بناء مجتمع إسلامي، بعيد عن جميع الوثنيات والأباطيل التي اجتاحت العالم منذ أمد، بعد فترة من الرسل، ورسالة الله إلى العالمين هي امتداد للرسالة الإلهية الواحدة، وهي التوحيد، "...يظهر سر تقديم الاسم الأكرم بإضافة التخصيص والتشريف على فعل الأمر المقرون بحرف الفاء في هذه الآية الكريمة ﴿وَمَرْبِّكَ فَكْبِّرْ﴾ ليفيد كل تعظيم وتكبير إجلال حق الله تعالى وحده، لا يشاركه فيه أحد، أو شيء من مخلوقات"⁹⁰، في هذا التوحيد بإضافة التكبير والتعظيم لاسم الرب، دلالة

88 - البيهقي، السنن الكبرى، كتاب: السير، باب: مبتدأ البعث والتزويل، رقم: 17722، 11/9، وابن كثير، البداية والنهاية، 8-7/4.

89 - رواه البخاري في صحيحه، كتاب: التفسير، باب: ﴿وَبَيَّاكَ فَطَهِّرْ﴾ (المدثر: 4)، رقم: 4925، 317/3، ومسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان،

باب: بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم: 161، 98-97/1.

90 - محمد الصادق عرجون، محمد رسول الله ﷺ، 591/1.

على أنه سبحانه وتعالى المخول بالعبادة والطاعة دون سواه من المعبودات.

في مرحلة النبوة الأولى كان محمد ﷺ يتعامل مع هذا الأمر العظيم برهبة كبيرة، بعد ما شهده في غار حراء أول الأمر، ورؤية جبريل ﷺ بين السماء والأرض، وتوالي الآيات القرآنية نزولاً، ثبت للعيان أنه نبي الله تعالى المصطفى من الأخيار، هنا سار الأمر في أهله، وأول الناس معرفة بهذا الأمر هي السيدة خديجة رضي الله عنها التي كانت القوة الدافعة لنبي الله تعالى، فما إن جاءها زوجها بنجر غار حراء حتى قالت له: "كلا فوالله لا يجزيك الله، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق"⁹¹.

والأمر الثاني الذي يدل على وقوع النبوة هو إيمان النبي ﷺ وتصديقه لأمر الوحي الذي أتاه به جبريل ﷺ، قال تعالى: ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ (البقرة: 285)، "فإيمان النبي ﷺ برسالته، و تقديره لعظمتها، و عرفانه بأثقال أعبائها هو الأساس الذي يقوم على دعائم بناء رسالته الخالدة، ولا أساس لها غيره، و قد بلغ النبي ﷺ بإيمانه أعز و أرفع مراتب المرسلين"⁹².

⁹¹ - سبق تخريجه، ص 70.

⁹² - محمد الصادق عرجون، محمد رسول الله ﷺ 296/1

المطلب الثاني: الدعوة السرية:

جاءت الرسالة الخاتمة في غار حراء تدعو محمد ﷺ الدعوة إلى الله تعالى، فكان على محمد ﷺ الإيمان بهذه النبوة، وإتباع أمر ربه سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَمِرْبَكَ فَكَبِّرْ﴾، فبدأ بالدعوة إلى هذا النداء الإلهي، بداية بأهل بيته، والأقربين من صحبه، وأول المؤمنين بهذه الرسالة كانت السيدة خديجة بنت خويلد زوجة الكريمة، قال ابن إسحاق: "وآمنت به خديجة بنت خويلد، وصدقت بما جاءه من الله، ووازرته على أمره، وكانت أول من آمن بالله ورسوله، وصدقت بما جاء منه. فخفف الله بذلك عن نبيه ﷺ، لا يسمع شيئاً يكرهه من ردِّ عليه وتكذيب له، فيحزنه ذلك إلا فرّج الله عنه بها إذا رجع إليها، تثبته وتخفف عليه، وتصدقته وتهون عليه أمر الناس" 93.

ومن المؤمنين الأوائل بدعوة محمد ﷺ نجد أبا بكر الصديق، وعلي بن أبي طالب الذي تربى في بيت النبوة الشريفة ونهل من الأخلاق والصفات المميزة في هذا البيت الطيب. وأيضا زيد بن حارثة غلام النبي ﷺ، وكذا بلال بن رباح الحبشي مؤذن رسول الله ﷺ. كما يلحق بالسيدة خديجة بنت خويلد بناتها، اللواتي تربين في بيت النبوة وعفة الأخلاق وطهر النفس، بعيدات عن الجاهلية وألواتها، قال الزرقاني: "ولم يذكر بناته ﷺ - الآتي في السابقين - لأنه لا شك في تمسكهن قبل البعثة بهديه وسيرته" 94.

وأسبقية أبو بكر الصديق صاحب رسول الله ﷺ، جعل أمر الدعوة يسير بخطى ثابتة، فهو من أشرف قريش ورجالها الذين بذلوا الكثير لأجل الدعوة الإسلامية منذ أول يوم لها في مكة المكرمة، فقد كان له الفضل البير في نشر الدعوة وإسلام الكثير من القرشيين، قال تعالى: ﴿إِنَّا نُنصِرُهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا إِذْ هُمَا فِي الْغَامِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ (التوبة: 40).

93 - ابن إسحاق، السيرة النبوية، ص 177-178، ابن هشام، السيرة النبوية، 140/1.

94 - الزرقاني: أبو عبد الله محمد بن عبد الباقي بن يوسف بن أحمد بن شهاب الدين بن محمد، شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1417هـ-1996م.

اجتمع المسلمون الأوائل في بيت الأرقم بن أبي الأرقم رضي الله عنه، يأخذون عن محمد ﷺ تعاليم الدين الإسلامي، ويتعلمون القرآن الكريم ويحفظون آياته المتزلة على النبي ﷺ، ويقيمون الصلاة المفروضة عليهم، ويتخلقون بخلق الإسلام حتى جاء أمر الله بإعلان الدعوة في قريش.

وقد اختار محمد ﷺ أن تكون خطواته الأولى في سرية تامة تنتقل من فرد إلى فرد في الليل الطويل، لتفتح الأفاق نحو صبح مضيء، لأن الحكمة تقتضي أن دينا جديدا يولد في صحراء وثنية بعيدة عن أسباب الحضارة والتطور، غارقة في الجهل والماديات، يجب أن يسير بحكمة بالغة، "وامتثال الأمر بالإندار العام بمثابة إلقاء البذر في الأرض الصالحة المستصلحة المتخيرة، رجاء أن تنبت وتثمر حتى تصل الدعوة هادئة قوية الجذب إليها قلوب مستعدة لتقبل دعوة الحق، وإلى عقول مستنيرة بنور الفطرة الأصيلة الصافية..."⁹⁵. ودامت هذه المرحلة قرابة الثلاث سنين، والسابقون إلى دين الله تعال في تزايد وقوة إيمانية عظيمة، وعندما أصبحت هذه الأرضية صلبة للدفاع عن الدعوة الإلهية، وتحقيق الأمر الإلهي بنشر الدعوة الإسلامية، جاء الأمر بالجهر بالدعوة وبيان رسالة النبي ﷺ التي جاء بها نذيرا للعالمين، قال ﷺ: ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ (الشعراء:214).

المطلب الثالث: الدعوة الجهرية:

الفرع الأول: المرحلة الأولى.

انتشرت في بيوت مكة روايات، أن خبرا من السماء يأتي محمد ﷺ، وفيه آيات تتلى على لسان أصحابه حتى قيل ما من بيت من بيوت قريش إلا علم بدعوة محمد ﷺ، حتى جاء أمر الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء: 214).

فخرج محمد ﷺ يدعو أهل مكة إلى دين الله ﷻ، وترك عبادة الأوثان لأنه سبحانه الخالق والمالك لكل شيء وهو وحده الأحق بالعبادة، وبما أن العشيرة هي سند الرجل وقوته أثر النبي ﷺ أن يبدأ بأعمامه وأقربائه، روى البخاري ومسلم عن ابن عباس، قال: لما نزلت ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾، ﴿خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى صَعِدَ الصَّفَا فَهَتَفَ يَا صَبَا حَاهُ فَقَالُوا مَنْ هَذَا فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ فَقَالَ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا تَخْرُجُ مِنْ سَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِي قَالُوا مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا قَالَ فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ قَالَ أَبُو لَهَبٍ تَبَا لَكَ مَا جَمَعْتَنَا إِلَّا لِهَذَا ثُمَّ قَامَ فَنَزَلَتْ: ﴿تَبَّتْ يُدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ (المسد: 1) ﴿٩٦﴾.

وروى الشيخان عن أبي هريرة ؓ قال:

لما أنزلت هذه الآية: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ دَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُرَيْشًا فَعَمَّ وَخَصَّ فَقَالَ: ﴿يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ أَنْتَدُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ يَا مَعْشَرَ بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ أَنْتَدُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ يَا مَعْشَرَ بَنِي عَبْدِ مَنَاةٍ أَنْتَدُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ يَا مَعْشَرَ بَنِي هَاشِمٍ أَنْتَدُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَنْتَدُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ يَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ أَنْتَدِي نَفْسَكَ مِنَ النَّارِ فَإِنِّي وَاللَّهِ

⁹⁶ - رواه البخاري في صحيحه، كتاب: التفسير، باب: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء: 214)، رقم: 4770، 272/3-273، ومسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾، رقم: 194/1، 208.

مَا أَمَلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِلَّا أَنْ لَكُمْ رَحِمًا سَأَبْلُهَا بِبِلَالِهَا ۗ ﴿٩٧﴾ .

بعد هذا الإعلان الصريح للدعوة الجديدة، والحركة التي سرت في المجتمع المكي ودخول العبيد والإماء في دين الله تعالى، والعديد من أشرف قريش وسادتهم. هنا بدأ الإيذاء والتعذيب يلحق بأتباع هذا الدين، والاستهزاء والتكذيب يطال محمد ﷺ ودعوته إلى دين الإسلام، روى أحمد في مسنده عن ربيعة بن عباد الديلمي وكان جاهلياً أسلم فقال: ﴿رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِسُوقِ ذِي الْمَجَازِ يَتَخَلَّلُهَا يَقُولُ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَفْلَحُوا قَالَ وَأَبُو جَهْلٍ يَخْتَبِي عَلَيْهِ التُّرَابَ وَيَقُولُ: إِنَّهُ صَابِيٌّ ٩٨ كاذب، فقلت من هذا قالوا محمد بن عبد الله وهو يذكر النبوة، قلت من هذا الذي يكذبه قالوا: عمه أبو لهب ٩٩﴾ .

وخلال هذه المرحلة الحاسمة من تاريخ الدعوة الإسلامية، كان نزول آيات من القرآن الكريم لبيان الوضع الصعب الذي يمر به المسلمون، وتثبيتنا للنبي ﷺ، قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِكَيْفَىٰ أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَىٰ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرَّجْعَىٰ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَتَّبِعُ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ أَوْ أَمَرَ بِالْتَّقْوَىٰ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ كَلَّا لَا تَطِعُهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ (العلق: 6-19).

وما ترويه كتب السير والتاريخ من أنواع الأذى والتعذيب الذي تعرض له صحابة رسول

٩٧- رواه البخاري في صحيحه، كتاب: التفسير، ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء: 214)، رقم: 4771، 273/3، وفي كتاب: الوصايا، باب: هل يدخل النساء والولد في الأقارب؟، رقم: 2753، 291/2، وطرفاه: 3527، 4771، ومسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾، رقم: 204، 206، 193/1، واللفظ لمسلم.

وأورده السيوطي في الدر المنثور، 303/11. والحديث عند أحمد في المسند، مسند أبي هريرة، رقم: 8711، 400/8، والترمذي في السنن، أبواب تفسير القرآن، باب: من سورة الشعراء، رقم: 3185، 248-247/5، وقال: الترمذي: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، وأخرجه ابن جرير في التفسير، 657-655/17، والبيهقي في الدلائل، 176/2، 177، والنسائي في السنن، كتاب: الوصايا، باب: إذا أوصى لعشيرته الأقربين، رقم: 6438، 159/6.

٩٨- صبا الرجل: خرج عن دين قومه. قال الشهرستاني: "صبا الرجل إذا مال وزاغ والصابئة مقابلة للحنيفية ويقال صبا الرجل إذا عشق وهوى، والصبوة الانحلال عن قيد الرجال". الشهرستاني: أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد، الملل والنحل، ت: محمد سيد الكيلاني، دار الجيل، دار صعب، بيروت، 1406هـ/1986م، 94/2. والصابئة: "اسمهم مأخوذ من صبا إذا خرج من شيء إلى شيء ومن دين إلى دين"، أبو الفضل عباس بن منصور السكسكي، البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان، ت: بسام علي سلامة، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن، ط2، 1417هـ/1996م، ص96.

٩٩- رواه أحمد في مسنده، رقم: 15965، 419/12، ورقم: 15962، 15966.

الله ﷺ، أن أبو جهل كان يُعري بهم في رجال من قريش، إذا سمع بالرجل قد أسلم، له شرف ومنعة، أنبئه وأخزاه وقال: تركت دين أبيك وهو خير منك، لئسْفَهَن رأيك ولنضعن شرفك؛ وإن كان تاجرا قال: والله لئنكسِدَن تجارتك، ولنهلكن مالك؛ وإن كان ضعيفا ضربه وأغرى به، ومع ذلك فقد نال بعض من أشرف قريش كثيرا من الأذى¹⁰⁰.

بالرغم من التكذيب والتعذيب الذي لقيه محمد ﷺ وأصحابه، إلا أنه واصل تبليغ رسالة ربه ودعوة الناس إليها، وكان نزول القرآن عليه في هذه المراحل من الدعوة، يؤكد فيه أنه رسول الله حقا، وبشاراته في كتب الرسل والأنبياء السابقين.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ (آل عمران: 144).

وقال ﷺ: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (آل عمران: 81-82).

وكان القرآن الكريم يؤكد في كل مناسبة، أن محمدا رسول الله، جاء بشيرا ونذيرا للعالمين، يحمل بين يديه كتاب الله تعالى المتزل عليه آيات بينات فيها هدى وبشرى للمؤمنين.

قال ﷻ: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴾ (البقرة: 119).

وقال ﷺ: ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: 151).

وقال: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (فاطر: 24).

وقال ﷺ: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ

شَهِيدًا ﴾ (الفتح: 28).

وأعظم أية في القرآن الكريم توضح مهمة الرسول ﷺ المبعوث من الله تعالى، وما أنعمه عليه من فضل وما كلفه من أمانة عظيمة قوله سبحانه وتعالى:

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ (آل عمران: 79).

استمر سادة الكفر وأتباعهم في مكة، في التصدي لدعوة محمد ﷺ وتكذيب ما جاء به، وقد وصفوه بالصابئ، وجعلوا كل من يعتنق هذا الدين خارج عن دين الآباء والأجداد فهو صابئ . وقد بين القرآن الكريم عناد الكفار وعدم قبولهم هذه الدعوة، لأنهم يرون فيها منافسة قوية لعبادة الأصنام، التي أخذوها عن الأجداد وتمسكوا فيها بسلطان التقليد، وإغفال العقل، وقتل القلب عن رؤية الحق من داعي الله تعالى.

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا إِنَّتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ ﴾ (يونس: 15).

وهذا طلب عجيب من الكفار، لأنهم لم يصدقوا القرآن الذي أتى به أول الأمر، حتى يصدقوا بقرآن غيره. فكان رد محمد ﷺ الذي علمه ربه: ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾.

ثم يأتي تأكيد النبي ﷺ على سطحية تفكير مشركي قريش، وعدم إدراكهم حقيقة ما يقولون، يقول تعالى: ﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (يونس: 16)، حيث كان أسلوب الخطاب هو الأمر الموجه للنبي ﷺ، للرد على افتراءات الكفار وتقولهم الكاذب. انتقل المشركون إلى أسلوب المطالبة بالحوار والمعجزات التي يجريها الله تعالى على يد أنبيائه، مقابل تصديق قول محمد ﷺ، وبالرغم من الآيات التي كانت تخترق أسماعهم، إلا أن سلطان التقليد كان أقوى على قلوبهم، من كلمة الحق.

قال عز من قائل: ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زُرَعْتُمْ عَلَيْهَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِي بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قِيْلًا أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُرْعَةٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرؤه قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا مَّرْسُولًا ﴾ (الإسراء: 90-93).

وقد رد القرآن الكريم على هذه المطالب ردا صريحا، قال ﷺ: ﴿ وَتَوَقَّحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ (الحجر: 14-15).

ثم وصلت مكابرة القوم المشركين إلى حد التكذيب، والافتراء على الله تعالى، واتهام النبي ﷺ بتهم هو منها براء.

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إفكٌ مُّفْتَرَىٰ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (سبأ: 43). وقال سبحانه: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ اقْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴾ (العنكبوت: 68).

وقال ﷺ: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ اقْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (الصف: 7)، بين الله تعالى ظلم المشركين بكذبهم وافتراءهم على محمد ﷺ، ولا أدل على عظم هذا الافتراء إلا بوصفه بالظلم، لأنه لا ظلم قبله، حين يكذب الكافر على الله تعالى وينسب إليه ما ليس فيه، أو يجعل له أحكام لم يترل بها كتاب، ولا جاء بها رسول¹⁰¹.

ولفظ الافتراء في القرآن الكريم تكرر خمسة عشر مرة، وفيه بيان لمفهومه وأنواعه وشكله، وفي هذا الموضوع هناك دراسة تحت مسمى الافتراء على النبي ﷺ¹⁰².

كما استخدم الكفار أسلوب الاستهزاء والسخرية من رسول الله ﷺ، الذي ولد وترى في مكة، وقد خبروه في خلقه وصفاته، قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ (الحجر: 6).

إن هذه الأساليب التي تكررت في عمل المشركين، وازدادت حدة مع مرور الزمن، إلا أن النبي ﷺ لم يتوقف ولا مرة عن الدعوة إلى الله، وزاده إيمانه الخالص لله تعالى قوة بعد قوة، "وكان التوجيه الرباني الحكيم يوحي إلى الرسول الصامد أمام قومه بالأسلوب الذي تقتضيه المناسبة

101- مثال ذلك ما ورد في سورة المائدة، الآية 103، وفيها حرم الكفار أكل السائبة والبحيرة، والوصيلة. ينظر: الطبري، تفسيره، ابن كثير،

تفسيره، القرطبي، جامع الأحكام.

102- ينظر: مذكرة ماجستير، الافتراء على النبوة الخاتمة من خلال القرآن الكريم، السنة الجامعية: 2003/2004م.

ويقتضيه حال المخاطبين¹⁰³، فكان الرد القرآني يأتي مدويا وكاشفا لخبايا نفوس الكفار، ومؤكدا للحقيقة المطلقة، قال تعالى: ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ (الرعد:43) . وقال ﷺ: ﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلِكُمْ ۖ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (يونس:41).

وبلغ من تحدي الكفار للنبي محمد ﷺ اتهامه بافتراء القرآن على الله تعالى، ونسبته له وهو قرآن مفترى من محمد، قال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ اقْتَرَاهُ قُلْ إِنْ اقْتَرَبْتُهُ فَعَلِيَ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَجْرِمُونَ ﴾ (هود:35)، وقال: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يُخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (الشورى:24).

وجاء الرد القرآني على هذه الافتراءات، بتأكيد أن القرآن الكريم كلام الله تعالى المتزل على محمد ﷺ، ومن خلال هذه الآيات البينات تحدى محمد ﷺ قومه بأن يأتوا بمثل هذا القرآن، وهم أهل البلاغة والفصاحة، وأعرف القوم باللغة العربية التي جاء بها القرآن الكريم، لكن القوم سقطوا أمام سحر بيان هذه الكلمات التي كانت وحيا أوحاه الله تعالى إلى نبيه¹⁰⁴.

وعجزوا على أن يأتوا بآية من مثله، بالرغم من براعتهم في الشعر والنظم، والتفنن في اللغة العربية، قال ﷺ: ﴿ قُلْ لَنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (الإسراء:88).

القرآن الكريم معجزة النبي ﷺ، وقد كانت آيات ربه ملاذه في الصعاب وأنيس وحشته خلال ظروف الدعوة في مكة المكرمة، لأن الكفار وقفوا سدا منيعا ضد دعوته، وأمام الرسالة الإلهية التي جاء بها لإخراج القوم من ضلال الشرك إلى نور التوحيد والإيمان. وبالرغم من الصعاب والمآسي إلا أن آيات القرآن كانت المكذب للمتقولين والكاشف لمرضى القلوب، والمتصدي للمعاندين المستكبرين، كان القرآن الكريم ينادي النبي محمدا ﷺ نداء المواسي المخفف للحزن، المؤيد الناصر بسلطان الله تعالى.

¹⁰³ - محمد علي الهاشمي، شخصية الرسول ودعوته في القرآن الكريم، ص105.

¹⁰⁴ - آيات التحدي كانت: في سورة البقرة، الآيات، 23-24، في سورة الطور، الآيات 33-34، سورة هود، الآيات 13-14.

قال تعالى: ﴿ فَاعْلَمْ بِأَخَعُ نَفْسِكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ (الكهف: 6)

قال ﷺ: ﴿ طه ما أنزركنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى ﴾ (طه: 1-3).

وقال سبحانه: ﴿ أَفَمَنْ نَزِين لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنْ لَمْ يَضِلَّ اللَّهُ يُضِلِّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا

تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ (فاطر: 8).

وقال ﷺ: ﴿ وَكَأَ تَخْزِنُهُمْ عَلَيْهِمْ وَكَأَ تَكُنُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ (النمل: 70).

والحديث عن الجماعة المسلمة والمراحل التي مرت بها، يأتي بعد إسلام حمزة بن عبد المطلب عم النبي ﷺ، وعمر بن الخطاب رضي الله عنهم، ازدادت الجماعة قوة، ورجحت الدعوة أهم الرجال الذين سيكون لهم شأن عظيم في إعلاء كلمة الإسلام في المراحل القادمة .

الفرع الثاني: المرحلة الثانية.

انتقل تنظيم الجماعة إلى السير باتجاه آخر، يحمل في خباياه توسيع دائرة التبليغ، من خلال عرض النبي ﷺ نفسه على الوافدين والحجيج من القبائل، وزيارة الطائف، وثانيها إرسال دفعات إلى خارج مكة، حتى لا تموت الدعوة في مهدها، فكان ما يسمى الهجرة الأولى والثانية إلى الحبشة بلاد الملك الحبشي الذي يدين بالنصرانية، والذي عُرف عنه أنه لا يُظلم عنده أحد.

أولاً: الهجرة إلى الحبشة¹⁰⁵:

بعد الحماية التي لقيها النبي ﷺ وأتباعه من عمه أبو طالب أحد سادة قريش، إلا أن كفار قريش أبو إلا تحطيم هذا الدين ووآد الدعوة في مهدها؛ فقاموا بتعذيب الضعفاء من المسلمين، وفتنتهم في دينهم، كما حاول بعض المشركين إلحاق الأذى بالنبي ﷺ، يروي البخاري بسنده عن عمرو بن العاص قال: ﴿ بَيْنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي فِي حِجْرِ الْكَعْبَةِ إِذْ أَقْبَلَ عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ فَوَضَعَ ثَوْبَهُ فِي عُنْقِهِ فَخَنَقَهُ خَنْقًا شَدِيدًا فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ حَتَّى أَخَذَ بِمَنْكِبِهِ وَدَفَعَهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى

105 - ينظر: ابن هشام، السيرة النبوية، 338-322/1.

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ¹⁰⁶.

والقرآن الكريم يذكر ما تعرض له النبي ﷺ من أذى قريش في أكثر من موضع، ويكشف نفوس الكفار المليئة بالحقده على محمد ﷺ، وخوفهم الدائم من ضياع سلطاتهم في مكة.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرَّكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ (الأنبياء:36).

وقال ﷺ: ﴿وَإِذَا مَرَّوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ (الفرقان:41).

وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (الأنفال:30)، هذا الدعم الكبير الذي لقيه النبي ﷺ من الله تعالى، خاصة عندما تتزلز رحمت من الله تعالى تشد من أزر النبي ﷺ وتثبت على أمره. وفي الآيات القرآنية يسجل الله تعالى اللعنة على الكفار المشركين، وفضح مؤامراتهم ضد الدعوة وإخماد عزمهم المستبد، ونتيجة لما سبق كان لا بد من تحويل مسار الدعوة إلى وجهة أخرى، حتى لا تنحصر في نقطة واحدة، يتألم فيها صحابة رسول الله مرارة التعذيب، والسخرية والاستهزاء من كفار قريش، فجاء أمر الهجرة إلى الحبشة كأمر لإخراج الدعوة من هذه النقطة، وقد ذكر محمد الصادق عرجون أهم أسباب الهجرة وهي كما يلي:

- 1- البعد عن مواطن الفتنة في الدين، خاصة بالنسبة للضعفاء الذين لا يستطيعون رد الأذى.
- 2- البعد عن إثارة المعوقات والأسباب التي تعوق انتشار الدعوة من حمية الشباب المسلم.
- 3- تخفيف العبء على النبي ﷺ، من الأذى الذي يتعرض له أصحابه وتابعيه.
- 4- إفساح المجال أمام محمد ﷺ للسير قدما نحو تبليغ رسالة الله تعالى.

وهذه الهجرة سجلت منعطفًا آخر في تاريخ الدعوة الإسلامية، ويؤكد هذه الأسباب التي ذكرها محمد الصادق عرجون قول ابن إسحاق: "فلما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء وما هو فيه من العافية، بمكانه من الله ومن عمه أبي طالب، وأنه لا يقدر أن يمنعهم مما هم

106- رواه البخاري في صحيحه، كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضل أبي بكر ﷺ بعد النبي ﷺ، رقم: 3678، 14/3، وفي كتاب: مناقب الأنصار، باب: ما لقي النبي ﷺ من المشركين بمكة، رقم: 3856، 65/3-66، وفي كتاب: التفسير، باب: سورة المؤمن، رقم: 4815، 286/3، ورواه أحمد في المسند، رقم: 6908، مسند عبد الله بن عمرو بن العاص، 389/6.

فيه من البلاء، قال لهم: (لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه)، فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة، وفرارا إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرة في الإسلام¹⁰⁷.

وهنا خرج المهاجرون إلى أرض الحبشة، في رجب من السنة الخامسة للبعثة، وقد سافروا على متن سفينتين تجاريتين وكان عددهم في الهجرة الأولى (عشرة رجال وأربعة نسوة)، أمروا عليهم عثمان بن مضعون، ونزل المهاجرون في بلد النجاشي ملك الحبشة، وقد أكرم متزلهم بالرغم من لحاق القرشيين بهم محاولة في ردهم .

أما الهجرة الثانية كما ورد في كتب السير والتاريخ، كانت بعد عودت المهاجرين الأوائل إلى مكة وإدراكهم أن أمر الدعوة لا يزال يحتاج إلى صبر وجد وعمل طويل، وأن وجودهم قد يعيق الأمر من ناحية، ويزيد العبء على النبي ﷺ. فخرجوا مرة أخرى إلى الحبشة، وهذه الهجرة ضمت ثلاثة وثمانين رجلا، وثمانية عشر امرأة.

وهذا الخروج يدل على المكانة التي احتلها الإسلام في مكة ، وتزايد أتباعه المستمر بالرغم من العنت الذي لقيه أصحابه في ديارهم من كفار قريش، وصل إلى حد كتابة صحيفة الإبعاد.

ثانيا: المبايعة:

تعرض النبي ﷺ إلى عنت شديد من قريش، ومواجهة عظيمة، وأشد ما تعرض له هو فقدان عمه أبي طالب سنده وحاميه أمام سادة الشرك، وقد توفي أبو طالب في السنة العشرة للبعثة، وهو على دين قومه بالرغم من محاولات النبي ﷺ في إسلام عمه إلى آخر لحظة وأبو طالب على فراش الموت، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ (القصص:56). لأن الأمر بيد الله يهدي من يشاء ويترك من يشاء في ضلاله إذا أبقبول دعوة الله . وبعد هذا المصاب بأيام قليلة، لحقت السيدة خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها بالرفيق الأعلى، الزوجة القوية، الصالحة المعينة على نوائب الدهر وأول امرأة تستقبل الوحي في بيتها الطاهر.

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: ﴿ خَيْرُ نَسَائِهَا مَرِيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ وَخَيْرُ

107- ابن هشام، السيرة النبوية، 1/321-322.

نِسَائَهَا خَدِيجَةً¹⁰⁸. حينها عُرف العام العاشر من البعثة بعام الحزن، لما تركه من أسى وحزن في نفس النبي ﷺ وأصحابه، لما أصابهم من فقدان لأهم ركيزتين في هذه السنوات الصعبة.

بعد هذه المصاعب التي صادفت دعوة محمد ﷺ، اختار تغيير الوجهة والبحث عن مكان آخر للدعوة وتبليغ الرسالة، فاختار الطائف وهي على مسافة من مكة، وأهلها من ثقيف، وكان يلتمس منهم النصرة والمنعة، وقبول دعوته، وقد خرج محمد ﷺ رفقة مولاه زيد بن حارثة في شهر شوال من السنة العاشرة، وقف هناك مدة يدعو القوم إلى الإسلام، ولكنه لم يجد من يصغي إليه ويقبل دعوته. وبلغ من مكر القوم أن أرسلوا صبيانهم وعبيدهم يرمون محمد ﷺ بالحجارة، وزيد بن حارثة حائل بينهم وبينه إلى أن وصلا إلى حائط بستان لابني ربيعة، شبية وعتبة.

وفي طريق العودة إلى مكة لقي محمد ﷺ جبريل¹⁰⁹ فنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ يَا مُحَمَّدُ فَقَالَ ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ إِنَّ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبِينَ؟¹⁰⁹، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا¹¹⁰.

وخلال هذه الظروف الصعبة لم يتزل على النبي ﷺ قرآن يورد هذه الحوادث العظيمة التي أصابت النبي ﷺ، بالرغم من الأثر العميق الذي أحدثته في نفسه الطاهرة، ولحكمة من الله تعالى، فإن هذه الرسالة هي معجزة الله إلى خلقه، ورسولها بشر من الناس تعرض له مصائب وعوارض كغيره من البشر، ولكن الله تعالى هو الذي يحميه ويصد عنه، والنبي ﷺ هو البشير والنذير لدعوة الله تعالى إلى الناس.

اختار محمد ﷺ وهو الرجل المجد المثابر في دعوة ربه، أن يعرض نفسه على القبائل الحاجة إلى بيت الله الحرام في موسم الحج من كل عام، عساه يجد من يُصدق قوله ويقبل دعوته ويقوم بنصرته، ونصرة دين الله عز وجل.

108- رواه البخاري في صحيحه، كتاب: الأنبياء، باب: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران:42)، رقم: 3432، 486/2، وفي كتاب: مناقب الأنصار، باب: تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها رضي الله عنها، رقم: 3815، 47-46/3. 109- الأحشيين: جبال مكة: أبو قبيس والذي يقابله قعيقعان .

110- رواه البخاري في صحيحه، كتاب: بدء الخلق، باب: إذا قال أحدكم "آمين" والملائكة في السماء فوافق إحداهما الأخرى فغفر له ما تقدم من ذنبه، رقم: 3231، 429-428/2، ومسلم في صحيحه، كتاب: الجهاد باب: ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، رقم: 1795، 181/5.

كما نزل يترصد الأشراف من القوم، القادمين إلى مكة منهم: سويد بن الصامت أخو بني عمرو بن عوف وكان قومه يسمونه الكامل لشرفه ونسبه، وشعره وشجاعته، وقد دعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام، وكذلك إياس بن معاذ وهو فتى من بني عبد الأشهل.

إلى أن حضر موسم الحج وفد من الخزرج الذين سارعوا إلى قبول دعوة الرسول ﷺ، وقد تهاشم القوم فيما بينهم وقالوا: "والله إنه النبي الذي توعدكم به يهود، فلا يسبقنكم إليه".

وعاد الرجال الست إلى قومهم ينقلون إليهم خبر رسول الله ﷺ آملين في نشر دعوته بالمدينة، وفي العام الموالي قدم القوم على النبي ﷺ، فأسلموا وبايعوا رسول الله، وفي ذلك عبرة عظيمة على صبر النبي ﷺ على الدعوة، لأن الرجال الست قبلوا الدعوة وأعلنوا إسلامهم ثم عادوا إلى قومهم. ومر عام كامل حتى جاءت البيعة الأولى للنبي ﷺ، فهذه ظروف صعبة بحق تحتاج إلى وقفة من المسلمين اليوم.

وتمت نصره رسول الله ﷺ والإيمان بدعوته بما يعرف بـ "بيعة العقبة الأولى" وهي مكان على تخوم منى، وقد وقعت البيعة على أمور من صميم الدعوة، عدم الإشراك بالله الواحد الأحد، عدم ارتكاب المحرمات، ومبايعته على منعه وحمايته في السلم والحرب.

روى البخاري بسنده أن عبادة بن الصامت رضي الله عنه - من الذين شهدوا بدرًا مع رسول الله ﷺ

ومن أصحابه ليلة العقبة - أخبره أن رسول الله ﷺ قال وحوله عصابة¹¹¹ من أصحابه: ﴿ تَعَالَوْا

بِأَعْيُنِي عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا تَسْرِقُوا وَلَا تَزْنُوا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ وَلَا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفَرَّقُونَ بَيْنَ

أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ وَلَا تَعْصُونِي فِي مَعْرُوفٍ فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا

فَعَقِبَ بِهِ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ لَهُ كَفَّارَةٌ وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَسَرَّهُ اللَّهُ فَأَمَرَهُ إِلَى اللَّهِ إِنْ شَاءَ عَاقِبَهُ وَإِنْ

شَاءَ عَفَا عَنْهُ قَالَ فَبَايَعْتُهُ عَلَى ذَلِكَ ۖ ﴾¹¹².

وآية المبايعه نزلت بعد صلح الحديبية، في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ

111- العصابة: مجموعة كبيرة من الصحابة.

112- رواه البخاري في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: 11، رقم: 18، 22/1، وكتاب: مناقب الأنصار، باب: وفود الأنصار إلى النبي ﷺ بمكة وبيعة العقبة، رقم: 3892، 65/3، وأحمد في المسند، رقم: 22577، 387/16، ورقم: 22567، 385/16، والنسائي في السنن، كتاب: البيعة، باب: من وفى بما بايع عليه، رقم: 4221، 181/7.

عَلَىٰ أَنْ لَا يُشْرِكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقَنَّ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلَنَّ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَمْرُجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايَعْنَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرُ لَهُنَّ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿الممتحنة: 12﴾.

وعند عودة القوم من الأوس والخزرج إلى يثرب، أرسل محمد ﷺ فيهم مصعب بن عمير بن هاشم ﷺ، يعلم القوم دينهم ويساهم في نشر دين الله تعالى بجهدده وبتوفيق منه في ربوع المدينة. "وقد نجح داعية الإسلام بالمدينة في إسلام الكثيرين من أهلها، ومن أجلهم سعد بن معاذ وأسيد بن حضير وبإسلامهما أسلم الكثير من بني عبد الأشهل وغيرهم"¹¹³.

واستمرت الدعوة الإسلامية بقيادة محمد ﷺ تبحث عن حلول، وبالإمكانات المتوفرة، في مناطق جديدة، ومن خلال ذلك يمكن للنبي ﷺ ضمان استمرار الدعوة، لأن مكة اختارت الصمود أمام هذا النظام الجديد، "...انتشار الإسلام في مكة نفسها بطؤ إلى درجة جعلت الرسول يفكر في ميدان آخر يفتحه للدعوة الكبرى"¹¹⁴.

113 - أبو شهبة، السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، 441/1.

114 - حسين مؤنس، دراسات في السيرة النبوية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ت، ص45.

المبحث الثاني: المرحلة المدنية:

المطلب الأول: الهجرة إلى المدينة:

الفرع الأول: أهمية الهجرة.

الانتقال إلى أرض جديدة من أجل تواصل أفضل مع الناس، كان من شروط الدعوة في هذه المرحلة المهمة من تاريخ الرسالة الخاتمة، لأن عملية التجديد كانت تحتاج إلى أفق أوسع من أجل إنشاء المجتمع المسلم في المدينة المنورة. وقد كانت الرؤية النبوية التي أذن الله فيها للجماعة المسلمة بالخروج بدينهم من أرض مكة إلى المدينة، ففي صحيح البخاري عن النبي عليه الصلاة والسلام قال: **﴿إِنِّي أُرِيتُ دَارَ هِجْرَتِكُمْ ذَاتَ نَخْلٍ بَيْنَ لَابَتَيْنِ﴾** ¹¹⁵ **﴿﴾** ¹¹⁶.

وللإجابة عن سؤال هذا المبحث لماذا كانت الهجرة من مكة إلى المدينة؟، نورد أولاً أهمية الهجرة بالنسبة للنبي ﷺ وأصحابه، في أواخر الفترة المكية التي مكثها رسولا مبلغاً ثلاث عشرة سنة.

وأهمية الهجرة تمثل خيار الانتقال من مكان إلى آخر، وهي ضرورة فرضتها ظروف الدعوة في مكة، لأن رسالة الإسلام تحتاج إلى فرص جديدة للاستمرار، والهجرة ليست الهروب بالدين الإسلامي حتى يأمن المؤمن على نفسه ودينه، لأن الله سبحانه وتعالى الكفيل بحماية دينه وأتباعه. فالهجرة خيار استراتيجي لمواصلة العمل في تبليغ رسالة الله تعالى إلى البشر، ونتيجة لشمولية وعالمية الدعوة الإسلامية، فالانتقال إلى مناطق أخرى خارج مكة ضروري، حتى لا تنحصر الدعوة في مكان واحد وتخرج إلى النور بأي طريق أوحاه الله تعالى إلى نبيه الكريم ﷺ.

وبعد أن أنشأ النبي ﷺ القاعدة الأساسية العقديّة والفكرية، كان لزاماً عليه اختيار مبدأ الهجرة من أجل تكوين المجتمع المسلم، اعتماداً على النخب الفردية التي ستخبر مصاعب الهجرة ونتائجها على كل فرد من المهاجرين في أرض المدينة المنورة، والهدف الأساس من هذه الهجرة هو

¹¹⁵ - هي الحرتان: والحرار أرض ذات حجارة سوداء واحدهما حرة، تكونت بفعل البراكين ونشأ منها نوعان:

1- نوع يتألف من فجوات البراكين نفسها.

2- ونوع يتألف من حمم البراكين التي يقذفها. وبفعل العوامل الطبيعية تُكون ركاماً من الأحجار البركانية التي تغطي الأرض بطبقات، تكون رقيقة وتكون سميكة.

وقد اشتهر الكثير من مناطق الحرار بالخصب والنماء، وكثرة الماء، ولا سيما حرار المدينة المنورة، ومنها خير حيث كانت واحة عظيمة.

¹¹⁶ - رواه البخاري في صحيحه، كتاب: مناقب الأنصار، باب: هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، رقم: 3905، 69-68/3.

تبلغ رسالة الله إلى الناس، قال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ (الفرقان:1).

"الرسول عليه الصلاة والسلام بعد أن حقق نتائج هامة على مستوى إعداد القاعدة البشرية القيادية اللازمة للانطلاق في بناء الدولة، وهي شرط رئيس أول، تحرك في المرحلة الأخيرة من الفترة المكية، للبحث المباشر عن الموقع الذي يجمع فيه أتباعه، للبدء في التأسيس الفعلي للدولة والمجتمع"117.

انطلق المسلمون في هجرتهم فرادى وجماعات، أصحاب وعائلات، ولم يبق في مكة غير النبي ﷺ وصاحبه أبو بكر وابن عمه علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، إلى أن يحين الإذن بالهجرة.

قال سبحانه: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ (الأنفال:30).

نزل جبريل عليه السلام وأخبر النبي ﷺ بمؤامرة المشركين التي حظروا لها، واتخذوها مؤامرة علنية في القبائل العربية.

انكشف أمر قريش وظهر الحق، وخرج النبي ﷺ بعد أمر الهجرة، تاركاً علي بن أبي طالب في فراشه والقوم واقفون أمام الباب دون حراك، وقد أخذ النبي ﷺ كفاً من تراب وصار ينثر منها على رؤوسهم، وهو يتلو آيات من سورة يس: ﴿يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ تَنْزِيلَ الْغُرْنِ الرَّحِيمِ ﴾ (يس:1-9).

ثم انطلق النبي عليه الصلاة والسلام إلى دار الصديق وصحبه معه، حامليين معهما الماء والزاد، واتخذوا غار ثور وجهة لهما، بدل السير نحو الشمال، لكن المشركين لحقوا بالنبي ﷺ وصاحبه، وطلبوهم، بعد أن أدرك زعماء قريش أن محمداً قد أفلت منهم، فخرجوا يتعقبون أثره راصدين لذلك جائزة مالية لمن يقبض على محمد وصاحبه.

وبينما محمد ﷺ وأبو بكر الصديق ﷺ رابضين في غار ثور، والمشركون واقفون أمام الغار،

117- الطيب برغوث، المنهج النبوي في حماية الدعوة ومنجزاتها-مرحلة التأسيس العقدي والفكري للمجتمع الإسلامي بمكة-دار قرطبة، الجزائر،

اشد خوف أبي بكر الصديق على النبي ﷺ، أن يكشف وجودهم في الغار، قال له النبي ﷺ: "وما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما، وفيها نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّا تَنَصَّرُوهُ فَقَدْنَا نَصْرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة:40). بعد ثلاث ليال في الغار خرج النبي ﷺ وأبو بكر، متجهين إلى المدينة مستخدمين عبد الله بن أريقط دليلاً لهما في طريق الصحراء إلى المدينة المنورة، وبعد اثنا عشر يوماً من ربيع الأول في السنة 13 للبعثة (1هـ/622م) وصل النبي ﷺ وصاحبه إلى قباء، واستقبله المسلمون بعد انتظار طويل.

الفرع الثاني: المدينة المنورة:

المدينة كانت تُعرف قبل الهجرة بـ "يثرب" وقد ورد ذكر هذا الاسم في القرآن الكريم مرة واحدة، والنبي ﷺ هو الذي أطلق عليها اسم المدينة المنورة.

قال ﷺ: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾ (الأحزاب:13).

وأول من سكن يثرب العرب، سواء كانوا من العماليق، أو الأزدي من قحطان، ثم جاء اليهود في القرنين الأول والثاني بعد الميلاد، وتمركزت أهم القبائل اليهودية بيثرب وهي ثلاث: قينقاع، النضير، وقريظة. أما القبائل العربية التي سكنت يثرب كانت من الأوس والخزرج الذين هاجروا من اليمن إثر حادث سيل العرم وسقوط سد اليمن العظيم.

بعد بيعة العقبة الأولى أرسل النبي ﷺ مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار ﷺ إلى أهل المدينة، يعلمهم القرآن ويفقههم في الدين، وكان يؤم الناس في الصلاة وقد عُرف بالمقري، ونجح مصعب في هذه المهمة خير نجاح.

"...المجتمع المدني كان يتألف قبل هجرته إلى المدينة من عناصر كانت قبل وصوله متعادلة متنافرة، كان عليه أن يؤلف بين قلوب لم تعرف الألفة قبل ذلك، وقد أُلّف بينهما بالفعل، وكون منهما جماعة متجانسة متعاونة يجمعها إيمان واحد قوي عميق بالإسلام، وغاية سامية واحدة هي نشر الإسلام بين البشر ومواصلة الدعوة حتى يكون الأمر كله لله أي لدين الله" ¹¹⁸.

اختلاف الظروف في المدينة أين انتشر الإسلام بين الأوس والخزرج بشكل لافت، عكس ما حدث في مكة أين اختار القرشيون رفض هذه الدعوة، التي تهدد مصيرهم الاجتماعي والاقتصادي والسياسي في الجزيرة العربية، وهذا الكلام ينطبق على سادة قريش ومن سار في مدارهم، أما الذين آمنوا بالله تعالى من الهاجرين والأنصار الذين أقبلوا على دعوته، فقد كانت لهم أسباب تختلف عن أسباب أبو سفيان، والوليد بن المغيرة، وعتبة بن ربيعة، وأبو لهب عبد العزى بن عبد المطلب، وأبو جهل، وغيرهم كثير من أهل مكة الذين جعلوا لأنفسهم أسبابا تمنعهم من الدخول في دين الله سبحانه وتعالى¹¹⁹.

بدأ النبي ﷺ ببناء المدينة وتأسيس دعائم هذا البناء، واهتم باستغلال الأراضي في الزراعة أولاً، لأن المدينة كانت أرض زراعة وبساتين، والتعمير ثانياً. فأقبل الناس يقيمون مساكنهم، ويزرعون ويغرسون الأراضي، واتصلت واحات السهل العظيم بعضها ببعض، ونشأ العمران نتيجة إقبال الناس إلى المدينة من المناطق المختلفة، والفضل يعود إلى إقبالهم على دين الله تعالى، وهذا لوعي النبي ﷺ أن الحضارة ترتبط بالاستقرار أولاً ثم العمران، والاستقرار لا يكون إلا بالاجتماع على دين التوحيد الخالص لله سبحانه وتعالى، قال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أُرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ (الأحزاب: 45-46).

واختار النبي عليه الصلاة والسلام أرضاً لبناء المسجد، وهو البناء الذي سيجمع المسلمين ويوحد كلمتهم، ويجعلهم قلباً واحداً، وفيه تؤدي الصلوات الخمس وخطب الجمعة. قال تعالى: ﴿لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رَجُلٌ يُوْحِيُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ﴾ (التوبة: 108)، "لما بني المسجد النبوي صار مصلى المسلمين ومتعبدهم ومنتداهم ومكان تشاورهم، وكان فيه صفة يأوي إليها الفقراء والمساكين ممن لا مال لهم ولا دار، ولا يجدون ما يعملون به فيكتبون، وفيه تلقى دروس العلم والحكمة، وهكذا كان المسجد النبوي يؤدي خدمات دينية وعلمية واجتماعية"¹²⁰.

وللمسجد النبوي فضل عظيم في تاريخ بنائه ومكانته، لأنه أول بيت يجمع المسلمين حول رسولهم محمد ﷺ، وفيه كانت الانطلاقة لرسم معالم المجتمع المسلم.

119 - ينظر: محمد بيومي مهران، السيرة النبوية الشريفة، 312-308/1.

120 - أبو شهبة، السيرة النبوية، 31/2.

أولاً: الحياة السياسية والاجتماعية في المدينة.

بعد هجرة النبي ﷺ وصحبه إلى المدينة المنورة، أصبح المجتمع المدني بعد التواصل بين المؤمنين، ونتيجة العمران الذي تم إنشاؤه يتكون من عنصرين هما:

1- المهاجرون: وهم أهل مكة الذين ارتضوا الإسلام ديناً بدلاً عن الوثنية التي كانوا عليها، أولئك الذين طلبوا الهجرة مع رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة، لأجل بعث دين الله سبحانه وتعالى.

هاجر المسلمون مع أهلهم أو من دونهم تاركين أموالهم ودورهم وأزواجهم في مكة، واستقبلوا المدينة موطناً جديداً لهم لتأسيس المجتمع المسلم فيه.

قال ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَأَسِعَتْهَا جُجُورًا فِيهَا﴾ (النساء: 97).

2- الأنصار: هم أهل المدينة وساكنتها من قبيلتي الأوس والخزرج، الذين دارت بينهم حروب طواحن قبل الإسلام، نتيجة العداوة والبغضاء بين الحيين، وهم الذين أقبلوا على محمد ﷺ فرحين مستبشرين بدعوته التي وحدتهم على كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله. فكيف نقول أنهم قبل الإسلام كانوا على خلاف، وهم من خطوا أول حروف مدينة الإسلام ودعوة رسول الله ﷺ، فينهم وبين السابق خطوات أو أيام وشهور وليست بالطويلة عليهم أن نور التوحيد غيب كل الماضي المرير ليثرب.

قال الله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (آل عمران: 103).

بعد نعمة الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ إلى الناس، صاروا بفضلته إخواناً متحابين متآلفين، والذي ذكرهم الله تعالى به .

شكل المهاجرون والأنصار كيانا واحداً، لأنهم اختاروا حمل رسالة الإسلام، وبناء دولة الإسلام بالتشريعات والأحكام التي أوحاها الله تعالى قرآناً على نبيه المصطفى ﷺ. وكان ميثاق

المؤاخاة شكلا ووسيلة جديدة لبناء هذا الكيان القوي، بالإرادة القوية والإيمان الصادق جعل هذا الجسد يتشكل بالصورة السليمة والصحيحة للمجتمع الإسلامي الأول.

3- المنافقون: ظهر النفاق في المدينة نتيجة أعمال اليهود ومخططاتهم، لضرب استقرار المجتمع المسلم، ونتيجة لمجموعة من مرضى النفوس الذين أظهروا إسلامهم وأخفوا نفاقهم، فبظهور المجتمع المسلم في المدينة بالقيادة الحكيمة للنبي ﷺ، وحقد بعض العرب على محمد ﷺ وأصحابه، وحقد اليهود على العرب أن يكون النبي منهم، تأمر الحاقدون واختاروا إظهار الإسلام وإبطان الكفر، وقد عُرفوا بالمنافقين.

وقد أنزل الله تعالى فيهم قرآنا يكشف حقيقتهم، ويبين قلوبهم الحاقدة للإسلام والمسلمين، منها سورة التوبة التي رسمت آياتها بشكل دقيق أعمال المنافقين ونفوسهم المريضة، وأنزل الله سورة باسمهم "المنافقين"، تبين صفاتهم وأعمالهم الخبيثة وكرهم، وكان على رأس المنافقين عبد الله بن أبي سلول الخزرجي، وتبعه قوم كثير منهم: سعيد بن حنيف، وزيد بن اللصيت، ورافع بن حرملة .

4- اليهود: سكن اليهود المدينة قبل مجيء النبي ﷺ منذ عصور سابقة، منهم من سكن خيبر ووادي القرى وتيماء، ومنهم من سكن يثرب، وكانوا أحياء أربعة في يثرب، بنو قينقاع، بنو النضير، بنو قريظة، وسكن بجوارهم قبيلتي الأوس والخزرج المهاجرين من سد مأرب باليمن. وعُرف اليهود منذ القدم بالقوة المالية والثروة الاقتصادية، لأنهم تجار مهرة، وبما أنهم أصحاب كتاب عملوا على التفريق بين الأوس والخزرج، وجعلهم أتباع لهم، لأن الميزة التي عرفوا بها سمحت لهم بذلك الإذلال للقبيلتين.

قال ﷺ: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: 89)

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: 146).

إن هذه المعرفة التي يملكها أهل الكتاب، تجعلهم أول الناس إقبالا على الدعوة والمصدقين برسالة محمد ﷺ. والقرآن الكريم يتحدث عما يقرأه اليهود والنصارى في كتبهم، الذين يجدون صفات النبي ومزاياه مكتوبة في نصوص كتبهم.

وقد تحدث الأخبار من اليهود والرهبان من النصارى عن خير محمد ﷺ، وتواترت أخبارهم عبر الزمن، وبالرغم من حقد اليهود على النبي ﷺ وتكذيب رسالته إلا أنه وُجد نفر من المؤمنين الذين صدقوه وآمنوا به. والقرآن الكريم يذكر هذه النفوس الطيبة المؤمنة التي استجاب لنداء الله تعالى وصدقته وآمنت برسالة الإسلام التي جاء بها محمد ﷺ.

قال جل وعلا: ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَخْرَابِ مَنْ يُكْرِهُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبٌ ﴾ (الرعد: 36).

وقال: ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴾ (العنكبوت: 47).

إن دعوة الله سبحانه وتعالى في هذه الأرض، بدأت منذ خلق آدم عليه السلام ونزوله إلى الأرض مع زوجته، فجميع الرسالات امتداد واحد لدعوة الدين الحق، وهو توحيد الله تعالى.

قال ﷺ: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ مَرَضُوانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (المائدة: 15-16).

جاء هذا الدين من أجل ترسيخ عقيدة التوحيد في الأرض، ونشر الإسلام في العالم، لأن الدين عند الله الإسلام، ويتكرر النداء في آية أخرى من سورة المائدة لأهمية الأمر، قال سبحانه وتعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى قَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۚ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (المائدة: 19).

بالرغم من ذلك فقد كذب اليهود بما جاء به النبي ﷺ من البينات، وادعوا كذبهم كعادتهم في تكذيب أنبيائهم، وقتلهم الأنبياء، وطلب المعجزات والحوارق حتى يكونوا من زمرة المؤمنين.

قال تعالى: ﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ (آل عمران: 184). عانى النبي ﷺ جحودا كبيرا وإنكارا من اليهود، بالرغم من معرفتهم بصفاته في كتبهم، وحملهم لكتاب موسى وعيسى من قبل، إلا أنهم أنكروا نبوة محمد ﷺ وكذبوا برسالته.

قال ﷺ: ﴿وَكُنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَكِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: 145).

الكعبة هي قبلة الإسلام الأولى والأخيرة، ورغم هذا فقد أعرض أهل الكتاب عن إتباع محمد ﷺ والإيمان برسالته، "وكانوا يعلمون حق العلم أنها قبلة أبيهم إبراهيم، أول المسلمين.. وأن الإسلام هو الامتداد الطبيعي لدين إبراهيم. ولكنهم مع ذلك لم يسلموا بالحجة، ولن يتبعوا قبلة المسلمين الجديدة، كما أنهم لم يتبعوا كتاب المسلمين الذي جاء مصدقا لما بين يديه من التوراة والإنجيل"121.

وهذا الإعراض من اليهود عن دين الله تعالى، كانت له أسباب نفسية وهوى داخلي، وتجمع حوله كتمانهم للحق بين أيديهم، وإخفائهم ما جاءت به كتبهم، قال ﷺ: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: 146).

وقال ﷺ: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ (آل عمران: 184).

هذه حقيقة اليهود ومن تبعهم من النصارى، الذين يعرفون الحق كما يعرفون أبناءهم، وهذا بيان من القرآن الكريم بمعرفة اليهود بالكتاب والنبوة، ولا أسهل على الإنسان من معرفة ولده، فكيف إذا كان هذا مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل واسمه أحمد. اليهود نقضوا ميثاقهم مع الله تعالى ومع الأنبياء السابقين، واستمروا على حياة الكذب والدسيسة، وحتى قتل أنبيائهم، وهذه الأفعال جعلتهم يخسرون مكانتهم في حمل رسالة الله سبحانه.

والصراع يتجدد مرة أخرى في أرض الإسلام، المدينة المنورة، ويقف النبي ﷺ أمام اليهود، فكان القرآن الكريم يبين حقيقتهم، ويكشف تاريخهم القديم مع أنبياء بني إسرائيل. ذلك أن التحدي الذي يواجهه محمد ﷺ ورسالته هي الاستمرارية على طريق الله، والامتداد

121 - محمد علي الهاشمي، شخصية الرسول ودعوته في القرآن الكريم، ص 126.

التاريخي للأجيال القادمة، وليس التوقف عند العرب وحدهم، أو اليهود فقط.
قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ (الأعراف: 158).

وقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (الفرقان: 1)
وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سبأ: 28).

جاءت آيات قرآنية عديدة تتحدث عن أهل الكتاب، وتاريخهم السابق مع الأنبياء وسيرتهم مع محمد ﷺ تبين أفكارهم، وتكشف نفوسهم، ومخططاتهم ضد الإسلام، وضد النبي ﷺ، وهذا الجانب بالنسبة لأهل الكتاب كان واضحاً جداً في القرآن الكريم، من ذلك سورة البقرة التي تناولت اليهود بكل دقائق الأمور التي يعيشونها في حياتهم الدنيوية، وصراعهم الدائم مع الأنبياء.

ثانياً: ميثاق النبي ﷺ في المدينة:

1- مشروع المواخاة:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّامِرَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر: 9).

فتح الأنصار قلوبهم للمهاجرين قبل أن يفتحوا لهم بيوتهم، ووسعت صدورهم كل المهاجرين، قبل أن يقاسموهم الأموال والبيوت، والحقول، وتسبق الجميع لإكرامهم واستقبالهم في دورهم، وقد ضرب الأنصار أكبر المثل في الإيثار وسخاء النفس، وكرم الأخلاق.

عند استقرار المهاجرين في مكة مع رسول الله ﷺ، جعل المواخاة بين المهاجرين والأنصار ليكسر جميع الحواجز بين الفريقين، وحتى يكون المسلمون جسداً واحداً لا تفرقه القبيلة أو الميزات والخصائص، التي استأثر بها فريق عن الآخر.

وقد جمع الإسلام بين الأوس والخزرج ووجد بينهم، وهذه الأخوة التي عقدها النبي ﷺ بين

الطرفين، لم تكن أخوة إسلام فقط، بل كان فيها توارث بينهم. قال جلا وعلا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَتَصَرُّوا أَوْلِيَّكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَكَيْتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (الأنفال: 72).

ذكر الله تعالى الموااة ليعلم كل فريق وليه الذي يستعين به، قال ابن عباس وسعيد بن قتادة في قوله تعالى: ﴿أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ في الميراث، فكانوا يتوارثون بالهجرة، وكان لا يرث من آمن ولم يهاجر من هاجر فنسخ الله ذلك بقوله: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ﴾ (الأحزاب: 6)، وصار الميراث لذوي الأرحام من المؤمنين. ولا يتوارث أهل ملتين شيئا.. وقيل: ليس هنا نسخ، وإنما معناه في النصرة والمعونة¹²².

بعد مرور مرحلة الغربة والوحشة على المسلمين، ونصرة الإسلام في مواضع عدة، فك هذا الرباط التوارثي لأن رابطة الأخوة كانت أعمق من حق في الميراث.

قال سبحانه: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَاءِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ (الأحزاب: 6)

وقال تعالى: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (الأنفال: 75).

2- موادة اليهود:

المسلمون يعيشون مع اليهود منذ أمد بعيد، وهناك تعامل بينهم ومبادلات تجارية، فكان لزاما على المسلمين أن يربطوا هذا التعامل بشرط يكون الفيصل في وقوع الطرفين في مشاكل أو حروب.

اختار النبي ﷺ الحل السياسي كبديل لتعايش الطرفين في هذه الأرض، فكانت الوثيقة

122 - القرطبي: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي البيان، ت: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1427هـ/2006م، 63/17-64، وينظر: تفسير القرطبي، 90/10، في تفسير الآية 72 من سورة الأنفال.

الدستورية التي تعين للمسلمين من أنصار ومهاجرين حقوقهم ووجباتهم، وتشترط على اليهود واجبات وتعطيهم حقوقهم المنصوص عليها في الوثيقة
ومن خلال هذه الوثيقة التي كتبها النبي ﷺ، بعد مشاورات بينه وبين المسلمين، صارت يثرب المدينة المنورة البلد الآمن تحت قيادة النبي ﷺ، وفي حماية من الأخطار الداخلية والخارجية، لأن المؤمنون يأتمنون جانب اليهود، واليهود يأتمنون جانب المسلمين.
واليهود ملزمون بمعاونة المسلمين إثر أي عارض أو خطر يداهم المدينة، والجميع ملزم بعدم معاونة المشركين أو نصرتهم.
" فالصحيفة هي دستور وضعه الرسول لجماعته في المدينة ليحدد لها نظام العمل في شؤون الجماعة الداخلية والخارجية"¹²³.

123 - حسين مؤنس، دراسات في السيرة النبوية، ص55.

المطلب الثاني: الدولة الإسلامية في المدينة المنورة.

الفرع الأول: الوحي الإلهي.

محمد ﷺ نبي الله الذي اختاره لتبليغ رسالته، وهذه الرسالة المترلة عليه بدأت معالمها، وآياتها منذ كان النبي ﷺ يتعبد في غار حراء، والكلام الرباني تمثل في آيات معجزة من القرآن الكريم نزل بها جبريل ﷺ على محمد عليه الصلاة والسلام.

قال ﷺ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ (البقرة: 119).

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا

مُنِيرًا﴾ (الأحزاب: 45-46).

هذا النبي المصطفى من ذرية إبراهيم عليه السلام، اختاره الله تعالى لحفظ النبوة في هذه الأرض، حتى يبلغ بها رسالة ربه إلى العالمين.

فكان محمد ﷺ النبي المرسل بهذه الرسالة لهداية البشر الضالين عن طريق الله، وتربية أفراد يحملون قوة إيمانية، وإخلاصا عميقا، يكونون لبنة لبناء أمة الإسلام، وامتداد لرسالة الله في الأرض.

قال ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ لَا

مُرَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ (الشورى: 7).

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنْ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ (الحجر: 87).

قال ﷺ: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾

(الأعراف: 2).

الكتاب هو كلام الله تعالى، الذي سماه القرآن، نزل به جبريل على محمد ﷺ لتبليغ رسالة ربه إلى الناس جميعا.

قال تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تُلُوُّهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (البقرة: 252).

وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ

بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿ (الشعراء: 192-195).

النبى ﷺ بشر اصطفاه الله سبحانه وتعالى ليكون نبيا ورسولا، لتبليغ رسالة ربه إلى العالمين، والكتاب الذي نزل به جبريل الكليل على محمد ﷺ هو القرآن الكريم، ودستور الأمة، ومعجزة الله، لأنه كتاب متره عن الخطأ البشري، وبعيد عن هوى النفس، فهو من الصفات ما يجعله معجز في ذاته ومعجز لغيره، قال: ﴿ قُلْ لَأَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَكَأَغْلَمُ الْغَيْبِ وَكَأَاقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُمُونِي بِمَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يُسْتَوَى الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الأنعام: 50).

وقال جل وعلا: ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ (النجم: 3-4).

فالوحي الإلهي تمثل بداية في آي القرآن الكريم، التي جمعت بين دفتي المصحف، احتوى على جميع الأحكام التشريعية لتأسيس وتكوين المجتمع المسلم، وذكر العديد من رسالات الأمم السابقة وأخبارها مع الأنبياء والرسل، وهو كتاب يقرر لحقيقة العقيدة الإسلامية، وهي التوحيد الخالص لله تعالى.

بالإضافة إلى الأحاديث القدسية نجد الحديث النبوي الذي جاء شارحا لشريعة الإسلام، ومفصلا للقرآن الكريم، والكثير من الآيات القرآنية توضح مهمة النبي ﷺ وهدفه السامي الذي كلفه الله تعالى بحمل به. قال سبحانه: ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقٌ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ (الأنعام: 92).

قال ﷻ: ﴿ وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَكَأَنَّ تَبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ { (الأنعام: 153)

ومهمة محمد ﷺ التي أرسله الله من أجلها، آمن بها النبي أولا وتحمل عبء تبليغ الرسالة، وأعلن ذلك في أكثر من موضع، قال تعالى: ﴿ أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ (هود: 2)، وقال ﷻ: ﴿ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴾ (الحجر: 89)، وقال سبحانه: ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (الأنبياء: 108).

وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَنْ إِلَهُ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ (ص: 65)، وقال: ﴿ إِنْ يُوحَىٰ

إِلَيَّ إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿ص:70﴾.

بعثة النبي ﷺ إلى الناس في هذا الزمن، لم تكن صورة فريدة، ولم تكن بعثة واحدة لا ثانية لها، بل كانت واحدة من البعثات القديمة والمتجددة في كل عصر يُبعث فيه نبي إلى قومه، والرسالة السماوية هي امتداد لرسالات سابقة، "فدين الإسلام الذي يقوم على التوحيد، هو الصورة الكاملة والواضحة لدين الله الواحد الذي بعث به الرسل على فترات من الزمن، وهو الصورة النهائية الشاملة لرسالة الله الواحدة القديمة منذ أن أرسل الله أبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام"¹²⁴.

قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (آل عمران:144).

وقال ﷻ: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالتَّيِّبِينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ نَزُومًا﴾ (النساء:163). وقال سبحانه: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدُعَا مِنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (الأحقاف:9).

ذلك هو الامتداد الرسالي في هذه الأرض، والذي أخذ صوراً ثابتة للنبوة والرسالة، والتي ختمت برسالة الإسلام إلى العالم على يد النبي محمد عليه الصلاة والسلام.

الفرع الثاني: الأحكام التشريعية:

التشريع الإلهي تمثل في الدين الإسلامي الذي بني على عقيدة التوحيد لله تعالى أولاً، ويؤصل لطريق الهدى تحت حكم الله جل وعلا، وهذا يأتي من خلال مجموع الأحكام الشرعية المترلة والمفروضة على أمة الإسلام، قال سبحانه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَمَرَكَ اللَّهُ﴾ (النساء:105)، وقال: ﴿وَأَنْ أَحْكُمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنْ كَثُرَ مِنْ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ (المائدة:49).

124 - محمد على الهاشمي، شخصية الرسول ودعوته في القرآن الكريم، ص71.

"استطاع الرسول الكريم بتحكيمة القرآن الكريم أن يمد البشرية بأرقى تصور عن الخالق والكون، وأن يقدم لها أكمل شريعة وأقوم منهج، وأدق نظام، يلي حاجاتها جميعاً، في كل زمان ومكان، في توازن وتناسق وتلازم بين ذات الإنسان الفردية وشخصيته الاجتماعية، ويحدد لها الغاية الكبرى من وجود الإنسان في هذه الحياة والرسالة العظمى المنوطة به"¹²⁵.

الأحكام التشريعية التعبدية منها، والمعاملات كانت تتزل آيات قرآنية على النبي ﷺ، ويتولى هو بيانها وشرحها للناس، وكأمثلة على هذه التشريعات:

أولاً: الصلاة: وهي أهم أركان الإسلام وقد فرضت الصلوات الخمس ليلة الإسراء والمعراج في السنة العاشرة للبعثة قبل الهجرة النبوية، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ (الحج: 41).

وقال ﷺ: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَامْرُكِعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (البقرة: 43).

كانت الصلاة المفروضة أول الأمر دون إعلان، لأن الظروف المحيطة لا تسمح بالنداء المباشر للصلاة، ثم كانت الهجرة النبوية، وقام النبي ﷺ وصحابته ببناء المسجد الجامع، وجاء تشريع الأذان كوسيلة لجمع الناس لأداء فريضة الصلاة، في صحيح البخاري عن ابن عمر قال: ﴿كَانَ الْمُسْلِمُونَ حِينَ قَدِمُوا الْمَدِينَةَ يَجْتَمِعُونَ فَيَتَحَيَّنُونَ الصَّلَاةَ لَيْسَ يَنَادِي لَهَا فَتَكَلَّمُوا يَوْمًا فِي ذَلِكَ فَقَالَ بَعْضُهُمْ اتَّخِذُوا نَاقُوسًا مِثْلَ نَاقُوسِ النَّصَارَى وَقَالَ بَعْضُهُمْ بَلْ بُوْقًا مِثْلَ قُرْنِ الْيَهُودِ فَقَالَ عُمَرُ أَوْلَا تُبْعَثُونَ رَجُلًا يَنَادِي بِالصَّلَاةِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَا بِلَالُ قُمْ فَنَادِ بِالصَّلَاةِ﴾¹²⁶.

ثانياً: تشريع الجهاد:

بعد بعثة النبي ﷺ في سن الأربعين من عمره، أُنذر قومه بدين الله تعالى، واختار الدخول في الإسلام مجموعة من القرشيين الذين فضلوا التوحيد على الشرك، فكانت أولوية الرسول في مكة هي تحصين المسلمين الأوائل من الناحية العقديّة أولاً، وتوجيههم إلى عبادة الله وحده، ثم تكوين الجماعة المسلمة التي تحمي هذا الدين مستقبلاً. أما في المدينة المنورة بعد إرساء دعائم المجتمع

¹²⁵ - محمد على الهاشمي، شخصية الرسول ودعوته في القرآن الكريم، ص 90.

¹²⁶ - رواد البخاري في صحيحه، كتاب: الأذان، باب: بدء الأذان، وقوله تعالى: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ (الجمعة: 9)، رقم: 604، 205/1.

المسلم، والاستقرار الذي عرفه المسلمون، ظهرت أولويات أخرى للمحافظة على استمرارية هذا المجتمع وبناء الأسس الأولى للفتوحات الإسلامية في ربوع الأرض.

بعد أن تمكن المسلمون من الأرض وأضحى الأمر بأيديهم، جاء الأمر بالقتال وهو وسيلة لرد أهل الشرك المعتدين، ورد الظلم عن رسول الله وصحبه الكرام.

قال ﷺ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَكَيْنُصْرَنَ اللَّهُ مِنْ يَنْصُرُهُ إِنْ اللَّهُ لَقَوِيٌّ عُزِيزٌ الَّذِينَ إِنْ مَكَتَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلَهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (الحج: 39-41).

قال ﷺ: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (البقرة: 190).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوَمَّرَةِ وَالْأَيْحِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة: 111).

من خلال آيات الجهاد المذكورة تتضح الأسباب التي شرع من أجلها الجهاد في بعثة النبي ﷺ. ومنها: القتال في سبيل الله من أجل تحقيق التوحيد في الأرض، تأمين دعوة الإسلام حتى يتمكن النبي ﷺ من تبليغ رسالة ربه، رد عدوان الظالمين والاقتصاص للمسلمين المهاجرين منهم.

ثالثاً: تحويل القبلة إلى الكعبة:

كان النبي ﷺ الله يتجه إلى بيت المقدس قبله له في صلواته عندما كان بمكة المكرمة، وعندما هاجر إلى المدينة أحب أن تكون قبلته هي مكة، وكان يرجو ذلك من ربه سبحانه وتعالى:

قال تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾

وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿ (البقرة: 144).

عن البراء بن عازب رضي الله عنه: ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَّى إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا وَكَانَ يُعْجِبُهُ أَنْ تَكُونَ قِبَلَتُهُ قِبَلَ الْبَيْتِ وَأَنَّهُ صَلَّى أَوْ صَلَّى صَلَاةَ الْعَصْرِ وَصَلَّى مَعَهُ قَوْمٌ فَخَرَجَ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ صَلَّى مَعَهُ فَمَرَّ عَلَى أَهْلِ الْمَسْجِدِ وَهُمْ رَاكِعُونَ قَالَ أَشْهَدُ بِاللَّهِ لَقَدْ صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قِبَلَ مَكَّةَ فَدَارُوا كَمَا هُمْ قِبَلَ الْبَيْتِ ﷺ ¹²⁷.

رابعاً: فريضة الصيام:

نزل أمر الله تعالى بوجوب صوم شهر رمضان في السنة الثانية للهجرة والصيام هو أحد الأركان الخمس، قال جل وعلا: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة: 183).

ثم جاء أمر الله سبحانه بلزوم صيام شهر رمضان بعد أن أَلْفَ المسلمون هذا الصيام، وتعودوا على القيام بهذا الواجب، قال تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَكَتَمَلُوا الْعِدَّةَ وَكَبَرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (البقرة: 185).

وفي أول رمضان بالمدينة المنورة، أنزل الله سبحانه أمر إخراج زكاة الفطر، وهي واجبة في حق كل مسلم، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: ﷺ فَرَضَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَكَاةَ الْفِطْرِ صَاعًا مِنْ تَمْرٍ أَوْ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ عَلَى الْعَبْدِ وَالْحُرِّ وَالذَّكَرِ وَالْأُنْثَى وَالصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَأَمَرَ بِهَا أَنْ تُؤَدَّى قَبْلَ خُرُوجِ النَّاسِ إِلَى الصَّلَاةِ ﷺ ¹²⁸.

127- رواد البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَآهَهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ

يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (البقرة: 142)، رقم: 4446، 193/3، وأحمد في المسند، رقم: 18613، البراء بن عازب، 248/14، ورقم: 3270، 3363.

128- رواد البخاري في صحيحه، كتاب: الزكاة، باب: فرض صدقة الفطر، رقم: 1503، 1504، 466/1.

وصلى النبي ﷺ بالمسلمين صلاة العيد، وهي أول صلاة عيد يؤديها المسلمون بعد شهر من الصيام في المسجد النبوي بالمدينة المنورة.

خامسا: تشريع الزكاة:

في السنة الثانية من الهجرة النبوية أنزل الله تعالى حكم الزكاة، ثالث الأركان في الإسلام، حتى يكتمل تأسيس النظام الاجتماعي والاقتصادي الذي أسس له النبي ﷺ في المدينة المنورة، عن قيس بن سعد بن عبادة قال: ﴿أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِصَدَقَةِ الْفِطْرِ قَبْلَ أَنْ تَنْزَلَ الزَّكَاةُ فَلَمَّا نَزَلَتْ الزَّكَاةُ لَمْ يَأْمُرْنَا وَلَمْ يَنْهَنَا وَخُنُّ نَفْعُهُ﴾¹²⁹.

والزكاة واجبة على كل مسلم مكلف إذا بلغ ما يملكه النصاب وحال عليه الحول، يدفع الزكاة إلى مصارفها التي بينها الله تعالى في قوله: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة:160).

قال ﷺ: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ (الذاريات:19).

قال ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ (المعارج:25-26).

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ﴿لَمَّا تُوْفِيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَكَفَرَ مِنْ كَفَرٍ مِنَ الْعَرَبِ فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَيْفَ تَقَاتِلُ النَّاسَ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَمَنْ قَالَهَا فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ فَقَالَ وَاللَّهِ لَأَقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ وَاللَّهُ لَوْ مَنَعُونِي عَنَّا قًا

129 - رواه أحمد، في المسند، رقم: 23730، 143/17، ورقم: 23733، 144/17 من حديث قيس بن سعد بن عبادة، والنسائي في السنن، كتاب: الزكاة، باب: فرض صدقة الفطر قبل نزول الزكاة، رقم: 2506، 49/5، وابن ماجه في السنن، كتاب الزكاة، باب: صدقة الفطر، رقم: 1828، 285/3، قال الحافظ ابن حجر إسناده صحيح.

كَانُوا يُؤَدُّونَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَقَاتَلْتَهُمْ عَلَىٰ مَنَعِهَا، قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَوَا لِلَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ قَدْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴿١٣٠﴾.

الفرع الثالث: الغزوات والسرايا:

خرج النبي ﷺ في ثماني غزوات سبقت غزوة بدر الكبرى، ومجموعة من السرايا قادها صحابته رضي الله عنهم، وهي غزوات جاءت لجمع المعلومات حول العدو، والاستطلاع حول الظروف المحيطة بالمدينة المنورة، وأخبار تجارة مكة، والخروج إثر قوافل المشركين.

والغزوة أو المغازي هو مصطلح يطلقه المؤرخون على كل عمل قام به النبي ﷺ، بغرض نشر الإسلام وتوسيع رقعته وتأمين وجود الأمة المسلمة خارج حدودها، فليس من الضروري أن تكون المغازي أعمالاً عسكرية، بل قد تكون بعوث للدعوة إلى الإسلام أو لتعريف قوم من الأقوام بقواعد الإسلام ومبادئه وإقراء الناس القرآن كما نرى في سريتي بئر معونة والرجيع¹³¹.

وتُعرف السرية على أنها عمل استطلاعي لا حرب فيه، كما نجد في سرية سيف البحر التي قادها حمزة بن عبد المطلب ﷺ وهي أول عمل عسكري قام به المسلمون خارج المدينة¹³².

قال تعالى: ﴿سَأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٧-٢١٨﴾ (البقرة: 217-218).

وسبب نزول هذه الآية هو سرية عبد الله بن جحش، "كان ذلك مفترق طرق في سياسة الإسلام من تقدير للقيم الدينية والخلقية، وسمو بالمعاني الروحية الإنسانية، وعدم إغفال للبواعث الشريفة التي دعت رجال السرية للقتال في الشهر الحرام، دون الوقوف عند الظواهر والرسوم وما

130 - رواه البخاري في صحيحه، كتاب: الزكاة، باب: وجوب الزكاة، رقم: 1399، 1400، 431/1-432، ومسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان،

باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله، رقم: 20، 38/1، واللفظ للبخاري.

131 - حسين مؤنس، دراسات في السيرة النبوية، ص123، بتصرف.

132 - نفسه، ص123.

التزمه الناس من تقاليد كريمة مشروعة أو موروثه، فالله سبحانه أجاب المتسائلين بأن القتال في الشهر الحرام أمر كبير، ولكن هناك من الكبائر التي قام بها المشركون تجاه المسلمين ما هو أكبر وأعظم¹³³.

مغازي النبي ﷺ لم تكن عبارة عن ردود أفعال، أو عملية تثار من المشركين، ولكنها تمثل مجتمعة كلا مترابطا، فهي حلقات في سلسلة عملية عسكرية واحدة، هدفها الدعوة إلى الإسلام، وإدخال الناس فيه وتوسيع رقعة أمته نتيجة لذلك العمل¹³⁴.

منذ جاء أمر الله تعالى بحق المسلمين في القتال، كانت الجهود متواصلة من النبي ﷺ وأصحابه في التخطيط لكل مرحلة حتى تستوفي شروطها، وتصل إلى الغاية المرجوة منها، وكانت هذه الغزوات عنوانا لإبراز دولة الإسلام التي بنيت على أسس الدين الإسلامي، وعلى شهادة أن لا إله إلا الله، وتعزيز مكانتها الجغرافية، والقوة الكامنة في هذه الأمة. ومن أهم الغزوات والسرايا التي أرخ القرآن الكريم لها نجد:

أولا: غزوة بدر الكبرى:

كانت غزوة بدر في السابع عشر (17) من شهر رمضان في السنة الثانية من الهجرة، وقد خرج لها النبي ﷺ مع المهاجرين والأنصار طالبين العير التي خرج بها أبو سفيان في القافلة، فاستقر المشركون في مكة لحماية القافلة مع ما كان فيها من أموالهم وبضاعتهم والتقى الجمعان.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يُعِدُّكُمْ اللَّهُ لِلْحَقِّ لِطَائِفَتَيْنِ أَنهَذَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنْ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَه تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ (الأنفال: 7-8).

غزوة بدر هي المعركة الحاسمة لترسيخ قوة الأمة الإسلامية في المدينة المنورة، والمحطة الأولى في الصراع الدائم بين الحق والباطل.

جاءت تفاصيل هذه الغزوة ومجريات أحداثها في آي القرآن الكريم، المتزلة على النبي ﷺ، ترسم تلك الخطوط الخفية، وتكشف خبايا القلوب ومضامينها، جاءت لتعيد الطريق نحو غد أفضل للإسلام والمسلمين.

¹³³ - أبو شهبة، السيرة النبوية في ضوء الكتاب والسنة، 121/2.

¹³⁴ - ينظر: حسين مؤنس، دراسات في السيرة النبوية، ص 124-129.

قال ﷺ: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْسَ الشَّيْطَانِ وَلِكَيْرِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ (الأنفال: 11).

سار المسلمون حتى وصلوا إلى عدوة الوادي الدنيا¹³⁵، وهي أرض سخية بعيدة عن وطء الأقدام وليس بها ماء، فبعث الشيطان الريبة والشك في نفوس المسلمين، فجاء أمر الله تعالى ونزل المطر مدرارا فغسل المسلمون وتوضؤوا وصلوا صلاتهم، وسهل المسير لهم، أما المشركون فقد أوحلت الأرض تحت أقدامهم وأبطئوا في السير وارتعدت أقدامهم في هذه المعركة. ومن الأمور التي أشار إليها القرآن الكريم، والتي تعد من أساليب القيادة الحكيمة ومن أساسيات العدل، الشورى بين المسلمين.

قال عز شأنه: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران: 159).

جاء موعد المعركة في الصباح الباكر، فجهز النبي ﷺ جنوده للقتال وحرصهم صفوفا لمواجهة المشركين بكل إيمان وعزيمة، وإخلاص للرسالة التي يجاهدون من أجلها.

قال ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُورٌ﴾ (الصف: 4).

وجاءت رؤيا النبي ﷺ في منامه حتى تشد من أزر المسلمين، وتجعلهم سدا على من خرج في حربهم، قال ﷺ: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّيْتِمِ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّكُمُ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (الأنفال: 44).

وقال تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ التَّتَمَنَّا فِئَةً تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ

يَرَوْنَهُمْ مِثْلِهِمْ مَرَأِي الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ (آل عمران: 13).

أقامت قريش على ضفاف سهل بدر، وهو سهل يقع غربي مدينة بدر يؤدي إليه واد يسمى وادي بدر، واستقرت قريش خارجه لأهم لم يستطيعوا المقام داخله، لأنه سهل محاط بالجبال تحجب الرؤية. حتى المسلمون لم يدخلوا السهل إلا ليلة المعركة، لأجل الاستيلاء على عيون الماء، وليس لدينا أي بيان عن موقع الفريقين ليلة المعركة¹³⁶، إلا قوله تعالى في سورة

¹³⁵ - العدو الدنيا : جانب الوادي القريب من المدينة المنورة، والعدوة القصوى فهي البعيدة عنها والتي نزل بها المشركون.

¹³⁶ - حسين مؤنس، دراسات في السيرة النبوية، ص156، بتصرف.

الأنفال: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَخِتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لَيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْنَةٍ وَيَحْيِيَ مَنْ حَيَّ عَن بَيْنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (الأنفال:42). اللقاء كان قضاء وقدرا، ينتصر فيه فريق، ويهزم الفريق الثاني، مع العلم بأسباب النصر والهزيمة.

استقر المسلمون شمال سهل بدر، ونزل القرشيون جنوب السهل، واحتمال الحرب قائم، فكان الترقب والانتظار من الطرفين، قال الله ﷻ: ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ (الأنفال:6).

عند ظهور ملامح المعركة، أشفق النبي ﷺ على أصحابه وهم قلة، أمام هذه الحشود من القرشيين الذين قدموا وهم يحملون حقدا كبيرا للمسلمين، الذين حاصروهم في تجارتهم وأرضهم. فرجع النبي ﷺ يديه إلى السماء راجيا من ربه العون وطالبا الأزر والنصر من الله سبحانه وتعالى. فأنزل الله قوله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ (الأنفال:9)، وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمِدُّكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾ (آل عمران:124-127).

بدأت المعركة واشتد القتال بين الطرفين بعد المبارزة الثنائية، وشاءت إرادة الله تعالى أن يشتد عزم المسلمين ويقبلون على الموت والاستشهاد في سبيل الله إقبالهم على الحياة. وقد أيدهم الله تعالى بقوى أخرى كانت المعين على قوة عزيمة المسلمين واندفاعهم للقتال بكل قوة.

قال سبحانه: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ (الأنفال:12).

وقال جل وعلا: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا مَرَّيْتُمْ إِذْ مَرَّيْتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ مَرَّمَىٰ

وَيُجِيبِي الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بِلَاءٍ حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿ (الأنفال: 17).

وقال عز من قائل: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾
(آل عمران: 123).

روى البخاري عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال وهو في قبة يوم بدر: ﴿اللَّهُمَّ إِنِّي أَنْشُدُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ اللَّهُمَّ إِنِّي شِئْتُ لَمْ تَعْبُدْ بَعْدَ الْيَوْمِ فَأَخَذَ أَبُو بَكْرٍ بِيَدِهِ فَقَالَ حَسْبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَدْ أُحْحِتَ عَلَى رَبِّكَ وَهُوَ فِي الدَّرْعِ فَخَرَجَ وَهُوَ يَقُولُ: ﴿سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُؤَكِّنُ الدُّبْرَ﴾ (القمر: 45) 137.

وهذه الآية مكية قطعاً، ولكن وقع مصداقها يوم بدر، وهذا مما سبق نزول معناه، ولما نزلت الآية بمكة قال عمر بن الخطاب: ﴿أَيُّ جَمْعٍ يُهْزَمُ؟ قَالَ: فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَثْبُ فِي الدُّرُوعِ وَيَقُولُ: ﴿سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُؤَكِّنُ الدُّبْرَ﴾ 138.

ثم كانت نهاية المعركة وتزاحم عدد من المسلمين حول الغنائم يطلب كل فريق الظفر بنصيب أوفر، قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (الأنفال: 1).

فقام النبي ﷺ بتخميس الغنائم، وأخذ الخمس لنفسه ولذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، وقسم الأربعة الباقية على المجاهدين.

وآيات القرآن الكريم لم تتوقف في هذه النقطة، بل لفتت الأنظار إلى أمر الأسرى، المحبوسين عند المسلمين، فقد وعد الله تعالى من آمن منهم الخير في الدنيا والآخرة.

137- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: التفسير، باب: ﴿سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُؤَكِّنُ الدُّبْرَ﴾ (القمر: 45)، رقم: 4875، 301/3، وباب: ﴿بَلِ السَّاعَةِ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ﴾ (القمر: 46)، رقم: 4877، 302/3. ورواه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب: السير، باب: الاختيار في التحرز، رقم: 13971، 79/9.

138- السيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين، الإتيان في علوم القرآن، ت: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1429هـ/2008م، 36/1، وأخرجه الطبراني في المعجم الأوسط رقم: 3829، 145/4، وقال: تفرد به محمد بن إسماعيل الأنصاري، والحديث ضعيف الإسناد. الطبراني: أبو القاسم بن سليمان بن أحمد، المعجم الأوسط، ت: طارق بن عوض الله بن محمد وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، مصر، 1415هـ/1995م.

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَىٰ إِنَّ يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (الأنفال: 70).

وهذه الإشارة من القرآن الكريم، جاءت لتنبه النبي ﷺ إلى ظاهر الأمر وحقيقته، بعد أن طلب المسلمون الفداء من أهالي الأسرى، وجاءت آراء الصحابة متباينة في الأمر، قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (الأنفال: 67-68).

وقال ﷺ: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ (آل عمران: 126).

وقال ﷺ: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (الأنفال: 10).

هكذا رسمت الآيات القرآنية صورة المعركة، بكل تفاصيلها ومعالمها الخارجية وتأثيراتها النفسية. فقد خاض المسلمون أول معركة ضد الكفر والطغيان في الأرض فكانوا قاب قوسين أو أدنى من الإفناء من تلك القوى العظيمة، لكن قوة الإيمان هي المنتصرة، وقد أرخ القرآن لهذه المعركة خطوة خطوة حتى المعلومات الغائبة عن كتب التاريخ، وكأنه يرسم الصورة الواقعية والحقيقية لصراع الحق والباطل، من أجل التأريخ لهذه الدعوة بمختلف مراحلها، والعبرة بكل الأعمال الجليلة التي قام بها النبي ﷺ مع صحابته الكرام، "إنه درس عظيم يجب أن يعيه المسلمون في كل قطر، فما أجدرهم أن يأخذوا بقوى الله والاستقامة على شريعة الإسلام، وأن يصلوا حبلهم بجمال السماء، وإلا كانوا هم والأعداء في المعاصي سواء" ¹³⁹.

ثانياً: غزوة أحد:

بادرت قريش إلى حرب رسول الله ﷺ بعدما أصابهم في معركة بدر، ونتيجة ما خسروه في المعركة من سادة القوم ورجال وأموال، وقد عزم سادة القوم في دار الندوة على الحرب والثأر

139 - أبو شهبة، السيرة النبوية، 174/2.

من المسلمين فجمعوا الرجال، واستنفروا الأحلاف، واستقبلوا القبائل. وصار الجيش بتعداد ثلاثة آلاف مقاتل (3000)، وخرجت النسوة معهم تتقدمهم هند بنت عتبة زوج أبي سفيان. وخرج الجيش يقصد المدينة.

وصل خبر خروج الجيش إلى النبي ﷺ، فجمع أصحابه واستشارهم في الأمر ليعدوا العدة للحرب. وخرج النبي ﷺ بجيشه إلى ساحة المعركة، وأثناء المسير، خرج عبد الله بن أبي من صفوف الجيش بأصحابه الذين عرفوا بالنفاق وأعلنوا أنهم لو علموا فيه قتال ما أسلموا وفي ذلك نزل قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقِي الْجَمْعَانِ فَيَا ذُنَّ اللَّهَ وَيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ اذْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمِيذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ (آل عمران: 166-167).

كما أشار الله تعالى إلى حادث خروج بني سلمة وبني حارثة من الجيش، لكن نعمة الله تعالى قضت بتثبيت المسلمين، والعدول عن الفرار والخروج من المعركة.

قال ﷺ: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (آل عمران: 122).

وبعد نزول الرسول ﷺ بالجيش في الشعب من أحد، أخذ يجهز أصحابه للمعركة ويث فيهم روح العزيمة والقتال قائلاً: (انضحوا بالنبل عنا لا نؤتين من قبلكم، والزموا مكانكم إن كانت النبوة لنا أو علينا، وإن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم)، وفيه نزل قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (آل عمران: 121).

كانت قوة الإيمان ظاهرة في نفوس المسلمين وهم يقاتلون في المعركة، حتى هزموا جيش المشركين وفروا هاربين، فانطلق المسلمون في جمع الغنائم، وشغلوا بها عن مطاردة المشركين، وانظم إليهم الرماة الذين خالفوا أمر رسول الله ﷺ، فتحنَّ خالد بن الوليد الفرصة، وجاء إثر الجيش المسلم، وقتلوا من صمد من الرماة وعادت الكرة على المسلمين.

وبعد مقتل مصعب بن عمير ﷺ، ظن المشركون أنهم قتلوا محمد ﷺ، فانتشرت شائعة مقتل النبي بين صفوف المسلمين، فكان منهم الهارب، وكان منهم التائه، وصمد بعض من صحابة رسول الله ﷺ حوله يطلبون حمايته، قال ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ التَّقِي الْجَمْعَانِ إِنَّمَا

اسْتَرَجَّهُمُ الشَّيْطَانُ بَعْضُ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ (آل عمران: 155).

في هذه المعركة الشديدة الوطيس ظهرت أمثلة كثيرة عن رجال مؤمنين قدموا أفضل العبر عن التضحية والشهادة في سبيل الحق، ففي هذه اللحظات الحرجة قوي إيمان الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، ومنهم أنس بن النضر الذي قاتل بكل شجاعة وما زال يقاتل حتى استشهد وبه بضع وثمانون طعنة، قال سبحانه وتعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَلُوا ثَبِيلًا﴾ (الأحزاب: 23).

كما نزلت آيات بينات تدعو إلى العدل في القصاص، وعدم التمثيل في القتل، نتيجة لما وقع من المشركين وتمثيلهم بالشهداء ومنهم سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه.

قال تجلت قدرته: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ (النحل: 126-128).

ونزل في شهداء أحد قوله جل وعلا: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (آل عمران: 169).

وسجل القرآن الكريم على المسلمين انشغالهم بجمع الغنيمة عن حماية ظهور المسلمين في المعركة، وعدم التزامهم بأوامر النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا الانشغال بجمع الأموال عن محاربة المشركين كلف المسلمين الانهزام في الغزوة، وخسارة الكثير من الشهداء البواسل، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِأِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَمَّاكُمْ مَا تَحِبُّونَ مِمَّا مَن يَرِيدُ الدُّنْيَا وَمِمَّا مَن يَرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: 152).

معركة أحد إحدى المعارك التي كانت أشد وطأ على المسلمين وعلى النبي صلى الله عليه وسلم، ولكنها أهم عبرة وتجربة للمسلمين في تاريخ الدعوة الإسلامية.

بينت الآيات القرآنية عن عمل المجاهدين البواسل، ولكنها لم تغفل عمل المشركين المتناسق

والمنظم للظفر بهذه المعركة. كما بين القرآن الكريم الطمع الذي حل بنفوس المسلمين، وساروا باتجاه الدنيا وزخرفها، ونسي المسلمون سبب جهادهم الكفار، وأغفلوا دعوة النبي ﷺ.

قال ﷺ: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (آل عمران: 140).

اقتضت سنة الله سبحانه وتعالى في الأرض التداول بين الناس، ولا مبدل لسنة الله تعالى، والمهم العبرة من الهزيمة وبيان الخطأ الذي سبب الهزيمة، وبيان أن ما عند الله ﷻ هو الأبقى وما الدنيا إلا عرض زائل.

ثالثاً: حرب اليهود:

كان بين النبي ﷺ وبين اليهود موادة، كتب فيها النبي شروطاً تجمع بين الطرفين في المدينة المنورة، وهذه الشروط تحمي الطرفين من أي نقض للعهد أو غدر وخيانة. لكن الطبيعة السلبية لليهود جعلتهم ينقضون العهد ويتآمرون ضد النبي ﷺ ودعوته، ويحاربون المسلمين مع المشركين في غزوة الأحزاب، التي تحالفت فيها أحياء اليهود مع قريش، فكان الأولى وضع حد لهذه التصرفات بحرب اليهود وكسر شوكتهم لأنهم عنصر لا يؤمن جانبه.

1- غزوة بنو قينقاع: كان حقد اليهود على المسلمين بعد النصر المؤزر الذي أيدهم الله تعالى به في غزوة بدر الكبرى ظاهراً بين، فكانت الحادثة المشينة للمرأة المسلمة في سوق اليهود، ونقض اليهود العهد بهذه الفعلة وقتلهم الرجل المسلم، فترل قوله تعالى: ﴿وَمَا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ﴾ (الأنفال: 58).

بعد الحادثة حاصر النبي ﷺ حي بني قينقاع خمسة عشر يوماً، حتى استسلموا وطلبوا الصلح من النبي ﷺ. فكان أن أخرجهم من المدينة المنورة مع أهلهم وأولادهم.

قال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۚ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (المائدة: 51)، هذه الآيات من سورة المائدة نزلت في حق عبادة بن الصامت الذي رفض موالاته اليهود، وعبد الله بن أبي الذي جادل النبي ﷺ فيهم حتى أذن لهم النبي عليه الصلاة والسلام بالخروج من المدينة المنورة.

2- غزوة بني النضير:

كان للغزوة سبب كسابقتها، عندما لجأ النبي ﷺ مع صحبه يسأل عن دية الرجلين القتولين، هم اليهود بغدر النبي ﷺ وقتله، فجاء أمر السماء فخرج النبي ﷺ من عندهم طالبا المدينة¹⁴⁰، ثم أرسل إليهم رسولا وطلب منهم الخروج وأمهلهم على ذلك عشرة أيام، لكنهم رفضوا الانصياع للأمر نتيجة تأمر المنافقين معهم، قال ﷺ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُؤْكِنَنَّ الْأُذُنُ لَيْسَ لَهُمْ فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ (الحشر: 11-13).

ونتيجة لهذه المؤامرة حاصر النبي ﷺ والمسلمون اليهود في ديارهم وقتلهم، ثم أمر النبي ﷺ بقطع النخيل وتحريق البيوت، فترل الرعب بقلوب اليهود فاستسلموا وأرادوا الخروج، فخرجوا من دورهم وأموالهم. وأهم سورة قرآنية نزلت تكشف وقائع غزوة بني النضير سورة الحشر التي كانت الكافية¹⁴¹.

3- غزوة بني قريظة: وقعت الغزوة بعد غزوة الأحزاب مباشرة، في ذي القعدة وأول ذي الحجة من السنة الخامسة للهجرة.

وسبب هذه المعركة مع اليهود دائما، هو نقض بني قريظة عهدهم مع النبي ﷺ، وتمزيقهم الوثيقة التي بينهما.

وبعد هذه الخيانة من يهود بني قريظة، جاء أمر الله تعالى بقتالهم، فأمر النبي ﷺ أصحابه أن يتوجهوا إلى بني قريظة، مع طلب السرعة في المهمة¹⁴².

140- ابن هشام، السيرة النبوية، 267/3-268، وينظر: البخاري، الجامع الصحيح، كتاب: المغازي، باب: حديث بني النضير ومخرج رسول الله ﷺ في دية الرجلين، وما أرادوا من الغدر برسول الله ﷺ، رقم: 4028، 97/3.

141- ينظر، أبو شهبة، السيرة النبوية، 402/1-405.

142- ينظر: البخاري، الجامع الصحيح، كتاب: المغازي، باب: مرجع النبي ﷺ من الأحزاب ومخرجه إلى بني قريظة ومحاصرته إياهم، رقم: 4117، 4118، 4119، 118/3-119، ومسلم في صحيحه، كتاب: الجهاد والسير، باب: من لزمه أمر، فدخل عليه أمر آخر، رقم: 1770، 162/5.

قال ﷺ في حق بني قريظة: ﴿ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَّاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَنَأْسِرُونَ فَرِيقًا وَأَوْمَرَكُمْ أَرْضَهُمْ وِدْيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوُّهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ (الأحزاب: 27).

استمر حصار النبي ﷺ وصحابته لبني قريظة خمسا وعشرين يوما، حتى يأسوا من الفرج وطلبوا الخروج من الحصار¹⁴³، واستشاروا حليفهم أبو لبابة بن عبد المنذر. فنصحهم الرجل بما يرى، ولكنه اعتبر ذلك نهاية لهم.

واختار النبي ﷺ حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه، بعد أن استشار أصحابه في استسلام يهود بني قريظة، فقال سعد بن معاذ: ﴿ تَقْتُلُ مَقَاتِلَهُمْ وَتَسْبِي ذُرَارِيَهُمْ وَتَقْسِمُ أَمْوَالَهُمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ قَضَيْتَ بِحُكْمِ اللَّهِ، وَرَبَّمَا قَالَ: بِحُكْمِ الْمَلِكِ ﴾¹⁴⁴.

هذه المعارك الثلاث وغيرها والتي خاضها النبي ﷺ مع صحبه ضد اليهود، كانت نتيجة نقض اليهود للميثاق الذي بينهم وبين المسلمين، فكانوا أغدر الناس وأقواهم على الخيانة. فكان لا بد من استئصال هذه الفئة المريضة من المدينة المنورة، حتى تتحرر من الغدر والمؤامرات وتكون المدينة على قلب رجل واحد تسير نحو تحقيق عهد الله ووعده في الأرض.

رابعا: غزوة الحديبية:

في شهر ذي القعدة من العام السادس للهجرة، خرج النبي ﷺ مع صحابته، ومن لحق به من الأعراب طالين مكة، لأنه رأى أصحابه يشتاقون إلى وطنهم، ويتحينون الفرصة للقاء الأهل، وكانت رؤيا النبي ﷺ سبيلا لهذا الخروج لأداء العمرة في مكة المكرمة¹⁴⁵. ووصل الخبر إلى قريش فمنعت المسلمين من دخول مكة، وسار النبي ﷺ وصحبه في طريق وعرة، حتى يتفادوا الالتقاء مع قريش وحرهم، حتى وصلوا إلى ثنية المرار وهي مهبط الحديبية، وساروا حتى نزلوا أقصى الحديبية، فبركت ناقته القصواء من غير علة.

¹⁴³ - ينظر: ابن كثير، البداية والنهاية، 140/4، الطبري، تاريخه، 583/2، قال ابن كثير: هذا الحديث إسناده جيد.

¹⁴⁴ - رواه البخاري في صحيحه، كتاب: المغازي، باب: مرجع النبي ﷺ من الأحزاب ومخرجه إلى بني قريظة ومحاصرته إياهم، رقم: 4121، 4122،

119/3، ومسلم في صحيحه، كتاب: الجهاد والسير، باب: جواز قتال من نقض العهد وجواز إنزال أهل الحصن على حكم حاكم عدل أهل للحكم،

رقم: 1768، 160/5.

¹⁴⁵ - ينظر: البخاري، الجامع الصحيح، كتاب: العمرة، باب: كم اعتمر النبي ﷺ، رقم: 1778، 1779، 1780، 538/1.

وكانوا على ضفاف بئر قليلة الماء، فاشتكى الصحابة رضوان الله عليهم العطش، فكانت معجزة النبي ﷺ بأن انتزع سهما من كنانة ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فجاش بالماء فارتووا جميعاً¹⁴⁶.
"بذل الرسول ﷺ ما في وسعه لإفهام قريش أنه لا يريد حرباً معهم، وإنما يريد زيارة البيت الحرام وتعظيمه، وهو حق للمسلمين، كما هو حق لغيرهم، وعندما تأكدت قريش من ذلك أرسلت إليه من يفاوضه ويتعرف على قوة المسلمين ومدى عزمهم على القتال إذا أُلجئوا إليه، وطمعا في صد المسلمين عن البيت بالطرق السلمية من جهة ثالثة"¹⁴⁷.

وآخر الرسل الذين أرسلتهم قريش إلى محمد ﷺ عمرو بن سُهَيْل، الذيفاوض النبي ﷺ على الصلح¹⁴⁸، فأملى محمد عليه الصلاة والسلام شروط هذا الصلح على علي بن أبي طالب.

أثناء عودة المسلمين من الحديبية نزلت سورة الفتح، قال جل وعلا: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ (الفتح: 1-2).
قال النبي ﷺ: ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْتُ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ سُورَةً لَهَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ ثُمَّ قَرَأْتُهَا ﴾¹⁴⁹.

فقال عمر متعجبا: (أو فتح هو؟)، فقال له رسول الله ﷺ نعم، فطابت نفسه ورجع، وفي رواية: (نعم والذي بيده إنه لفتح)¹⁵⁰.

خامسا: غزوة فتح مكة (الفتح الأكبر).

من بين التحالفات التي وقعت بعد صلح الحديبية، حلف بن خزاعة مع المسلمين، وحلف بني بكر مع قريش. لكن المشركين أعانوا بني بكر على نقض عهد الهدنة، فأغاروا على خزاعة وقتلواهم ليلا، فوصل ذلك إلى النبي ﷺ، فأرسل إلى قريش يسألهم، بين دفع دية قتلى خزاعة أو البراءة من حلف بني بكر أو الحرب، فاخترت قريش الحرب¹⁵¹.

146- البخاري، الجامع الصحيح، كتاب: الشروط، باب: الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، رقم: 2731، 2732، 279/2.
147- مهدي رزق الله أحمد، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ط1، 1412هـ/1992م، ص485.

148- ابن هشام، السيرة النبوية، 439/3.

149- البخاري، الجامع الصحيح، كتاب المغازي، باب: غزوة الحديبية وقول الله تعالى: ﴿ لَقَدْ مَرْضَى اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾ (الفتح: 18)، رقم: 4177، 131/3.

150- رواه مسلم في صحيحه، كتاب: الجهاد والسير، باب: صلح الحديبية في الحديبية، رقم: 1785، 113/5.

151- ينظر: ابن حجر العسقلاني: أحمد بن علي، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، دار طيبة، الرياض، ط1، 1426هـ/2005م، 381-382/9.

خرج المسلمون مع رسول الله ﷺ من المدينة إلى مكة، في رمضان سنة ثمان من الهجرة، وكانوا صياما حتى بلغوا كديد¹⁵² فأفطر وأفطر الناس¹⁵³.

واتفق أهل المغازي والسير أن النبي ﷺ خرج في العاشر من رمضان في السنة الثامنة للهجرة¹⁵⁴، واختلفوا في يوم الفتح.

والروايات عند مسلم تؤكد أن الخروج من المدينة المنورة كان في السنة الثامنة للهجرة¹⁵⁵.

ودخل جيش المسلمين مكة من غير قتال إلا ما استثني من بعض المناوشات¹⁵⁶، ومن عظمة هذا الجيش خاف المشركون على أنفسهم فلاذوا بالفرار من هذا القادم. فقام النبي ﷺ بتحطيم الأصنام حول الكعبة، وصلى ركعتين داخلها ونادى في الناس مخاطبا، وكانت رأفته ﷺ أن قال لهم: اذهبوا فأنتم الطلقاء. فأسلم أهل مكة عن طواعية إلا من أبي وهرب منها أو قتل.

إن موقف النبي ﷺ من أهله بمكة، كان موقف الرجل السمح ذو الخلق العالي، وفيها نزل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوْقِبْتُمْ بِهِ وَإِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ (النحل: 126)، فقال النبي ﷺ: ﴿نَضْبِرُ وَلَا نَعَاقِبُ﴾¹⁵⁷.

سادسا: حجة الوداع:

في السنة العاشرة من ذي القعدة عزم النبي ﷺ أن يحج إلى بيت الله الحرام، وقد عرفت هذه الحجة بحجة الوداع، وحجة الإسلام، وحجة البلاغ.

152 - كديد: عين جارية تبعد عن مكة 86 كيلا، وعن المدينة 301 كيلا، وفي صحيح البخاري، الكديد: هو الماء الذي بين قديد وعُسفان،

148/3، ابن هشام، السيرة النبوية، 60/4.

153 - البخاري، الجامع الصحيح، كتاب المغازي، باب، غزوة الفتح في رمضان، رقم: 4275، 148/3، مسلم، صحيحه، كتاب: الجهاد والسير، باب:

فتح مكة، 170/5، رقم: 1113، ابن هشام، السيرة النبوية، 60/4.

154 - ابن هشام، السيرة النبوية، 60/4، الواقدي، 801/2، ابن سعد: محمد بن سعد بن منيع الزهري، كتاب الطبقات الكبير، ت: علي محمد عمر،

مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1421هـ/2001م، 124/2، وينظر: ابن حجر، الفتح، 386-385/9.

155 - ينظر: صحيح مسلم، كتاب: الإيمان، رقم: 113، 116.

156 - ينظر: البخاري، الجامع الصحيح، كتاب: المغازي، باب: أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح؟، رقم: 4280، 149/3.

157 - رواه أحمد في المسند، رقم: 21127، مسند أبي بن كعب، 455-454/15، وأورده في كثر العمال، رقم: 4476، 451/2، ورقم: 39856،

13/15، وقال: حسن غريب. البرهان فوري: علاء الدين علي المتقي حسام الدين الهندي، كثر العمال في سنن الأقوال والأفعال، مؤسسة الرسالة،

بيروت، لبنان، ط5، 1405هـ/1985م.

وعند إعلان النبي ﷺ خروجه إلى مكة جاء خلق كثير يريد الخروج معه¹⁵⁸، حتى كانت الوفود تدخل على مكة الوفد تلو الآخر، فخرج المسلمون مع نبيهم محمد عليه الصلاة والسلام في ذي القعدة، ومسيرهم إلى مكة المكرمة.

وصل النبي ﷺ إلى مكة وأقام بها أيام الحج مع المسلمين الحاجين إلى بيت الله الحرام، وفيها بين مناسك الحج وأحكامه الخاصة به، وهو يتلو آيات الحج المتزلة عليه وقد كتب علماء السير والتاريخ كل تفاصيل هذه الرحلة من بدايتها إلى خطبة عرفات التي خاطب فيها النبي ﷺ الناس مودعا لهم¹⁵⁹. وهي خطبة تلاها النبي ﷺ أيام التشريق، وقد نزلت عليه آخر آية قرآنية، في قوله سبحانه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة:3).

كما خطب النبي خطبة بمنى أيام التشريق، روى الحافظان البزار والبيهقي بسندهما عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: نزلت هذه السورة: في أوسط أيام التشريق، فعرف رسول الله ﷺ أنه الوداع، فأمر بإحلاله القسواء فرحلت، ثم ذكر خطبته في هذا اليوم، وهي تأكيد لما جاء في خطبتي عرفة، ويوم النحر¹⁶⁰.

بعد إتمام مناسك الحج العظيم رجع النبي ﷺ وصحابته إلى المدينة، وجاء موعد تجهيز الجيش لغزو الروم بالبلقاء وفلسطين، فنادى النبي ﷺ في الأنصار والمهاجرين بالخروج، وأمر أسامة بن زيد على الجيش. لكن النبي ﷺ مرض مرضه الأخير، قبل البدء من تجهيز الجيش.

بعد عودة النبي ﷺ من بيت الله الحرام اشتكى الحمى، وكان ذلك ليلتين من شهر صفر، وأول شهر ربيع الأول من العام الحادي عشر للهجرة¹⁶¹. وقد استأذن ﷺ أن يمرض في بيت عائشة رضي الله عنها¹⁶²، وقد التحق بالرفيق الأعلى يوم الاثنين في الثاني عشر من ربيع الأول، وقد تم له من العمر ثلاث وستون عاماً¹⁶³. وقد كتبت العديد من الروايات وأدرجت في كتب الحديث والسير، عن حادث وفاة النبي ﷺ، الضربة الموجهة للمسلمين جميعاً من عصر

158- مسلم، الجامع الصحيح، كتاب: الحج، باب: حجة النبي ﷺ، رقم: 1218، 38/4.

159- ينظر: ابن كثير، البداية والنهاية، 223-233/5.

160- ابن كثير، البداية والنهاية، 201-202/5.

161- ابن هشام، السيرة النبوية، 385/4، وينظر: ابن حجر، الفتح، 585-586/9.

162- البخاري، الجامع الصحيح، كتاب: المغازي، باب: مرض النبي ﷺ ووفاته، رقم: 4442، 183/3، ورقم: 4450، 185/3.

163- البخاري، الجامع الصحيح، كتاب: المغازي، باب: وفاة النبي ﷺ، رقم: 4466، 187/3، وينظر: ابن هشام، السيرة النبوية، 360/3.

الصحابة إلى يومنا هذا¹⁶⁴. حينها خرج عمر بن الخطاب يُكذب خبر وفاته ﷺ، فنادى أبو بكر الصديق في الناس:

﴿ أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ. ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَتَقَلَّبْ عَلَى عَقْبِيهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ ﴾ (آل عمران: 144).

قال أبو هريرة: فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت حتى تلاها أبو بكر يومئذ؛ قال: وأخذها الناس عن أبي بكر، فإنما هي في أفواههم؛ قال: فقال أبو هريرة: قال عمر: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها، فعقرت حتى وقعت إلى الأرض ما تحملي رجلاي، وعرفت أن رسول الله ﷺ قد مات¹⁶⁵.

المرحلة المدنية من بعثة النبي محمد عليه الصلاة والسلام اتسمت بالمميزات التالية:

- 1- تأسيس النبي ﷺ لنظام جديد لم تعرفه العرب من قبل، وهو نظام الأمة الواحدة.
- 2- المشركون لم يعد لهم سبيل إلا المواجهة العسكرية، من أجل البقاء والسؤدد على القبائل العربية المترامية في الجزيرة العربية.
- 3- الرسول ﷺ يعمل على إنشاء الأمة الإسلامية ذات الكيان الحقيقي في المنطقة والسبيل للتعرف على هذه الأمة هو المواجهة من أجل إعلاء كلمة الحق الذي جاءت به الرسالة الخاتمة.
- 4- معركة بدر رسمت خط الأمة الإسلامية الملتفة حول قائد واحد، جعل منها قوة كامنة في المدينة المنورة.

هذه المراحل المختلفة في السيرة النبوية جاءت في نصوص قرآنية عديدة، كلها تسير على خط البعثة النبوية وتشريع الأحكام المتعلقة بها، وكذا المواجهات العسكرية الحاسمة بين المسلمين والكفار، من أجل هدف محوري واحد وهو إظهار صدق الدعوة الإسلامية التي جاءت لتحقيق التوحيد الخالص لله تعالى في العبادة والطاعة، بالإضافة إلى الإشارات السريعة في القرآن الكريم لبعض الأحداث التي مر بها النبي ﷺ والصحابة والتي تسير أيضا في مجال خدمة الدعوة الإسلامية.

¹⁶⁴ - ينظر: ابن هشام، السيرة النبوية، 404/4، والبخاري، الجامع الصحيح، كتاب المغازي، باب: مرض النبي ﷺ ووفاته، 181/3-188، ومسلم في صحيحه، كتاب: فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب: في فضل عائشة رضي الله عنها، رقم: 2444، 134/7.

¹⁶⁵ - ابن هشام، السيرة النبوية، 406/4.

عنوان هذا الباب هو: "محطات السيرة النبوية في القرآن الكريم"، ومن خلال الفصول والمباحث التي تضمنها هذا الباب تتضح أن المعالم الأساسية التي بينتها الآيات القرآنية تدور كلها حول المحور الأهم من وجود الإنسان في هذه الأرض وإرسال الأنبياء والرسول إليه وعليه فإن:

1- محمد ﷺ هو الرسول الخاتم لرسالات الأرض، جاء نبوءة في الأديان السابقة قبل العرب، وهذا دليل على ختم النبوة أولاً وعالميتها ثانياً.

2- خلد القرآن الكريم بناء الكعبة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران:96). وهو بناء مقدس يعبر عن حقيقة التوحيد لله تعالى.

3- معجزة الإسلام هي القرآن الكريم، نتيجة لما وصل إليه الإنسان من النضج العقلي، وما توفر للإنسان العربي من:

- قوة وقدرة على حمل الرسالة الخاتمة.

- العقل وقوة الحجّة، والفصاحة والبيان المميز الذي عرفه العربي.

- القدرة العظيمة على التبليغ، لأن الإسلام دين عالمي لا يختص بالعرب وحدهم.

4- القرآن الكريم لم يذكر وقائع وحوادث السيرة النبوية مجسدة، بل تحدث عن حوادث تتعلق بالتبليغ وبالرسالة، وأعمال النبي ﷺ والصحابة الكرام في الدعوة إلى الله تعالى.

الباب الثاني: البعد التاريخى للسيرة النبوية:

تمهيد:

الحديث عن البعث التاريخي، يتضمن حديثاً عن التاريخ، وبعض مراحلها الخاصة، والمتعلقة أساساً بتاريخ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وتاريخ الرسالات السماوية. والبعث ضوء يشار به إلى سيرة المصطفى ﷺ لكشف الحقيقة، والافتداء بسيرة النبي محمد ﷺ، والسير على خطى سيرته العطرة، من أجل تدارك الانحراف الذي آل إليه الإنسان المسلم اليوم، وإعادة البناء الذاتي والاجتماعي من جديد.

والبعث هو ذلك الأثر الحركي الدائم الذي يبعث في المظهر الرسالي روحاً جديدة، لملء فراغ الروح أولاً، وإعادة غطاء الحياة الإسلامية السليمة ثانياً. فالآثار التاريخية التي كونتها السيرة النبوية تمتد عبر الزمن بمختلف مراحلها وأطواره، وهذه الأبعاد عبرت مرحلتين تاريخيتين؛ الأولى كانت قبل البعثة النبوية، والثانية بعد بعثة النبي ﷺ.

والتكلم عن الخط البياني الذي رسمته السيرة النبوية، منذ ميلاد النبي ﷺ إلى وفاته وانتقاله إلى الرفيق الأعلى، مرحلة أولى، ثم تأتي بعدها مراحل تاريخ الخلفاء الراشدين، ثم التابعين وتابعيهم. هذا الخط البياني يرسم عناصر ثلاثة، تجلت عبر التاريخ الإنساني منذ نزول آدم عليه السلام. أول هذه العناصر التوحيد، والتوحيد هو السر الأول لهذا الكون، وهو سر نشأته ونشأة العالم، وكذا هو سر وجود الخليفة على هذه الأرض.

ثانياً النبوة: وهي مظهر أو ظاهرة إنسانية تعلقت بهذه الأرض، والنبي هو ذلك الإنسان المصطفى من الله تعالى لتبليغ رسالة السماء إلى أهل الأرض، وربط الإنسان بخالقه وتكوينه لبناء مجتمعه وأمته.

ثالثاً: الرسالة السماوية، وهي الخطاب الإلهي الذي لم ينقطع عن هذه الأرض، وجاء كلمات واضحة وصریحة، وحقائق يقينية وقطعية لبناء الروح الإنسانية، وعمران الحضارة البشرية. فالأمر يتعلق بالعبادة على هذه الأرض؛ أي قضية الدين، أما عن تكوين مجتمع فاضل، فهي مجموع القيم والأخلاق التي ينقلها النبي إلى قومه وأمته، أما الأمر الآخر فهو معرفة الكون المادي، وهذه المعرفة والتعامل معه يحتاج إلى العلم كوسيلة مناسبة للمعرفة ثم عمارة الأرض وتكوين الحضارة الإنسانية على أسس ربانية.

ومن خلال ما تقدم من عرض أردنا معرفة البعد التاريخي للسيرة النبوية، والوصول إلى مفهوم هذا البعد والمساحات التاريخية التي عرفها، وكذا الآثار العميقة التي صنعتها السيرة العطرة لمحمد ﷺ في التاريخ الإنساني. فكان تقسيم هذا الجزء يقتضي قسمين كالتالي:

1- التوحيد.

2- النبوة.

الفصل الأول: الرؤية التاريخية لعقيدة التوحيد ضد الوثنية.

المبحث الأول: الوثيقة.

المطلب الأول: مفهوم الوثنية.

نزعة التدين التي كانت عند الإنسان، جاءت لأنه كان دائما يبحث عن خالق هذا الكون الفسيح، ومدبره، فالأمر حارق على أن يقوم مخلوق عادي بتشكيل هذا الإبداع الهندسي المتكامل. ونقطة البحث تركزت حول الخالق الأوحده الذي يقف وراء هذا الكون، لأن فكرة التدين عند الإنسان أصل في فطرته، وليست أمرا مكتسبا، "لقد سارت هندسة البناء من كهوف العبادة في العصر الحجري، إلى عهد المعابد الفخمة، جنبا إلى جنب مع الفكرة الدينية التي طبعت قوانين الإنسان بل علومه، فولدت الحضارات في ظل المعابد كمعبد سليمان أو الكعبة"¹.

تورد الكتب التاريخية، وكتب الحديث والسير أن أغلب العرب كانوا وثنيين إلا قلة منهم، اختارت ديانات أخرى، أو سارت على طريق الحنفية السمحة.

وبالرغم من أن مكة كانت مبعث الدين الخالص لله تعالى زمن إبراهيم عليه السلام وولده إسماعيل، قال عليه السلام: ﴿وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَامْنِزِقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمْتِعْهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (البقرة: 125-126)، غير أن الوثنية وعبادة الأوثان انتشرت بشكل واسع في أوساط العرب، حتى لا تخلو قبيلة من حيازة أصنام أو أوثان منصوبة في باحتها.

أولا: الوثنية لغة:

(وثن) الواو والياء والنون. كلمة واحدة، هي الوثن واحد الأوثان: حجارة كانت تُعبَد. وأصلها قولهم استوثن الشيء: قوي. وأوثن فلان الحمل: كثره. وأوثنت له: أعطيته جزيلاً². وعلماء اللغة على الوثن محرّكة: الصنم، والجمع وثنٌ وأوثانٌ.

¹ - مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ترجمة: عبد الصابور شاهين، ص 69.

² - ابن فارس، معجم مقاييس اللغة 6/85، مادة (و.ث.ن).

والوثن: الشيء الدائم الثابت في مكانه كالوثن بالمشناة³.

الوثن والوثن المقيم الرائد⁴. والوثن: الشيء الرائد والباقي في مكانه دون حراك.

يورد ابن منظور قول الليث: "يروى بالثاء والتاء ومعناهما الدوم على العهد وقد وثن ووثن بمعنى واحد"⁵.

والوثن الصنم وقيل الصنم الصغير والجمع أوثنان ووثن ووثن ووثن على إبدال الهمزة من الواو.

ووثن الأرض مطرت حكاها ابن الأعرابي. واستوئنت الإبل نشأت أولادها معها.

واستوئن النحل صار فرقتين كباراً وصغاراً. واستوئن المال كثر. واستوئن من المال استكثر⁶.

الوثن هو الصنم سواء كان من الحجر أو الخشب أو المعدن، وهناك من يفرق بينها.

الجوهري يذكر أن الصنم هو الوثن وهو صريح في أنهما مترادفان⁷، أما هشام بن الكلبي

ففرق بينها في كتاب الاصنام، على أن المصنوع من الخشب أو الذهب والفضة أو غيرها من

جواهر الأرض صنم وإذا كان من حجارة فهو وثن⁸. وقال ابن سيده هو ينحت من خشب

ويصاغ من فضة ونحاس، وذكر الفهرى أن الصنم ما كان له صورة جعلت تمثالا والوثن ما

لاصورة له، وهو قول ابن عرفة كما قال الزبيدي، وقيل أن الوثن ما كان له جثة من خشب أو

حجر أو فضة ينحت ويعبد. والصنم الصورة بلا جثة وقيل الصنم ما كان على صورة خلقة البشر

والوثن ما كان على غيرها كذا في شرح الدلائل. وقال آخرون: ما كان له جسم أو صورة فصنم

فإن لم يكن له جسم أو صورة فهو وثن. وقيل: الصنم من حجارة أو غيرها والوثن ما كان صورة

مجسمة وقد يطلق الوثن على الصليب⁹.

أما النصب فهو كل شكل من دون صورة أو وجه، يوضع وينصب للعباد كصليب

النصارى. "والنصب والنصب: كل شيء نصبته، وأنشد:

³ - ينظر: الفيروزآبادي: مجد الدين محمد بن يعقوب، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، المكتبة العلمية، بيروت، (د.ت)، 159/5.

⁴ - ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، 216/10، مادة (و.ث.ن).

⁵ - ابن منظور، لسان العرب، 877/3، مادة (و.ث.ن).

⁶ - ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، 216/10. ينظر: الجوهري، الصحاح في اللغة، 216/2، مادة (و.ث.ن)، وابن عباد، المحيط في اللغة،

183/10، مادة (و.ث.ن).

⁷ - الجوهري، الصحاح، 216/2، مادة (و.ث.ن).

⁸ - الزبيدي، تاج العروس 6/239، مادة (و.ث.ن).

⁹ - نفسه، 239/6، بتصرف. ينظر: ابن منظور، لسان العرب، 877/3، مادة (و.ث.ن).

وَذَا النَّصْبِ الْمَنْصُوبِ لَا تَنْسِكُنَّهُ لِعَاقِبَةٍ وَاللَّهُ رَبُّكَ فَاعْبُدَا صَاحِبَ الْعَيْنِ.

النَّصْبُ : كل ما عبد من دون الله والجمع أنصاب، وقيل الأنصاب حجارة كانت تُنصب فيهِلَّ عليها لغير الله¹⁰

على اعتبار أن الوثن هو الصنم، فلا اختلاف في المادة التي صنع بها. لأن الهدف من وراء صناعته هي العبادة، أو التقرب به إلى الله تعالى زلفى كما حكى المشركون. فالوثن أو الصنم هو كل شكل وُضع وشغل الناس عن عبادة الله تعالى.

الْوَثْنُ الصَّنَمُ سِوَاءَ كَانَ مِنْ خَشَبٍ أَوْ حَجَرٍ أَوْ غَيْرِهِ وَالْحَمْعُ وَثْنٌ مِثْلُ أَسَدٍ وَأَسَدٍ وَأَوْثَانٌ وَيُنْسَبُ إِلَيْهِ مَنْ يَتَدَيَّنُ بِعِبَادَتِهِ عَلَى لَفْظِهِ فَيُقَالُ رَجُلٌ وَثْنِيٌّ وَقَوْمٌ وَثْنِيُونَ وَامْرَأَةٌ وَثْنِيَّةٌ وَنِسَاءٌ وَثْنِيَّاتٌ، والديانة الوثنية¹¹.

وسمي وثناً لانتصابه وثباته على حالة واحدة من وثن بالمكان أي أقام به من دون حراك فهو واثن، والجمع وثن وأوثان وأثن.

ثانياً: مفهوم الوثنية اصطلاحاً:

الوثن واحد الأوثان وهو حجارة كانت تعبد، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا ﴾ (العنكبوت: 25). وذكر الفوزان أن الوثن هو: "كل ما عُبد من دون الله من حجر ومن شجر أو صورة أو قبر، أما الصنم فهو خاص بما كان على صورة"¹². كما فرق بعض العلماء بين الوثن والصنم والنصب، ويطلق على الصنم اسم الوثن، كما قال جل وعلا في قصة إبراهيم في سورة العنكبوت: ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ﴾ (العنكبوت: 17).

¹⁰ - ابن سيده: أبو الحسين علي بن إسماعيل الأندلسي، المخصص، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ت)، 4/ 68.

¹¹ - ينظر: أحمد بن محمد بن علي الفيومي المقرئ، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، 1987م، ص248، مادة (و.ث.ن)، والتهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، 372/1، (و.ث.ن).

¹² - صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان، إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد لمحمد بن عبد الوهاب، مؤسسة الرسالة، ط3، 1423هـ/ 2002م، 177/1.

فالوثنية "هي الوعاء الذي يحوي الشرك، والجسم الذي يتجسد ويسري فيه ذلك الروح الخبيث - الشرك - فالأصنام والأوثان والهياكل ما هي إلا مظاهر يتجسد فيها الشرك الذي يتعلق في الحقيقة بمخلوقات أخرى اعتقدها المشركون، وتعلقت بها قلوبهم ومنحوها صفات الآلهة"¹³.
الوثنية ليست عبادة صنم، وتأليه أحد الصالحين، بل هي أعمق من ذلك، فالسجود لصنم معين أو غير معين، هو تمثيل للحياة العقدية بصورة بشعة لأن عبادة الهوى والإنصياح له هو الصورة الحقيقية للوثنية، قال ﷺ: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ (الجنائفة: 23)، وقال ﷺ: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا﴾ (الفرقان: 43).

إن الاضطراب في الحياة العقدية، وبعُد الإنسان عن الروحانية يؤدي به إلى الابتعاد عن التوحيد الخالص لله سبحانه وتعالى، وهذا الإنشغال يكون بالمادة وما تجر إليه من بعد الإنسان عن الدين، والاهتمام أكثر بمتاع الحياة الدنيا، عن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ قال:

﴿اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَتَنًا، لَعَنَ اللَّهُ قَوْمًا اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ﴾¹⁴.

كما نهي النبي ﷺ عن اتخاذ المقابر مساجد عن جندب بن عبد الله ؓ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ فَإِنِّي أَنهَأُكُمْ عَنْ ذَلِكَ﴾¹⁵.
وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال في مرضه الذي مات فيه:

﴿لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ﴾¹⁶.

¹³ - أحمد بن حسن المعلم، القبورية في اليمن - نشأتها - آثارها - موقف العلماء منها، 25/1، المكتبة الشاملة، الإصدار الثالث، 2007م، موقع: www.almoslim.net.

¹⁴ - رواه أحمد بن حنبل في مسنده، مسند أبو هريرة، رقم: 7352، 173/7، ورواه مالك في الموطأ، كتاب الصلاة، باب: مبتدأ الصلاة، رقم: 183، 241-240/2. مالك: أبو عبد الله مالك بن أنس الأصبغي، موطأ الإمام مالك، ت: محمد مصطفى الأعظمي، مؤسسة زيد بن سلطان آل نهيان الخيرية الإنسانية، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، ط1، 1425هـ/2004م.

¹⁵ - رواه مسلم في صحيحه، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور، رقم: 532، 68/2.

¹⁶ - رواه البخاري في الصحيح، كتاب: الجنائز، باب: ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور، رقم: 1330، 408-409/1، ومسلم في الصحيح، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: النهي عن بناء المساجد على القبور، واتخاذ الصور فيها، والنهي عن اتخاذ القبور على المساجد، رقم: 529، 67/2، واللفظ للبخاري.

لأن تعظيم الأنبياء والصالحين، والتعود على قبورهم، هو الذي أفضى بقوم نوح عليه السلام إلى عبادة الأصنام وتأليه الأوثان.

أخرج البخاري في كتاب: التفسير عند قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَكَاسُوعًا وَكَايُغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ (نوح: 23)، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد، أما ود فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما سواع فكانت لهذيل، وأما يوغوث فكانت لمراد، ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ، وأما يعوق فكانت لهمدان، وأما نسر فكانت لحمير، للآل ذي الكلاع، أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً وسموها بأسمائهم ففعلوا، فلم تعبده، حتى إذا هلك أولئك وتسخ العلم عبده¹⁷﴾.

يقول ابن عبد البر في التمهيد في شرح هذا الحديث: "الوثن: الصنم وهو الصورة من ذهب كان، أو من فضة، أو غير ذلك من التمثال. وكل ما يعبد من دون الله فهو وثن صنماً كان، أو غير صنم. وكانت العرب تصلي إلى الأصنام وتعبدها فخشي رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمته أن تصنع كما صنع بعض من مضى من الأمم، كانوا إذا مات لهم نبي عكفوا حول قبره كما يصنع بالصنم فقال: (اللهم لا تجعل قبري وثناً) يُصلى إليه، ويسجد نحوه، ويعبد، فقد اشتد غضب الله على من فعل ذلك. وكان رسول الله يحذر أصحابه وسائر أمته من سوء صنيع الأمم قبله الذين صلّوا إلى قبور أنبيائهم، واتخذوها قبلة ومسجداً، كما صنعت الوثنية بالأوثان التي كانوا يسجدون لها ويعظمونها، وذلك الشرك الأكبر¹⁸".

إذاً أصنام قوم نوح عليه السلام كانت رموزاً لرجال صالحين، حمل الغلو أتباعهم على تقديسهم وتعظيمهم، وتطور الأمر حتى بلغ حد عبادة هذه الأصنام.

¹⁷ - رواه البخاري في الصحيح، كتاب: التفسير، باب: ﴿وَدًّا وَكَاسُوعًا وَكَايُغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾، رقم: 4920، 316/3.

¹⁸ - ابن عبد البر: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، مؤسسة الرسالة، (د.ت)، 45/5.

قال ابن حجر في الفتح: "وقصة الصالحين كانت مبدأ عبادة قوم نوح هذه الأصنام ثم تبعهم من بعدهم على ذلك"¹⁹.

قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ آيَاتِي﴾ (هود: 25 - 26) .

نص الآية القرآنية يبين بداية أن: "الصراع بين المسلمين والكفار بدأ من عهد نوح عليه السلام فما زال الصادقون من عباد الله ينهاون عن أن يعظم أحد من الخلق تعظيماً يليق بالله تعالى، وعن أن تصرف إليه أعمال تقصد منها غاية التعظيم، والذل والتواضع، وهي مختصة بالله تعالى، وظلت الحرب قائمة بين الفريقين على قدم وساق، لم تضع أوزارها"²⁰. وقال ﷻ: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (فصلت: 37)، لأن السجود لله وحده، ولا يجوز لغيره من المخلوقات، ذكر السرخسي أن السجود لغير الله تعالى على وجه التعظيم كفر²¹. وقال ﷻ: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا وَآنَهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ (الجن: 18 - 20) .

الإنسان إذا أخلص في الدعاء، وتقرب إلى الله تعالى بأنواع القربات، وكان من المحافظين على الواجبات اعتقد الناس أنه بلغ في الولاية والروحانية منزلة يقدر فيها على تحقيق مطالب الناس الكثيرة، وقراءة الأحداث المستقبلية، وجلب الخير إلى طالبه، فيلتفت به الناس حتى يجعلوا منه منارة للمزار، والواجب بيان الحقيقة من الوهم أن الله تعالى هو النافع الضار، وهو الخالق المعبود، ومن دعا غير الله، ورجا منه النفع، ودفع الضرر فقد أشرك .

¹⁹ - ابن حجر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، 27/11.

²⁰ - إسماعيل بن عبد الغني الدهلوي، رسالة التوحيد، ط1، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، 1417هـ، 101/1.

²¹ - ينظر: السرخسي: شمس الدين أبو بكر محمد بن أبي سهل، المبسوط، دار المعرفة، بيروت، لبنان، (د.ت)، 27/422.

قال الله تعالى : ﴿ يَا صَاحِبِي السَّجْنَ الْأَرْبَابِ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (يوسف: 39-40).

إن أديان الوثنية هي التي تشبه الرب المعبود بالملوك الظالمين في كون وزرائهم وحجاجهم هم الذين يقربون الناس منهم ويقضون حوائجهم عنده أو بأنفسهم، لأن هذه الوثنية تصور أن لكل شئ إله يُعبد فالرياح إله وللسماء إله وللأرض إله ... وكلها آلهة من نسج خيال الكهان وأتباعهم، "العودة إلى (الحضارة الإغريقية) أو بالأحرى (الجاهلية) الإغريقية الوثنية هي كذلك من الأسباب، فقد كانت تلك الجاهلية بالذات تصور العلاقة بين الإنسان والآلهة علاقة صراع وخصام متبادل . الآلهة تريد أن تقهر الإنسان وتستذله، وتشفى في كل مصيبة يقع فيها ، والإنسان يريد أن يلقي عنه نير الآلهة وينطلق بفاعليته دون قيود.

والعودة إلى (الحضارة) الرومانية أو بالأحرى (الجاهلية) الرومانية هي كذلك من الأسباب، فقد كانت تلك الجاهلية بالذات تزين للإنسان لذائد الحس، والفتنة بها إلى حد الاستغراق مع كل ما تبدعه في الأرض من رقي مادي وتنظيم"²² .

السبب وراء عبادة الأصنام الذي يمثل الديانة الوثنية يعود إلى الانحراف عن العقيدة الصحيحة لأسباب عدة، ونظرا للتراكمات والامتداد الزمني يتحول الانحراف إلى ضلال مبین، يقول فيه العرب أنهم يعبدون الأصنام لتقربهم إلى خالقهم، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ (الزمر: 3)، "الآيات التي قرر فيها حال المشركين في إشراكهم أتى فيها بذكر الضلال، لأن حقيقته أنه خروج عن الصراط المستقيم؛ لأنهم وضعوا آلهتهم لتقربهم إلى الله زلفى في زعمهم ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ (الزمر: 3)، فوضعهم موضع من يتوسل به حتى عبدهم من دون الله، إذ كان أولُ وَضْعِهَا فيما ذكر العلماء صوراً لقوم

²² - محمد قطب، مذاهب فكرية معاصرة، دار الشروق، ط1، 1403هـ/1983م، 245/2.

يودونهم ويتبركون بهم، ثم عُبِدَت، فأخذتها العرب من غيرها على ذلك القصد، وهو الضلال الميين²³.

ومن الدلائل القرآنية على ضلال الكافرين عن سبيل الله تعالى نجد:

قال **تعالى**: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ تَأْتُونَ لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (مريم: 38).

وقال: ﴿إِنَّ الْمُتَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا مُذْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ (النساء: 142-143).

وقال سبحانه: ﴿اتَّخِذْ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِي عَنْهُمْ شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ

إِنِّي إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (يس: 23-24).

الأمر الثاني هو إنكار الحق واعتماد الشبهة في العبادة، قال **تعالى**: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ

اللَّهُ ثَلَاثٌ ثَلَاثَةٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (المائدة: 73)، وهذا قول النصارى الذين ضلوا عن سبيل الله واتخذوا عبادته مجالاً للشبهات حتى سقطوا في عقيدة الشرك، فوقعوا في الكفر الذي وصفهم الله تعالى به.

ثم جاء الخطاب إلى أهل الكتاب بعدم اتباع الضالين عن عبادة الله تعالى، واجتناب الكفر واتباع الهوى، قال **تعالى**: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ (المائدة: 77).

الآية القرآنية فيها كلام مباشر إلى أهل الكتاب باجتنب الشرك، لأنه ظلم عظيم للإنسانية، وقد جاءهم الحق من ربهم عن طريق الأنبياء والرسل المبعوثين فيهم، فالأمر الإلهي واقع باجتنب الغلو في الدين واتباع الهوى وأهواء القوم الذين ضلوا .

²³ الشاطبي: أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي، الاعتصام، ت: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، مكتبة التوحيد، المنامة،

البحرين، ط1، 1421هـ/2000م، 237/1.

وعليه فإن الغلو في الدين وتتبع دقائق الأمور، وكذا اتباع سبيل الذين ضلوا من قبل هو طريق واضح إلى عقيدة الشرك التي تبعد الإنسان عن العبادة الصحيحة وتدخله في مجال تعدد الآلهة، ومختلف الضلالات التي تأتي بعد الكفر المعلن: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ .

والأمر الخطير هو التحريف الذي قام به أهل الكتاب لنصوص الكتب المقدسة التي نزلت وحيا من السماء على أنبيائهم، وهذا التحريف هو نتيجة لشبهة اتباع الهوى والميل عن الحق. وهو أخطره لأنه تعدي على الأصل الصحيح فلا حرمة للعبادة بعد هذا الفعل من القوم لأنهم أنكروا على الله وحيه ورسالته التي جاء بها الأنبياء.

قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقُضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ (المائدة: 13).

الدلائل التي يذكرها القرآن في أسباب عبادة الناس للأصنام تدور كلها حول النقاط التالية:
1- الضلال الممين الذي يقع فيه القوم بعد أن كانوا على عبادة التوحيد، نتيجة لشبهة التعظيم، ومن ثم شبهة التقليد للآباء والأجداد.

2- إنكار الحق الثابت واتباع سبيل الضالين الذين كفروا بالله تعالى.

3- اتباع الهوى وسبيل الضالين الذين ضلوا عن سبيل الله تعالى.

4- تحريف الكلم عن مواضعه من قبل أهل الكتاب.

والقرآن لا يقف في نصوصه على ذكر ضلال الكافرين بل يدعوهم دائما إلى العودة إلى طريق الحق، وهو خطاب إلى أهل الكتاب زمن النبي عليه الصلاة والسلام.

قال تجلّت قدرته: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: 64).

اتخاذ الأرباب من دون الله تعالى هو سبيل اليهود والنصارى الذين ضلوا عن الحق، فعظموا عيسى عليه السلام وأحبار اليهود، ورهبان النصارى إلى أن جعلوهم في مرتبة الإله الذي يُعبد.

قال ﷺ: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَمُرْهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (التوبة: 31).

وكان الرد الإلهي على هذا الفعل العظيم من أهل الكتاب أن سأل نبيه الكريم عيسى عليه السلام فقال ﷺ: ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ (المائدة: 116).

القرآن الكريم لم يورد الأدلة والحجج على القوم الكافرين، ولكنه يخاطب الفطرة الصحيحة في القوم للعودة إلى طريق الحق الذي عرفه أجدادهم من قبل بعد أن كانت الرسالة الإلهية فيهم. لقد كانت عقيدة التوحيد التي أنزلها الله على الأنبياء والرسل عقيدة خالصة ناصعة شاملة متكاملة، واجه بها الوثنية مواجهة حاسمة كما صورها القرآن الكريم، ووصى بها إبراهيم عليه السلام بنبيه كما وصى بها يعقوب عليه السلام بنبيه قبل أن يموت: ﴿ وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ بُرَأَىٰ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُهَا عَاكِفِينَ قَالِ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يُضُرُّونَ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ قَالِ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ (الشعراء: 69-83).

المطلب الثاني: تاريخ الوثنية:

الفرع الأول: بداية الوثنية في قوم نوح عليه السلام:

الوثنية هي الديانة الوضعية التي اتخذها الإنسان منذ القدم، كدليل على حاجته للعيش في إطار معتقد ديني يضمن له حياة أفضل، وعلى اعتبار أن هذه الديانة تعتمد على معتقد الشرك؛ أي يربط الحياة كلها، أو عناصر منها تحت سيطرة أو قيادة إله من صنع الإنسان، مثل عبادة الحجر والنصب والأوثان، أو من تصوره كعبادة الكواكب والنجوم والنار، وتأليه الرياح والماء ...

إن هذه الصورة التي رسمها الإنسان لحياته، تدل على انحراف في العقيدة أولاً، ثم بعد عن الحقيقة الثابتة وهي فطرة الإنسان التي فطره الله تعالى عليها، ليس الترقى في الاعتقاد عبر القرون هو السبب في الشرك واتخاذ معبودات من دون الله ﷻ، بل السبب انحراف أتباع الرسل وأقوامهم عما جاءت به الرسل، وتركهم ما جاءت به، ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ (طه: 124)، وإتباعهم الظن والهوى وتركهم الهدى قال تعالى: ﴿ إِنَّ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى النَّفْسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى ﴾ (النجم: 23)، وقال: ﴿ وَكَاتَبُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ (المائدة: 77) .

كان آدم عليه السلام أول البشر في الأرض ومن ذريته المباركة نشأة أمة واحدة على التوحيد لله تعالى، قال ﷻ: ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ (البقرة: 213). وبعد قرون وأجيال من عهد سيدنا آدم عليه السلام طال الزمن على الناس واختاروا الصالحين لهم وصنعوا الأوثان لهم حبا وتكريما لفضلهم العظيم، وبعد طول الأمد تحول الحب والتعظيم إلى شرك، وتحولت التماثيل إلى آلهة بأسماء وصفات تميزها وتجعل منها إله كل قبيلة يختلف عن إله القبيلة الثانية، "وبعد أن كان الناس أمة واحدة على التوحيد حصل الزيغ والانحراف، وكان أول انحراف حدث هو الغلو في تعظيم الصالحين، ورفعهم إلى مرتبة الآلهة المعبودة"²⁴. والدليل من القرآن الكريم على أن أول

24 - عمر سليمان الأشقر، العقيدة في الله، دار النفائس، عمان، الأردن، ط2، 1419هـ/1999م، ص271.

انحراف عن التوحيد إلى الوثنية وقع في قوم نوح، قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ (نوح: 23).

في جامع الطبري: "كانوا قوما صالحين من بني آدم، وكان لهم تَبَاع يُقْتَدُونَ بِهِمْ، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم، فصوروهم. فلما ماتوا وجاء آخرون، دب إليهم إبليس فقال: إنما كانوا يعبدونهم، وبهم يُسْقَوْنَ المطر، فَعَبَدُوهُمْ"²⁵.

هذا التحول الذي وقع في قوم نوح عليه السلام بعد أن كانت الأجيال القديمة على التوحيد الخالص لله تعالى وعبادة إله غير مرئي، تحول الأمر إلى صناعة وثن أو نصب من الحجر والمعدن وعبادته كأنه إله يستحق العبادة، وهو تحول عظيم بين إدراك عميق بأن الله سبحانه هو الإله الوحيد إلى تعدد للألهة المنظورة، وهذا ما يسمى بالوقوع في الديانة الوثنية التي تربط معتقد الإنسان الديني بحجارة صماء بين يديه.

والدليل الثاني قوله عليه السلام: ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ (البقرة: 213).

وفيه بيان أن ذرية آدم عليه السلام سارت على هدي الله تعالى لقرون عديدة، فوصفها الله تعالى بأنها أمة واحدة، وهو وصف بليغ في بيان حال الناس وعهدهم بالعبادة الصالحة لله عز وجل، ثم إنحرفت العقيدة عن مسارها الحقيقي فاحتاج الناس إلى الأنبياء والرسل الذين يهدونهم إلى طريق الله تعالى، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﷺ كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق، فاختلَفُوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ﷺ²⁶.

ثم جاء زمن بعثة رسول الله نوح عليه السلام ليحمل الناس على دين التوحيد الخالص لله تعالى، ويرفع عقولهم وقلوبهم إلى السماء بعيدا عن ثقل التراب والحجارة التي قدسها الناس لأجيال

²⁵ - أخرجه ابن جرير في جامع البيان عن محمد بن قيس، 303/23، وينظر: ابن كثير، البداية والنهاية، 248/1، وفي تفسيره عن ابن جرير، 143/14.

²⁶ - الطبري، جامع البيان، 194/1، وأخرجه الحاكم في المستدرک، كتاب: تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين، رقم: 4067، 643/2، وقال: صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. الحاكم: أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، المستدرک على الصحيحين، دار الحرمين، القاهرة، ط1، 1417هـ/1997م.

طويلة، قال سبحانه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (الأعراف: 59)، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ (هود: 25-26)، وقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (المؤمنون: 23).

الحقيقة التي يبينها القرآن الكريم أن الله تعالى كان يحمي عباده من الظلم كما حرمه على نفسه، لأن عبادة الأوثان والأصنام هو ظلم في حق البشرية التي ترضي الضلال عن الحق المبين، فكان بعث الأنبياء سبيل إلى تخلص الناس من هذا الظلم وهدايتهم إلى طريق الحق، وهي رحمة من الله سبحانه استمرت مع الإنسان منذ خلق آدم عليه السلام إلى قيام الساعة، قال جل وعلا: ﴿يَأْتِكُمْ بَأْسٌ مِنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودٍ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ (إبراهيم: 9-10).

وقال: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَىٰ كُلًّا مَّا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ (المؤمنون: 44).

ولفظ تترا مصدر بمترلة فعلى مثل الدعوى، وهو ليس بفعل وإنما مصدر من تواتر الشيء، وقرأ الجمهور: تترا، وحمزة والكسائي بميلانها²⁷. ومعنى الآية أن الله سبحانه وتعالى أرسل الرسل واحدا بعد الآخر وأتبع بعضهم بعضا، لتبليغ رسالة الله تعالى إلى الناس.

²⁷ - ينظر: ابن عطية: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ت: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1422هـ/2001م، 144/4.

الفرع الثاني: الوثنية عند اليهود والنصارى:

بنو إسرائيل جاءهم رسلهم بالتوحيد الخالص الذي بداية من إبراهيم عليه السلام وبنيه من بعده إسحاق ويعقوب - إسرائيل - عليهم السلام، ثم جاءهم كليم الله تعالى موسى عليه السلام بدعوة التوحيد أيضاً مع الشريعة الربانية المبنية على أساسه، ولكنهم انحرفوا على مدى الزمن، وهبطوا في تصوراتهم إلى مستوى الوثنيات، وأثبتوا في كتبهم (المقدسة) وفي صلب التوراة أساطير وتصورات عن الله ﷻ لا ترتفع عن أحط التصورات الوثنية للإغريق وغيرهم من الوثنيين الذين لم يتلقوا رسالة سماوية، ولا كان لهم من عند الله ﷻ كتاب .

ولقد كانت عقيدة التوحيد التي أنزلها الله على إبراهيم عليه السلام عقيدة خالصة ناصعة شاملة متكاملة، واجه بها الوثنية مواجهة حاسمة كما صورها القرآن الكريم ، قال سبحانه: ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يُضُرُّونَ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ قَالَ أَفَأَنتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾ (الشعراء: 69-84) .

وبين الله سبحانه عهد اليهود بالميثاق وخروجهم عن دين الله تعالى بسبب قلوبهم القاسية وتحققهم لعقيدة الشرك، قال تعالى: ﴿ فَبِمَا تَقَضَّيْتُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ (المائدة: 13) .

وقال في النصارى: ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ (المائدة: 14)

وقال فيهم مبيناً انحرافهم عن التوحيد واتخاذهم الأبحار والرهبان آلهة تُعبد من دون الله تعالى:

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (التوبة: 31) .

كان انحراف اليهود وموسى عليه السلام بين أظهرهم، من ذلك عبادتهم للعجل الذي صنعه السامري، من الذهب الذي حملوه معهم من حلي النساء، ﴿ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلَكِنَا وَلَكِنَّا حُمَلْنَا أَوْزَارًا مِنْ نَرِيئَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورًا فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴾ (طه: 87-88). وقبل ذلك طلبوا من موسى عليه السلام أن يقيم لهم صنماً يعبدونه قال عليه السلام: ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ (الأعراف: 138).

ومن الضلالات التي وقع فيها اليهود نتيجة لقوة الاستضعاف الذي كانوا عليه وتأثير الديانة الوثنية فيهم، أن هذه المعتقدات كانت وقت بعثة موسى عليه السلام، فكيف وهم بعيدين عن فترة الأنبياء والرسل، قال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزْرُ بْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِيُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ (التوبة: 30).

هذه العقيدة الضالة التي وقع فيها أهل الكتاب حين نسبوا الأنبياء إلى الله تعالى، ووصفوه بالأبوة وهو الخالق سبحانه والموصوف بالعبادة من دون سواه من المخلوقات التي خلقها.

الفرع الثالث: الوثنية عند العرب.

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَمْرًا اتَّخَذَ أُصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أُرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ (الأنعام: 74).

وقال: ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴾ (الأنبياء: 57).

إن كل ما عبُد من دون الله سبحانه، وكل ما يشغل عن الله تعالى يقال له صنم، ولهذا قال إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ (إبراهيم: 35)، "فمعلوم أن إبراهيم مع تحققه بمعرفة الله تعالى، واطلاعه على حكمته لم يكن ممن

خاف أن يعود إلى عبادة تلك الجثث التي كانوا يعبدونها، فكأنه قال: اجنبي عن الاشتغال بما يصرفني عنك"28.

كانت العقيدة الإسلامية هي محور الحياة في ذرية سيدنا إبراهيم عليه السلام، لما ارتضى الله سبحانه أن يكون الناس على التوحيد لله تعالى بعد بناء إبراهيم عليه السلام الكعبة، قال عليه السلام: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ (البقرة: 127-128).

وبعدها وقع الانحراف في الجزيرة العربية وانتشرت عبادة الأصنام بشكل ملفت، حتى لا يخلو بيت من صنم يصنعه الإنسان العربي بيده أو يشتريه من السوق، وغرقت مكة المكرمة وسط الأوثان المنصوبة والمحيطه بها من كل جانب، وهناك قولين في سبب دخول الشرك إلى الجزيرة العربية:

الأول: قال ابن إسحاق: "وَيَزْعُمُونَ أَنَّ أَوَّلَ مَا كَانَتْ عِبَادَةُ الْحِجَارَةِ فِي بَنِي إِسْمَاعِيلَ أَنَّهُ كَانَ لَا يَطْعَنُ مِنْ مَكَّةَ ظَاعِنٌ مِنْهُمْ حِينَ ضَاقَتْ عَلَيْهِمْ وَالتَّمَسُوا الْفُسْحَ فِي الْبِلَادِ إِلَّا حَمَلَ مَعَهُ حَجْرًا مِنْ حِجَارَةِ الْحَرَمِ تَعْظِيمًا لِلْحَرَمِ فَحَيْثُمَا نَزَلُوا وَضَعُوهُ فَطَافُوا بِهِ كَطَوَافِهِمْ بِالْكَعْبَةِ حَتَّى سَلَخَ ذَلِكَ بِهِمْ إِلَى أَنْ كَانُوا يَعْبُدُونَ مَا اسْتَحْسَنُوا مِنَ الْحِجَارَةِ وَأَعْجَبَهُمْ حَتَّى خَلَفَ الْخُلُوفُ وَنَسُوا مَا كَانُوا عَلَيْهِ وَاسْتَبَدَّلُوا بِدِينِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ غَيْرَهُ فَعَبَدُوا الْأَوْثَانَ وَصَارُوا إِلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ الْأُمَّةُ قَبْلَهُمْ مِنَ الضَّلَالَاتِ"29.

الثاني: كان العرب على دين التوحيد الذي بُعث به أبوهم إبراهيم عليه السلام، واستمروا على ذلك حتى ظهر فيهم رئيس مسموع الكلمة مطاع لا يخالف، فغير دينهم إلى الشرك، ذلك هو عمرو بن عامر الخزاعي الذي بدل دين العرب، ووضع الأوثان بمكة المكرمة، والأدلة على هذا

28 - السهيلي: أبو القاسم وأبو زيد عبد الرحمن بن الخطيب، الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، ت: عبد الرحمن الوكيل، دار

الكتب الإسلامية، ط1، 1387هـ/1967م، 355/1.

29 - ابن إسحاق، السيرة النبوية، ص60-61.

القول ما رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: **رَأَيْتُ عَمْرُو بْنَ عَامِرٍ الْخَزَاعِيَّ يَجْرُ قُصْبَهُ فِي النَّارِ كَانَ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَابِ** ³⁰.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **إِنَّ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَابِ وَعَبَدَ الْأَصْنَامَ أَبُو خَزَاعَةَ عَمْرُو بْنُ عَامِرٍ وَإِنِّي رَأَيْتُهُ يَجْرُ أَمْعَاءَهُ فِي النَّارِ** ³¹.

وعن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لأكثم بن الجون الخزاعي: "يا أكثم؟ رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف يجر قصبه في النار، فما رأيت رجلا أشبه برجل منك به ولا بك منه"، فقال أكثم: عسى أن يضربني شبهه يا رسول الله؟ قال: "لا، إنك مؤمن وهو كافر، إنه كان أول من غير دين إسماعيل؛ فنصب الأوثان وبحر البحيرة وسيب السائبة، ووصل الوصيلة وحمى الحامي" ³².

فعمر بن عامر الخزاعي هذا غير دين العرب بدعوتهم لعبادة الأصنام، وباستحداث بدع في دين الله تعالى، أحلّ فيها وحرّم بهواه، ومن ذلك ما ذكره الله تعالى في كتابه: **﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾** (المائدة: 103). والسبب الذي جعل العرب تتابع عمرو بن عامر أنه كان ذا مكانة فيهم، فقد كان سيد خزاعة، وجعلته العرب عظيما فيهم لا يتدع بدعة إلا اتخذوها شرعة.

³⁰ - رواه البخاري في الصحيح، كتاب المناقب، باب: قصة خزاعة، رقم: 3521، 509/2، وفي كتاب التفسير، باب: **﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ﴾**، رقم: 4623، 4624، 226/3، ورواه مسلم في صحيحه، كتاب: الكسوف، باب: ما عرض على النبي ﷺ في صلاة الكسوف من أمر الجنة والنار، رقم: 904، 30/3-31. ورواه أحمد في المسند رقم: 8773، 419/8.

³¹ - رواه أحمد في المسند، رقم: 4258، 195/4. وإسناده ضعيف فيه إبراهيم بن مسلم المجري وهو ضعيف، ورواه أحمد في المسند رقم: 7696، 423/7، وهذا الحديث ضعيف لانقطاع السند بين الزهري وأبي هريرة، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد وقال: رواه أحمد وفيه إبراهيم المجري وهو ضعيف. الهيثمي: نور الدين الشاذلي، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط3، 1402هـ.

³² - ابن هشام، السيرة النبوية، 79-78/1، ابن كثير، البداية والنهاية، 179/2، تفسير القرآن العظيم، 107/2، ورواه ابن جرير الطبري من طريق محمد بن إسحاق، 27/9.

وعلماء التاريخ والسير والتفسير³³، على أن القول الثاني هو الأقرب لبيان سبب انحراف العرب في الجزيرة العربية عن العقيدة الصحيحة إلى عقيدة الشرك. وبالجمع بين القولين فإن مكانة البيت المقدس في قلوب العرب وخاصة سكان مكة جعلهم يقدسون حجره وكل ما فيه، وهذا الغلو الذي أكسبه للمكان صنعوا بذلك نصب للعبادة من دون إدراك عقلي لخطورة الأمر، وبعدها جاء عمرو بن عامر الخزاعي فبدل الدين بقوة السلطة ورهبة المكانة في القوم. وتختلف الروايات في الكيفية التي نشر عمرو بها الأصنام في الجزيرة العربية، فمن قائل إن عمرو كان له رأي من الجن هو الذي دله على الأصنام التي كانت مدفونة منذ عهد نوح عليه السلام، وكان قوم نوح يعبدونها، فاستخرجها عمرو، ووزعها في العرب، وقيل: إنه جاء بالأصنام من بلاد الشام، عندما رأهم يعبدونها، فطلب منهم صنماً، فأعطوه واحداً نصبه بمكة³⁴.

عقيدة الشرك:

العقيدة الوثنية تستند إلى الشرك كمعتقد أصيل، في الفكر الإنساني القديم، ومعتقد مقرب لله تعالى في الفكر الجاهلي، والشرك في التفسير الإسلامي، أن يجعل لله شريكاً في ربوبيته، غير الله مع عبادته، والإيمان بالله وبغيره، فصاروا بذلك مشركين³⁵. وأيضاً من الشرك أن تعدل بالله غيره، فتجعله شريكاً له. ومن عدل به شيئاً من خلقه فهو مشرك؛ لأن الله وحده لا شريك له ولا ند له ولا نديد³⁶.

الشرك في قوله تعالى: ﴿أَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلِقُونَ، وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ (الأعراف: 191-192).

³³ - ينظر: ابن هشام، السيرة النبوية، 102/1، وابن الكلبي: أبو المنذر هشام بن السائب، الأصنام، الدار القومية، القاهرة، 1964م، ص8، الطبري، جامع البيان، 28-27/9، المسعودي: أبو الحسن علي بن الحسين بن علي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ت)، 56/2، السهيلي، الروض الأنف، 102/1، الشهرستاني: أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر، الملل والنحل، ت: محمد سيد كيلاني، دار الجيل، ودار صعب، بيروت، 1406هـ/1986م، 648/3، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 107/2، 183، البداية والنهاية، 187/2.

³⁴ - ابن هشام، السيرة النبوية، 76-77/1، السهيلي، الروض الأنف، 359-357/1.

³⁵ - الزبيدي، تاج العروس 7/148، مادة: (ش.ر.ك).

³⁶ - ابن منظور، لسان العرب، 2/449 وما بعدها، مادة: (ش.ر.ك).

"في القرآن الكريم جواب على فلسفة القوم وتعليلهم لعبادة الأصنام واتخاذهم "أولياء" من دون الله؛ إذ يقولون جواباً عن الاعتراض الموجه إليهم في عبادة غير الله" ³⁷ ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (الزمر: 3) .

عبادة الأصنام:

كانت عبادة الأصنام منتشرة انتشاراً واسعاً قبيل الإسلام، حتى كان أهل كل دار قد اتخذوا صنماً في دارهم يعبدونه، فإذا أراد الرجل السفر تمسح بالصنم حين يركب، وإذا قدم من سفره تمسح به، فكان ذلك أول ما يبدأ به قبل أن يدخل على أهله، فكان أشق شيء على قريش نبد تلك الأصنام وتركها وعبادة إله واحد، قال عَلَيْكَ: ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ، أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ، وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ، مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ (ص: 4).

يقول ابن الكلبي: "واشتهرت العرب في عبادة الأصنام فمنهم من اتخذ بيتاً، ومنهم من اتخذ صنماً. ومن لم يقدر عليه ولا على بناء البيت، نصب حجراً أمام الحرم وأمام غيره مما استحسنت، ثم طاف به كطوافه بالبيت... فكان الرجل إذا سافر فتزلاً منزلاً، أخذ أربعة أحجار، فنظر إلى أحسنها فاتخذها رباً، وجعل ثلاث أثافي لقدره. فإذا ارتحل تركه، فإذا نزل منزلاً آخر، فعل مثل ذلك. فكانوا ينحرون ويدبحون عند كلها ويتقربون إليها" ³⁸.

إن حقيقة الشرك أن يأتي الإنسان بخلال وأعمال (خصها الله بذاته العلية، وجعلها شعاراً للعبودية)، لأحد من الناس، كالسجود لأحد، والذبح باسمه، والنذر له، والاستغاثة به في الشدة، واعتقاد أنه حاضر ناظر في كل مكان، وإثبات قدرة التصرف له، وكل ذلك يثبت به الشرك،

³⁷ - جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، 44/11.

³⁸ - ابن الكلبي، الأصنام، 33.

ويصبح الإنسان به مشرك، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان:13)، وقد هدت لقمان الحكمة العميقة التي أكرمها الله وخصه بها، إلى أن أفحش الظلم أن يجود الإنسان على أحد بحق غيره، فمن أعطى حق الله لأحد خلقه فقد عمد إلى حق أكبر كبير، فأعطاه أذل ذليل، وكان كرجل وضع تاج الملك على مفرق إسكاف، وأي جور أكبر من هذا الجور وأي ظلم أفحش من هذا الظلم؟³⁹.

كانت الحياة الدينية للشعوب قبل بعثة النبي ﷺ، تتسم بالشرك في كل الممارسات والطقوس التبعديّة، من دولتي الروم والفرس، إلى أوربا القديمة، وحتى الجزيرة العربية. لأن الفرق بين أهل الكتاب وبين عباد الأوثان والأصنام في عباداتهم وحياتهم اختفى وحلّ الشرك محلّ التوحيد، وسط هذا الركام الهائل من الوثنية، والتغيير والتبديل في كلام الله تعالى، قال ﷺ: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَمُرْهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ (التوبة:31)، وقال سبحانه في وصف حياتهم وتعديهم على حرّامات الله: ﴿قَاتَلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (التوبة:29)، وقال سبحانه في بيان تحريفهم لكلام الله واستبداله مقابل الدنيا: ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَسَدُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (التوبة:9)، ووصف الله شرك أهل الكتاب وكفرهم بقوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ (التوبة:30).

كان العرب على دين أبيهم إبراهيم عليه السلام، ومن بعده إسماعيل عليه السلام وبنيه من بعد، بقي التابعون على دين التوحيد أمدًا، ثم نظروا إلى الصالحين من عباد الله وأوليائه ووطنوا فيهم الخير لقربهم من الله تعالى، فَبَعُدَ الزمان ونحتوا لمعظمهم صورًا وتمائيل، إما حقيقية وإما خيالية تطابق ما تخيلوا لهم من الصور في أذهانهم وهذه الصور تعرف بالأصنام. وكان أن جعلوا قبورهم وأضرحتهم أماكن مقدسة، وقدموا إليها النذور والقرايين، وأتوا لها بأعمال الخضوع والطاعات، وهذه القبور والأضرحة تسمى بالأوثان، "كانت لهم تقاليد ومراسم في عبادة الأصنام، ابتدع

³⁹ - ينظر: إسماعيل بن عبد الغني الدهلوي، رسالة التوحيد، ص 36-51.

أكثرها عمرو بن لحي؛ وكانوا يظنون أن ما أحدثه عمرو بن لحي فهو بدعة حسنة، وليس بتغيير لدين إبراهيم عليه السلام⁴⁰.

ونشأ فيهم على توالى الزمان ما ينشأ في الوثنيين من عادات وتقاليد تجرى مجرى الخرافات الدينية، وأثرت في الحياة الاجتماعية والسياسية والدينية تأثيراً بالغاً جداً . فكانت بعثة النبي الخاتم ﷺ، في ظل هذه الجاهلية الممتدة منذ قرون ماضية، حتى يخرج بالناس من ظلم الجاهلية إلى نور التوحيد الخالص لله تعالى.

روى أحمد بن حنبل عن المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال: ﷺ وَاللَّهِ لَقَدْ بَعَثَ اللَّهُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أَشَدِّ حَالٍ بُعِثَ عَلَيْهَا نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فِي قَتْرَةٍ وَجَاهِلِيَّةٍ، مَا يَرُونَ أَنَّ دِينًا أَفْضَلَ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، فَجَاءَ بَفُرْقَانٍ فَرَّقَ بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَفَرَّقَ بَيْنَ الْوَالِدِ وَوَلَدِهِ ﷺ⁴¹.

الانحراف الذي يقع فيه الإنسان بعيداً عن زمن النبوة أو نتيجة لاتباع سبل الهوى والضلال يبين أن:

الديانة الوثنية هي اعتقاد بالشرك وإسناد العبادة إلى آلهة متعددة من دون الله تعالى. الوثن والصنم والنصب هي أسماء لأشياء صنعها الإنسان بيده وسمح لها عن إدراك ضال، أن تكون آلهة لهذا الإنسان المكرم بالعقل الذي فضله الله عز وجل به عن جميع المخلوقات. الأحاديث في النهي عن اتخاذ القبور مساجد والتغليظ في ذلك أمر واضح في حديث النبي ﷺ، لأن عبادة الأصنام كان من فتنة القبور، ولهذا لعن النبي ﷺ أهل الكتاب لاتخاذهم قبور أنبيائهم مساجد⁴²، لما تعلقوا بالقبور وأقاموا الصلاة عندها تعظيماً للقبور، وفيه تعظيم للأسلاف ومنه يصير الناس إلى عبادة القبور.

40 - صفى الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم، دار ابن خلدون، الإسكندرية، (د.ت)، ص25 .

41 - رواه أحمد في المسند، حديث المقداد بن الأسود رضي الله عنه، رقم: 23700، 132/17، ورواه البخاري في الأدب المفرد، باب: الولد قرة العين، رقم: 87، وعلق أحمد محمود شاكر: إسناده صحيح.

42 - ينظر: محي الدين محمد البركوي الرومي الحنفي، زيارة القبور الشرعية والشركية، دار البشير، عمان الأردن، ط2، 1417هـ/1996م، ص14.

من خلال ما تقدم في هذا المبحث تظهر النتائج التالية:

- 1- الوثنية هي دين لجأ الإنسان إليه وغلب عقيدة الشرك بدل التوحيد فسقط من سلطة السماء الروحانية إلى قسوة الحجارة، فكان الوثن المخلوق هو الرب الذي يُعبد.
- 2- انحراف العرب عن دين أبيهم إبراهيم عليه السلام هو طول الأمد بينهم وبين النبوة، مع الغلو في الصالحين واتباع الضالين -عمرو بن عامر الخزاعي- الذين بدلوا دين التوحيد بعقيدة الشرك التي نقلت البشرية إلى الابتداع والضلال نتيجة التعلق بالتراب بدل السماء، واتباع سبيل الضالين مكن من مس المقدسات والعبث بالحلال والحرام، والتقليد للآباء والأجداد هدم سلطة العقل وحل محلها الهوى في عبادة غير الله تعالى ونسب الآلهة المتعددة شريكا له في العبادة.
- 3- أما اليهود فإن السب وراء وثنتهم يعود إلى قوة الاستضعاف في نفوسهم، وسلطة الديانة الوثنية فيهم عبر قرون من الزمن، جعلت منهم شعبا لا يؤمن بالإدراك العقلي بل بالإدراك الحسي، ولهذا طلبوا من موسى عليه السلام أن يجعل لهم آلهة، وسارعوا إلى عبادة عجل السامري.

المبحث الثاني: عقيدة التوحيد:

المطلب الأول: مفهوم التوحيد:

أولاً: التوحيد لغة:

التوحيد لغة: مشتق من وحَّد الشيء إذا جعله واحداً، فهو مصدر وحَّد يوحد، توحيداً⁴³، أي جعل الشيء واحداً. وهذا لا يتحقق إلا بنفي وإثبات، نفي الحكم عما سوى الموحد وإثباته له. فالتوحيد يدور حول الأفراد والاختصاص؛ الأفراد لا يكون إلا بالإثبات التام والنفي العام: فلو قلت: زيد قائم. لم تفرد له احتمال أن يكون غيره قائماً أيضاً. لكن إن قلت: ما قائم إلا زيد، فقد أفردته، بإثباتك القيام التام له، ونفيك العام للقيام عن غيره. قال الجوهري: "الوَحدة: الانفراد. تقول: رأيتُه وحده"⁴⁴.

الله الواحد الأحد المتفرد بالعبادة والمتفرد بالذات والصفات في عدم المثل والنظير، ووحيد الله نسبه إلى الوحدة والانفراد، فهو سبحانه منفرد في ذاته وصفاته وأفعاله⁴⁵.

ثانياً: التوحيد اصطلاحاً:

التوحيد في معناه الاصطلاحي هو إفراد الله تعالى بالعبادة. وهناك تعريف أعم للتوحيد وهو: إفراد الله سبحانه وتعالى بما يختص به. وللعلماء تعاريف عديدة للتوحيد تدخل جميعاً في معين واحد:

43 - ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ص 108/4، مادة (و.ح.د)، والجرجاني: علي بن محمد السيد الشريف، التعريفات، ت: محمد صديق المشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، (د.ت)، 2003م، ص96، ابن منظور، لسان العرب، 887/3، مادة: (و.ح.د).

44 - الجوهري، الصحاح، 547/2، مادة (و.ح.د).

45 - ينظر: الجوهري، الصحاح، 547/2، وابن فارس، معجم مقاييس اللغة، 90/2، الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ص324، الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، ت: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، لبنان، (د.ت)، ص514، وابن منظور، لسان العرب، 888-887/3.

يقول ابن تيمية: "هو عبادة الله وحده لا شريك له، مع ما يتضمنه من أنه لا رب لشيء من الممكنات سواه"⁴⁶.

التوحيد: "إفراد المعبود بالعبادة مع اعتقاد وحدته ذاتا وصفاتا وأفعالا"⁴⁷.

التوحيد: "هو العلم والاعتراف بتفرد الرب بصفات الكمال والإقرار بتوحيده بصفات العظمة والجلال، وإفراده وحده بالعبادة"⁴⁸.

التوحيد: هو إفراد الله بالخلق والتدبير، وإخلاصُ العبادة له، وترك عبادة ما سواه، وإثبات ما له من الأسماء الحسنى، والصفات العليا، وتزيهه عن النقص والعيب؛ فهو بهذا التعريف يشمل أنواع التوحيد الثلاثة.

ثالثاً: أقسام التوحيد.

يذكر أهل العلم، بعد استقراء نصوص الكتاب والسنة أن التوحيد ينقسم إلى ثلاثة أقسام⁴⁹:

- توحيد الربوبية .
- توحيد الألوهية .
- توحيد الأسماء والصفات .

1- توحيد الربوبية: وهو إفراد الله سبحانه بالخلق، والملك والتدبير، والرزق؛ أي توحيد الله بأفعاله⁵⁰، وتوحيد الله بأفعاله سبحانه وتعالى فلا أحد يخلق مع الله ولا أحد يحيي ويميت مع الله⁵¹.

46 - ابن تيمية: أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحلیم، درء تعارض العقل والنقل، ت: محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، ط2، 1411هـ/1991م، 116/7.

47 - السفاريني: محمد بن أحمد بن سالم بن سليمان السفاريني الأثري، لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرّة المضية في عقد الفرقة المرضية، (د.ت)، 57/1.

48 - عبد الرحمن بن ناصر السعدي، القول السديد شرح كتاب التوحيد لمحمد بن عبد الوهاب، ت: صبري بن سلامة شاهين، دار الثبات، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، 1425هـ/2004م، ص10.

49 - ينظر: سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، ت: أسامة بن عطايا بن عثمان العتيبي، دار الصميعة، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، 1428هـ/2007م، ص281-297، والسعدي، القول السديد، ص17، صالح بن فوزان، بيان حقيقة التوحيد، ص20.

50 - صالح بن عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم آل الشيخ، التمهيد لشرح كتاب التوحيد، دار التوحيد، الرياض، ط1، 1423هـ/2002م، ص7.

51 - صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان، إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد لمحمد بن عبد الوهاب، ص25.

وفي القرآن الكريم نصوص كثيرة تدل على توحيد الربوبية، فكل نص ورد فيه اسم (الرب)، أو ذكر فيه خصيصة من خصائص الربوبية، الخلق، الرزق، الملك، التدبير، الإحياء والإماتة... فهي دليل إثبات الربوبية لله تعالى. فسورة الفاتحة دلت على أقسام التوحيد، وذلك برسم صورة جليلة عن عبادة الله تعالى وتوحيده في الربوبية والأسماء والصفات، فهي أعظم سورة في القرآن الكريم.

إن توحيد الربوبية والأسماء والصفات مداره على إثبات صفات الكمال ومنها كمال أفعاله، وكمال صفاته الذاتية⁵²، وهذا مبين في سورة الفاتحة .

فتوحيد الربوبية مبين في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وقوله سبحانه: ﴿مَرْبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وقوله ﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾. أما توحيد الأسماء والصفات دل عليه في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، وقوله ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فهي تدل على عمل قلبي، يظهر من خلال الممارسة، فهو غاية المحبة والذل والعظمة لله سبحانه وتعالى، فهو يدل على التوحيد وإفراد الله تجلت قدرته بالعبادة⁵³.

ومن السور التي اشتملت على أقسام التوحيد، سورتي: قل يا أيها الكافرون، وقل هو الله أحد، ولهذا سميتا بسورتي الإخلاص لله تعالى بالعبادة.

ومن أدلة توحيد الربوبية في القرآن الكريم، قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ وَإِنَّهُ يُخْرِجُ الْإِنْسَانَ مِنْ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (الأعراف: 54)، وقوله سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (المؤمنون: 88).

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَضَرَّفَ الْبُحْرَانُ وَالسَّحَابُ الْمُسَخَّرَ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: 164).

52 - عبد الرحيم بن صمايل السُّلَمي، حقيقة التوحيد بين أهل السنة والمتكلمين، دار المعلمة للنشر والتوزيع، (د.ت)، ص90.

53 - ينظر: المرجع نفسه، ص90-91.

وقوله: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (يس: 82)، وقوله: ﴿ إِنَّا اللَّهُ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ (الذاريات: 58).

إن الإقرار بربوبية الله سبحانه وتعالى كان من معتقدات مشركي قريش زمن البعثة النبوية، قال الله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ (الزخرف: 87)، ويقولون أنه خلق السموات والأرض، قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ (الزخرف: 9)، ويقولون أيضا بكل أفعاله التي يملك الأمر فيها وحده سبحانه وتعالى: ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (يونس: 31).

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَمَنْ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ قُلْ مَنْ يَدِينُكُمْ قُلْ كُلٌّ شَيْءٌ وَهُوَ جَبْرٌ وَكَأَيُّ جَبْرٍ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴾ (المؤمنون: 84-89).

2- توحيد الألوهية: هو إفراد الله ﷻ بالعبادة بأن لا يتخذ الإنسان مع الله أحداً يعبده ويتقرب إليه كما يعبد الله تعالى ويتقرب إليه. إن توحيد الإلهية، أو العبادة هو توحيد عملي⁵⁴؛ فيه أمر بفعل يصرف لواحد؛ وهو الله ﷻ، أو نهي عن فعل يترك لأجل واحد، هو الله ﷻ؛ فهو توحيد في الطلب والقصد، أو توحيد إرادي طلي، فيه دعوة إلى عبادة الله وحده، وخلع ما يعبد من دونه⁵⁵.

54 - هناك تقسيمات لأنواع التوحيد عند علماء العقيدة الإسلامية، التوحيد نوعان: يسمى الأول: التوحيد العلمي، والثاني: التوحيد القصدي الإرادي، لتعلق الأول بالأخبار والمعرفة، والثاني بالقصد والإرادة، وهذا الثاني نوعان: توحيد في الربوبية وتوحيد في الإلهية. ينظر: ابن قيم الجوزية: أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الدمشقي، مدارج السالكين - بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين - ت: رضوان جامع رضوان، مؤسسة المختار، القاهرة، ط1، 1422هـ/2001، 36/1، وابن أبي العز: علي بن محمد بن أبي العز الدمشقي، شرح العقيدة الطحاوية، ت: عبد الله بن عبد المحسن التركي، شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة بيروت، ط2، 1411هـ/1990م، 43-42/1، وعبد الرحيم السلمي، حقيقة التوحيد، ص 87-89.

55 - ينظر: ابن أبي العز الحنفي، شرح الطحاوية، 42-43.

توحيد الألوهية من أجله خلق الله تعالى الإنس والجن، قال ﷺ: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات: 56)، وهذا التوحيد هو أول دعوة الرسل، ومن أجله بعث الرسل كافة، قال سبحانه: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (الأنبياء: 25)، وقال تعالى: ﴿ وَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ (النحل: 36).

وتوحيد الألوهية هو الفارق بين المؤمنين والكافرين؛ يقول شيخ الإسلام: "التوحيد ضد الشرك، فإذا قام العبد بالتوحيد الذي هو حق الله، فعنده لا يشرك به شيئاً، كان موحداً" ⁵⁶.

يقول النبي ﷺ: ﴿ أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَمَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ وَحِسَابِهِ عَلَى اللَّهِ ﴾ ⁵⁷.

شهادة "لا إله إلا الله" هي الأصل في توحيد الألوهية، فلا معبود بحق إلا الله تعالى، يقول الصنعاني: "معناها: إفراد الله تعالى بالعبادة والإلهية، والبراءة من كل معبود دونه" ⁵⁸.

ومن النصوص القرآنية التي تشير إلى توحيد الألوهية، قوله تعالى: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَكَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ (النساء: 36)، وقوله: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ (الإسراء: 23)، وقال: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾ (البينة: 5)، وقال ﷺ: ﴿ قُلْ إِنْ صَلَّاتِي وَسُكُوتِي وَمَخْيَايَ وَمِمَّا تَرَىٰ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (الأنعام: 162-163).

56 - ابن تيمية: أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحلیم، مجموع الفتاوى، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم وابنه محمد، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، 1425هـ/2004م، 53-52/1.

57 - رواه مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله، رقم: 20، 39/1، والبخاري في الجامع الصحيح، كتاب: الجهاد والسير، باب: دعاء النبي ﷺ الناس إلى الإسلام والنبوة، وأن لا يتخذ بعضهم بعض أرباباً من دون الله، وقوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ ﴾ (آل عمران: 79) رقم: 2946، 345/2.

58 - الصنعاني: محمد بن إسماعيل، تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد، دار الخلفاء للكتاب الإسلامي، بيروت، ط2، 1403هـ/1983م، ص18.

إن توحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، فمن عبد الله تعالى وحده، وآمن بالتوحيد قصدا وطلبا، وعلم أن الله سبحانه مستحق للعبادة دون إشراك، دل ذلك أنه مؤمن بربوبية الله تعالى، وموحد لأسمائه وصفاته⁵⁹، "فإذا أخبر أنه هو وحده المستحق للعبادة، تضمن هذا الإخبار أمر العباد وإلزامهم بأداء ما يستحقه الرب تعالى عليهم، وأن القيام بذلك هو خالص حقه عليهم"⁶⁰.

والإيمان بتوحيد الربوبية، يتلزم توحيد الألوهية؛ من أقر بالأول لزمه الثاني؛ أي من آمن بأن الله ربه خالقه ومدبر أمره، وجب عليه عبادته وحده لا شريك له، فإذا كان هو الخالق الرازق النافع الضار وحده، لزم إفراده بالعبادة. يقول ابن القيم: "والإلهية التي دعت الرسل أمهم إلى توحيد الرب بها، هي العبادة والتأليه. ومن لوازمها: توحيد الربوبية الذي أقر به المشركون، فاحتج الله عليه عليهم به؛ فإنه يلزم من الإقرار به الإقرار بتوحيد الإلهية"⁶¹.

وفي القرآن الكريم أدلة كثيرة، جاءت حجة على مشركي قريش، المقرين بتوحيد الربوبية، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: 21-22).

3- توحيد الأسماء والصفات: وهو إفراد الله تعالى بما سمي به نفسه ووصف به نفسه في كتابه، أو على لسان رسوله ﷺ وذلك بإثبات ما أثبتته، ونفي ما نفاه من غير تحريف، ولا تعطيل، ومن غير تكيف، ولا تمثيل⁶².

الإنسان في هذه الحياة لا يمكنه أن يحيط بكل شيء علما؛ لأن العقل البشري بالرغم من القدرات التي يتمتع بها والتي سخرها الله تعالى للبشر حتى يدركوا عالم الغيب والشهادة، يبقى

59 - ينظر: ابن أبي العز، شرح الطحاوية، ص 29، 32، 41، وسليمان بن عبد الله، تيسير العزيز الحميد، ص 34.

60 - ابن أبي العز، شرح الطحاوية، ص 32.

61 - ابن قيم الجوزية: أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الدمشقي، إغاثة اللهفان في مصاديق الشيطان، ت: علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد الحلبي، دار ابن الجوزي، الأردن، 135/2.

62 - ينظر: ابن تيمية، مجموع الفتاوى، 3/3.

قاصرا للكثير من الأمور، خاصة عالم الغيب، والكون الذي يعيش فيه، والأقوام السابقة والبائدة قبل هذا العصر، وكل هذا يتأتى عن طريق السمع، وهذا الدليل اليقيني يأتي من طرف الأنبياء عليهم السلام. ومن هذه السمعيات التي لا يحيط بها الإنسان علما، ذات الله سبحانه وتعالى، وهي الأسماء والصفات التي انفرد الله تعالى بها، وأوجب على الإنسان توحيد الله فيها، قال تعالى:

﴿وَكَايُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ (طه:110)، "لا يمكن للعقل البشري أن يستقل بالنظر في أسماء الله وصفاته

ومعرفتها على التفصيل إثباتا ونفيا، ومن فعل شيئا من ذلك فقد ظل عن الصراط المستقيم"⁶³.

قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْغَنِيُّ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (الحشر:23). ومن هذه الآيات الشاهدة على وحدانية الله تعالى وبطلان الشرك، كثير في القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف:180)، وقد وصف الله تعالى أسماءه بأنها حسنى لما تحمله من الجلال والجمال، فهذه الآية دلت على وجوب الإثبات من غير تحريف، ولا تعطيل، ولا تمثيل، لأن هذ الأمور من الإلحاد.

قال الله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى:11)، وهذه الآية دلت على وجوب نفي التمثيل مع وجوب الإثبات. "وقد اتفق أهل السنة على أن الله ليس كمثل شيء، لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله. ولكن لفظ التشبيه، قد صار في كلام الناس لفظا مجملا يراد به المعنى الصحيح، وهو ما نفاه القرآن ودل عليه العقل، من أن خصائص الرب تعالى لا يوصف بها شيء من المخلوقات، ولا يماثله شيء من المخلوقات في شيء من صفاته"⁶⁴.

وقال الله تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ (الإسراء:36)، أي التوقف فيما لم يرد إثباته أو نفيه.

⁶³ - عبد الله بن عبد العزيز الجبرين، تسهيل العقيدة الإسلامية، دار الصميعي، الرياض، المملكة العربية الإسلامية، ط1، 1423هـ/2002م، ص87.

⁶⁴ - ابن أبي العز، شرح الطحاوية، ص38-39.

وقد ذكر ابن عبد البر في التمهيد أن أهل السنة والجماعة يؤمنون بأن جميع صفات الله جل وعلا الثابتة في الكتاب والسنة صفات حقيقية غير مجازية⁶⁵.

إن توحيد أسماء الله تعالى وصفاته، المذكورة في القرآن الكريم والسنة النبوية، يعتمد عند السلف الصالح، وأتباعهم من أهل السنة والجماعة، على منهج إثبات ما أثبتته الله تعالى لذاته العليا، ونفي ما نفاه، دون تعطيل أو تشبيه، وإثبات الأسماء لله تعالى مع كثرتها لا يعارض التوحيد؛ لأن هذه الأسماء المتعددة هي أسماء لمسمى واحد وهو الله تعالى ولا يلزم من إثبات الأسماء تعدد الآلهة بعدد هذه الأسماء . لأن الله تعالى واحد لا شريك له، يقول ابن قدامة: "موصوف بما وصف به نفسه في كتابه العظيم، وعلى لسان نبيه الكريم، وكل ما جاء في القرآن أو صح عن المصطفى عليه السلام من صفات الرحمن، وجب الإيمان به"⁶⁶.

⁶⁵ - ينظر: ابن عبد البر، التمهيد، 145/7.

⁶⁶ - ابن قدامة: أبو محمد موفق الدين عبد الله بن قدامة، شرح لمعة الإعتقاد المهادي إلى سبيل الرشاد، شرح: صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان، أشرف على طباعته: عبد السلام بن عبد الله السليمان، (د.ت)، ص35.

المطلب الثاني: الفطرة السليمة:

كان خلق سيدنا آدم عليه السلام، ومن ضلعه أمنا حواء. والغاية الإلهية من هذا الخلق والتناسل من بعده هو الاستخلاف في الأرض وعبادة الله تعالى وحده، قال ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: 56).

بما أن الغاية من خلق الإنسان هي العبادة، يطرح السؤال الدائم: هل الأصل في الإنسان التوحيد؟ أم هو أمر طارئ؟ .

قال تعالى في محكم تنزيله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ۗ شَهِدْنَا ۗ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (الأعراف: 172-173).

والإشهاد الذي وقع لذرية بني آدم أنه: "أشهد كل واحد من الذريات المأخوذ من ظهور آبائهم على نفسها لا على غيرها تقريرا لهم بربوبيته التامة وما تستتبعه من المعبودية على الاختصاص وغير ذلك من أحكامها وقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ على إرادة القول أي قائلًا ألسنت بربكم ومالك أمركم ومربيكم على الإطلاق من غير أن يكون لأحد مدخل في شأن من شئونكم فينتظم استحقاق المعبودية ويستلزم اختصاصه به تعالى...

وهذا تمثيل لخلقته تعالى إياهم جميعا في مبدأ الفطرة مستعدين للاستدلال بالدلائل المنصوبة في الآفاق والأنفس المؤدية إلى التوحيد والإسلام كما ينطق به قوله عليه الصلاة والسلام: (كل مولود يولد على الفطرة) الحديث مبني على تشبيه الهيئة المنتزعة من تعريضه تعالى إياهم لمعرفة ربوبيته بعد تمكينهم منها بما ركز فيهم من العقول والبصائر ونصب لهم في الآفاق والأنفس من الدلائل⁶⁷.

67 - أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 428/2-429.

إن هذا العهد الذي أخذه الله تعالى من بني آدم عليه السلام، هو إشهاد لهم وإقرار بوحدانية الله. وقد طرح علماء الإسلام أسئلة تدور حول هذا الإشهاد وكيفية وقوعه، وما هو هذا الإقرار؟ إن هذا الميثاق الذي أخذه الله تعالى من ذرية آدم عليه السلام، يدل على فطرية معرفة الله تعالى. وهذا النص شاهد، سواء كان الإخراج حقيقياً أو كان الإخراج حالياً، فهو على اختلاف الأقول فيه دلالة صريحة على أن ذرية بني آدم يعرفون الله ويقرون بوحدانيته سبحانه.

الأمر هنا يعود إلى الفطرة السليمة التي فطر الله تعالى عليها الإنسان، قال الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم:30)، هذا الخطاب موجه للنبي صلى الله عليه وسلم وأُمَّته أن يقيموا وجوههم للدين الحنيف، ويخلصوا لله تعالى، وهذا مقتضى الفطرة التي فطرهم الله عليها.

عن أبي هريرة قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ كَمَا تُنْجِبُ الْبَيْهَمَةُ بَيْهَمَةً جَمْعَاءَ هَلْ تُحْسِنُونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ﴾⁶⁸، وعلق النووي في شرح هذا الحديث أن الرسول عليه الصلاة والسلام أخبر أن كل مولود يولد مهيئاً للإسلام⁶⁹.

يقول الله تعالى في الحديث القدسي: ﴿وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنْفَاءَ كُلَّهُمْ وَإِنَّهُمْ أَتَمُّ الشَّيَاطِينِ فَاجْتَلَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَحَرَمْتُ عَلَيْهِمْ مَا أَحَلَلْتُ لَهُمْ وَأَمَرْتُهُمْ أَنْ لَا يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾⁷⁰. الفطرة في النصوص السمعية، تدل على أن الإنسان مفطور على معرفة الله تعالى، والإقرار بربوبيته، وهذه المعرفة تستدعي القوة والاستعداد للدين الإسلامي قبل مجيء الطفل إلى الدنيا.

وحصول هذه المعرفة يكون بقوة خارجية أقرها الله تعالى في ذرية آدم قبل الخلق، يقول ابن تيمية: "الكتاب والسنة دلا على ما اتفقت عليه من كون الخلق مفطورين على دين الله، الذي هو

68 - رواد مسلم في صحيحه، كتاب: القدر، باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال المشركين وأطفال المسلمين، رقم: 2658، 52/8، ورواه البخاري في صحيحه، كتاب: الجنائز، باب: إذا أسلم الصبي فمات هل يُصلى عليه، وهل يُعرض على الصبي الإسلام؟، رقم: 1358، 1359، 417-416/1. ورواه أحمد في المسند رقم: 7698، 424/7، ورقم: 8543، 351-350/8.

69 - النووي: محي الدين يحيى بن شرف بن مري بن حسن بن حسين بن حزام، صحيح مسلم بشرح النووي، المطبعة المصرية بالأزهر، ط1، 1347هـ/1929م، 208/16.

70 - رواد مسلم في صحيحه، كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، رقم: 2865، 159/8.

معرفة الله والإقرار به بمعنى أن ذلك موجب فطرتهم، وبمقتضاها يجب حصوله فيها، إذا لم يحصل ما يعوقها فحصوله فيها لا يقف على وجود شرط بل على انتفاء مانع، ولهذا لم يذكر الرسول ﷺ لموجب الفطرة شرطاً، بل ذكر ما يمنع موجبها⁷¹.

تعريف الفطرة:

الفطرة مشتقة من فطر، يُقال انفطر الشيء إذا انشق، وفطر الأمر، ابتدأه واخترعه، وفطر الله العالم، أو جده ابتداءً، وفطر الخلق، خلقهم وبرأهم⁷². وكلّ مولود يولد على الفطرة، أي على الجبلة القابلة لدين الحق⁷³.

إن كلمة "فطرة" على وزن فَعْلَة وردت مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿فَطَرَتَ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ

النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ (الروم:3).

والفطرة في كتب اللغة تدور حول المعاني التالية: الابتداء، الخلق، الاختراع، الشق، القبول، والإبداع⁷⁴.

تعددت أقوال علماء الإسلام في تعريف مصطلح الفطرة، منهم من قال بأنها معرفة، فهي الخلقة التي خلق عليها المولود من المعرفة بربه إذا بلغ مبلغ المعرفة وهي السلامة من المعرفة والإنكار أو الكفر والإيمان، قال به: ابن عبد البر⁷⁵، وابن الأثير⁷⁶، والسبكي⁷⁷، ومنهم من عرفها بأنها: الميثاق الذي أخذه الله تعالى من ذرية بني آدم قبل أن يخرجوا إلى الدنيا، فأقروا الله بالربوبية، قاله: حماد بن سلمة، وزيد بن سلمة وغيرهم⁷⁸، ومنهم من قال: الفطرة هي الإسلام،

71 - ابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل، 322/4.

72 - الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ص587.

73 - الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، 1211/1.

74 - ينظر: الصحاح، الجوهري، 781/2، ابن منظور، لسان العرب، 55/3-59، ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث، 487/3، الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص382.

75 - ابن عبد البر، التمهيد، 68/18-69.

76 - ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث، 457/3.

77 - السبكي: تقي الدين أبو الحسن، كل مولود يولد على الفطرة، ت: محمد السيد أبو عمرة، دار الصحابة للتراث، طنطا، ط1، 1410هـ، ص16.

78 - ابن عبد البر، التمهيد، 90/18-91، وابن قتيبة، تأويل مختلف الحديث، ص95.

وهو قول أكثر الصحابة والتابعين، والسلف الصالح⁷⁹.

وهذا القول لا يقتضي أن يولد المولود على دين الإسلام، علما بأركانها ومبادئه، عارفا بأصوله وشرعته، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ (النحل: 78)، ولكن الفطرة مقتضية وموجبة للإقرار بالإسلام والاهتداء بهداه. لأن فطرة المولود تستلزم الإقرار بالخالق ومحبه وإخلاص الدين له، وموجبات الفطرة ومقتضياتها تحصل شيئا بعد شيء بحسب كمال الفطرة إذا سلمت من المعارض⁸⁰.

إن الفطرة التي أوجدها الله تعالى في البشر هي ذلك الإيمان الخالص بتوحيد الله تعالى، والخلق على دين الإسلام، لأن أول واجب يقوم به الإنسان هو العبادة، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: 56)، لأن الميثاق الذي أخذ من بني آدم، هو معرفة الله تعالى والإقرار بربوبيته، "لأنه لو لم تكن معرفته والإقرار بربوبيته أمرا فطريا لأمرهم الله تعالى بما قبل الأمر بإفراده بالعبادة؛ إذ الأمر بتوحيده في عبادته فرع الإقرار به وربوبيته فيكون بعده"⁸¹.

الإشهاد الذي وقع لذرية بني آدم وهم في ظهور آبائهم بتوحيد ربهم ﷻ هو إقرار بتوحيد الربوبية قبل أن يولد الإنسان، وبعد ولادته فإنه على فطرة الله تعالى أي هو إنسان مهياً لدين الإسلام وإخلاص العبودية لله سبحانه ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتِ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾، لأن تكوينه الأول وإقراره يجعله إنسانا موحدا لله ﷻ، وعلى تمكين واستعداد لإقرار العبودية الخالصة لله تعالى، ثم تأتي بعد ذلك المؤثرات الخارجية والتي يحددها اتباع سبيل الضالين واتباع الهوى وطول الأمد على عبادة التوحيد كما وقع للعرب المشركين الذين يقرون بوجود الله وأنه الخالق والرازق والنافع والضار، ولكنهم كانوا لا يخلصون العبادة لله سبحانه وتعالى.

79 - الطبري، 184-183/10، ابن تيمية، درء التعارض، 367/8-377، التمهيد، 312/18، صحيح البخاري، كتاب: الجنائز، باب: إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه، رقم: 1358، 1359، 417/1، وكتاب: التفسير، سورة الروم، رقم: 2775، 275/3.

80 - ابن تيمية، درء التعارض، 384-383/8، وينظر: أحمد معاذ علوان حفي، فطرية معرفة الله تعالى، مجلة الأحمدية، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، دبي، العدد الرابع جمادى الأولى 1420هـ - أغسطس 1999م، ص13.

81 - عبد الرحيم بن صمايل السلمي، حقيقة التوحيد بين أهل السنة والمتكلمين، ص145.

المطلب الثالث: دعوة الأنبياء والمرسلين إلى التوحيد:

تجلت عظمة الأنبياء والرسل عليهم السلام، عبر مراحل زمنية مختلفة، في الشجاعة والقوة التي واجهوا بها أقوامهم، الكفار منهم والطاغين والمشركين، والمنحرفين عن عقيدة الله تعالى. وهذه القوة جاءت من إيمانهم الصادق والمخلص لله ﷻ، وإيمانهم بالرسالة الموكلة إليهم. حين اصطفاهم الله تعالى للإنذار والتبليغ.

قال تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ (الشورى: 13)، وقال الله تعالى: ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ (المائدة: 48). فالآية الأولى تتكلم عن الأصول الثابتة التي لا تتغير، كالتوحيد والنبوة، والآية الثانية تشير إلى السنة المتبعة من طرف كل نبي ومجموع الفروع التي تختلف بتغير الأزمان.

إن الهدف المرجو من إرسال الأنبياء والرسل هو الدعوة إلى الله وتبليغ رسالته، قال ﷻ: ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ (البقرة: 213).

لأن أهمية الرسل في حياة الناس، تكمن في التبليغ وإزالة الغشاوة عن أعينهم بعد أن كانوا على التوحيد، ثم انقلبوا إلى الشرك بعد طول الأمد بالأنبياء وانتشار الانحراف في أوساطهم. فبعث الله الأنبياء مبشرين ومنذرين للناس حتى يعودوا إلى دين الله تعالى، وكان الوحي هو الفارق في بيان الحق من الباطل. وقد أرسل الله تعالى إلى كل أمة رسولا، يدعوهم إلى التوحيد ونبذ الشرك المفضي إلى الهلاك. ولذلك فإن الدعوة إلى الله أخطر وظيفة على ظهر الأرض⁸²، لأنها مهمة الأنبياء والرسل، الذين ساروا وفق المنهج الرباني لتبليغ الرسالة الإلهية.

82 - ينظر: إبراهيم نويوى، الصبغة التاريخية لحركة انتشار الإسلام في نظر الشيخ محمد الغزالي، مجلة إسلامية المعرفة، معهد الفكر الإسلامي، العدد الرابع عشر، حريف 1419هـ/1998م، ص 114.

والقرآن الكريم هو الشاهد اليقين على الامتداد التاريخي لبعثة الأنبياء والرسول، عبر مراحل زمنية مختلفة، وهو الشاهد على المعاناة والشدة التي لاقاها الأنبياء من أقوامهم الضالين.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (الحديد:25)، وقال: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لئَلَّيْكَونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةً بَعْدَ الرُّسُلِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (النساء:165).

وقد أخبر الله تعالى في حق النبي ﷺ، وفي حق رسالته، قوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ (آل عمران:144)، وقال ﷺ: ﴿إِنَّا أُوحِينَا إِلَيْكَ كَمَا أُوحِينَا إِلَى نُوحٍ وَالتَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ (النساء:163). وقد لا تخلو سورة من سور القرآن الكريم من ذكر لقصة نبي أو رسول، أو عدد من الأنبياء والرسول عليهم السلام، لأن الأمر يتعلق بالدعوة الإلهية في هذه الأرض، والتنبيه لعمل الرسل الدائم لتخليص أقوامهم من عذاب مهين، "جعل القرآن الحكيم حديثه في عقائده وعباداته وتشريعاته، وآدابه وأخلاقياته، ونظمه في بيان علاقات الناس الاجتماعية، متصلاً أكمل اتصال بسيرة الأنبياء والمرسلين، لأنهم جميعاً لبنات في بناء الحضارة الإنسانية التي جاءت رسالة محمد ﷺ لتكميلها"⁸³، وجاء في الحديث النبوي الشريف قول النبي ﷺ: ﴿مِثْلِي وَمِثْلُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمِثْلِ رَجُلٍ بَنَى بُيْتَانًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلَّا مَوْضِعَ لَبَنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهُ فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبَنَةُ قَالَ فَاِنَّا اللَّبَنَةُ وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ ۖ﴾⁸⁴.

كان عمل الأنبياء والرسول عليهم السلام مبني على أساس واحد، وهو إخلاص العبادة لله تعالى في توحيده، قال ﷺ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ (النحل:36)، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء:25).

83 - محمد الصادق عرجون، محمد رسول الله ﷺ، 231/1.

84 - سبق تخريجه ص 30.

إن حكمة الله تعالى إقتضت أن يرسل رسلا إلى عباده عبر الأزمنة، حتى لا يتركهم دون دليل إلهي، وتشريع رباني يحميهم من هوى النفس وما تكسبه الأيدي، فسبقت رحمته تعالى عذابه فأرسل الأنبياء والرسل مبشرين ومنذرين، قال ﷻ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِتَيْنَا لَاتُرْجَعُونَ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ (المؤمنون: 115-116)، وقال عز من قائل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: 107).

وكانت الشرائع المترلة على الناس دليل حجة عليهم، حتى لا يأتوا يوم القيامة ويقولوا لم تأتنا بنذير، قال تعالى: ﴿مُرْسَلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (النساء: 165)، وقال: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا آتَيْنَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ وَكُوْنًا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَتَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نُنزِلَ وَتَخْزِي﴾ (طه: 133-134).

إن الهدف الذي من أجله جاءت دعوة الأنبياء والمرسلين، لم يكن التبليغ والإنذار فقط؛ بل كان أساسه حمل الناس على توحيد العبادة لله ﷻ، وأن يسير القوم على منهاج الأنبياء في هذه الأرض، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: 25). وقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: 56)

أما الأمر الآخر فهو بيان الحجة عليهم في بعث المرسلين من الله تعالى، وبيان طريق الهداية للضالين منهم عبر الزمن.

لقد أرسل الله تعالى الرسل وأنزل الشرائع، ليحمل الناس على إتباع الحق، ومنه تكون رعاية مصالحهم الدينية والدنيوية ويكون الجزاء من الله تعالى.

وتتابع الإرسال من الله تعالى للأنبياء في مختلف الأماكن والأزمنة، هو دليل على رحمة الله تعالى بعباده، وإرادته في إبعادهم عن سبل الشيطان والضلال، قال ﷻ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر: 24).

وهذه الحكمة التي من أجلها جاء إرسال الرسل عليهم السلام كلما دعت الضرورة إلى ذلك، وإنقراض الإنسان من شهوات الحياة، ومصائد الشيطان، إلا رحمة من الله تعالى بعباده، " إن الله - سبحانه - جعل الرسل وسائط بينه وبين عباده في تعريفهم ما ينفعهم وما يضرهم، وتكميل ما يصلحهم في معاشهم ومعادهم، وبُعثوا جميعاً بالدعوة إلى الله، وتعريف الطريق الموصل إليه، وبيان حالهم بعد الوصول إليه"⁸⁵.

وقد كانت للأنبياء والرسل عليهم السلام، مناهج وأساليب في الدعوة إلى الله تعالى، والتعريف بالرسالة التي جاءوا بها، والطريق الذي سلكه الرسل في الدعوة، كان يحتاج إلى إرادة قوية، وجهد عظيم من النبي المصطفى من بين البشر للتبليغ. ومن بين الأنبياء والرسل الذين أرسلهم الله سبحانه إلى الناس، اخترت عدداً منهم لأبين منهاج كل نبي في الدعوة إلى الله، وكيفية سيره مع هذه الدعوة، ومدى نجاحه في الرسالة الموكلة إليه.

الفرع الأول: دعوة سيدنا نوح عليه السلام:

وهو نبي الله نوح عليه السلام، الذي بعث إلى قوم طال بهم الأمد عن النبوة فطغوا في الأرض، واتخذوا من الأوثان أرباباً لهم من دون الله وَعَلَّمَ قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا أَمَرْنَا نُوحًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأَنْتُمْ قَوْمِكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (نوح: 01)، ومن الأوثان التي عبدها قوم نوح عليه السلام، ما ذكره الله تعالى في سورة نوح، قال عز من قائل: ﴿ وَقَالُوا لَآ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَكَأْتَذَرُنَّ وَدًّا وَكَأَسْوَأَ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ (نوح: 23).

يذكر ابن عباس رضي الله عنهما، أن هذه الأوثان هي أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما توفاهم الله تعالى، أوحى الشيطان لهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تُعبد، حتى هلك أولئك وتنسخ العلم⁸⁶.

85 - ابن تيمية، مجموع الفتاوى، 97-96/19.

86 - الحديث في صحيح البخاري، سبق تخريجه ص 136.

ولهذا كان مبدأ الشرك وأساسه الأول، الغلو في الصالحين، وتعظيم مجالسهم ومقامهم، إلى حد يُعبد فيه هذا العبد الصالح، ويُتزل منزلة الإله، ويتيه الخلف في عبادته. فمن فوائد هذه القصة معرفة أن أول شرك حدث على وجه الأرض كان بشبهة الصالحين⁸⁷.

فجاءت بعثة نبي الله نوح عليه السلام، ليخرج القوم من الضلال الذي آلوا إليه بعد تحريفهم للحق الذي جاءهم، فكانت دعوته لقومه بتوحيد الله، ونبد هذه الأصنام التي لا تضر ولا تنفع، والبعد عن الشرك لأنه ظلم عظيم. ولم يكن سيدنا نوح ينذر قومه، ويدعوهم إلى توحيد الألوهية، بل كان النبي القدوة، عندما اختار طريق الله ﷻ بصدق ويقين، وسار في مهمة الدعوة، وكان المثال الصادق على صحة ما جاء به من عند الله سبحانه.

قال ﷻ: ﴿ وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكَرِي بآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقضوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (يونس: 71-72).

وهذه إرادة نبي الله نوح عليه السلام وإخلاصه للواحد القهار، أنه كان يدعو إلى توحيد الله تعالى من دون إرادته لأمر من أمور الدنيا وزينتها. وكان جوابه الواحد، على تكذيب القوم واستفزازهم بقوله: ﴿ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ﴾.

وقد كان الصراع بين الحق والباطل على أشده، تقوم رحاه بين نبي الله الصالح نوح عليه السلام وبين قوم كانت الجاهلية الأولى ديدنهم في الحياة، وقد واجهوه بالتكذيب ووسموا نبوته بالبشرية، قال تعالى: ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يَنْفُكُوا مِنْكَ وَمَا نَرَاكَ إِلَّا كَذَّابًا ﴾ (هود: 27).

ولم يقفوا عند هذا الحد بل تعدوا إلى الاستهزاء محاولة منهم لإبعاد الناس عنه، قال ﷻ: ﴿ قَالُوا اتُّؤْمِنُ بِكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذُلُونَ ﴾ (الشعراء: 111)، وقال: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾.

87 - ينظر: السعدي، القول السديد شرح كتاب التوحيد، ص 67.

(الأعراف:60)، وقال أيضا: ﴿ وَقَالُوا لَآ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَكَآ تَذَرُنَّ وَدًا وَكَآ سُوعَا وَكَآ يُعُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ (نوح:23)، وهنا أمر كبار القوم أتباعهم أن لا يتركوا عبادة الأصنام، وقولهم: ﴿ لَآ تَذَرُنَّ ﴾ أي: لا تتركن، ﴿ آلِهَتَكُمْ ﴾ أي أصنامكم، وهو عام في جميع أصنامهم. وقد جاء ذكر بعضها، دلالة على أخصيتها وأهميتها عندهم، وروي أنها أسماء رجال صالحين كانوا فيهم⁸⁸. اتخذ نوح عليه السلام أسلوبا لدعوة قومه، لأنهم يُعتبرون أول الأقوام المشتركة على الأرض، وميزتهم العنت والعناد، لهذا مكث فيهم عهدا يدعوهم إلى عبادة الله، قال جل وعلا: ﴿ وَكَذَآ أَمْرُسَلْتَنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ (العنكبوت:14). فقد نهج أسلوب الدعوة المباشر والصريح، قال سبحانه: ﴿ لَقَدْ أَمْرُسَلْتَنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (الأعراف:59)، وإعلانه للقوم بأنه نذير مبين، ثم نهيته عن عبادة غير الله تعالى، وقد بشر بالعذاب الأليم لمن بقي على شركه، بالرغم من الخوف الذي أبداه نوح عليه السلام على قومه.

استمر نوح عليه السلام في دعوته ولسانه يذكر الله في كل حين، وقلبه مطمئن بدين الله وعدل قضائه، وهو لا يمل من قوله: ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾، "فهي حقيقة واحدة يقوم عليها دين الله كله، ويتعاقب بها الرسل جميعاً على مدار التاريخ.. فكل رسول يجيء إنما يقول هذه الكلمة لقومه الذين اجتالهم الشيطان عنها، ففسوها وضلوا عنها، وأشركوا مع الله آلهة أخرى -على اختلاف هذه الآلهة في الجاهليات المختلفة- وعلى أساسها تدور المعركة بين الحق والباطل.. وعلى أساسها يأخذ الله المكذبين بها وينجي المؤمنين"⁸⁹.

88 - ينظر: الزمخشري: جار الله أبو القاسم محمود بن عمر بن أحمد، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ت: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، وفتح عبد الرحمن أحمد حجازي، مكتبة العبيكان، الرياض، ط1، 1418هـ/1998م، 218/6، وأبو حيان الأندلسي: محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان النحوي الأندلسي، البحر المحيط، ت: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1413هـ/1993م، 336-335/8.

89 - سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، ط12، 1986م، 235/3.

ومضى القوم في التكذيب والاستهزاء من نوح عليه السلام ومن القلة المؤمنة التي اتبعته، حتى جاء أمر الله تعالى ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِّ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴾ (الأعراف: 64).

يقول الرازي: "بين تعالى أنهم مع ذلك كذبوه في ادعاء النبوة وتبليغ التكليف من الله وأصروا على ذلك التكذيب، ثم إنه تعالى أنجاه في الفلك وأنجى من كان معه من المؤمنين وأغرق الكفار والمكذبين. وبين العلة في ذلك فقال: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴾، قال ابن عباس: عميت قلوبهم عن معرفة التوحيد والنبوة والمعاد، قال أهل اللغة: يقال: رجل عمي في البصيرة وأعمى في البصر ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ (القصص: 66)، وقال ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بِصَائِرٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ﴾ (الأنعام: 104)"⁹⁰.

الفرع الثاني: دعوة سيدنا هود عليه السلام:

قال عليه السلام: ﴿ كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الشعراء: 123-127).

أرسل الله تعالى نبيه هود عليه السلام إلى قبيلة عاد، أحد القبائل العربية البائدة، وهي قبيلة متفرعة من أولاد سام بن نوح عليه السلام، وقد سميت بهذا الاسم نسبة لأحد أجدادها.

وقد كانت مساكن عاد في أرض الأحقاف، جنوب شبه الجزيرة العربية، والأحقاف تقع في شمال حضر موت، ويقع في شمال الأحقاف الربع الخالي، وفي شرقها عُمان، قال تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُورُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (الأحقاف: 21).

⁹⁰ - فخر الدين الرازي: أبو الفضل محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التيمي البكري، مفاتيح الغيب والمشتهر بالتفسير الكبير، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1، 1401هـ/1981م، 160/14.

أولاً: شرك قوم عاد: من خلال سور القرآن الكريم، والآيات التي تورّد أخبار قوم عاد الذين هم خلفاء لقوم نوح عليه السلام فهم من بين الناجين من الطوفان، قال الله عز وجل: ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ (الأعراف: 69)، إلا أن البعد عن الله تعالى واتباعهم لهوى النفس كان سبيلهم، بالرغم من البسطة والقوة التي أنعم الله بها عليهم، نسوا ذلك وجعلوا لله سبحانه شركاء من دونه، قال عز وجل: ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذُرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَآتَانَا بِمَا تَعَدْنَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (الأعراف: 70). يقول الطبري: "قالت عاد لهود: أجيئنا تتوعّدنا بالعقاب من الله على ما نحن عليه من الدين، كي نعبد الله وحده، وندين له بالطاعة خالصاً، ونهجر عبادة الآلهة والأصنام التي كان آبائنا يعبدونها، ونتبرأ منها؟ فلسنا فاعلي ذلك، ولا نحن متبعوك على ما تدعوننا إليه، فأتنا بما تعدنا من العقاب والعذاب على تركنا إخلاص التوحيد لله، وعبادتنا ما نعبد من دونه من الأوثان، إن كنت من أهل الصدق على ما تقول وتعد⁹¹". وفي الآية دليل على أن عاد كانوا يقرون بالربوبية لله تعالى، ﴿لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ﴾، ولذلك أنكروا على هود أن يدعوهم إلى التوحيد، ونبذ ما كان عليه آبائهم من عبادة الأصنام، "أنكروا أن يتركوا أصنامهم ويفردوا الله بالعبادة مع اعترافهم بالله حياً لما نشؤوا عليه وتألّفوا لما وجدوا آباءهم عليه"⁹².

ثانياً: التزام هود عليه السلام برسالة ربه:

الملاحظ في دعوة الرسل لأقوامهم الذين بُعثوا فيهم، أنّها بأسلوب واضح بين، لا لبس فيه ولا غموض، قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (النور: 54)، وقال: ﴿لَقَدْ أَمَرْنَا مُرْسَلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (الحديد: 25).

91 - الطبري، جامع البيان، 279/10.

92 - أبو حيان، البحر المحيط، 387/5.

فالبلاغ المبين دليل على وضوح الحق في نفس الرسول، والدعوة الواضحة دليل على جلاء الإيمان في نفس الداعية⁹³. وهذا الوضوح جعل الرسول يلتزم بالعبادة لله ﷻ والسير على رسالته قبل أن يدعو قومه إليها، ولهذا حمل الأنبياء والرسل القدوة الصالحة لأقوامهم قبل الدعوة، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (يوسف: 111)، وقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب: 21).

ويظهر الإصرار لمواصلة الدعوة من جانب هود عليه السلام، بالرغم من المعارضة والتكذيب الذي لقيهما، في توكله على الله سبحانه في أمره، قال الله تعالى: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (هود: 56). كما التزم هود عليه السلام كغيره من الأنبياء والمرسلين، إخلاصهم في الدعاء لله تعالى، وهو ركن مهم من توحيد العبودية، قال ﷻ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ (الأنبياء: 90).

وكانت دعوته تركز على توحيد الله: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ (هود: 50)، وقد أعلن هود عليه السلام براءته من شرك قومه، لأنهم لم ينتهوا عما هم فيه، وصدوا عن دعوته، قال ﷻ: ﴿قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (هود: 54).

ثالثاً: أسلوب هود عليه السلام في الدعوة:

يتكرر الأسلوب المباشر في دعوة الرسل عليهم السلام، وهذا يعود إلى وحدة المصدر الإلهي، والهدف من إرسال الرسل عليهم السلام، قال سبحانه: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (الأعراف: 65)، وقد أدرك قوم عاد حقيقة ما جاء به

93 - عطية محمد مصطفى شعبان، منهج الإسلام العلمي في دعوة الرسل، دار البشير للثقافة والعلوم، طنطا، مصر، 1418هـ-1997م، ص161.

نبي الله هود عليه السلام، لهذا جاء الإنكار منهم على هذه الدعوة بقولهم: ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذُرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (الأعراف: 70).

ولم ينأى هود عليه السلام عن دعوة قومه إلى عبادة الله وحده، وقد اهتمهم بالافتراء حين يجعلون لله شركاء، قال عز وجل: ﴿وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُقْتِرُونَ﴾ (هود: 50). يقول الرازي: "يعني أنكم كاذبون في قولكم إن هذه الأصنام تحسن عبادتها، أو في قولكم إنها تستحق العبادة، وكيف لا يكون هذا كذباً وافتراء وهي جمادات لا حس لها ولا إدراك، والإنسان هو الذي ركبها وصورها فكيف يليق بالإنسان الذي صنعها أن يعبدها وأن يضع الجبهة على التراب تعظيماً لها"⁹⁴. وأراد هود عليه السلام استمالة القوم بفضل الله عليهم، إذا عادوا إلى طريق الله واستغفروا ربهم، قال عز وجل: ﴿يَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيُرْزِقْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوتِكُمْ وَلَآ تَكُونُوا مَجْرُمِينَ﴾ (هود: 52)، وفي معنى الاستغفار المذكور في الآية، يقول البيضاوي: "اطلبوا مغفرة الله بالإيمان ثم توسلوا إليه بالتوبة وأيضاً التبري من الغير إنما يكون بعد الإيمان بالله والرغبة فيما عنده"⁹⁵.

لم يقتصر سيدنا هود عليه السلام في دعوة قومه إلى توحيد الله تعالى، بل بين لهم أنه تعالى فطر الإنسان على التوحيد الخالص لله تعالى، قال: ﴿يَا قَوْمِ لَأَسْأَلَنَّكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (هود: 51)، لأن الفطرة السليمة هي أحد نعم الله عز وجل على عباده، وهي من الأمور التي تستوجب الشكر لله تعالى من الناس فكيف بالنبي فاعل بنعمة الاصطفاء من دون البشر جميعهم، والهداية الربانية له من ضلال الشرك، وجعل الصلة فعل الفطر الذي هو الإيجاد

⁹⁴ - الرازي، مفاتيح الغيب، 11/18.

⁹⁵ - البيضاوي: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل (تفسير البيضاوي)، دار الجيل، (د.ت)،

والإبداع لكونه أبعد من أن يتوهم نسبته إلى شركائهم، قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (لقمان: 25) ⁹⁶.

إن قوله تعالى على لسان نبيه هود عليه السلام: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، يؤكد عدم إمكانية إغفال الأمر، لأن القضية إذا رجعت إلى العقل لا يمكن للإنسان العاقل المدبر أن يجهلها، أو يكذبها، "وذلك لأن العلم بصحة هذا المنع، كأنه مركز في بدائه العقول" ⁹⁷.

والأمر نفسه يتكرر مع الأقوام المكذبة للمرسلين، يكون الرد الوحيد على دعوة النبي بقولهم: ﴿قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (هود: 53)، وهي نفس الحجج والبراهين التي طلبها مشركوا قريش من النبي صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿لَوْلَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهِ آيَةً مِنْ رَبِّهِ﴾ (الرعد: 27)، وكانت صورة التقليد الأعمى للأباء واضحة مسيطرة ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (هود: 53)، قوله تعالى: ﴿عَنْ قَوْلِكَ﴾، "حال من الضمير في تاركي آلهتنا، كأنه قيل: وما نترك آلهتنا صادرين عن قولك: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ وما يصح من أمثالنا أن يصدقوا مثلك فيما يدعوهم إليه، إقناطاً له من الإجابة" ⁹⁸.

وبما أن الأسلوب الواضح والمباشر في خطاب الأنبياء والمرسلين لأقوامهم، كان الرد صريحا دائما، والحق على السنة الأنبياء ديدهم في الدعوة إلى الله تعالى ﴿قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُ وَأَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (هود: 54). هي رسالة الأنبياء منذ آدم عليه السلام إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، الدعوة إلى التوحيد ونبد الشرك، وبما أن قوم هود عليه السلام آثروا دين آبائهم على دين الله، فكان عقاب الله بالمرصاد، قال صلى الله عليه وسلم: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَبَجَيْنَاَهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ (هود: 58-59). والدعاء

⁹⁶ - ينظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 57/3، والألوسي: أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي، روح المعاني في تفسير

القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان (د.ت)، 80/12.

⁹⁷ - الرازي، مفاتيح الغيب، 11/18.

⁹⁸ - الزمخشري، الكشاف، 208/3.

بقوله تعالى: ﴿الْأَبْعَدُ لِعَادِ قَوْمِ هُودٍ﴾ "بعد هلاكهم وهو دعاء بالهلاك للدلالة على أنهم كانوا مستأهلين له"⁹⁹.

الفرع الثالث: دعوة إبراهيم الخليل عليه السلام:

هو نبي الله ورسوله عليه السلام إبراهيم جد العرب، وأبو الأنبياء عليهم السلام، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (النحل: 120-122).

وكون إبراهيم عليه السلام كان أمةً يحتمل عدة وجوه¹⁰⁰، أحدهما: أنه كان وحده أمةً من الأمم لكماله في جميع صفات الخير كقوله:

وَلَيْسَ عَلَيَّ اللَّهُ بِمُسْتَنْكَرٍ... أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمَ فِي وَاحِدٍ.

وعن مجاهد: كان مؤمناً وحده والناس كلهم كفار. والثاني: أن يكون أمةً بمعنى مأموم، أي: يؤمّه الناس ليأخذوا منه الخير، أو بمعنى مؤتم به كالرحلة والنخبة، وما أشبه ذلك مما جاء من فعلة بمعنى مفعول، فيكون مثل قوله: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، وقد ذكر الله تعالى أن إبراهيم كان نبياً قانتاً لله على الحنيفية السمحة، ونفى عنه صفة الشرك، لأنه جادل قومه بالحجج والبراهين على صدق دعواه، وكان توحيده عن إدراك وعلم، ومن ذلك ما بينه الله تعالى لنبيه محمد ﷺ، قال الله جل وعلا: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، فيه تعظيم منزلة نبينا ﷺ وإجلال محله والإيدان بأن أشرف ما أوتي خليل الله من الكرامة إتباع رسولنا ملته¹⁰¹.

99 - النسفي: عبد الله بن أحمد بن محمود، مدارك التنزيل وحقائق التأويل (تفسير النسفي)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1415هـ/1995م، 31/2.

100 - ينظر: الرمخشمري، الكشاف، 482/3-483، والرازي، مفاتيح الغيب، 484/9، وابن الجوزي: أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد، زاد المسير في علم التفسير، المكتب الإسلامي، بيروت، ط3، 1404هـ/1984م، 503/4، وأبو حيان، البحر المحيط، 314/7.

101 - النسفي، مدارك التنزيل، 186/2، وينظر: أبو السعود، إرشاد العقل، 414/3.

وذكر المؤرخون أنه ولد بالعراق، كما يقول أهل التوراة أنه كان من أهل (فدّان آرام) بالعراق. وكان أبوه نجارا، يصنع الأصنام التي يعبدها قومه.

وقد ناضل إبراهيم عليه السلام ضد الشرك أمدا طويلا، وكان يدعو قومه إلى التوحيد وترك عبادة الأصنام، قال تعالى: ﴿وَأِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت:16). وقد هاجر في سبيل الله داعيا إلى عبادة الله الواحد الأحد:

﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (العنكبوت:26).

أولا: قوم إبراهيم عليه السلام:

وكانت بعثة نبي الله إبراهيم عليه السلام في الشام، حيث كان يغلب على سكانها الصابئة والمتعصبون للديانة الروحانية، يقول الشهرستاني: "ومذهب هؤلاء: أن للعالم صانعا، فاطرا حكيما، مقدسا عن سمات الحدثان. والواجب عليه معرفة العجز عن الوصول إلى جلاله. وإنما يتقرب بالتوسطات المقربين لديه، وهم الروحانيون المطهرون المقدسون جوهرًا، وفعلا، وحالة... فنحن نتقرب إليهم، ونتوكل عليهم وهم أربابنا وآلهتنا وشفعاؤنا عند الله، وهو رب الأرباب، وإله الآلهة، رب كل شيء ومليكه"¹⁰². وقد زعم أصحاب الروحانيات أنه لا يمكن عبادتها مباشرة، بل لا بد لها من وسائط ظاهرة يتقرب من خلالها الناس إلى الآلهة، وقد انقسموا إلى طائفتين¹⁰³: أصحاب الهياكل (الكواكب)، وأصحاب الأشخاص (الأصنام).

1- أصحاب الهياكل:

أصحاب الروحانيات كما قرر الشهرستاني في كتابه، اختاروا الكواكب السيارة السبع، وجعلوها متوسط لعبادتهم، فتعرفوا على أمور هذه السيارة وجعلوا لها طقوس خاصة ودعوات معينة، كما عينوا لها الأيام الخاصة ولبسوا لها وتعطروا واستخدموا البخور في عبادتهم، وراحوا يعبدونها تقربا إلى الله. "وكانوا يتقربون إلى الهياكل تقربا إلى الروحانيات ويتقربون إلى

102 - الشهرستاني، الملل والنحل، 308/2-309.

103 - الطبري، جامع البيان، 358/2، و374/18، وابن كثير، البداية والنهاية، 330/1-331.

الروحانيات تقربا إلى الباري تعالى لاعتقادهم بأن الهياكل أبدان الروحانيات ونسبتها إلى الروحانيات نسبة أجسادنا إلى أرواحنا فهم الأحياء الناطقون بحياة الروحانيات وهي تتصرف في أبدانها تديبرا وتصريفا وتحريكا كما نتصرف في أبداننا ولا شك أن من تقرب إلى شخص فقد تقرب إلى روحه¹⁰⁴.

2- أصحاب الأشخاص (الأصنام):

زعم أصحاب هذه الفرقة أن الروحانيات إذا كانت المتوسط الذي يتوسل به والشفيح الذي يُتشفع به، لا بد من تحقق عنصري الرؤية والحديث معها في أي وقت وأي مكان، وهذه الهياكل التي تحمل الروحانيات بداخلها، لا بد من أن تكون أصنام وليست كواكب مختفية في أزمنة معينة.

فاستخدموا لذلك صور وأشخاص موجودة قائمة منصوبة فعكفوا عليها وتوسلوا بها إلى الهياكل لتقربهم بها إلى الروحانيات ويتقربوا بالروحانيات إلى الله سبحانه وتعالى فيعبدهم ليقربونهم إلى الله زلفى¹⁰⁵.

قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَأُكُمْ التَّارُومَةُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ (العنكبوت: 25).

وقد صور الله تعالى تلك العلاقة التي جمعت قوم إبراهيم الخليل بالأوثان التي عبدوها بعلاقة المودة، بالرغم من أن هذه الأوثان لا تنفعهم لا في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار لما أشركوا مع الله تعالى آلهة لا تنفع ولا تضر، وتنكر على عابديها صناعتهم، ويلعن بعضها بعضا.

104 - الشهرستاني، الملل والنحل، 49/2.

105 - نفسه، بتصرف.

ثانيا: الالتزام العملي بالتوحيد لسيدنا إبراهيم عليه السلام:

وكان إبراهيم الخليل مثال النبي والرسول القدوة، لأنه حقق معنى توحيد الله ﷻ في نفسه، وفي ذريته. أولا بفطرته السليمة ولما اصطفاه الله تعالى رسولا لقومه، ثم بالبرهان العقلي الذي أثبت من خلاله وجود الباري سبحانه وحق عبادته وحده. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَكَمَا يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (النحل: 120-121).

وهذه الأوصاف التي وصفه الله تعالى بها تُحقق معنى العبودية لله، لأنه "رئيس أهل التوحيد وقدوة أصحاب التحقيق جادل أهل الشرك وألقمهم الحجرَ بينات باهرة لا تُبقي ولا تذر، وأبطل مذاهبهم الزائفة بالبراهين القاطعة والحُجج الدامغة"¹⁰⁶.

يتكرر الأمر باتباع ملة إبراهيم الحنيفية السمحة، وذلك البعد العقدي الذي يمتد إلى إبراهيم ﷺ، ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ تَبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ (النحل: 123)، فهو وصل ما انقطع من عقيدة التوحيد في عهد بعثة النبي محمد عليه الصلاة والسلام¹⁰⁷، والنص القرآني يؤكد نفي الشرك عن إبراهيم ﷺ: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (النحل: 123).

يذكر محمد بن عبد الوهاب هذه الآية تحت باب: من حقق التوحيد دخل الجنة، وقد ذكر فيه مسائل من بينها:

الأولى: معرفة مراتب الناس في التوحيد.

الثانية: ما معنى تحقيقه.

الثالثة: ثناؤه سبحانه على إبراهيم بكونه لم يكن من المشركين¹⁰⁸.

106 - أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 413/3.

107 - ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، 497/4.

108 - ينظر: صالح بن عبد العزيز، التمهيد في شرح كتاب التوحيد، محمد بن عبد الوهاب، ص 30-37.

ومن الأدلة على توحيد سيدنا إبراهيم الخليل دعاءه إلى ربه بحفظه من الوقوع في الشرك هو وبنيه، قال عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ (إبراهيم: 35).

وهنا يستشهد محمد بن عبد الوهاب بهذه الآية في باب: الخوف من الشرك. وذكر فيه مسألة: المسألة العظيمة: سؤال الخليل له ولبنيه وقاية عبادة الأصنام¹⁰⁹.

الأمر الثاني موقف إبراهيم الخليل من أبيه الذي كان على الشرك، ودعوته له إلى عبادة الله الواحد الأحد. وكذا موقفه الثابت مع قومه الذين ضلوا الطريق وأبوا سماع دعوة إبراهيم عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينُ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الزخرف: 26-28)، وقال عليه السلام: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءٌ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنبَأْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (المتحنة: 4). فكان القرار الصريح لجميع الأنبياء والمرسلين، البراءة من شرك أقوامهم الذين كذبوهم وأنكروا الرسالة التي جاءوا بها من الله تعالى.

ثالثاً: أسلوب إبراهيم عليه السلام في الدعوة:

1- الأسلوب العلمي: وهو أسلوب المناظرة والمحااجة مع استخدام العقل، وذكر البراهين والأدلة ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكَوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَكُونُ مِنَ الْمُؤَقِنِينَ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ مَرَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَأُحِبُّ الْأَقْلِينَ فَلَمَّا مَرَأَى الْقَمَرَ بَاغِرًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا مَرَأَى الشَّمْسَ بَاغِرَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِبْرَاهِيمُ إِنِّي بِرَبِّيَ مُشْرِكُونَ إِنِّي وَجْهَتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ

109 - صالح بن عبد العزيز، التمهيد لشرح كتاب التوحيد، محمد بن عبد الوهاب، ص 42-43.

وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يُشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ نَعْلَمُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ وَبَلِّغْ حُجَّتَنَا آتِيهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ إِنْ رَبُّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٧٥-٨٣﴾ (الأنعام 75-83)،

"هذا المقام مقام مناظرة لقومه، وبيان لهم أن هذه الأجرام المشاهدة من الكواكب النيرة لا تصلح للألوهية، ولا أن تُعبد مع الله عز وجل؛ لأنها مخلوقة مربوبة مصنوعة مدبرة مسخرة، تطلع تارة وتأفل أخرى؛ فتغيب عن هذا العالم، والرب تعالى لا يغيب عنه شيء ولا تخفى عليه خافية، بل هو الدائم الباقي بلا زوال، لا إله إلا هو ولا رب سواه" ¹¹⁰.

وهذه الواقعة تدل على أن إبراهيم عليه السلام كان مناظرا لقومه، وقد عرف ربه قبل هذا، لأنه خاطب والده أولا في الدعوة، وبعدها كان التعقيب: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا﴾ (الأنعام: 76)، ويؤكد أيضا أن هذه الواقعة جاءت بعد قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ (الأنعام: 75) ¹¹¹.

دعوة إبراهيم عليه السلام والده:

كان آزر والد إبراهيم الخليل على الشرك مثل قومه، وكان نجارا ينحت أصناما يبيعها للقوم الذين يتخذونها للعبادة. وقد كانت أول دعوة لإبراهيم عليه السلام لأبيه، لأنه أحق الناس بالدعوة إلى الله، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ كُنَّا فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي

110 - ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، صحيح قصص الأنبياء، بقلم: أبي أسامة سليم بن عبد الهلالي السلفي الأشري، دار

غراس، الكويت، ط1، 1422هـ/2002م، ص107.

111 - الرازي، مفاتيح الغيب، 51/13.

أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿ (مریم: 41-43). لكن الوالد أبي سماع كلام ولده وكذبه، وفضل البقاء على كفره، قال ﷻ: ﴿ قَالَ أَرَأَيْبُ أَنْتَ عَنْ إِلَهِي يَا إِبْرَاهِيمَ لَنْ لَمْ تُشْتَهُ لَأَرْجُمَنَّكَ وَأَهْجُرْتَنِي مَلِيًّا ﴾ (مریم: 46).

عندها رد إبراهيم على أبيه ردا جميلا، وقد حاول الاستغفار له، علّه يعود إلى الحق سبحانه وتعالى: ﴿ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ (مریم: 47)، في هذه الآيات القرآنية يبين أسلوب الحوار الصريح والهادئ بين والد وابنه فكان إبراهيم ﷺ نعم الابن البار بوالده، " أنه تعالى وصف إبراهيم ﷺ في هذه الآية بكونه حليماً أي قليل الغضب، وبكونه أوها أي كثير التوجع والتفجع عند نزول المضار بالناس، والمقصود أن من كان موصوفاً بهذه الصفات كان ميل قلبه إلى الاستغفار لأبيه شديداً، فكأنه قيل: إن إبراهيم مع جلالة قدره ومع كونه موصوفاً بالحليمية منعه الله تعالى من الاستغفار لأبيه الكافر، فلأن يكون غيره ممنوعاً من هذا المعنى كان أولى" ¹¹². ولهذا أنكر الله تعالى على النبي ﷺ، وعلى المؤمنين الاستغفار لأهلهم المشركين، قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ (التوبة: 113)، وما دعاء إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعد بها إبراهيم ﷺ والده ¹¹³. فلما تبين لإبراهيم أن والده باق على الشرك، وغير آبه بدعوة ابنه تبرأ منه، قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ (التوبة: 114).

2- الأسلوب العملي:

قال ﷻ: ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِإِلَهِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ قَالُوا سَمِعْنَا فَتَىٰ يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ قَالُوا فَاتُوا بِهِ عَلَىٰ عَيْنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِإِلَهِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ

112 - الرازي، مفاتيح الغيب، 230/21.

113 - ينظر: الزمخشري، الكشاف، 26/4، والرازي، مفاتيح الغيب، 229/21، 230.

هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ثُمَّ نَكِسُوا عَلَىٰ
رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ أَفِ
لَكُمْ وَلِكَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿ (الأنبياء: 57-67).

استخدم إبراهيم عليه السلام البرهان العملي حتى يرهن للقوم بأنهم على ضلالة، وهذا بعد أن
جادلهم بالقول ودعاهم إلى التوحيد صراحة، قال عليه السلام: ﴿ قَالَ بَلْ مَرَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذِكْرِ الشَّاهِدِينَ ﴾ (الأنبياء: 55).

حيث أنه عندما أقام البرهان على إثبات الإله، أتبعه البرهان العملي على إبطال الباطل
فقال: ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ ﴾، وهذا قسم من إبراهيم على قيامه بهذا العمل بالرغم من خطورته وهو
في زمن الملك النمرود، والآية تدل على رجوع التسبب باطنا، فكأنها إشارة إلى أنه بعد أن تسبب
في ردهم عن عبادتها ظاهراً بما خاطبهم به، تسبب من ذلك ثانياً باطناً بإفسادها، حين قام بتكسير
الأصنام بالفأس والقوم غافلون عن ذلك¹¹⁴.

وهذا العمل الذي قام به إبراهيم عليه السلام، حمل في خباياه خطورة وخوفاً مما سيقدم عليه،
ودليل ذلك ما قاله إبراهيم وهو مقبل على الآلهة والفأس في يده: ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ
أَصْنَامَكُمْ ﴾، ومقالته توحى إلى تعجب حصل مع إبراهيم الخليل، لأن الأمر جلل لخطورته¹¹⁵.
ومن خلال هذا العمل القوي والتخطيط الدقيق، الذي سار على نهجه إبراهيم عليه السلام، من
أجل الوصول إلى تحقيق دعوته بالأسلوب العملي استطاع أن: "يزعزع مكانة الآلهة من نفوس
أصحابها، لكنهم أدركهم ما أدرك الأمم الأخرى من العناد والاستكبار حتى مع وضوح
البيئات"¹¹⁶.

114- البقاعي: برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، (د.ت)، 437/12.
بتصرف.

115- ينظر: الرمخشي، الكشاف، 151/4، البيضاء، 201/4، أبو حيان، البحر الحيط، 301/6، النسفي، مدارك التنزيل، 329/2، أبو السعود،
إرشاد العقل السليم، 710/3.

116- عبد الرحيم بن صمايل السلمي، حقيقة التوحيد بين أهل السنة والمتكلمين، ص 437.

بعد المناظرة التي دارت بين إبراهيم عليه السلام وبين قومه، أدرك القوم خطأهم العظيم، لأنهم يعرفون أن الأصنام لا يمكنها أن تنطق أو ترد الأذى عن نفسها، قال تعالى: ﴿ثُمَّ نَكَّسُوْا عَلَيَّ رُءُوسَهُمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَتَّبِعُونَ﴾ (الأنبياء: 65) حينها قال لهم الخليل: ﴿قَالَ اقْتَبِدُونِ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (الأنبياء: 66-67).

وقال سبحانه: ﴿قَالَ اقْتَبِدُونِ مَا تَحْتُونُ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الصفافات: 95-96).

وهذا الأسلوب وإن كان عمليا، إلا أنه استخدم فيه الحادثة للتدليل على فكرته ومحاصرة القوم في أفكارهم، فقد عمل إبراهيم الخليل بالأسلوب العلمي الذي يخاطب العقول والنفوس. وقد حبا الله تعالى نبيه إبراهيم الخليل قوة إيمانية، وإخلاصا في دعوته إلى الله سبحانه، جعلته يقف أمام الملك المستبد، ويحاججه في توحيد الله تعالى، قال جل وعلا: ﴿الْمُرْتَلَى الَّذِي كَانَتْ عَلَيْهِ آيَاتُ اللَّهِ وَإِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: 258). قال المفسرون وغيرهم من علماء النسب والأخبار، أن هذا الملك هو ملك بابل واسمه النمروذ، وكان أحد ملوك الدنيا الذي ملك وطغى وبغى، وتجبر وعتا وآثر الحياة الدنيا، ورفض دعوة إبراهيم الخليل، وحاجه في إنكار وجود الله تعالى، وادعى لنفسه الربوبية. ومن الأعمال الخالدة التي قام بها إبراهيم الخليل مع ولده إسماعيل عليهما السلام، بناء البيت العتيق وهو أول بيت وضع في الأرض للعبادة، وقد أرشد الله تعالى رسوله إلى مكان البناء، ففي الحديث الصحيح، ﴿إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَمُهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾¹¹⁷.

117 - أخرجه البخاري، كتاب: جزاء الصيد، باب: لا يجل القتال بمكة، رقم: 1834، 13/2، ومسلم في الصحيح، كتاب: الحج، باب: تحريم مكة وصيبتها وخلاها وشجرها ولقطتها، إلا لمنشد، على الدوام، رقم: 1353، 109/4، من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ (آل عمران: 96-97).

وقد بين الله تعالى أن عبده ورسوله الخليل وولده إسماعيل عليهما السلام هما اللذين بنيا البيت ووضعوا أسسه الأولى، ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَامْرُقْ أَهْلُهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (البقرة: 125-126).

وقال الله ﷻ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (البقرة: 127)، والذي يصحُّ من هذا كله أن الله سبحانه أمر إبراهيم برفع قواعد البيت، وما دعاءهما بهذا الدعاء، إلا لوصف حالهما وتناسبها مع ما هم فيه، ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، وخصاً هاتين الصفتين؛ لتناسبهما مع حالهما، وقولهما: ﴿اجْعَلْنَا﴾ بمعنى: صيرنا مسلمين، وكذلك كانا، وإنما أرادا التثبيت والدوام¹¹⁸. أي كان إبراهيم عليه السلام، وابنه إسماعيل في غاية الإخلاص والطاعة لله ﷻ، وهما يسألانه أن يتقبل منهما ما هما فيه من الطاعة العظيمة والسعي المشكور، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَمْرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة: 128). "والمقصود أن الخليل بنى أشرف المساجد في أشرف البقاع في واد غير ذي زرع.

ودعا لأهله بالبركة، وأن يُرزقوا من الثمرات مع قلة المياه وعدم الأشجار والزرور والثمار، وأن يجعله حرماً محرماً وآمناً محتماً¹¹⁹.

118 - التعلبي: عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف أبو زيد، الجواهر الحسان في تفسير القرآن (تفسير الثعلبي)، ت: علي محمد معوض وعادل أحمد

عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1418هـ/1997م، 317/1.

119 - ابن كثير، صحيح قصص الأنبياء، ص144.

فاستجاب له ربه فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مِّنَّا وَيَتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبَالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ (العنكبوت: 67)، وقال: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا مِّنَّا يُجْبِي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ مِّنْ لَّدُنَّا وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (القصص: 57). وبعث الله تعالى فيهم رسولا منهم، جعله خاتم الأنبياء والمرسلين، وحامل القرآن الكريم إلى العالمين.

كان دعاء إبراهيم عليه السلام، تأكيد على العمل الذي اضطلع به منذ اختاره الله تعالى لتبليغ رسالته للناس، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ (إبراهيم: 35)، يذكر أبو حيان أن مناسبة هذه الآية لما قبلها: "أنه تعالى لما ذكر التعجيب من الذين بدلوا نعمة الله كفراً، وجعلوا لله أنداداً وهم قريش ومن تابعهم من العرب الذين اتخذوا آلهة من دون الله، وكان من نعم الله عليهم إسكانه إياهم حرمة، أردف ذلك بذكر أصلهم إبراهيم، وأنه صلوات الله عليه دعا الله تعالى أن يجعل مكة آمنة، ودعا بأن يجنب بنيه عبادة الأصنام، وأنه أسكنه وذريته في بيته ليعبدوه وحده بالعبادة التي هي أشرف العبادة وهي الصلاة، لينظروا في دين أبيهم، وأنه مخالف لما ارتكبه من عبادة الأصنام، فيزدجروا ويرجعوا عنها"¹²⁰.

أمر الله تعالى نبيه إبراهيم عليه السلام بمحاربة الشرك ودعوة الناس إلى التوحيد، وهذه الدعوة تكون بتطهير البيت للعاكفين والركع السجود، قال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ (الحج: 26). "واذكر يا محمد حين جعلنا لإبراهيم مكان البيت مباءة أي مرجعاً يرجع إليه للعمارة والعبادة"¹²¹.

وكانت نعمة الله تعالى على رسوله الكريم، أن جعل النبوة في ذريته مستمرة من إسحاق وإسماعيل عليهم السلام إلى محمد النبي الأمين عليه السلام، وفي ذلك يذكر الرازي لطيفة في تفسيره لهذه الآية: "وهي أن الله بدل جميع أحوال إبراهيم في الدنيا بأضدادها لما أراد القوم تعذيبه بالنار وكان وحيداً فريداً فبدل وحدته بالكثرة حتى ملأ الدنيا من ذريته، ولما كان أولاً قومه وأقاربه القريبة ضالين مضلين من جملةهم آزر، بدل الله أقاربه بأقارب مهتدين هادين وهم ذريته الذين جعل الله

120 - أبو حيان، البحر المحيط، 419/5.

121 - النسفي، مدارك التنزيل، 2 / 352.

فيهم النبوة والكتاب، وكان أولاً لاجاه له ولا مال وهما غاية اللذة الدنيوية آتاه الله أجره من المال والجاه"122 .

قال **محمد**: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَأَتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (العنكبوت: 27).

الفرع الرابع: دعوة موسى عليه السلام:

موسى رسول الله إلى بني إسرائيل، فهو ابن عمران من ذرية أبناء يعقوب عليهم السلام، قال الله تعالى: ﴿وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ (مريم: 51). ذرية يعقوب الذين سكنوا مصر في حكم يوسف **عليه السلام**، وعاشوا فيها حتى حكم مصر ملك ظالم، رأى في بني إسرائيل السلالة التي ستقضي على حكم الفراعنة فيها، قال **عزراة**: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص: 4). حيث رأى الملك أن بني إسرائيل يتكاثر نسلهم ويزداد عددهم، وقد سمع روايات عنهم تتحدث عن نبوة واحد من بني إسرائيل، الذي سيسقط فرعون مصر عن عرشه، وهذه النبوة قد تكون حلما من أحلام اليقظة، التي تجيش بها قلوب الأقلية المضطهدة، أو بشارة في صحف بني إسرائيل، ونتيجة ذلك أصدر الفرعون قرارا عجيبا، يقتل فيه كل مولود ذكر يولد من بني إسرائيل، ثم عدل إلى إنفاذ الأمر عاما وتغييره في العام الثاني¹²³. وبالرغم من الاحتراز الذي طلبه فرعون وجنوده الطغاة، وكيدهم لبني إسرائيل، وقتلهم من النفوس ما لا يعد ولا يحصى، إلا أن حكم الله وقدره قضى بأن يولد هذا الغلام، ويكون مرباه وشأته في دار فرعون وعلى فراشه، وبين ذراعيه وتحت سلطته، "ثم يكون هلاكك في دنياك وآخرتك على يديه لمخالفتك ما جاء به من الحق المبين، وتكذيبك ما أوحى إليه، لتعلم أنت وسائر الخلق، أن رب السموات والأرض فعال لما يريد، وأنه هو القوي الشديد، وذو المشيئة التي لا مرد لها"¹²⁴.

122 - الرازي، مفاتيح الغيب، 27/23.

123 - أحمد مجحت، أنبياء الله، دار الشروق، ودار الريان للتراث، القاهرة، ط15، 1047هـ/1987م، ص184-185. بتصرف.

124 - ابن كثير، صحيح قصص الأنبياء، ص255.

فكان أن اصطفى الله تعالى عبده موسى عليه السلام ليكون رسولا إلى بني إسرائيل، ويقوم بدعوة فرعون مصر إلى توحيد الله تعالى ونبذ شرك الأقوام السابقة، قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْهُ بَعْدَهُمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ (يونس: 75)، وقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ (غافر: 23-24).

أولا: الشرك في قوم موسى عليه السلام:

أرسل الله تعالى نبيه موسى عليه السلام إلى قومه أولا، وبعدها إلى بني إسرائيل لتبليغ رسالة الله تعالى إليهم، قال جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الزخرف: 46)، وقد قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: "يقول تعالى مخبرا عن عبده ورسوله موسى عليه السلام، أنه ابتعثه إلى فرعون وملئه من الأمراء والوزراء والقادة، والأتباع والرعايا، من القبط وبني إسرائيل، يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وينهاهم عن عبادة ما سواه"¹²⁵. وكان فرعون من عباد الكواكب والأشخاص ممن يُقرون بالخالق¹²⁶، ثم ادعى الربوبية والألوهية، بعد امتداد ملكه واتساع سلطته، وطغيانه وتجبره.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أُطْعَمُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (القصص: 38). وقال تعالى: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَى ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى فَحَشَرَ فَنَادَى فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ (النازعات: 21-24).

125 - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 315/12.

126 - ينظر: الشهرستاني، الملل والنحل، 342/2.

وأخبر الله تعالى أن لفرعون آلهة يعبدها، قال جل وعلا: ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرِكُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذُرْكُمُ الْأَهْتَكُ قَالَ سَتَقْبَلُونَ أَتْبَاءَهُمْ وَسَتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾ (الأعراف: 127).

والظاهر أن فرعون كان له آلهة يعبدها، منهم من قال أنه كان يعبد الكواكب، ومنهم من قال: صنع فرعون لقومه أصناماً وأمرهم أن يعبدوها تقرباً إليه، ومن ذلك جاء قوله: أنا ربكم الأعلى¹²⁷.

أما قوم موسى عليه السلام فهم بنو إسرائيل، الذين استقروا في مصر بعد التحاق أبناء يعقوب عليه السلام بأخيهم يوسف عليه السلام الذي كان على خزائن مصر.

قال عز وجل: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تَتُذُنُونِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا تَرَاغُوا أَنْرَاغَ اللَّهِ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (الصف: 5).

يقول الرازي: في قوله تعالى: ﴿ وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ ﴾، "في موضع الحال، أي تؤذونني عالمين علماً قطعياً أي رسول الله وقضية علمكم بذلك موجبة للتعظيم والتوقير"¹²⁸، والجملة حالية مؤكدة لانكار الإيذاء ونفى سببه و﴿ وَقَدْ ﴾، لتحقيق العلم لا للتقليل ولا للتقريب لعدم مناسبة ذلك للمقام، وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار؛ أي والحال أنكم تعلمون علماً قطعياً مستمراً مع ما ظهر على يدي من المعجزات الباهرة التي معظمها إهلاك عدوكم وإنجائكم من ملكته، أي رسول الله إليكم لأرشدكم إلى خيري الدنيا والآخرة، ومن قضية علمكم بذلك أن تبالغوا في تعظيمي وتسارعوا إلى طاعتي¹²⁹.

بنو إسرائيل كانوا على التوحيد الخالص لله تعالى، لأن الله سبحانه جعل النبوة فيهم، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ (المائدة: 20).

¹²⁷ - ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 220/14، النسفي، مدارك التنزيل، 385/1، أبو حيان، البحر المحيط، 367/4، أبو السعود، إرشاد العقل، 391/2.

¹²⁸ - الرازي، مفاتيح الغيب، 313/29.

¹²⁹ - الألوسي، روح المعاني، 481/20. بتصرف.

بعث الله تعالى نبيه موسى عليه السلام إلى قومه من بني إسرائيل، لينقذهم من ظلم فرعون واستعباده لهم طول هذه السنين، وإبعادهم عن الشرك المحيط بهم الذي قد يخالط نفوسهم، ودعوة فرعون إلى التوحيد، قال الله عز وجل: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقَوْلَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعْذِْبَهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ (طه: 47).

قوله تعالى: ﴿مَرْسُولًا مِنْ رَبِّكَ﴾ فيه إشارة إلى تحقير فرعون، بأنه من جملة عبيد الله، ورسولاه، تكديماً له في ادعائه الربوبية، وطغيانه في الأرض¹³⁰، ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ليعبده، فإنه لا يستحق العبادة غيره، وأنكر موسى عليه السلام على فرعون عبوديتهم له، بالاستخدام والتذبيح؛ ثم علل دعوى الرسالة بما يثبتها، فقال مفتتحاً بالحرف، التوقع لأن حال السامع لادعاء الرسالة أن يتوقع دلالة على الإرسال: ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ﴾ أي علامة عظيمة وحجة وبرهان ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ الذي لا إحسان عليك إلا منه¹³¹.

بعد حادثة يوم الزينة التي تغلب فيها موسى عليه السلام على سحرة فرعون، وإيمان السحرة برب موسى، لحق فرعون بجيش من الجنود موسى وهارون عليهما السلام ومن تبعهم من بني إسرائيل، وجاء أمر الله تعالى وغرق فرعون في اليم وأمسى عبرة للناس أجمعين، قال الله عز وجل: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ (القصص: 39-40)، بعد هذه الأحداث المتوالية، عرّض لبني إسرائيل عارض خطير، وهم في مسيرهم مع رسول الله لدخول أرضهم، وهذا الحادث يتعلق بقضية التوحيد، ومدى القناعة والاستقرار الذي كان في نفوس بني إسرائيل وقلوبهم. وها العارض تضمن حادثتين خطيرتين.

130 - ينظر: البقاعي، نظم الدرر، 292/12.

131 - نفسه.

الأولى: قال تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ قَالَ اغْتَرَبَ اللَّهُ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضْلُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف: 138-140).

وكأنهم طلبوا من موسى ﷺ أن يُعَيِّنَ لهم أصناماً وتمائيل يتقربون بعبادتها إلى الله تعالى كقول الكفرة ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ (الزمر: 3)، فتوجه الدم إليهم لأن العبادة نهاية التعظيم سواء اعتقد في المعبود أنه إله واعتقد أنه مقرب من الله، ونهاية التعظيم لا تليق إلا بمن يصدر عنه نهاية الإنعام¹³²، لأن الجهل كان السبب وراء هذا الانحراف عن العقيدة ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾.

من خلال الآيات القرآنية يظهر أن القوم، بعد المعجزات والأهوال التي صادفتهم وفرعون وجنوده إثرهم، تملكتهم الغفلة، وأصبحوا قوما جاهلين، فطلبوا من موسى ﷺ واسطة حسية يرونها، أصناماً وتمائيل يتقربون بعبادتها إلى الله تعالى¹³³، وهم لا ينكرون الربوبية لله تعالى:

1- لأنهم يعترفون بنبوة موسى ﷺ، وأنه رسول من رب العلمين، ولهذا طلبوا منه هذا الطلب.

2- والقوم قالوا لموسى: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا﴾ ولو كان المراد بالإله القادر على الإبداع والاختراع لما صح هذا التعبير إذ الخالق هو الجاعل وليس المَجْعول، والداعي وراء هذا الطلب هو الجهل كما أخبرهم موسى بذلك، والجهل بمفهوم الألوهية، والتقليد لأصحاب الأصنام. "إنها العدو تصيب الأرواح كما تصيب الأجسام! ولكنها لا تصيبها حتى يكون لديها الاستعداد والتهيؤ والقابلية. وطبيعة بني إسرائيل - كما عرضها القرآن الكريم عرضاً صادقاً دقيقاً أميناً في شتى المناسبات"¹³⁴.

132 - الواحدي، الوسيط في تفسير القرآن المجيد، 570/3، ينظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 595/4، الألوسي، روح المعاني، 285/23.

133 - الرازي، مفاتيح الغيب، 235-234/14.

134 - سيد قطب، في ظلال القرآن، 287/3.

الثانية: عبادة العجل: يذكر الطبري عن ابن جريج أنه قال: " في قوله: ﴿عَلَىٰ أَصْنَامِهِمْ﴾ قال: تماثيل بقر. فلما كان عجل السامريّ شبه لهم أنه من تلك البقر، فذلك كان أول شأن العجل"¹³⁵. يقول تعالى في فعلهم هذا: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ مِّمَّ الْمَيْرِ وَأَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ (الأعراف: 148)، وقال أيضا واصفا الحجة التي اتخذها بنو إسرائيل: ﴿قَالُوا مَا آخَلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلَكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ (طه: 87-88).

وهذا العجل الذي اتخذوه إلهًا، لم يدعوا فيه الربوبية، إنما المراد من اتخاذهم العجل إله هو رغبتهم الشديدة في الإدراك الحسي للإله المعبود، أي اتخذوه بالعبادة من دون الله. قال الله تعالى: ﴿وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾، "أي حالهم حال من يمشي في الظلام، أو أن المقصود أن الظلم وصف لهم لازم، فلا بدع إذا فعلوا أمثال ذلك"¹³⁶.

ثانيا: التزام موسى عليه السلام بالتوحيد:

كان نبي الله موسى عليه السلام نعم العبد الآواب إلى ربه الحامل لرسالته إلى قومه المستضعفين على يد الطاغية فرعون، وقد وصفه الله تعالى بصفات كان يحملها بصدق، قال عليه السلام: ﴿وَأذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ (مريم: 51)، وقال عليه السلام: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ (الأحزاب: 69).

يقول الرازي في تفسير الآية الأولى: "اعلم أنه تعالى وصف موسى عليه السلام بأمر: أحدها: أنه كان مخلصاً فإذا قرئ بفتح اللام فهو من الاصطفاء والاختباء كأن الله تعالى اصطفاه واستخلصه

135 - الطبري، جامع البيان، 409/10.

136 - البقاعي، نظم الدرر، 86/8.

وإذا قرىء بالكسر فمعناه أخلص لله في التوحيد في العبادة والإخلاص هو القصد في العبادة إلى أن يعبد المعبود بها وحده، وثانيها : كونه رسولا نبيا¹³⁷.

ذلك الإخلاص الذي حمله موسى عليه السلام معه، من مبعثه إلى بني إسرائيل ودعوته فرعون. هذه الرسالة الربانية التي اختارت موسى ليكون نبيا رسولا من أولي العزم من الرسل، كان موسى نعم الرسول المخلص في عبادته لربه الموحد الذي أخلص وجهه لله من الشرك والرياء، ونزل في ساحة الدعوة في زمن فرعون المستكبر في الأرض، والمستعبد لعباد الله تعالى.

وهذا أعظم دليل على التوحيد والتزام الأنبياء والرسل عليهم السلام به في حياتهم ودعوتهم إلى الله تعالى، فهم القدوة الصالحة لأقوامهم قبل الدعوة، قال جل وعلا: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (يوسف:111)، وقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ (الأنبياء:21). كما أن الرسل عليهم السلام ومع التزامهم بتوحيد الله تعالى ونبذ الشرك، كانوا يخلصون الدعاء إلى الله تعالى ويتبرأون من شرك أقوامهم، قال سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ (الأنبياء:90)، وقال: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (يونس:41).

ثالثا: دعوة موسى عليه السلام:

أخذ موسى على عاتقه مهمة تبليغ رسالة ربه، وكفى به رسولا من رب العالمين، فذهب هو وأخاه إلى فرعون وملئه لدعوتهم إلى الله، قال عليه السلام: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَنْ أُرْسِلَ مَعَنَا نَبِيٌّ إِسْرَائِيلَ﴾ (الشعراء:16-17)، وقال: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا نَبِيَّ إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مِنْ اتَّبَعِ الْهُدَى﴾ (طه:47)، هنا أقام موسى عليه السلام الحجة على فرعون، بدلالة الأثر على المؤثر والصنعة على الصانع، فوجود الخلق وعظم شأنه دليل على وجود الخالق وعظم قدرته وقدره، وسعة علمه وكمال حكمته، قال جل وعلا:

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ ﴾ (الشعراء: 23-26). وهذا صورة تبين موقف

الحق والدليل البين، أمام موقف السفه وقلة البيان، والكبر الموجه بالسخرية والاستهزاء.

قال الله تعالى: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَوَّكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَشْجَارًا مِنْ بَنَاتِ شَتَّى كُلُوا وَامْرَءُوا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَبْصَارِ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ (طه: 53-55).

في هذه الآيات القرآنية نقراً دليل وجود الخلق على الموجد، فلفت انتباه فرعون إلى ما حوله في الآفاق من الدلائل على وجود الخالق القادر، وأنه مجرد مخلوق لا يملك قدرة الخلق والبدء والإعادة. "هناك أفهمه أن الله خلق الإنسان من الأرض وسيعيده إليها بالموت، ويخرجه منها بالبعث، هناك بعث... "138.

سأل فرعون موسى عن رب العالمين، ليس حبا في المعرفة ولكن استهزاءا وسخرية من موسى وهارون عليهما السلام، لأنه يظن أنه الرب المعبود من الجميع، قال تعالى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴾ (الشعراء: 23-24).

من خلال سؤال فرعون، أجاب موسى عليه السلام بجواب واضح استخدم فيه الحجة العقلية والحسية، وذلك ليقم الدليل على فرعون المعاند الذي جحد وجود الله وأثبت لنفسه الربوبية، قال سبحانه: ﴿ فَحَشْرَ فَنَادَى فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ (النازعات: 23-24)، ولهذا كان رد موسى عليه السلام بالحجة القاطعة المدركة، قوله تعالى: ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴾؛ "أي إن كنتم موقنين بالأشياء محققين لها علمتم ذلك، أو إن كنتم موقنين بشيء من الأشياء فهذا أولى بالإيقان لظهوره وإنارة دليله"139. فأجاب فرعون على وجه الإنكار للمقالة، ﴿ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ ﴾ (الشعراء: 25-26)، إذ كانت عقيدة القوم أن فرعون ربهم

138 - أحمد مجحت، أنبياء الله، ص 204.

139 - أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 208/4.

ومعبودهم والفراعنة قبله كذلك، وهذه ضلالة من موسى، لأن أهل مصر يعتقدون الربوبية لأبائهم وملوكهم، فزاد موسى في البيان بقوله: ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (الشعراء:28). حينها بين موسى ﷺ، أن فرعون في غاية البعد أن يملك المشرق والمغرب، فما له إلا ملك مصر فقط¹⁴⁰، والله تعالى يملك كل شيء، وقدرته فاقت كل الحدود، ولهذا كان له الملك والحكم واستحق العباداة له تعالى وحده.

ومعنى إن كنتم تعقلون قد عرفتم أنه لا جواب عن سؤالك إلا ما ذكرت، إن ملكتم صفة العقل المدرك .

قال فرعون حين لزمته الحجة، وانقطع عنه الجواب تكبراً عن الحق: ﴿قَالَ لَنْ اتَّخَذتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾¹⁴¹.

وبعد هذا الجدل الطويل بين موسى وفرعون، أنكر فرعون كل دليل جاء به موسى ﷺ حتى معجزة السحر التي أيده الله تعالى بحملها، حينها أراد فرعون أن يتحدى موسى في سحره ويبرهن للناس أنه مجرد ساحر، جاء ليسحر القوم بسحره ويأخذ العرش منه فقط، قال ﴿وَعَجَبْتَ:﴾ ﴿وَلَقَدْ أَمَرْنَا آيَاتِنَا كَلِّهَا فَكَذَّبَ وَآبَى قَالَ أَجَسْتَنَا لِنُخْرِجَنَّهُ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكِ يَا مُوسَى فَلَمَّا تَيَسَّنَا بِسِحْرِ مِثْلِهِ فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَأَنْخَلِفَهُ نَحْنُ وَكَأَنْتَ مَكَانًا سُوءِي قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِرَ النَّاسُ ضُحَى﴾ (طه: 56-59).

كان الموعد يوم الزينة، وهو عيد من أعياد المصريين، حين يجتمع الناس من أول النهار، حين يكون النهار شديد الضياء والحق أجلى وأظهر، وموسى على يقين من ربه أنه سيظهر الحق أمام أعين الناس والسحرة ومن ورائهم فرعون، حين يكون الدين الحق لله تعالى والكلمة لموسى في بيان ذلك.

¹⁴⁰ - ينظر: ابن عطية، المحرر الوجيز، 229/4، التعالي، الجواهر الحسان، 226/4.

¹⁴¹ - الخازن: علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي، لباب التأويل في معاني التنزيل (تفسير الخازن)، ط1، 1415هـ، 475.

فجاء يوم الزينة أين وقف موسى عليه السلام بكل ثقة ويقين من الله تعالى أمام جبروت فرعون، متحديا السحرة الضالين، فقال لهم: ﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَآ تَقْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى ﴾ (طه: 61)، لأن في سحرهم معارضة لآيات الله وحججه، عندها رمى السحرة حبالهم وعصيهم، واستخدموا جميع مهارات السحر لديهم، ثم رمى موسى عليه السلام عصاه، قال عليه السلام: ﴿ وَالْقِمَامَ فِي يَمِينِكَ تَلْقَفُ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَكَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى فَالْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ أَدْنَى لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَمَّا قُطِعَ مِنْ أَيْدِيكُمْ وَأُمِرْ جُلُوكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَأُصْلِبَتْكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَتَعَلَّمْنَ آيَاتًا أَشَدَّ عَذَابًا وَأَبْقَى قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَأَبْقَى إِنَّهُ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمَلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَرَكَى ﴾ (طه: 69-76) .

فالسحرة رأوا رأي البصر والبصيرة، أن ما وقع أمامهم ماهو إلا حق من الله تعالى، وما هو بالسحر الخادع للعين، وبعيد عن صنعة أيديهم، "بل حق لا يقدر عليه إلا الحق، الذي ابتعث هذا المؤيد به الحق، وكشف عن قلوبهم الغشاوة الغفلة، وأنارها بما خلق فيها من الهدى وأزاح عنها القسوة، وأنابوا إلى ربهم وخروا له ساجدين، وقالوا جهرة للحاضرين، ولم يخشوا عقوبة ولا بلوى: ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴾¹⁴² .

وقد دأب فرعون على نفي أو تكذيب أي حجة يأتي بها موسى، لإثبات وجود الله تعالى وقدرته وخلقه، وهذا محاولة منه للتشكيك في قول موسى ودعوته، وحمل الناس على الانصراف عنها بشبهة الشك والتكذيب، "﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأَمَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ قصد بنفي

142 - ابن كثير، صحيح قصص الأنبياء، ص 282.

علمه بإله غيره نفي وجوده أي ما لكم من إله غيري أو هو على ظاهره وأن إلهاً غيره غير معلوم عنده¹⁴³. وبعد هذا الاستكبار والعتو عن أمر الله تعالى، وطاعة القوم لفرعون والسير في طريقه جاء أمر الله تعالى فأغرق القوم الطغاة في اليم وجعلهم عبرة للناس في الزمان والمكان، ونجى موسى وهارون وبني إسرائيل من كيد فرعون وجنوده الذين لاحقوهم للفتك بهم، لكن الله العلي القدير كان لفرعون وجنوده بالمرصاد فأغرقهم أجمعين، وأتبعوا لعنة بين العالمين، وفي النار هم خالدون، قال ﷻ: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أُطْعَمُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَاسْتَكَبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاظْطُرُّ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يُدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ (القصص: 38-42)

وقال: ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِدَنَّاكَ لَتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ آيَةً﴾ (يونس: 90-92).

الفرع الخامس: دعوة الرسول الخاتم محمد ﷺ:

قال الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (الأحزاب: 40).

وقال ﷻ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سبأ: 28).

هو محمد بن عبد الله النبي الخاتم، المبعوث للناس أجمعين، الذي جاء بالقرآن الكريم المعجزة التي تحدى بها العرب والناس كافة.

143 - النسفي، مدارك التنزيل، 43/3.

وكان خيار القوم نسبا وشرفا، وعُرف بين قومه بالصادق الأمين، واصطفاه الله تعالى ليكون رسول الله إلى العالمين، عن واثلة بن الأسقع قال: قال رسول الله ﷺ: **إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَدِّ إِسْمَاعِيلَ ، وَاصْطَفَى مِنْ كِنَانَةَ قُرَيْشًا ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ** ¹⁴⁴.

يقول سيد قطب في الضلال: "حتى إذا أراد الله أن يختم رسالاته إلى البشر؛ أرسل إلى الناس كافة، رسولا خاتم النبيين برسالة (للإنسان) لا لمجموعة من الأناسي في بيئة خاصة، في زمان خاص، في ظروف خاصة.. رسالة تخاطب (الإنسان) من وراء الظروف والبيئات والأزمنة؛ لأنها تخاطب فطرة الإنسان التي لا تتبدل ولا تتحور ولا ينالها التغيير: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ الَّذِينَ فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تُبَدِّلُ لَخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينَ الْقَيِّمُ﴾، وفصل في هذه الرسالة شريعة تناول حياة (الإنسان) من جميع أطرافها" ¹⁴⁵.

أولا: الشرك عند العرب:

عاش عرب قريش حول الكعبة المشرفة، التي بناها جدتهم الأكبر إبراهيم عليه السلام، وولده إسماعيل عليه السلام، وفيها توسع القوم ودانوا بدين أبيهم الأول، لما كانوا على دين الإسلام وبعد أن طال بهم الأمد بالأنبياء والمرسلين انحرفت عندهم العقيدة الصحيحة، وشاب أعرافهم ومقدساتهم بعض الانحراف، حين ابتعدوا عن التوحيد لله تعالى وجاءوا بأصنام من أراض أخرى وجعلوها آلهة تعبد، وأقاموا لها النصب والأصنام ظنا منهم أنها تقر بهم إلى الله تعالى.

قال ابن هشام: "حَدَّثَنِي بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّ عَمْرَو بْنَ لُحَيٍّ خَرَجَ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الشَّامِ فِي بَعْضِ أُمُورِهِ فَلَمَّا قَدِمَ مَابَ مِنْ أَرْضِ الْبَلْقَاءِ ، وَبِهَا يَوْمَئِذٍ الْعَمَلِيُّقُ - وَهُمْ وَكُدُ عِمْلَاقُ . وَيُقَالُ عِمْلِيُّقُ بْنُ لَأُوذَ بْنِ سَامَ بْنِ نُوحٍ - رَأَاهُمْ يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ فَقَالَ لَهُمْ مَا هَذِهِ الْأَصْنَامُ الَّتِي أَرَأَيْتُمْ تَعْبُدُونَ ؟ قَالُوا لَهُ هَذِهِ أَصْنَامُ نَعْبُدُهَا ، فَسَتَمَطَّرُهَا فْتَمَطَّرُنَا ، وَنَسْتَنْصِرُهَا فتنصُرُنَا ، فَقَالَ لَهُمْ

144 - سبق تخريجه ص 57.

145 - سيد قطب، في ضلال القرآن، 314/2.

أَفَلَا تُعْطُونَنِي مِنْهَا صَنَمًا ، فَأَسِيرَ بِهِ إِلَى أَرْضِ الْعَرَبِ ، فَيَعْبُدُوهُ ؟ فَأَعْطَوْهُ صَنَمًا يُقَالُ لَهُ هُبْلُ فَقَدِمَ بِهِ مَكَّةَ ، فَصَبَّهُ وَأَمَرَ النَّاسَ بِعِبَادَتِهِ وَتَعْظِيمِهِ¹⁴⁶ .

وبذلك كان عمرو بن لُحَيٍّ الخزاعي أول من بدل دين العرب، وكان السبب الأول في نقل الأصنام إلى جزيرة العرب، وهو من سيب السوائب وبحر البحيرة، كما أخبر النبي ﷺ¹⁴⁷ . وانتشرت عبادة الأصنام عند العرب، حتى أحيطت الكعبة بنحو ثلاثمائة (300) صنم، وأصبح لكل قبيلة صنم تُعرف به، بل أصبح لكل بيت صنم يُعبد ويُتقرب إليه¹⁴⁸ .

وعبادة العرب لهذه الآلهة الكثيرة، ما سببه إلا التقرب إلى الله سبحانه وتعالى، فالعرب لم ينكروا الربوبية لله تعالى، بل جعلوا الأصنام وسائط بينهم وبين الله تعالى، قال ﷺ: ﴿ أَتَيْتُكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى ﴾ (الأنعام: 19)، وقال: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى (الزمر: 3) .

وانتشار الشرك عند العرب لا يدل على إهمالهم للشعائر التي توارثوها عن أجدادهم الموحدين، بل أقروا بالربوبية لله تعالى، وعظموا البيت الحرام، واهتموا بموسم الحج وشعائره. قال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأُمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (يونس: 31)، وقال: ﴿ وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ فَاَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ (العنكبوت: 61) .

ومن الآيات القرآنية الكثيرة، التي كانت حجة على العرب في إقرارهم بالربوبية لله تعالى. قوله ﷺ: ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأُمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (يونس: 31)

146 - ابن هشام، السيرة النبوية، 77/1، وينظر: ابن كثير، البداية والنهاية، 174/2.

147 - الحديث في صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب: قصة خزاعة، رقم: 3521، 6547، وكتاب: التفسير، باب: ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا حام، رقم: 4623، ورواه مسلم في صحيحه، كتاب: الجنة، باب: النار يدخلها الجبارون، والجنة يدخلها الضعفاء، رقم: 2856، 155/8.

148 - ينظر: ابن هشام، السيرة النبوية، 90-78/1.

قال **عَلَيْكَ**: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ (المؤمنون: 88-89)

قال جل وعلا: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (لقمان: 25)

قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ (يوسف: 106).

يذكر الرازي تفسيراً لهذه الآية: أن العرب كانوا مقرين بوجود الإله بدليل قوله: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (لقمان: 25)، إلا أنهم كانوا يثبتون له شريكاً في المعبودية، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: نزلت هذه الآية في تلبية مشركي العرب لأنهم كانوا يقولون: لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك¹⁴⁹.

ومن الدلائل على إثبات وجود إله واحد شعر أمية بن أبي الصلت، أين يوجد فيه ذكر للوحدانية والبعث، والنبوة، وهذا ما جعل النبي ﷺ يحب سماع أبيات له والاستزادة منها، عن عمرو بن الشريد عن أبيه قال: **رَدَفْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا فَقَالَ هَلْ مَعَكَ مِنْ شِعْرِ أُمِّيَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ شَيْءٌ قُلْتُ نَعَمْ قَالَ هِيَ فَاَنْشَدْتُهُ بَيْتًا فَقَالَ هِيَ ثُمَّ اَنْشَدْتُهُ بَيْتًا فَقَالَ هِيَ حَتَّى اَنْشَدْتُهُ مِائَةَ بَيْتٍ** **﴿**150**﴾**.

وفي رواية قال: **﴿**151**﴾** اسْتَشَدَّنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمِثْلِ حَدِيثِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مَيْسَرَةَ وَزَادَ قَالَ إِنْ كَادَ لَيْسَلِمُ وَفِي حَدِيثِ ابْنِ مَهْدِيٍّ قَالَ فَلَقَدْ كَادَ يُسَلِمُ فِي شِعْرِهِ **﴿**151**﴾**.

الآي القرآني المذكورة سابقاً تبين عبادة العرب في العصر الجاهلي قبيل الإسلام، والملاحظ أن المشركين اتخذوا لأنفسهم عذراً في عبادة الأصنام؛ وهو الشفاعة. والشفاعة من أهم مظاهر

149 - ينظر: الطبري، جامع البيان، 373/13، عن ابن عباس، والرازي، مفاتيح الغيب، 228/18.

150 - رواه مسلم في صحيحه، كتاب: الشعر، رقم: 2255، 48/7.

151 - رواه مسلم في صحيحه، كتاب: الشعر، رقم: 2255، 49-48/7.

الشرك عند الجاهليين. قال ﷻ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ (يونس: 18). وقال: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُرْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (الزمر: 3). "فهم يحاجون الرسول، ويدافعون عن التقرب إلى الأصنام، بقولهم: إنها تشفع عند الله، فهي شفيعة، فهم لا يعبدون الأصنام إذن، ولا يشركون بالخالق، وإنما هم يتقربون إليه بها. فهي الواسطة بينهم وبين الله" 152.

والزلفة والزلفى والزلف: القربة والمترلة، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُرْفَةً﴾ وقال: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُرْفَىٰ﴾ وهي اسم المصدر 153.

إن جواب المشركين عن سؤال: لماذا تعبدون الأصنام إذا كنتم تقرون بربوبية الله تعالى؟ جواب بسيط حسب إعتقادهم، ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُرْفَىٰ﴾.

والزلفى في قولهم تعني القرب؛ وهو اسم أقيم في مقام المصدر: كأنه قال: إلا ليقربونا إلى الله تقريباً ويشفعوا لنا عند الله 154.

جاء في القرآن الكريم، الدليل على وقوع العرب في الشرك، على الرغم من اعترافهم بوجود الخالق سبحانه. لأن الشبهة وراء عبادتهم للأصنام بتنوع أصنافهم، هو ما أحره الله تعالى عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُرْفَىٰ﴾ (الزمر: 3). "كونهم تصوروا أنه لا يمكن لهم أن يعبدوا الله تعالى مباشرة بل لا بد أن يكون بينهم وبينه وسيط، فتقربوا لغيره ظناً منهم أنه سيسفع لهم عند الله تعالى" 155.

ونتيجة لهذا الشرك الذي تأصل في القوم وغياب الحق عنهم، وهم واردون من معين الخرافات والأباطيل ويسلكون طريق الشيطان في تبرير أفعالهم، كان للنبي الخاتم ﷺ الدور الأساس

152 - الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص 264.

153 - الفيروزآبادي، بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز، 845/1.

154 - البغوي: أبو الحسين بن مسعود البغوي، معالم التنزيل، ت: محمد عبد الله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط4، 1417هـ/1997م، 108/7.

155 - عبد الرحيم بن صمايل السلمي، حقيقة التوحيد بين أهل السنة والمتكلمين، ص424.

في بعث الدين الحق من جديد في نفوس العرب، وتصحيح عقيدتهم الضالة، ودعوة القوم إلى أفراد الله تعالى بالعبادة والمحبة والخضوع لله الواحد الأحد، من دون إشراك غيره في هذه العقيدة الثابتة. لهذا كان منهج جميع الأنبياء والمرسلين، في دعوة أقوامهم الضالين المكذبين منهجا واحدا، لا يتغير بتغير الزمان والمكان لأن الغاية واحدة، والمعارضة من القوم واحدة، حيث تبدأ الدعوة ببيان واضح وبلاغ فصيح، يبين فيه كل نبي حقيقة دعوته، ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (الأعراف: 59).

ثانيا: منهج النبي محمد ﷺ في دعوة قومه إلى التوحيد:

الأمر الأساس في دعوة كل نبي هو العقيدة، لأن إثبات التوحيد لله تعالى يُسهل الطريق إلى قبول التشريع والعمل به في حياة الناس، ولهذا كان الأسلوب المباشر والصريح في دعوة القوم وسيلة النبي ﷺ في دعوته إلى الله تعالى.

قال ﷺ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ (النحل: 36).

وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: 25).

لأن التوحيد الخالص لله تعالى هو أصل الدين وغايته، فلا تصح قربى مع الله تعالى، ولا يتقبل الله عبادة من العبد إلا إذا كانت خالصة له وحده.

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ إِنَّ اللَّهَ الدِّينَ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ (الزمر: 2-3)، وصفة القربى التي قال بها المشركون، لا تغنيهم عن العذاب يوم القيامة، لأنها حجة باطلة، "والمراد بمنع الهداية: منع اللطف تسجيلاً عليهم بأن لا لطف لهم، وأنهم في علم الله من الهالكين" ¹⁵⁶.

وقال عز من قائل: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴾ (البينة: 5-6).

وخطاب الله تعالى للناس، ودعوته لهم بعبادته وحده لا شريك له، كان مرتبا حسب درجة الوعي والإدراك، والفهم للخطاب الإلهي الموجه إلى عقول البشر.

قال ﷺ: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: 21-22).

الدعوة إلى عبادة الله وحده، مع إقرار الله تعالى لهم، علمهم بربوبية الله، فكان أن نهى الله الناس عن اتخاذ شركاء لله تعالى في العبادة.

لأن الله تعالى هو الذي خلقهم وخلق الذين من قبلهم، وهو الذي جعل الأرض قرارا ليمشوا فيها ويتنعموا من فضله. كما رفع السماء من غير عمد، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا للناس، ومتاعا لهم، ليتمتعوا بما أفاض الله سبحانه عليهم من الخيرات لعلمهم يتقون ربهم، ويخلصون له في الطاعة والعبادة.

ومن السيرة النبوية يظهر أسلوب النبي ﷺ في الدعوة إلى توحيد الله تعالى، من ذلك؛ ما كان من أمر رسول الله ﷺ عندما نزل أمر الله سبحانه بالجهر بالدعوة، قال تعالى: ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ (الشعراء: 214).

عندها خرج نبي الله إلى قومه معلنا رسالة الله إلى الناس، قائلا: "إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد"، والصدع بالأمر، وإنذار العشيرة جاء بعد فترة يسيرة من الدعوة السرية، التي خبر فيها النبي ﷺ أتباعه الأوائل، وكان بذلك محققا لكلام ربه ممتثلا لأمره ﷻ، يقول ابن اسحاق: " ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَمَرَ رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَصْدَعَ بِمَا جَاءَهُ مِنْهُ وَأَنْ يُبَادِيَ النَّاسَ بِأَمْرِهِ وَأَنْ يَدْعُوَ

إِلَيْهِ وَكَانَ بَيْنَ مَا أَخْفَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمْرُهُ وَاسْتَتَرَ بِهِ إِلَى أَنْ أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِإِظْهَارِ دِينِهِ ثَلَاثَ سِنِينَ - فِيمَا بَلَغَنِي - مِنْ مَبْعَثِهِ" ¹⁵⁷.

قال **حجلاً**: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الحجر: 94).

وقال: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء: 214-215).

وقال تعالى: ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ (الحجر: 89).

قال **سبحان**: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (ص: 65).

لقد بين الله تعالى في القرآن الكريم مهمة الرسول الخاتم محمد ﷺ، والتي أعلن عنها النبي ﷺ في أكثر من موضع، وهذه المهمة التي اضطلع بها هي الإنذار والتبليغ، ويقوم هذا الإنذار على الأساس الثابت، أنه لا إله إلا الله تعالى.

في قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾، الصدع بالأمر الجهر به وإظهاره، يقال صدع بالحجة إذا تكلم بها جهاراً، ويراد بالصدع أيضاً التفريق بين الحق والباطل ¹⁵⁸.

ومن الأمثلة على دعوته ﷺ، عمله مع عمه أبا طالب وهو على فراش الموت، قال رسول الله ﷺ: يَا عَمَّ؛ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَلِمَةً أَحْبَبْتُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ ¹⁵⁹.

وكذلك ما فعله الرسول ﷺ مع معاذ بن جبل **رضي**، حين هم بإرساله إلى اليمن يُعلم القوم أمور دينهم.

157 - ابن هشام، السيرة النبوية، 262/1.

158 - ينظر: البغوي، معالم التنزيل، 395/4، والزمخشري، الكشاف، 420/3، والنسفي، مدارك التنزيل، 148/2.

159 - رواه البخاري في صحيحه، كتاب: الجنائز، باب: إذا قال المشرك عند الموت: لا إله إلا الله، رقم: 1360، 417/1، وفي مواضع أخرى رقمها: 3884، 4675، 4772، 6681، ورواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب: أول الإيمان قول لا إله إلا الله، رقم: 24، 41/1، والنسائي في السنن، كتاب: الجنائز، باب: النهي عن الاستغفار للمشركين، رقم: 2173، 465/2.

قال: ﴿ إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ ﴾¹⁶⁰.

إن مهمة الرسل صلوات الله عليهم لا تقف عند البلاغ فقط، بل إن مهمتهم تقف عند دعوة الناس إلى الله تعالى، والأخذ بهذه الدعوة، والاستجابة لها، وتحقيقها في أنفسهم اعتقاداً وقولاً وعملاً؛ لأنهم جميعاً ينطلقون من منطلق واحد، أن الناس عباد الله، والله ربهم وإلههم. ووظيفة الرسل هنا أمام الناس هي تعريفهم بالله تعالى وكيفية عبادته، ولأن الرسل مبعوثين من الله تعالى فالواجب على الناس طاعتهم واتباعهم في الدعوة التي جاءوا بها¹⁶¹. والدعوة إلى توحيد الله ﷻ هي الأساس الأول لبيان طريق الله تعالى، ثم بيان الشريعة الإلهية للناس التي تحكم الحياة الدنيا لأجل الفلاح في الحياة الآخرة، قال تعالى: ﴿ وَكَذَّبْتَنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ مَرْسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ (النحل: 36)، وقال: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (الأنبياء: 25). في هذه الآية "استئناف" مقرر لما أجمل فيما قبله من كون التوحيد مما نطق به الكتب الإلهية وأجمعت عليه الرسل عليهم الصلاة والسلام "لأن الله تعالى كان يقرر دائماً أن الوحي المنزل على الأنبياء هو كلامه سبحانه فيه دليل على وحدانية الله تعالى. قال ﷻ: ﴿ وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ أَنْ جَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ ﴾ (الزخرف: 45).

يتبين مما سبق أن محمد ﷺ هو رسول الله إلى الناس، جاء يحمل رسالة ربه مكلفاً من خلالها بالدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾ (الأحزاب: 45-46)، ومهمة تبليغ الرسالة والإنذار هي من مكملات الدعوة إلى الله سبحانه، والكلام المنزل عليه ﷺ هو وحي الله تعالى الذي نزل به جبريل

¹⁶⁰ - رواد البخاري في صحيحه، كتاب: الزكاة، باب: لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة، رقم: 1458، 450/1-451، وكتاب التوحيد، باب: ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى، رقم: 7372، 378/4، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب: الدعاء إلى الشهادتين وشرايع الإسلام، رقم: 19، 55-56/1، ورواه أبو داود في السنن، كتاب: الزكاة، باب: زكاة السائمة، رقم: 1584، 160/2، والترمذي في السنن، كتاب: الزكاة، باب: ما جاء في كراهية أخذ خيار المال في الصدقة، رقم: 625، 14/2، والنسائي في السنن الكبرى، كتاب: الزكاة، باب: وجوب الزكاة، رقم: 2226، 5/3، وابن ماجه في السنن، كتاب: الزكاة، باب: فرض الزكاة، رقم: 1783، 568/1، وأحمد في المسند، رقم: 2071، 510/2.

¹⁶¹ - عمر سليمان الأشقر، الرسل والرسالات، مكتبة الفلاح، الكويت، دار النفائس، الكويت، ط4، 1410هـ/1989م، ص45. بتصرف.

ﷺ، وأقرأه النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ لَأَمْرٍ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ (الشورى:7)، وهذا الوحي الرباني يؤكد على لسان رسوله ﷺ أنه المنذر إلى توحيد الله سبحانه، قال عز من قائل: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (ص:65)، لأن مهمة هذا النبي المبعوث إلى الناس هي التبليغ والإنذار حتى يفهم العرب أن هذه الرسالة من عند الله وليست من صناعة محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (ص:70)، لأن هذا الرسول الذي جاء يدعو إلى توحيد الله ونبد الشرك، هو امتداد لرسالات سابقة جاء يكمل المهمة، ويوصل الرسالة الربانية إلى مستواها الأشمل والأكمل، قال ﷺ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ (آل عمران:144)، وقال: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ (النساء:163).

ومن هنا كانت رسالة الإسلام الخاتمة، مصدقة لما سبقها من رسالات الأنبياء والرسل السابقين، التي جاءت من مصدر واحد وهو الله تعالى .

من الخصائص التي ميزت رسالة الإسلام، كون النبي ﷺ بُعث للناس كافة، لم يختص بقومه العرب القرشيين فقط، كما كان مع سائر الأنبياء والمرسلين من قبل، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ (الأعراف:158)، وهذه الخصيصة سمحت بأن تكون جميع الشرائع السابقة منسوخة أمام شريعة الإسلام، لأن الدين عند الله الإسلام، وكذا وصول العقل البشري إلى درجة من الرشد سمحت بأن تكون معجزة النبي الخاتمة معجزة عقلية وعلمية، لا معجزة حسية. وإرساله ﷺ إلى العالمين يشمل عالم الجن كما الإنس أيضا، قال تعالى: ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (الأحقاف:31-32)

أما الخاصية الثانية هو الكمال والشمول الذي بلغته الرسالة الربانية التي جاءت على لسان النبي محمد عليه الصلاة والسلام.

والخاصية الثالثة تجعل النبي ﷺ هو خاتم الأنبياء والمرسلين، قال ﷻ: ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ (الأحزاب: 40)، "ومعنى كونه خاتم الأنبياء والمرسلين أنه لا يبعث رسول من بعده يغير شرعه، ويطل شيئا من دينه" 162 .

ومن خلال ما تقدم في هذا المبحث والذي تناول عقيدة التوحيد والأسس التي بُني عليها يظهر أن:

- 1- العقيدة الصحيحة تتحقق بتوحيد الألوهية وتوحيد الربوبية والأسماء والصفات، قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (الأنبياء: 25)، لأن العقيدة تدور حول محور التوحيد الأمر اليقين في جميع الرسالات منذ خلق آدم ﷺ إلى اليوم، فتوحيد الربوبية هو الإقرار بوحداية الله تعالى في الخلق والفضل والعطاء والملك، وتوحيد الله في الألوهية هو إفراده سبحانه بالإخلاص في العبادة والطاعة، من غير إشراك أي شيء معه.
- 2- جميع الرسل والأنبياء جاءوا من أجل تحقيق هدف واحد وهو الدعوة إلى عبادة الله تعالى وحده من دون غيره من المخلوقات التي تفرد سبحانه بإيجادها في حياة الإنسان.
- 3- إن مدار العبودية والتوحيد هو قوله تعالى في سورة الفاتحة: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، كما ذكر ابن قيم الجوزية¹⁶³، لأن العبادة هي غاية الخضوع والتعظيم، والإستعانة هي غاية الثقة والتوكل على الله سبحانه وتعالى.

نعود إلى مسألة التوحيد وأنه أمر فطري في الإنسان لقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ (الأعراف: 172)، وقوله ﷻ ما من مولود إلا يولد على الفطرة.

162 - عمر سليمان الأشقر، الرسل والرسالات، ص 222.

163 - ينظر: ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين، 77/1.

وهنا يُطرح السؤال التالي:

هل فطرة الإنسان التي أوجدها الله تعالى عليها، كافية لوحدها ليستدل هذا الإنسان على الله تعالى، ويعرف عبادته وطاعته، كما استدل على ذلك إبراهيم الخليل، أم الأمر يتعلق بهدي رباني للإنسان، وكذا اختيار الله تعالى للأصفياء من عباده، الذين يحملون رسالة الله تعالى إلى البشر ويُعرفون من خلالها الناس الدعوة إلى الله وتوحيده؟، وهذا يجعل الفطرة لوحدها كدليل غير كاف للاهتمام إلى توحيد الله تعالى؟.

الفصل الثاني: النبوة.

تمهيد:

الحديث عن النبوة كمرحلة من مراحل سيرة النبي، أو كظاهرة في التاريخ الإسلامي، هو أمر يتعلق بوظيفة النبي المبعوث إلى القوم، وكذا الأهداف التي ينبغي تحقيقها من هذا البعث. والملاحظ أن النبوة كظاهرة منذ آدم عليه السلام، إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم، هي أمر يتكرر في أماكن مختلفة، وفي أزمنة مختلفة، والأکید أنها متوالية وغير منقطعة منذ بدء الخليقة في الأرض.

وبما أن النبوة ظاهرة دينية متكررة، فمن أركان العقيدة الإسلامية الإيمان بجميع الأنبياء والمرسلين، أي الاعتقاد بوجودهم وتصديق أمرهم وما أنزل عليهم، قال تعالى: ﴿أَمَّنَ الرَّسُولُ بَمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (البقرة: 285)، والإيمان بالأنبياء هو الإيمان بصدق نبوتهم واصطفاء الله تعالى لهم للبلاغ المبين والإنذار بيوم الدين. وقد أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم، والأمر موجه إلينا أيضا بالإيمان بهؤلاء الأنبياء، قال صلى الله عليه وسلم: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: 84)، والإيمان بالأنبياء هو السبيل لمعرفة الله تعالى والإيمان به، والإيمان بالله تعالى هو مقتضى تصديق الأنبياء والمرسلين الذين بعثهم إلى الناس لهدايتهم إلى طريق الله، "والإيمان بالنبوة أصل النجاة والسعادة، فمن لم يحقق هذا الباب اضطرب عليه باب الهدى والضلال، والإيمان والكفر، ولم يُميِّز بين الخطأ والصواب"¹⁶⁴.

ولتحقيق أن النبوة هي أمر واجب الإيمان به وتصديق المرسل به، كان من الواجب تحديد مفهوم للنبوة، ومظاهرها والفرق بينها وبين ما عرف عند الأولياء والأصفياء، ومعرفة توالي هذه الظاهرة وكيفية ذلك في التاريخ الإنساني، للوصول إلى النبوة الخاتمة ومعرفة ميزتها وخصائصها.

164 - ابن تيمية: تقي الدين أبو العباس أحمد بن تيمية، النبوات، ت: عبد العزيز بن صالح الطويان، أضواء السلف، الرياض، ط1، 1410هـ/2000م،

المبحث الأول: النبوة وتفسيرها :

المطلب الأول: تعريف النبوة.

الفرع الأول: النبوة لغة:

الكلام عن النبوة التي تتعلق بالبشر الذين اصفاهم الله عز وجل ومنحهم هذه الصفة للقيام بالتبليغ، هو أمر معجز في حد ذاته لأنه اتصال رباني بعالم البشر، أو ذلك الوصل بين عالم السماء والأرض، ولهذا فإن مفهوم النبوة يتعلق أولاً بالنبى لأنها عبارة عن صفة له، ثم التأكيد على أن أمر النبوة والنبى هو أمر رباني معجز لا علاقة للبشر في تحديده أو اختياره.

تعريف النبي: النبي في اللغة مشتق من النبأ وهو الخبر العظيم، ذو الفائدة، قال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ﴾ (النبأ: 1-2) .

وسمي النبي نبياً لأنه مُخْبِرٌ مُخْبَرٌ، فهو مُخْبَرٌ؛ أي: أن الله أخبره، وأوحى إليه، ﴿فَلَمَّا بَيَّنَّاهُ بِهَا قَالَتْ مَنْ أَبْنَاكَ هَذَا قَالَ بَيَّنَّاكَ الْعَلِيمُ الْخَيْرُ﴾ (التحریم: 3)، وهو مُخْبِرٌ عن الله تعالى أمره ووحيه، قال تعالى: ﴿نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغُفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الحجر: 49) وقال: ﴿وَبَشِّرْهُمْ بِرَاهِمٍ﴾ (الحجر: 51).

ولفظ النبي يصح فيه الفاعل والمفعول لأنه مُنْبِئٌ عن الله تعالى، ومنبأ منه. والنبي بالتشديد هو أكثر استعمالاً، أبدلت الهمزة (النبيء) ياء .

وقيل النبي مشتق من النباوة أو النبوة: وهي الشيء المرتفع .

وسمي النبي نبياً على هذا المعنى: لرفعة محله على سائر الناس، قال تعالى: ﴿وَمَرْفَعَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ (مريم: 57) . أو هو من النبوة وهي الرفعة والشرف.

والنبي عند أهل الكتاب يُطلق على المهتم، المخبر بشيء من أمور الغيب المستقبلية.

ويذكر علماء اللغة أن النبوة مشتقة من النبوة، وهي ما ارتفع من الأرض، وتطلق العرب لفظ النبي على علم من أعلام الأرض التي يهتدى بها، والمناسبة بين لفظ النبي والمعنى اللغوي، أن

النبي ذو رفعة وقدر عظيم في الدنيا والآخرة ، فالأنبياء هم أشرف الخلق ، وهم الأعلام التي يهتدي بها الناس فتصلح دنياهم وأخراهم¹⁶⁵ .

الفرع الثاني: النبوة اصطلاحاً:

النبي عبد اصطفاه الله تعالى من عباده بالوحي إليه، ولهذا المعنى الشرعي مناسبة ظاهرة مع كل من معنى النبوة في اللغة: الخبر والارتفاع.

وقيل النبوة واسطة بين الخالق والمخلوق في تبليغ شرعه، ودعوة من الرحمن الرحيم لخلقهم ليخرجهم من الظلمات إلى النور، وينقلهم من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة.

وهي في حق المرسل: امتنان من الله تعالى يمن بها على عبده، واصطفاء له من سائر البشر، وهبة ربانية يختصه الله بها من دون الخلق أجمعين، لا تُنال بعلم ولا رياضة، ولا تدرك بكثرة طاعة أو عبادة، بل هو اختيار رباني، وفضل إلهي، قال جل وعلا: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (البقرة: 105)¹⁶⁶.

المناسبة بين المعنى الشرعي للفظ "نبي" وبين المعنيين اللغويين لها بين الخبر والارتفاع يتحقق بالتقديرين: " - فعلى تقدير أنها بمعنى اسم الفاعل: فهي على معنى أنه مُخبر بالغيوب التي يتلقاها عن الوحي، أو مرتفع عن غيره بسبب اصطفاه الله له بالوحي.

- وعلى تقدير أنها بمعنى اسم المفعول: فهي على معنى أنه مُنبأ بالغيوب، أو مرفوع على غيره بسبب الاصطفاء بالوحي إليه"¹⁶⁷.

- تعريف الرسول: أما تعريف الرسول فقد تعلق تعريفه في اللغة بتعريف النبي، لأن النبي والرسول هو المبعوث الذي اصطفاه الله تعالى للقيام بمهمة التبليغ.

الرسول في اللغة : مشتق من الإرسال وهو التوجيه. قال تعالى مخبراً عن ملكة سبأ: ﴿وَإِنِّي

مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمِ رَجْعِ الْمُرْسَلُونَ﴾ (النمل: 35) .

165 - عمر سليمان الأشقر، الرسل والرسالات، ص13.

166 - ابن تيمية، النبوات، ت: عبد العزيز بن صالح الطويان، ص19.

167 - عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها، دار القلم، دمشق، بيروت، ط2، 1399هـ/1977م، ص298.

وقد اختلف العلماء في تعريف كل من النبي والرسول في الشرع على أقوال.

والدليل على هذا الفرق بين النبي والرسول، ما جاء في القرآن الكريم قوله ﷻ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانَ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ (الحج: 52) حيث عطف النبي على الرسول، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ كُنَّا فِي الْكُتُبِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ (مریم: 51). وقد وصف الحق تعالى بعضهم بالنبوة، والبعض الآخر بالنبوة والرسالة.

والذي اصطلح عليه العلماء أن الرسول أعم من النبي، فالرسول هو من أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه، والنبي من أوحى إليه ولم يؤمر بالبلاغ، وعلى ذلك كل رسول نبي، وليس كل نبي رسول¹⁶⁸.

والأمر في هذه المسألة يدور بين قولين:

القول الأول: أن النبي هو من أوحى إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه.

والرسول: هو من أوحى إليه بشرع وأمر بالتبليغ. فجعلوا الفرق ما بين النبي والرسول هو الأمر بالتبليغ.

أما القول الآخر، وهو قولٌ أيضاً مشهور عند عدد من المحققين وهو الذي اختاره ابن تيمية في أول كتاب النبوات أن الرسول والنبي يشتركان في وقوع الإرسال عليهما.

الرسول مُرْسَلٌ والنبي مُرْسَلٌ لظاهر قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾، فالرسول مُرْسَلٌ والنبي أيضاً مُرْسَلٌ لكن جهة الإرسال مختلفة.

الرسول: يُرْسَلُ إلى قوم يخالفونه في أصل الدين فيأمرهم بالتوحيد وينهاهم عن الشرك.

وأما النبي: فإنه يُرْسَلُ إلى قوم موافقين يُجَدِّدُ بإرساله شريعة الرسول الذي أمروا باتباعه.

مثل أنبياء بني إسرائيل كلما مات نبي خلفه نبي وكلهم تَبَعَ لموسى عليه السلام¹⁶⁹.

ومن خلاله يظهر أن:

الرسول من أوحى إليه بشرع جديد، والنبي هو المبعوث لتقرير شرع من قبله.

168 - ينظر: عبد الرحمن بن ناصر البراك، شرح العقيدة الطحاوية، دار التدمرية، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، 1429هـ/2008م، ص

87، والسفاريين: لوامع الأنوار البهية، 1/49-50.

169 - ينظر في هذه المسألة: ابن تيمية، النبوات، عبد الرحمن بن ناصر البراك، شرح العقيدة الطحاوية، ص88.

وقد كان بنو إسرائيل يحكمهم الأنبياء كلما مات نبي قام نبي، كما ثبت في الحديث النبوي قول محمد ﷺ:

﴿كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ وَإِنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي﴾¹⁷⁰.

وفي القرآن الكريم آيات تذكر اصطفاء الله تعالى لعباده بالنبوة من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران:33)، وقوله تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا يَشْرِكُونَ﴾ (النمل:59).

أما عن اصطفاء الله سبحانه وتعالى لعباده بالرسالة نقرأ قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (الأعراف:144)، وقال الله ﷻ: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ (الأنعام:124)

والنتيجة التي عليها جمهور العلماء، أن النبي عبد اصطفاه الله بالنبوة، ذلك بأن أوحى إليه. والرسول نبي اصطفاه الله، فكلفه بتبليغ رسالته لخلقه¹⁷¹.

تعريف النبوة:

النبوة فيض رباني واصطفاء إلهي، يوصف بالمنة العظيمة والرفعة المنيعة، التي يختارها الله تعالى لقلّة من عباده الأخيار، ثم يصطفي الله تعالى هذا النبي لتبليغ شرعه إلى عباده.

¹⁷⁰ - رواه البخاري في الصحيح، كتاب: الأنبياء، باب: ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم: 3455، 492/2، ومسلم في كتاب: الإمارة، باب: الأمر بالوفاء ببيعة الخلفاء، الأول فالأول، رقم: 1842، 17/6.

¹⁷¹ - بين عمر سليمان الأشقر مجموعة من النقاط في الفرق بين النبي والرسول من خلال الآيات القرآنية، ينظر: عمر سليمان الأشقر، الرسل والرسالات، ص 299-301.

المطلب الثاني: تفسير النبوة¹⁷².

إن ظاهرة النبوة بداية إذا أردنا إطلاق هذا الاصطلاح عليها، ليست محصورة بالنبي محمد ﷺ، وإنما هي ظاهرة تكرر حدوثها في التاريخ الإنساني، ومن ثم يمكن دراسة هذه الظاهرة درساً علمياً، لأن النبوة يدل عليها بالنص، وهو القرآن الكريم والمعجزة، وهناك شهادات لا يمكن الطعن فيها على وقوع هذه المعجزات للأنبياء السابقين، أو للنبي الخاتم محمد ﷺ، وهي مجموع النصوص من الوحي التي وصلت إلينا من القرآن الكريم، أو السنة النبوية وهي نصوص قطعية لا مجال للشك فيها، أما الدليل الثالث، فهو توالي ظاهرة النبوة عبر الزمن وعدم اقتصارها على قوم بعينهم دون آخرين.

أولاً: النبوة اصطفاً إلهياً:

النبوة اصطفاً خالص من الله تعالى يختص به من يشاء من عباده، الذين توفرت فيهم صفات النبوة، فهي لا تُنال بالمجاهدة والمعاناة وتكلف أنواع العبادات أو الاجتهاد في تهذيب النفوس وتنقية الخواطر وتطهير الأخلاق بأنواع الرياضات النفسية والبدنية . فالإنسان يستطيع أن ينمي مواهبه المختلفة فيصبح رياضياً بارزاً أو عالماً مرموقاً أو عابداً مخلصاً غير أنه لا يستطيع بكل ذلك أن يكون نبياً رسولاً؛ فالنبوة بذاتها مرتبة فوق مرتبة البشر العاديين؛ لأنها هبة ربانية يختص بها من يشاء من عباده الأخيار، وسبيل الاتصال فيها الوحي الإلهي الذي يتم بين الله تعالى وعبده المرسل، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ ﴾ (الكهف: 110).

والنبوة لا تُنال من العبد بالعلم، أو كثرة الطاعات والعبادات، ولا تدرك بمجاهدة النفس على العبادة والطاعة، بل هي فضل رباني يختص به من يشاء من عباده، ﴿ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (البقرة: 105).

172 - مصطلح الظاهرة الذي استخدمه مالك بن نبي في مؤلفه، يقف دائماً وراء التعريفات والعناوين الموضوعية، وما ذلك إلا لأن النبوة ظاهرة في التاريخ الإنساني وفي تاريخ الأنبياء والمرسلين، وهي حدث عظيم كان له الأثر في تسيير شؤون البشر إلى الأفضل، وهداية الناس إلى الحق سبحانه وتعالى، فما استخدام لفظ ظاهرة إلا إيماناً منا بأن النبوة ظاهرة في حد ذاتها تستدعي الدراسة المستمرة.

والنبوة أمر إلهي فهي لا تأتي باختيار النبي لها، ولكن بحكمة الله تعالى واختياره لهذا النبي المرسل، قال مجاهد: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ أَهْمُ يَتَسَمُونَ مَرَحْمَةً رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِبًا وَمَرَحْمَةً رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (الزخرف: 31-32).

فالله تعالى اختص بالنبوة من شاء في الوقت الذي شاء وفقا لحكمته وعلمه ورحمته، قال تعالى: ﴿ اللَّهُ يُصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ (الحج: 75)، وقال سبحانه: ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يُجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ (الأنعام: 124)، وقال: ﴿ قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ (الأعراف: 144)، وقال تعالى في وصف الرسل: ﴿ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفِينَ الْآخِيَرِ ﴾ (ص: 47).

ثانيا: الإقرار بالنبوة إيمان بالله تعالى:

إن إقرار العبد بالمأمور بتوحيد الله تعالى بالنبوة، وتأكيد صدق النبي المرسل من الله تعالى، هو إيمان بتوحيد العبودية لله تعالى، وتصديق لشرعه المنزل، وطاعة له سبحانه وتعالى. والإيمان بالنبوة هو الطريق الموصل إلى معرفة الله تعالى، والتحاكم له، وطاعته في أمره ونهيه، وهو المسلك المفضي إلى رضوان الله، والفوز بالجنة التي وُعد بها عباد الله الصالحين.

يقول ابن تيمية: "الإيمان بالنبوة أصل النجاة والسعادة، فمن لم يُحَقِّق هذا الباب اضطرب عليه باب الهدى والضلال، والإيمان والكفر، ولم يميز بين الخطأ والصواب"¹⁷³.

بعث الله تعالى الأنبياء والمرسلين إلى الناس مبشرين ومنذرين، وكانت النبوة في هؤلاء المبعوثين أمرا ربانيا جعله الله تعالى للأصفياء من خلقه. فكانت النبوة آية إلهية تحمل معجزات باهرة للبشر. وتأخذ بأيدي الأقوام إلى طريق الله تعالى، وكان برهان الأنبياء على صدقهم الكتب والآيات التي جاءوا بها والمعجزات التي أيدهم الله **عَلَىٰ** بها.

173 - ابن تيمية، النبوات، ص 447.

وقد بين العلامة المرجاني، أن تصديق النبي هو أول الواجبات، لأن الأحكام الشرعية كلها حتى وجوب تصديق مدعي النبوة، وصدق دعواه في البعثة تثبت بخبر الرسول لأن ما يعطي وجوب الاعتقاد هو الشرع، لأن الحاكم عندنا هو الله تعالى¹⁷⁴.

ذلك أن النبي المبعوث من الله تعالى هو أول دليل على وجود الله تعالى أمام القوم. وهو الأمر الظاهر المثبت لوحداية الله وتأكيده شرعه سبحانه، دون نسيان الفطرة لأنها دليل البشر جميعا على ألوهية الله تعالى، وغيرها من القرائن الكونية والإنسانية على الخالق جل جلاله. وقد بين القرآن الكريم في مواضع عدة أن الإيمان بالنبوة هو أصل من أول الإيمان، قال تعالى: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَيَّ إِلَّا بِإِذْنِ رَبِّي وَمَا كُنَّا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (آل عمران: 84)، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ (النساء: 136).

ذلك أنه هناك ارتباط وثيق بين الإيمان بالله تعالى والإيمان بالأنبياء والرسل وهو الطاعة، ومن كفر بالأنبياء والمرسلين وهو يزعم أنه يؤمن بالله فهو عند الله كافر لا ينفعه إيمانه، قال عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ (النساء: 150-151).

يقول القرطبي في نص الآية: "أي بين الإيمان بالله ورسوله؛ فنص سبحانه على أن التفريق بين الله ورسوله كفر؛ وإنما كان كفرا لأن الله سبحانه فرض على الناس أن يعبدوه بما شرع لهم على السنة الرسل، فإذا جحدوا الرسل ردوا عليهم شرائعهم ولم يقبلوها منهم، فكانوا ممتنعين من

174 - ينظر: محمد جمال القاسمي، دلائل التوحيد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1405هـ/1984م، ص64-65.

التزام العبودية التي أمروا بالتزامها؛ فكان كجحد الصانع سبحانه، وجحد الصانع كفر لما فيه من ترك التزام الطاعة والعبودية"175.

ثالثاً: حاجة العباد إلى الإقرار بالنبوة.

الإقرار ببعثة الأنبياء ووجودهم في التاريخ الإنساني هو إقرار بصدق الدعوة التي جاءوا بها، فالإنسان بحاجة إلى دليل يرشده إلى طريق الحق بعد ضلال امتد بالبشرية عهداً طويلاً والفتنة السليمة يطرأ عليها أمور خارجية تمنعها من القيام بدورها في هداية الإنسان إلى طريق الله تعالى، ولهذا فإن النبوة أمر ضروري في حياة الإنسان لمنعه من الوقوع في الشرك العظيم، وهدايته إلى طريق الحق، "يتضح لنا حاجة الناس لرسل من عند الله، يهدونهم إلى سواء السبيل، ويبلغونهم أوامر الله ونواهيه، ويعرفونهم بطرق الحلال والحرام، ويجذرونهم مغباً الجحود والمخالفة، ويخبرونهم بما أعد الله من ثواب في جنته للمؤمنين الطائعين، وما اعتد من عقاب في ناره للجاحدين العاصين"176.

رابعاً: آيات النبوة:

وهي الأدلة والعلامات والبراهين المستلزمة لصدق الأنبياء في دعواهم. وقد بين ابن تيمية أن لفظ "الآيات" كان أدل على المقصود من لفظ المعجزات، الذي لم يرد ذكره في القرآن الكريم ولا السنة النبوية، وإنما ورد ذكر الألفاظ: (الآية)، (البينة)، (البرهان)؛ قال عَلَيْكَ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ (النساء:174)، وقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ (الإسراء:101)177. ولكل نبي آيتان أحدهما عقلية يعرفها أولوا البصائر من الصديقين، ومن يجري مجراهم، والثانية حسية يدركها أولوا الأبصار العامة.

175 - القرطبي: : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ت، عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1427هـ/2006م، 5/6.

176 - عبد الرحمن حبنكة الميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها، ص303.

177 - ينظر: ابن تيمية، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، 419-412/5.

فالآية العقلية، تظهر في الأصول الزكية والعلوم الباهرة والدلائل البينة والأنوار الساطعة للأنبياء، الذين اصطفاهم الله تعالى لتبليغ رسالته إلى الناس، قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران: 33)، كما أن حامل النبوة يتمتع بالأخلاق العالية التي تميزه عن جميع الخلق، كقوله تعالى واصفا محمدا ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: 4)، ويكون كلام هذا النبي ذا حجة وبيان ليحقق المقصد من بعثته، ويقنع المتلقي بالمنطق العقلي، والدليل البين، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ (الشورى: 52).

والدليل الثاني الذي يؤكد صدق النبي وإمكانية النبوة هو المعجزة، والتي يمكن للحواس إدراكها إذا كانت حسية، كما في ناقة صالح وعصى موسى، ومعجزات عيسى عليهم السلام. والمراد بالمعجزة: "ما يجريه الله على أيدي رسله وأنبيائه من أمور خارقة للسنن الكونية المعتادة التي لا قدرة للبشر على الإتيان بمثلها، كتحويل العصا إلى أفعى تتحرك وتسعى، فتكون هذه الآية الخارقة للسنة الكونية المعتادة دليلا غير قابل للنقض والإبطال، يدل على صدقهم فيما جاءوا به"¹⁷⁸. والمعجزة في اللغة من العجز، وهو الضعف عجزت عن كذا وأعجز بالكسر عجزا. والعجز نقيض الحزم، عجز عجز وعجزوا¹⁷⁹. والمعجزة اسم فاعل مأخوذ من العجز الذي هو زوال القدرة عن الإتيان بالشيء من عمل أو رأي أو تدبير¹⁸⁰، ويعرفها السيوطي: "بأنها أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدي سالم عن المعارضة، وهي إما حسية أو عقلية"¹⁸¹. أما عن معجزة خاتم الأنبياء، فكانت القرآن الكريم وحي الله تعالى إلى نبيه، وفيه الآيات البينات التي تبين إعجاز هذا الكتاب، وصدق من جاء به، فكانت آية عقلية يدركها العربي ببلاغة اللغة التي جاء بها، والبيان البديع في تصويرها للأشياء.

178 - عمر سليمان الأشقر، الرسل والرسالات، ص 121.

179 - ينظر: ابن عباد، المحيط في اللغة، 241/1، مادة (ع.ج.ز)، والجوهري، الصحاح، 32/3، مادة (ع.ج.ز).

180 - الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز، 65/1.

181 - السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، 148/2.

ومن الآيات التي أجراها الله تعالى على أيدي أنبيائه، أية صالح عليه السلام، فكان ذلك بعد أن دعا صالح قومه إلى عبادة الله الأحد، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ (النمل: 45)، فكذبوه وطلبوا منه أية تؤكد صدقه، قال عليه السلام: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (الشعراء: 153-154)، فقال لهم نبي الله صالح: ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ (الشعراء: 155). قال الله عليه السلام: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةٌ لِلَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ﴾ (الأعراف: 73).

ومن المعجزات التي نصر الله تعالى بها أنبياءه، معجزة سيدنا إبراهيم عليه السلام. قام إبراهيم بتحطيم أصنام القوم الذين ادعوا أنها آلهة تُعبد، ليثبت لهم أنها لا تملك لنفسها شيئاً فكيف بها في أمور الناس وشأنهم، فأشعل القوم ناراً عظيمة ورموه فيها فأمر الله تعالى النار ألا تصيب إبراهيم الخليل بأذى، قال تعالى: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ (الأنبياء: 68-69).

أيد الله تعالى نبيه موسى عليه السلام بتسع آيات، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ (الإسراء: 101)، وقد ذكر الله تعالى هذه الآيات في سورة الأعراف، وأعظم آية جاء بها عيسى عليه السلام، معجزة العصا، التي تحدى بها فرعون وسحرته، قال عليه السلام: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مِأْرَبٌ أُخْرَىٰ قَالَ أَفَقَهَا يَا مُوسَىٰ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ﴾ (طه: 17-21)، وعندما تحدى موسى سحرة فرعون إذ بالعصا تتحول إلى حية تسعى، وتقضي على حبال السحر وسحرهم، قال عز شأنه: ﴿قَالَ بَلْ أُلْقَاهَا فإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ وَآلِقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ (طه: 66-69).

ومعجزات سيدنا عيسى عليه السلام عديدة وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم، منها الخلق من الطين، وإحياء الموتى، قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَبُشْرَىٰ الْكُمَّةِ وَالْبُرْصِ بِإِذْنِي وَإِذْ تَخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْحَرُ مَبِينٌ ﴿110﴾ (المائدة: 110)، ومن آياته أيضا المائدة التي أنزلها الله تعالى من السماء، عندما طلب الحواريون من عيسى إنزالها، فكانت المائدة المترلة من السماء عيدا لأولهم وآخرهم.

وكانت للنبي محمد صلى الله عليه وسلم معجزات كثيرة حفلت بها سيرته المباركة، وأعظم معجزة جاء بها، بل المعجزة المطلقة التي أيده الله تعالى بها، معجزة القرآن الكريم. وهي آية الله سبحانه التي تخاطب العقول والنفوس، الآية الباقية والناسخة لجميع الأديان السابقة، قال صلى الله عليه وسلم: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ بِأُتْبِهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَكَأَنَّ مِنْ خَلْفِهِ يُنْزِلُ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿41-42﴾، وقال: ﴿هُوَ الَّذِي يُنْزِلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿9﴾ (الحديد: 9) وقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿9﴾ (الصف: 9).

وبانت معجزة القرآن أمام تصلب العرب، والانشغال حتى لا يشدهم بيانه العجيب وفصاحت لغته، وهم أهل العربية وخاصتها. لقد عجزوا أمام تحدي القرآن لهم في الاتيان بمثله، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿23﴾ (البقرة: 23). "وأفضل معجزاته وأكملها وأجلها وأعظمها القرآن الذي نزل عليه بأفصح اللغات، وأصحها، وأبلغها، وأوضحها، وأثبتها، وأمتنها، بعد أن لم يكن كاتباً ولا شاعراً ولا قارئاً، ولا عارفاً بطريق الكتابة، واستدعاء من خطباء العرب العرباء وبلغائهم

وفصحائهم أن يأتوا بسورة من مثله، فأعرضوا عن معارضته، عجزاً عن الإتيان بمثله، فتيب بذلك أن هذه المعجزة أعجزت العالمين عن آخرهم¹⁸².

ومن الدلائل التي يمكن إدراجها ضمن آيات النبوة، إيمان النبي بالوحي المنزل إليه وبقينه بالدعوة الموكلة إليه، إضافة إلى تأييد الله تعالى له ونصرته ضد المكذبين والمشككين. "إن ملاحظة الرسول بأن مصدر الوحي خارج عن ذاته يؤكد لديه صدقه وصحته ويظهر ذلك واضحاً في التعارض الذي قد يبدو بين الفكرة المحمدية قبل الوحي والفكرة القرآنية بعده، كما نجد في الآيات التي عاتب الله فيها نبيه على بعض مواقفه الناجمة عن اجتهاده الشخصي"¹⁸³.

كان القرآن الكريم الدرع الحامي للنبي ﷺ، فكان يعلمه ويرشده ويشد من عزمه، أمام سلطان الشرك الظالم. فعندما جحد المشركون نبوته وذريعتهم في ذلك بشرية الرسول صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا مَرْجُلًا مَسْحُورًا انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ (الفرقان: 7-8)، فأنزل الله تعالى ما يؤكد نبوته، وأن النبوة تختص بالبشر من دون الخلق، قال ﷺ: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴾ (الأنبياء: 7-9).

كما ادعى المشركون أن النبي لم يكن من جنس الملائكة ولا المخلوقات العلوية، قال ﷺ: ﴿ وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبْعَثَ اللَّهُ بَشَرًا مَّرْسُولًا ﴾ (الإسراء: 94)، فأوحى الله عز شأنه إلى نبيه: ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يُمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًَا مَّرْسُولًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ (الإسراء: 95-96).

182 - الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز، 46/1.

183- المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط1، 1401هـ/1981م، بحث: نبوة محمد ﷺ ودلائلها من القرآن، 149/3.

والاستدلال الثاني هو تأييد الله تعالى للنبي الصادق المؤمن برسالة ربه، الذي يعرف مهمة بعثته جيدا، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ السِّتْرُ كُفْرًا كَذِبًا حَلَالًا وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ (النحل: 116)، وهذا حكم صريح من الله تعالى على المفترين فكيف بالنبي المرسل من الله تعالى، قال ﷺ: ﴿وَكُفُّوا عَنَّا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ (الحاقة: 44-46)، والمعنى أن الرسول لو كذب على الله تعالى لأهلكه الله .

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تتحدث عن هذا التأييد من الله تعالى، ضد ما تعرض له النبي من تكذيب واضطهاد، وسخرية وهجاء. وكل ما أثبتته القرآن الكريم من أدلة قاطعة على نبوة محمد ﷺ وعلى صدق رسالته، وأن وحيه المنزل عليه حق لا مرأى فيه، ليبين جانبا هاما من السيرة النبوية، وهو الصراع القديم بين الحق والباطل، الجهاد القاسي الذي خاضه الرسول وصحبه ضد الوثنية العنيدة، وضد اليهودية الناقضة للعهود والمواثيق.

المبحث الثاني: توالي ظاهرة النبوة:

المطلب الأول: تنابع ظهور الأنبياء.

النبى هو الرفيع فى المتزلة عند الله تعالى، والرسل هو الذى يتتابع نزول الوحي عليه، من رسل اللبى إذا تتابع درؤه.

حركة النبوة عبر الزمن لا تتوقف عند نقطة واحدة، أو مرحلة زمنية فريدة، لكنها ظاهرة استمرت فى الظهور منذ أول الخلق سيدنا آدم عليه السلام، أول الأنبياء وسيد البشرية. هذا التعلق والارتباط بين السماء والأرض، شكّل نقطة الالتقاء، وتجسد هذا الأمر فى شخص واحد يُبعث إلى القوم، لأجل رسالة واحدة فى مكان معين، يتغير عبر الزمن، لكن الظاهرة واحدة، تجعل البشر يتواصلون مع الخالق، ولو بعد فترة من الأنبياء.

"ولنا أن نلاحظ أولاً وقبل كل شيء أن بعث نبي ما ليس حدثاً فرداً، ليكون غريباً نادراً، بل هو على العكس من ذلك ظاهرة مستمرة تتكرر بانتظام بين قطبين من التاريخ، منذ إبراهيم إلى محمد ﷺ، واستمرار ظاهرة تتكرر بالكيفية نفسها، يُعد شاهداً علمياً يمكن استخدامه لتقرير مبدأ وجودها؛ بشرط التثبت من صحة هذا الوجود بالوقائع المتفقة مع العقل، ومع طبيعة المبدأ" ¹⁸⁴.

وتوالى ظهور الأنبياء عبر التاريخ الإنساني، يدل على وقوع النبوة ووجودها واقعا؛ أي من الناحية التاريخية تحقيق التتابع، والنقطة الثانية هي شهادة النبي أو دعوته، حين يُستدل على صدق دعواه من خلال الوحي المتزل عليه من الله تعالى.

قال ﷺ: ﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدُعَاءٍ مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا مَا يُوحى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ (الأحقاف: 9).

وقال تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ (آل عمران: 144).

تبين الآية القرآنية أن محمد ﷺ هو رسول، وقد خلت من قبله الرسل، وجاء أجل كل رسول ونبي فانتقل إلى الرفيق الأعلى، وهو حال كل بشر فى هذه الأرض. القول فى الآية يعود إلى محمد ﷺ، فهو يحتج لنفسه أنه نبي كسائر الأنبياء والرسل السابقين له، فهو نبي وليس بدعا من الرسل، لم يأتى نبي قبله تفرد بالنبوة لوحده.

¹⁸⁴- مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ص 87.

والكلام عن توالي ظهور النبوة من الناحية التاريخية، يبدأ من ذكر أول ظهور للنبوة في التاريخ الإنساني، ثم ذكر التسلسل التاريخي لبعث الأنبياء، المكتوب في كتب التاريخ والسير، والمذكور في القرآن الكريم، حتى وإن أجملت الآيات القرآنية الكثير من الأحداث التاريخية، فالتفاصيل الصحيحة المتواترة قد نجدتها في كتب الحديث والسير والمغازي.

قال عليه السلام: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (آل عمران: 81).

الآية القرآنية تذكر الميثاق وهو العهد العظيم الذي أخذه الله تعالى من الأنبياء، في الإيمان بخاتم الرسل ونصرته وتأييده. وهذا العهد يتعلق بالأنبياء وتابعيهم من أهل الكتاب. وقد ذكر مسمى الميثاق في موضعين من القرآن الكريم، ميثاق الله مع الأنبياء، والميثاق الغليظ، وهو تلك الرابطة السامية التي تربط بين المرء وزوجه، وهي الرابطة الزوجية. فلا أعظم من ارتباط هذين الأمرين بلفظ الميثاق وهو العهد الوثيق.

الميثاق العظيم الذي أخذه الله تعالى من أنبيائه السابقين، جاء وهم يبشرون أقوامهم ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم، ويذكرون صفاته وميزاته التي ميزه الله تعالى بها. ومن خلال الآية فإن مجموعة كبيرة من الأنبياء سبقت النبي الخاتم وهي تؤكد على توالي النبوة واستمرارها في التزول إلى الأمم.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: 25).

وقال: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ (الشورى: 13).

جاء الأنبياء والرسل جميعهم برسالة واحدة، وهي توحيد الله تعالى، ضمن شرع الله للمؤمنين بإقامته، وإقامة الدين لله سبحانه وتعالى.

ومنذ أول خلق الله تعالى في الأرض وهو سيدنا آدم عليه السلام إلى خاتم الأنبياء والرسل، والنبوة تصطفي خير الخلق وأفضلهم لأجل بعثهم لأقوامهم، لربط السماء بالأرض وامتداد ذلك عبر الزمن دون انقطاع، "أكثر الخلق ناقصون ولا بد لهم من مكمل يكملهم، ومرشد يرشدهم، وهاد

يهديهم، وما ذاك إلا الأنبياء عليهم السلام وبديهة الفطرة شاهدة بأنه يجب على الناقص الاقتداء بالكمال¹⁸⁵.

الاصطفاء الإلهي جاء لأفضل الرجال نسبا وخلقا، وأقدرهم على حمل أمانة الله تعالى إلى البشر، ولا أقدر على حمل الأمانة من أنبياء الله المبعوثين.

وأمر النبوة لا يطلبه النبي، بل هو إخبار من الله سبحانه لأنبيائه، فكان سيدنا آدم عليه السلام أول الأنبياء، وجاء بعده نوح عليه السلام الذي جاء بأول رسالة إلى قومه، ثم كان بعدهم آل إبراهيم، وقد فضلهم الله تعالى على الأنبياء لأن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم منهم، ثم جاء آل عمران الذين حملوا الأمانة، وتواترت فيهم النبوة إلى عهد عيسى عليه السلام. وختم الله تعالى رسالته إلى الخلق بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

في الآية القرآنية خص الله تعالى نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى بالذكر مع النبي محمد صلى الله عليه وسلم لأنهم أولو العزم من الرسل، ثم أمرهم سبحانه بإقامة الدين ونهاهم عن الاختلاف فيه، ﴿شَرَعَ لَكُمْ﴾ "أي أن الله تعالى شرع للأنبياء السابقين دينا واحدا هو التوحيد، بالرغم من اختلاف المناهج لكل نبي مبعوث إلى قومه سبيلا أو طريقا¹⁸⁶.

كانت بداية النبوة باصطفاء من الله تعالى لبعث رجال ذو خصائص تميزهم عن غيرهم من القوم، فكان أول البشر هو أول المبعوثين إلى ولده ونسله من بعده، ثم توالى البعث عبر الزمن، حيث لم تشهد أي فترة من التاريخ الإنساني غياب طويل للنبوة، أبعدها عن مظاهر الحياة وعقول البشر كرابط قوي للإنسان بربه، لأن الإنسان وهو كائن اجتماعي له نزعة التدين في حياته، والأمر الثاني هو الميثاق العظيم بين الله تعالى والأنبياء، "والله تعالى جعل من دين الرسل، أن أولهم يبشر بآخرهم ويؤمن به، وآخرهم يصدق بأولهم ويؤمن به"¹⁸⁷.

وقد أقر الله تعالى بأن الإيمان بالأنبياء والرسل واجب، والتفريق بينهم كفر، لأنه يجعل المرء يؤمن ببعض ويكفر ببعض، فهو ظلم في حق أي نبي مبعوث من الله تعالى.

قال صلى الله عليه وسلم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ (النساء: 150).

185- محمد جال الدين القاسمي، دلائل التوحيد، ص363.

186- فالج بن مهدي آل مهدي، التحفة المهدية شرح الرسالة التدمرية، دار الوطن، الرياض، ط1، 1414هـ، ص34.

187- نفسه، ص35.

وقال: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة: 136).

جاء الأمر من الله تعالى بضرورة الإيمان بجميع الأنبياء والمرسلين، وتصديق ما جاءوا به على الرغم من إقرار الرسالة الخاتمة على جميع الشرائع السابقة، وإقرار الإسلام ديناً للأمم جميعهم.

وقال ﷺ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ (النحل: 36)، في الآية الكريمة دليل على أن كل أمة لم تخلو من نذير أو رسول مبعوث من الله تعالى لإنذار القوم، وكل نبي ورسول جاء برسالة واحدة هي التوحيد الخالص لله تعالى.

قال ﷺ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر: 24).

يذكر البغدادي أن عدد الأنبياء الذين أجمع أصحاب التاريخ على عددهم، يصل إلى (مائة ألف وأربعة وعشرون ألف) كما وردت به الأخبار، أولهم سيدنا آدم ﷺ، وآخرهم محمد ﷺ. وأجمعوا على أن عدد الرسل (ثلاثمائة وثلاثة عشر) رسول مبعوث.

ومن هؤلاء الأنبياء والرسل خمسة هم أولو العزم من الرسل، حيث فضل هؤلاء على بقية الرسل، وهم: نوح، إبراهيم، موسى وعيسى، ومحمد صلوات الله عليهم وسلامه عليهم أجمعين¹⁸⁸.

188- ينظر: البغدادي: أبو منصور عبد القاهر طاهر التميمي البغدادي، كتاب أصول الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (دت)، ص 157-

المطلب الثاني: شهادة النبي ﷺ على صدق دعوته:

النبوة أمر الله تعالى إلى خلقه تستدعي وجود طرفين، والثالث هو الوسيط بينهما. أول الأطراف هو المرسل، والثاني المرسل إليه، وهو النبي المصطفى من الله تعالى، والثالث هو حامل الرسالة للمبعوث إليه وهو جبريل عليه السلام.

وحتى تكون هذه الظاهرة مكتملة المعالم ومحقة في أرض الواقع، يُشترط في هذا النبي قبول هذه الأمانة العظيمة، وأن يصدقها أولاً، ويدرك حقاً أنه مبعوث من الله سبحانه بأمر سماوي وليس حدسا أو إلهاما من النفس أو الشيطان.

جاء في المطلب السابق الحديث عن ميثاق الله تعالى الذي أخذه من الأنبياء والذي يشهد عليه أهل الكتاب، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (آل عمران: 81).

وقد ثبت إقرار الأنبياء عليهم السلام بهذا الميثاق الغليظ، وكانوا شاهدين على صدق نبوة محمد ﷺ، هذا عن الميثاق أما عن النبوة فالآيات القرآنية عديدة، حين يتكلم الله تعالى عن النبوة، وبعثة الأنبياء في أكثر من موضع إما إجمالاً أو تفصيلاً، بذكر الوحي إلى كل نبي بأمر نبوته، أو ذكر مجموع قصص الأنبياء في سورة معينة.

قال ﷻ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَتَرَكِرَبًا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِيلَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُونُسَ وَكُلًّا فَضَلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ وَمِن آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبَطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرُ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا

قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرِي لِلْعَالَمِينَ ﴿ (الأنعام: 83-90).

في الآيات القرآنية يذكر الله تعالى نبوة إبراهيم عليه السلام، ومن حمل النبوة من بعده في ذريته المباركة من أولاده عليهم السلام إلى أن تصل إلى النبي الخاتم للأمر النبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وفي ذلك تفضيل واصطفاء من الله تعالى لهذا النسب الطيب، واختيار جامع لهؤلاء الرجال في أقوامهم. وهي تبليغ للأمان إلى محمد صلى الله عليه وسلم آخر الأنبياء والمرسلين في الأرض.

فقد جاءت حجة الله تعالى على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام، حجة التوحيد ليواجه بها القوم المشركين، وتوالت رسالة الله في الأرض من خلال رجال رفع الله تعالى درجاتهم وميزهم عن خلقه. وتوالت النبوة من سيدنا نوح عليه السلام، ثم سيدنا إبراهيم عليه السلام، وتتابعت في ذريته إلى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم من ذرية إسماعيل عليه السلام.

الآيات القرآنية التي ذكرت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ووحى الله تعالى إليه بتبليغ رسالته، لم تكن تلك التفاصيل عن سيرة النبي المبعوث إلى العالمين، لم تكن تفاصيل مجملية إجمالاً مختصرة، ولكنها أيضاً لم تهم بالجزئيات الدقيقة عن سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، من ذلك بيان النبي صلى الله عليه وسلم بعثته إلى القوم.

قال جل وعلا: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَاٰمِنُوْا بِاللّٰهِ وَرَسُوْلِهِ النَّبِيِّ الَّذِي الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوْهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُوْنَ ﴾ (الأعراف: 158).

النداء موجه إلى جميع الناس من محمد صلى الله عليه وسلم، وفيه تأكيد على أنه رسول مبعوث من الله تعالى للناس كافة. والرسالة التي جاء بها عنوانها التوحيد، ومن خلاله جاء النداء بالإيمان بالإله الواحد الذي له ملك السموات والأرض.

والأمر المهم في الآية القرآنية، هو التصديق الذي عُقد على قلب محمد صلى الله عليه وسلم بالإيمان بالله تعالى، وصدق الوحي المنزل عليه ﴿ وَرَسُوْلِهِ النَّبِيِّ الَّذِي الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَكَلِمَاتِهِ ﴾، والتصديق بدعواه لتبليغها إلى الناس أجمعين، فالأولى أن يكون النبي المبعوث هو المؤمن بتوحيد الله تعالى وتصديق كلماته المنزل عليه، واحتمال الدعوة الموكلة إليه.

إن هذا الإيمان الذي يُقره محمد ﷺ، تؤكدُه نصوص الوحي التي تُظهر هذا التصديق والثبات على مسار النبوة طيلة بعثته عليه الصلاة والسلام، فمهمته هي التبليغ والإنذار.

قال ﷺ: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾ (الأحزاب: 45-46)

وقال تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ (فاطر: 24).

الشاهد في الآيات القرآنية أن محمد ﷺ مبعوث ومرسل من الله تعالى، وليس كاذبا في إدعائه، فهو الشاهد على الفيصل بين الحق والباطل، وهو المبشر بالجنة والنذير بالنار والعذاب الشديد لله تعالى للقوم المكذبين بدعوته، دعوة التوحيد لله سبحانه وتعالى.

في الآية الأولى يؤكد الله تعالى في خاتمها أن محمد هو الداعي إلى الله، بالإضافة إلى المهام الأخرى. ففي المقام الأول محمد نبي مرسل من الله ﷻ إلى الناس كافة، وهو الداعي إلى عبادة الله وحده لا شريك له وإخلاص الطاعة والتحكيم له سبحانه.

محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين جاء برسالة الله الواحدة، كان مضمونها ومحورها الأساس التوحيد، لأن المحور الأول الذي دارت عليه جميع البعث السابقة للأنبياء والمرسلين هو التوحيد، ونبت فكرة الشرك التي دارت على الأقسام منذ سالف العصور. فالنبي ﷺ هو الذي حمل معجزة القرآن إلى الناس، لم ينحرف عن المسار الذي كان عليه السابقون من الأنبياء. ولم تتغير هذه الدعوة ولكن جرت على ما قام به الأنبياء السابقون له في مجال الدعوة إلى الله تعالى.

قال عز ثناؤه: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَكَأ تَسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴾ (البقرة: 119).

في الآية الكريمة بيان أن الله تعالى أرسل نبيه بالدين الحق، ودور النبي في بعثته هو تبليغ دين الله تعالى، لأنه البشير والنذير الوحيد للناس بعد فترة من الرسل والأنبياء.

قال ﷺ: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَاٰمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ وَإِن

تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (النساء: 170).

يتكرر النداء للناس أجمعين ليؤكد الله من جديد أن محمد جاء بالدين الحق، والقوم مطالبون بالإيمان بنبوته ودعوته، وعدم الكفر بها، لأن ذلك مآله الخسران المبين للكافرين الجاحدين.

قال سبحانه: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَأْمُرُكُمْ أَنِ الْهِنَّا لَشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الصفافات: 36-37).

هذا أسلوب من القرآن الكريم يعتمد على التفريق بين الحق والباطل، وهو أسلوب الحوار أو المقارنة، حين يدعي القوم المكذبون أن محمد ﷺ مجرد شاعر مجنون، فيرد القرآن الكريم على هذا الافتراء بالتكذيب، وتصديق دعوى النبي، ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ﴾، وهذا الحق الذي جاء به محمد ﷺ هو معجزة القرآن، ومن جهة فهو النبي المصدق بما جاء به الأنبياء السابقين وليس من الجاحدين لمن سبقه من الأنبياء والمرسلين من الله تعالى، فهو يمثل المسار الصحيح للنبوة في هذه الأرض. وهذا أمر يجعل الأنبياء يؤيد بعضهم بعضاً، ويصدقون بعضهم في سلسلة مترابطة ثابتة، أصلها ثابت وهدفها واحد وهو التوحيد. وهي قائمة لأجل إقامة شرع الله تعالى في الأرض. ومن خلال الآيات القرآنية يكون الهدف من بعث الأنبياء والمرسلين وتأييدهم برسالة الحق من الله سبحانه، هو توثيق المضمون المحوري لكل رسالة بهدف واحد تقوم عليه وتسير وفقه، وهو محور هذا الكون وضالته، التوحيد لرب واحد في عالم الشهادة والغيب.

قال جل وعلا: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَتَيْنَكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (الأنعام: 19).

في الآية القرآنية دليل قاطع على ثبات النبي محمد ﷺ على صدق دعوته، لأنه يحتج على القوم أن الشاهد الأول على صدق دعوته، هو الله تعالى اسمه، لأنه أولى بالتصديق والتعظيم من غيره من الشهود.

ثم يعود سياق الآية ليؤكد أن محمد ﷺ جاء لتكذيب المشركين في دعواهم، ويثبت صدقه في توحيد الألوهية والربوبية لله تعالى، الذي لا شريك له ولا ينبغي أن يكون له.

وتشتد لغة الخطاب الموجه للمشركين، بتكفير كل من أشرك بالله ﷻ، والتأكيد أنه واحد لا إله إلا هو، لأن الشرك هو الموصوف بالظلم عند الله تعالى، ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان: 13).

قال **تعالى**: ﴿ذِكْرٌ مِّمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ (الإسراء: 39).

ومن وحي الله تعالى إلى نبيه ألا يجعل مع الله إله آخر في العبادة، ويشرك مع الله آلهة أخرى في التدبير، لأنه وحده القائم على الملك والتدبير في الخلق، وإلا كان مصيره جهنم التي يقعد فيها ملوما عن فعله، وعليه فالنبي **ﷺ** كغيره من الأنبياء السابقين هم الأولى بالإيمان الصادق بتوحيده تعالى، وتصديق رسالته وعدم تكذيبه، حتى يكون لهم الوضع الصحيح في تبليغ رسالة الله تعالى إلى الناس. لأن الأنبياء هم القدوة المصطفات من الله تعالى لمواجهة الناس وبيان دعوة الله إليهم.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَهَلْ أُنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (الأنبياء: 108).

الملاحظ في الآيات القرآنية أن لفظ الوحي يتكرر، فهو دليل أن الأمر موحي من الله تعالى وليس من صنع النبي وفعله، فالنبي يُشهد الله تعالى على صدق قوله وبينه دعوته. وهذا الوحي يؤكد في كل مرة أن الله واحد لا شريك له، والناس في هذه الحياة مأمورين بالتوحيد حتى يصدق فيهم اسم المسلمين.

قال سبحانه: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (القصص: 88).

هذا نهي من الله تعالى إلى نبيه وسائر الخلق من خلاله، أن يدعوا إله غير الله، لأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له في الملك والخلق، **ﷻ** عن كل وصف متره عنه، وهو المعبود الوحيد. وهو الباقي الوحيد، لأنه الأول والآخر والكائنات بعده فناء، وكل شيء هالك إلا وجهه فهو الدائم الباقي، وإليه ترجع الأمور.

قال جل وعلا: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ (فصلت: 6).

الوحي الذي نزل به جبريل **عليه السلام** على سيدنا محمد **ﷺ**، يدعو الناس إلى توحيد العبادة لله وحده، والاستقامة على هذه العبادة، وإلا الويل العظيم سيلحق بالمشركين.

من خلال النقاط المذكورة سابقا، يتحدد مفهوم النبوة، ورسالة النبي التي جاء بها من الله تعالى إلى الناس أجمعين. فيه تأكيد لصدق دعوى النبي المبعوث، الذي يشهد مرارا وتكرارا على صدق نبوته، ذلك نتيجة إيمانه الصادق والخالص لله تعالى، ويقينه بأنه مرسل من الله ﷻ.

هذا المبعوث من الله تعالى كانت مهمته تبليغ رسالة ربه، هذه الرسالة التي أقر القرآن الكريم في أكثر من موضع أنها دين الله الحق، الذي يدعو فيه الناس إلى الخضوع وعبادة إله واحد هو الله تعالى الذي تجلت قدرته، وإليه الحكم والمصير وفي ذلك نجمل هذه المعالم في النقاط التالية:

- النبي مبعوث من الله تعالى.
- النبي جاء بالحق.
- هذا الدين الحق هو إثبات التوحيد لله تعالى.

المبحث الثالث: مظاهر النبوة الخاتمة:

المطلب الأول: نبوة محمد عليه الصلاة والسلام:

الحديث في هذا الفصل عن نبوة محمد ﷺ يكون متأخرا نوعا ما، ولكنه يوضح مجموعة من النقاط سيأتي بيانها فيما يأتي من تفاصيل عن الفكرة في هذا المبحث، الذي يتكلم عن بعثة النبي ﷺ والخصائص المميزة لهذه النبوة.

تحدث حسين مؤنس في كتابه¹⁸⁹ عن سيرة النبي ﷺ من خلال مجموعة من الأسئلة يطرحها في كل فصل. وأهم هذه الأسئلة: كيف انتقل محمد بن عبد الله من رجل من عامة الناس إلى نبي مصطفى من الله سبحانه؟ وكيف كان هذا الانتقال؟.

الملاحظ أن كتب السيرة والحديث يتجلى فيها مظهر تحول النبي ﷺ إلى نبي مبعوث من الله تعالى، والروايات في ذلك عديدة وفيها اختلاف كبير يتجلى في الفكرة الأصل أحيانا، بالرغم من محاولة علماء الحديث والسيرة بيان الضعيف من الصحيح في هذه الروايات.

"هذا الانتقال الذي يستثير نفس المتطلع لا يقتصر على اللحظة التي نزل فيها الوحي على محمد وهو يتعبد في غار حراء، فقد سبقته مراحل وتطورات انتقل معها محمد من حال إلى حال، من حسن الحظ أن محمد ﷺ يعيننا على هذه الدراسة بما كان يقول ويفعل في أثناء (تنبئته)، فقد كان صريحا واضحا في حديثه عن كيف نزلت به التغيرات وهو لا يدري عنها قبل حدوثها شيئا، ومن ثم فقد كان الخوف والحيرة والقلق تنتابه حالا بعد حال حتى استوثق آخر الأمر من أنها رسالة إلهية اختصه الله بها، وبدأ يؤدي رسالته التي اختاره الله لها واثقا من نفسه مؤمنا بأن الله سبحانه وتعالى معه يؤيده ويحفظه من الناس"¹⁹⁰.

الروايات في بداية النبوة كثيرة منها ما ذكره الطبري، البلاذري، اليعقوبي، عيون الأثر لابن سيد الناس، ابن كثير، كتب الصحاح، كتب السنن والمسانيد، سيرة ابن هشام، وغيرها من الكتب، وهي تورد قصة بدء النبوة بأسانيد العديدة بالرغم من الاختلاف البين بين هذه الروايات.

189- حسين مؤنس، دراسات في السيرة النبوية، ص71 وما يليها.

190- نفسه، ص72.

الأمر الأكيد أن النبوة مرحلة طويلة استغرقت زمنا ليكون محمد بن عبد الله بن عبد المطلب نبي الله المبعوث إلى الناس كافة.

قال ﷺ: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ (آل عمران: 79).

قال ﷺ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ (الأنعام: 89).

وقال تقدست أسماؤه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَأَتَيْنَاهُ آجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (العنكبوت: 27).

وقال ﷺ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَفَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (الجاثية: 16).

وقال تجلت قدرته: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (الحديد: 26).

الله سبحانه يؤتي النبوة من يشاء من عباده الأخيار الذين اصطفاهم لتبليغ دعوته. وهذه النبوة تأخذ منحى الاستمرارية كما تبين الآية القرآنية، ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ﴾، هذا دليل على تتابع النبوة واستمرارها في ذرية الأنبياء، منهم نوح عليه السلام وإبراهيم عليه السلام، وتتابعها بشكل ظاهر في بني إسرائيل من ولد سيدنا إبراهيم يعقوب عليهم السلام ومن جاء بعدهم.

دلائل انتقال محمد من البشرية إلى النبوة:

عاش محمد ﷺ في مكة أربعين سنة من عمره إنسانا بسيطا، لكنه تميز بصفات وأخلاق عن بقية قومه، فهو الغلام اليتيم الأبوين الذي تربى في مرضع بني سعد عند حليلة السعدية، والذي شب في كنف جده عبد المطلب ثم عمه أبو طالب. وكان محمد الرجل القوي البنية السليم الفطرة الصافي الذهن والفصيح اللسان.

أغلب هذه الصفات اكتسبها من شعاب البادية، أين فصاحة اللسان، وقوة الجسم والذهن التي يكتسبها الغلام في صغره ويشب عليها. وجاء على محمد موعد زواجه من خديجة بنت خويلد التي أنجب منها ذرية طيبة. الزوجة التي كانت نعم المعين في أشد مراحل الحياة، وبداية الدعوة فكانت نعم الرفيقة.

كل هذه المراحل من حياته كانت عادية، إذا ما نظرنا إلى بعض التفاصيل التي مرت به والتي توقف عندها علماء الحديث والسيرة، وعبروا عنها بمصطلح الإرهاصات المؤهلة للنبوة¹⁹¹.

أول مرحلة يمكن الوقوف عندها هي الرؤيا الصادقة كما حدثت بذلك أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، هذه الرؤى التي كانت تتحقق في حياة النبي محمد ﷺ قبل مبعثه بزمن قليل، وإرساله بشيرا ونذيرا إلى الناس، لأن الرؤى كما عبر عن ذلك النبي ﷺ:

الرؤيا جزء من أربعين جزءا من النبوة.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: ﴿أَوَّلُ مَا بُدِيَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ﴾¹⁹².

هذه الرؤى كانت من الأمور التي سبقت مبعثه ﷺ، وقد كان لها بُعد فكري ونفسي واجتماعي عميق في حياة محمد ﷺ، لأنها جعلته يربط نفسه ووجوده بالأفق والتفكير والتأمل في ملكوت الله سبحانه، لأن المنام الصادق الذي يأتي مثل فلق الصبح كما جاء في الحديث، يبني ثقة كبيرة في نفس الرائي وتزيد قوته النفسية والفكرية، بالإضافة إلى نظرتة العميقة في الأمور، ومعايشته الواقع بأكثر منطقية وعمق كبير.

192 - ينظر: صفى الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم، ص41، محمد الصادق عرجون، محمد رسول الله ﷺ، 270/1، حسين مؤنس، دراسات في السيرة النبوية، ص84.

192- سبق تخريجه ص 70.

المطلب الثاني: شهادة الأنبياء على نبوة محمد ﷺ.

الفرع الأول: ميثاق النبوة:

الكلام عن نبوة محمد ﷺ، والتبشير ببعثته كان قبل هذه البعثة بزمن طويل لأن الله تعالى تكلم عن ميثاق الأنبياء الذي أقرهم عليه للدلالة على نبوة محمد عليه الصلاة والسلام. قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (آل عمران: 81).

الآية نزلت في حق أهل الكتاب لتذكيرهم بالوعد الذي أقره الله على الأنبياء عليهم السلام. لقد أخذ الله ميثاقاً من الأنبياء جميعاً لأن اللفظ مطلق (النبيين)، وهذا الميثاق يخص محمد ﷺ لأنه الرسول المصدق لكل الشرائع السابقة ومؤمن بها.

يذكر القرطبي أن أخذ الله تعالى ميثاق الأنبياء أن يصدق بعضهم بعضاً ويأمر بعضهم بالإيمان بعضاً؛ فذلك معنى النصر بالتصديق. وهذا قول سعيد بن جبير وقتادة وطاوس والسدي والحسن، وهو ظاهر الآية. قال طاوس: أخذ الله ميثاق الأول من الأنبياء أن يؤمن بما جاء به الآخر. وقال البصريون: إذا أخذ الله ميثاق النبيين فقد أخذ ميثاق الذين معهم؛ لأنهم قد اتبعوهم وصدقوهم.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ الرسول هنا محمد ﷺ في قول علي وابن عباس رضي الله عنهما. واللفظ وإن كان نكرة فالإشارة إلى معين؛ كقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قُرْبَةَ كَانَتْ أَمِنَةً مَطْمَئِنَةً﴾ إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ﴾ (النحل: 112-113) فأخذ الله ميثاق النبيين أجمعين أن يؤمنوا بمحمد عليه السلام وينصروه إن أدركوه، وأمرهم أن يأخذوا بذلك الميثاق على أممهم. واللام من قوله ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ﴾

جواب القسم الذي هو أخذ الميثاق، إذ هو بمرتلة الاستحلاف. وهو كما تقول في الكلام: أخذت ميثاقك لتفعلن كذا، كأنك قلت استحلفك¹⁹³.

وقد أراد الله تعالى إقرارا من الأنبياء بالإيمان بمحمد ﷺ ونصرته لأنه آخر الأنبياء مبعثا في الأرض، قالوا أقررنا فكتب الله على الأنبياء السابقين إقرارهم وأشهدهم على ذلك وكان سبحانه من الشاهدين وكفى، ومن أعرض عن الإيمان بهذا الميثاق والعمل به، فأولئك هم الخارجون عن طاعة الله وحده.

قال ﷺ: ﴿فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (آل عمران: 82).

وقال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ (الأحزاب: 7).

أخذ الله تعالى عهدا على الأنبياء عليهم السلام، وقد ذكر بعضهم في الآية القرآنية ليؤكد عظم هذا العهد الذي أخذه من أولي العزم من الرسل. وقد وصف هذا الميثاق بالغليظ، قال ابن عباس: الميثاق الغليظ: العهد¹⁹⁴. قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾، أي عهدهم على الوفاء بما حملوا، وأن يبشر بعضهم ببعض، ويصدق بعضهم بعضا؛ أي كان مسطورا حين كتب الله ما هو كائن، وحين أخذ الله تعالى المواثيق من الأنبياء. ﴿وَمِنْكَ﴾ يا محمد ﴿وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾، وإنما خص هؤلاء الخمسة وإن دخلوا في زمرة النبيين تفضيلا لهم. وقيل: لأنهم أصحاب الشرائع والكتب، وأولو العزم من الرسل وأئمة الأمم. ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾، أي عهدا وثيقا عظيما على الوفاء بما التزموا من تبليغ الرسالة، وأن يصدق بعضهم بعضا. والميثاق هو اليمين بالله تعالى؛ فالميثاق الثاني تأكيد للميثاق الأول باليمين. وقيل: الأول هو الإقرار بالله تعالى، والثاني في أمر النبوة. ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ

193- القرطبي، جامع أحكام القرآن، 188/5-189، بتصرف.

194- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 100/3.

أَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ﴿٨١﴾ (آل عمران: 81)، أي أخذ عليهم أن يُعلنوا أن محمدا رسول الله ﷺ، ويعلم محمد ﷺ أن لا نبي بعده. وقدم محمدا ﷺ في الذكر للفضل العظيم الذي لحق النبي عليه الصلاة والسلام، من ذلك إمامته للأنبياء والمرسلين يوم أسري به إلى بيت المقدس، قال عز وجل: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الإسراء: 1)، وكذا لخاتمته للنبوّة في الأرض بعد جمع كبير من الأنبياء، قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ﴾ .

إن هذا العهد تضمن العزم على تبليغ رسالة الله تعالى إلى الناس دون ضعف أو تقصير، وقد بين الله ﷻ أن الصادق الأمين على وحي الله سبحانه مصيره الجنة أما الكاذب الكافر فمصيره العذاب الأليم، قال عز ثناؤه: ﴿لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (الأحزاب: 8).

فالأمر يتعلق بعلاقة السماء بالأرض والوحي الذي نزلّه الله تعالى على الأنبياء. والمسيرة في دار الشهادة تتعلق بصراع الحق والباطل والخير مع الشر، والنتيجة فيها نصر للحق وأهله، وخسران للكفر وأعدائه. ولهذا كان السؤال حاضرا في الدنيا والآخرة عن عمل كل فرد من الناس. الميثاق هو عهد الله سبحانه الذي أخذه من الأنبياء والمرسلين، بتبليغ الرسالة التي بعثوا بها، والإيمان بعضهم ببعض وتصديق بعضهم البعض. وكل هذا يكون بالثبوت والدعم الذي يتلقاه النبي من الله تعالى، الذي يتزل على نبيه وحيا أو حاه له بواسطة جبريل الكليلا.

إن الأنبياء عليهم السلام جميعهم إخوة يشد بعضهم بعضا، ويصدقون بعضهم ويجمعون كل ذلك في حشد أقوامهم في مؤازرتهم لكل نبي مرسل من الله تعالى لأجل هدف واحد هو التوحيد. قال ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ۗ شَهِدْنَا ۗ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾ (الأعراف: 172).

وقال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (آل عمران: 81).

وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ (الأحزاب: 7).

الإشهاد الأول الذي حصل لذرية بني آدم هو الإقرار بوحدانية الله ﷻ، ثم أخذ الله تعالى ميثاقاً من الأنبياء بالإقرار به سبحانه والإيمان بالنبوة وإقرار صدقها، وصدق الدعوة إلى الله تعالى .
وتحت مسمى الميثاق جاء إقرار الله تعالى للأنبياء وأتباعهم بتصديق نبوة محمد ﷺ، وتصديقها والعمل على نصرته هذا النبي، وفي هذا العهد من الله تعالى على الأنبياء دليل على نبوة محمد ﷺ.

في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا أَخَذَ عَلَيْهِ الْمِيثَاقَ لَنْ بَعَثَ مُحَمَّدٌ وَهُوَ حَيٌّ لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ وَلِيَنْصُرَهُ﴾¹⁹⁵.

يقول ابن كثير: يعلم من هذا أن جميع الأنبياء بشرُوا وأمروا باتباعه ﷺ.
"وحيث أن الخاتم من رسله إلى الناس هو (محمد بن عبد الله) ﷺ هيمنة رسالته وشموليتها، أخذ -جل جلاله- الميثاق على الأنبياء جميعاً أن يقروا بها ويشهدوا لها"¹⁹⁶.

الفرع الثاني: إيمان الأنبياء:

الإيمان هو التصديق بأن أمر النبوة حق يقين، وأن الله سبحانه هو الأحق بالإخلاص له في العبادة والطاعة، وفي ذلك تزيد قوة النبي وإرادته في تبليغ رسالة ربه التي بين يديه.

قال ﷻ: ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (آل عمران: 81).

كان محمد ﷺ آخر الأنبياء والرسل المبعوثين من الله تعالى، وقد ثبت بالدليل الأول على صدق محمد ما جاء في كتب أهل الكتاب من بشارات بمبعثه، وبإثباته القوي لصدق دعوته بعمله الصادق، وإخلاصه لله سبحانه.

وكان ميثاق الأنبياء مع الله تعالى هو الإيمان بنبوة محمد ﷺ وتصديقه، كونه آخر الأنبياء المرسلين فكتب الله تعالى على جميع الأنبياء أن يشهدوا عليه بالصدق ويحفظوا الأمانة فيه.

¹⁹⁵- سبق تخريجه ص 35.

¹⁹⁶- محمد علي قطب، إرهابات نبوة خاتم المرسلين محمد ﷺ، ص 26.

قال ﷺ: ﴿مَرَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (البقرة: 129).

هذا دعاء إبراهيم عليه السلام الذي رفع قواعد البيت الحرام مع ابنه إسماعيل عليه السلام، فكانت قوة إرادته وعزمه في بناء بيت الله الحرام، لأجل أن يُعبد الله سبحانه وتعالى في الأرض وأن يخلص الناس من بعده في توحيد الله جل وعلا.

فكان دعاء إبراهيم عليه السلام أن تكون الخيرية في الأمة العربية، وأن يبعث الله فيهم رسولا منهم يكون خيرا على العرب والمسلمين أجمع. النبي الذي يحمل القرآن الكريم إلى العرب ليعلمهم آياته ويخلصهم من دنس الشرك الذي لحق بالناس منذ عهد طويل.

من خلال هذا الدعاء أراد إبراهيم عليه السلام وبرغبة قوية في بقاء البيت على قدسيته التي وضع لأجلها، وأن تكون من ذريته أمة مسلمة لله تعالى تَعْمُرُ المكان وتنشر الإسلام إلى العالم كله.

قال ﷺ: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الأعراف: 157).

كان من فضل الله تعالى على أهل الكتاب الذين عاشوا بعثة النبي ﷺ، أن آمنوا برسالته وتبعوا دعوته الصادقة. وكان دليلهم في ذلك وجود ذكره وصفته في كتبهم المقدسة.

وفي الآية دليل على تبشير كتب أهل الكتاب بنبوته محمد ﷺ، وإيمان الأنبياء السابقين بنبوته ورسالته التي جاءت شاملة لكل التعاليم والشرائع التي جاء بها الرسل والأنبياء وحملوها إلى أقوامهم. ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ﴾، بما أن الميثاق الذي أخذه الله تعالى من الأنبياء هو الإقرار بصدق هذا النبي والإيمان به، فقد كان جيل من أهل الكتاب على موعد مع النبي الخاتم، فأمنوا به وقاموا بمساندته والسير معه، وهم مصدقين بالدعوة التي جاءت على لسان محمد عليه الصلاة والسلام.

الفرع الثالث: تبشير الأنبياء عليهم السلام بالني ﷺ:

التبشير أو الإخبار عن نبي يأتي بعد الأنبياء جميعاً، ويكون آخر الأنبياء والمرسلين في هذه الأرض للناس كافة. هذه البشارة من الأنبياء والرسل دليل آخر على نبوة هذا النبي الجديد وعلى إيمانهم السابق بهذه الدعوة من الله تعالى، الموكلة إلى كل مبعوث من الرسل والأنبياء المختارين من الله سبحانه وتعالى.

أخرج أحمد بن حنبل عن أبي أمامة قال: قُلْتُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ مَا كَانَ أَوَّلُ بَدْءِ أَمْرِكَ قَالَ: **دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ وَبُشْرَى عِيسَى وَرَأَتْ أُمِّي أَنَّهُ يَخْرُجُ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ مِنْهَا قُصُورُ الشَّامِ** ¹⁹⁷.

معنى هذا أنه ﷺ أراد بدء أمره بين الناس، واشتهار ذكره وانتشاره، فذكر دعوة إبراهيم التي تنسب إلى العرب، ثم بشرى عيسى الذي هو خاتم أنبياء بني إسرائيل؛ يدل هذا على أن من بينهما من الأنبياء بشر به ¹⁹⁸.

في الحديث السابق ثلاثة معالم لنبوة محمد عليه الصلاة والسلام:

- دعوة سيدنا إبراهيم عليه السلام.

- بشرى عيسى عليه السلام.

- الإرهاصات التي سبقت مولده ﷺ.

وهذه المعالم الثلاثة كانت جواباً عن سؤال طُرح على النبي ﷺ، (قلت يا رسول الله ما كان بدء أمرك؟) . إن هذه المعالم لترسم الصورة الواضحة أن دعوة النبي ﷺ ومبعثه مر بأطوار زمنية مختلفة، لم تكن دعوته عليه الصلاة والسلام خاتمة إلا عندما اكتمل النظام التشريعي والمنهج الدعوي في تكوين المجتمع المسلم، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ

¹⁹⁷ - رواه أحمد في المسند، رقم: 22361، 262/5، وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير، رقم: 7729، 205/8-206. إسناد الحديث ضعيف بسبب ضعف فرج بن فضالة، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد، 222/8، وعزاه لأحمد والطبراني وقال إسناد أحمد بن حنبل حسن وله شواهد تقويه، وأخرجه أحمد بن حنبل عن العرياض بن سارية بسند صحيح، رقم: 17085، 17086، 281/13-282. وأخرجه ابن إسحاق في السيرة، ص28، والبيهقي في دلائل النبوة، 83/1-84 .

¹⁹⁸ - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 97/1.

نَعْمَتِي وَمَرْضِيَّتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴿ (المائدة:3). ونتيجة لذلك كانت دعوة محمد ﷺ خاتمة و متميزة بخصائص عن غيرها من الدعوات السابقة.

إن أول بشرى ببعثة محمد ﷺ من العرب هي دعوة سيدنا إبراهيم عليه السلام.

قال ﷻ: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُّسْلِمَةٌ لَّكَ وَأَمْرًا مِّنَّا مَنَّا سَكَنًا وَتُبَّ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿ (البقرة:127-129).

"(إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ) الذي لا يقهر ولا يغلب على ما يريد (الْحَكِيمُ) الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة والجملة تعليل للدعاء وإجابة المسؤول فإن وصف الحكمة مقتض لإفاضة ما تقتضيه الحكمة من الأمور التي من جملتها بعث الرسول ووصف العزة مستدع لامتناع وجود المانع بالمرّة"¹⁹⁹.

كان هذا الرسول المبعوث في الأمة العربية هو محمد ﷺ، الذي كان دعوة سيدنا إبراهيم ﷺ وإرادته في أن يكون من ذريته أمة مسلمة خاضعة لله تعالى، يُبْعَثُ مِنْهَا نَبِيٌّ خَاتِمٌ لِلرَّسَالَاتِ.

"وقد استجاب الله دعاء خليله إبراهيم وابنه اسماعيل، وكان محمد ﷺ هو تأويل تلك الاستجابة. ولا تزال التوراة الموجودة اليوم -على الرغم من تحريفها- تحمل شيئاً من هذه البشارة، فنجد فيها أن الله استجاب دعاء إبراهيم في اسماعيل، فقد ورد في التوراة في سفر التكوين في الإصحاح السابع عشر فقرة (20): (وأما اسماعيل فقد سمعت لك فيه، ها أنا أباركه وأثمره، وأكثره كثيراً جداً، إثني عشر رئيساً يولد، وأجعله أمة عظيمة كثيرة)"²⁰⁰. يذكر المؤلف أن النصوص المترجمة من التوراة تذكر اسم (مأد مأد) وقد ذكر ابن القيم أن بعض نسخ التوراة القديمة أوردت النص كما يلي:

¹⁹⁹ - أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 261/1.

²⁰⁰ - عمر سليمان الأشقر، الرسل والرسالات، ص 164-163.

" وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه، ها أنا أباركه وأكثره بمأد مأد "201.

واسم مأد مأد هو اسم محمد ﷺ، لأنها تلفظ بالعبراني "مؤد مؤد" واللفظ العبراني قريب من العربي. وعليه هذا نص صريح في كتب التوراة القديمة يبشر بني من نسل إسماعيل عليه السلام يقود الأمة الإسلامية بعد فترة من الأنبياء والرسل اسمه محمد²⁰².

قال ﷺ: ﴿وَمَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَبْعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَبَصَّرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الأعراف: 156-157).

يذكر عمر سليمان الأشقر أنه بقي من هذه البشارة بقية في التوراة ففي سفر التثنية الإصحاح (18) فقرة 18-19، (قال الله لموسى: أقيم لهم (أي بني إسرائيل) نبيا من وسط إخوتكم مثلك، واجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به، ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع كلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطلبه)، ودلالة هذه البشارة على رسولنا ﷺ بينة، ذلك أنه من بني إسماعيل وهم إخوة من بني إسرائيل فجدهم هو إسحاق، وإسماعيل وإسحاق أخوان، ثم هم أوسط العرب نسبا، وقوله مثلك أي صاحب شريعة مثل موسى، ومحمد ﷺ هو الذي جعل الله كلامه في فمه حيث كان أميا لا يقرأ من الصحف، ولكن الله يوحى إليه كلامه فيحفظه ويرتله، وهو الرسول المرسل إلى الناس كافة، وبنو إسرائيل مطالبون باتباعه وترك شريعتهم لشريعته، ومن لم يفعل فإن الله معذبه²⁰³.

بالنسبة لهذا التفسير فإن النص التوراتي لا يمكن أن يكون تكملة للنص القرآني، لأن الأول على فرض أن القليل من نصوصه صحيحة فهو يحمل تعاليم الله سبحانه لموسى ﷺ ومجموع أخباره وأقواله. والنص القرآني متواتر ثابت الصحة محفوظ معجز. وهو الكتاب المهيم على سائر

201- ينظر: ابن القيم، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الدمشقي، هداية الحيارى في الرد على اليهود والنصارى، دار الكتب العلمي، بيروت، لبنان، ط2، 1415هـ/1994م، ص 378-379.

202- ينظر: ابن قيم الجوزية، هداية الحيارى في الرد على اليهود والنصارى، ص378-379، وعمر سليمان الأشقر، الرسل والرسالات، ص 164.

203- عمر سليمان الأشقر، الرسل والرسالات، ص 165-166.

الكتب السابقة والمكمل للشرائع كلها. وهذا القول المذكور في الإصحاح ما هو إلا نص يصرح ببطريرك مبعث النبي محمد ﷺ من نسل سيدنا إسماعيل عليه السلام.

والبشرى الثانية هي هذه البشارة الصريحة في قول عيسى عليه السلام لقومه من بني إسرائيل.

قال ﷺ: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿6﴾﴾ (الصف:6).

نبي الله عيسى عليه السلام المبعوث إلى بني إسرائيل برسالة، يدعوهم فيها إلى إخلاص العبادة لله ونبت ما أحاط بهم من الشرك والزيغ. يدعو قومه وهو يقين بأن دعوته صادقة، لأنه مؤمن بهذه الدعوة ومخلص النية لله تعالى، وقائم بواجب الدعوة إلى الله سبحانه.

أراد عيسى عليه السلام من قومه الإيمان بنبوة نبي يأتي بعده اسمه أحمد، وفيه أمر بتصديقه ومساندته في دعوته أمام القوم المشركين الذين أرسل إليهم محمد ﷺ.

واسم أحمد هو أحد أسماء النبي محمد ﷺ كما ثبت في صحيح البخاري عن جبير بن مطعم قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿إِنِّي لِي أَسْمَاءٌ أَنَا مُحَمَّدٌ وَأَنَا أَحْمَدُ وَأَنَا الْمَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللَّهُ بِي الْكُفْرَ وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشِرُ النَّاسَ عَلَى قَدَمِي وَأَنَا الْعَاقِبُ﴾²⁰⁴.

وهناك العديد من البشارات على مبعث نبي جديد في العرب تذكرها التوراة، ومن النصوص أيضا ما تذكر اسمه وصفته وبعض المعالم المتعلقة بسيرته وحتى البلد التي يهاجر إليها مع الجماعة المسلمة²⁰⁵.

²⁰⁴ - رواه البخاري في صحيحه، كتاب: المناقب، باب: ما جاء في أسماء رسول الله ﷺ، وقوله عز وجل: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى

الْكُفْرِ﴾ (الفتح:29)، رقم: 3532، 212/2-213، ورواه مسلم في الصحيح، كتاب: الفضائل، باب: في أسمائه ﷺ، رقم: 2354، 2355، 89/7.

²⁰⁵ - ينظر: عمر سليمان الأشقر، الرسل والرسالات، ص 165-196، وفاضل صالح السامرائي، نبوة محمد من الشك إلى اليقين، مكتبة القدس، بغداد، (د.ت)، ص 246 وما بعدها.

من ذلك ما ورد في سفر أشعيا: (إني جعلت أمرك محمدا، يا محمد يا قدوس الرب، اسمك موجود من الأبد)²⁰⁶، وقوله إن اسم محمد موجود من الأبد موافق لقول الرسول ﷺ: ﴿كُنْتُ نَبِيًّا وَإِنْ آدَمَ لَمُنْجَدِلٍ فِي طِينَتِهِ ﷺ﴾. ونص آخر في سفر حبقوق يقول: (لقد أضاءت السماء من بهاء محمد، امتلأت الأرض من حمده، .. زجرك في الأنهار، واحتدام صوتك في البحار، يا محمد أدن، لقد رأتك الجبال فارتاعت).

وهناك نصوص في العهد القديم يرد فيها اسم محمد صراحة، بالرغم من التحريف الذي وقع في النصوص وقول أهل الكتاب أن هذه النبوءات لم تتحقق بعد. في سفر أشعيا "أنا سمعنا في أطراف الجبال صوت محمد"²⁰⁷. وقال أشعيا: "قال إبراهيم خليل الله الذي قويته ودعوته من أقاصي الأرض لا يخاف ولا يرهب... وأنت تبتهج وترتاح ويكون محمدا"²⁰⁸.

أما عن البشارات المذكورة في الأناجيل على اختلافها نذكر منها: في إنجيل متى الإصحاح (11) عدد (14)، (وإن أردتم أن تقبلوا فهذا هو إيليا المزمع أن يأتي، من له أذنان للسمع فليسمع). وإيليا المذكور هو محمد ﷺ لأنه لم يكن هناك نبي بين عيسى ومحمد ﷺ.

وفي إنجيل يوحنا الإصحاح (14) عدد (15) (إن كنتم تحبوني فاحفظوا وصاياي، وأنا أطلب من الأب أن يعطيكم معزيا آخر ليمكث معكم إلى الأبد)، وفي اللغات الأجنبية "فيعطيك باركليتوس" اليونانية هو أحمد، وهو من أسماء الرسول ﷺ.

أما عن صفة النبي ﷺ في التوراة ففي صحيح البخاري عن عطاء بن يسار، قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص، قلت: أخبرني عن صفة رسول الله في التوراة، قال: أجل، والله أنه لموصوف ببعض صفته في القرآن، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (الأحزاب: 45)،

²⁰⁶– النص نقله: القرافي: شهاب الدين أبو العباس أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن، الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاخرة في الرد على الملة الكافرة، ت: مجدي محمد الشهاوي، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط1، 1426هـ/2005م، ص 254، الجواب الصحيح، 326/3، ابن القيم، هداية الحيارى، ص403.

²⁰⁷– ابن تيمية: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، دار العاصمة، الرياض، السعودية، ط2، 1419هـ/1999م، 504/4.

²⁰⁸– القرافي، الأجوبة الفاخرة، ص254.

وحرزا للأمينين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ، ولا غليظ، ولا صخاب في الأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا لا إله إلا الله، ويفتح به أعينا عميا، وآذنا صما، وقلوبا غلفا²⁰⁹.

هذه بعض الدلائل على بشارات الأنبياء والرسل السابقين بدعوة خاتم النبيين محمد ﷺ، وهي دليل يقين أن النبوة أمر متواتر في الأمم منذ خلق سيدنا آدم عليه السلام ومحور رسالة كل الأنبياء هو التوحيد ومضمونها تشريع الله سبحانه وتعالى.

قال ﷺ: ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (البقرة: 130-133).

المطلب الثالث: خصائص النبوة الخاتمة:

النبوة التي خصها الله ﷺ للأصفياء من عباده، والمترلة التي ارتضاها للأخيار منهم، كانت سببا لقيام أمم ترفع التوحيد كمحور لنظام الحياة وسببا للنجاة في الآخرة، ومن خلال النبوة كان الأنبياء يجاهدون أهل الشرك والأهواء ويسيرون نحو تحقيق الغاية من إرسالهم وإقامة دين الله تعالى في الأرض يدين به الناس جميعا وفق منهج رباني متكامل يحقق العدل والحق في الأرض.

والحديث عن خصائص نبوة محمد ﷺ كونها آخر النبوات، ورسالته خاتمة لكل الرسالات السماوية السابقة، فالخصائص التي خصها الله تعالى تدور في نفس المحور الذي كانت عليه النبوات السابقة لها، إلا أن خصائص نبوة محمد ﷺ كان لها ميزات تميزها عن غيرها، تجعلها الشاملة والخاتمة لأمر السماء الذي كان يوحي إلى محمد ﷺ وحيا أوحاه الله له، ثم ينقطع الوحي ويتوقف أمر السماء عن الأرض.

هذه الخصائص والميزات يمكن إجمالها فيما يلي:

أولا: محمد ﷺ أول نبي في الذكر:

في رواية عن العرياض بن سارية عن رسول الله ﷺ أنه قال: **إِنِّي عِنْدَ اللَّهِ مَكْتُوبٌ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ وَإِنَّ آدَمَ لَمُنْجَدِلٌ فِي طِينَتِهِ** ²¹⁰. وفي رواية أحمد: **إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، وَإِنَّ آدَمَ لَمُنْجَدِلٌ فِي طِينَتِهِ** ²¹¹.

وعن أبي هريرة **قال: قالوا يا رسول الله: متى وجبت لك النبوة؟ قال: **وَآدَمُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ**** ²¹².

²¹⁰ - أخرجه البغوي في شرح السنة، 207/13، رقم: 3626، والتبريزي، مشكاة المصابيح كتاب: الفضائل والشمال، رقم: 5759، 127/3، ورواه الحاكم في المستدرک، كتاب: تواريخ المتقدمين، باب: ذكر أخبار سيد المرسلين محمد ﷺ، رقم: 4234، 705/2، وأحمد في المسند من حديث العرياض بن سارية، رقم: 17085، 281/13، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح.

²¹¹ - رواه أحمد في المسند، حديث العرياض بن سارية، رقم: 17086، 282/13، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح، والبيهقي، دلائل النبوة، 130/2.

²¹² - أخرجه الترمذي في السنن، أبواب المناقب، باب: في فضل النبي ﷺ، رقم: 3609، 7/6، وقال حديث حسن غريب، والبيهقي، دلائل النبوة، 130/2، والتبريزي، مشكاة المصابيح، كتاب: الفضائل والشمال، رقم: 5759، 127/3.

في حديث عن أبي هريرة رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ﴾، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿كُنْتُ أَوَّلَ النَّبِيِّينَ فِي الْخَلْقِ وَأَخْرَهُمْ فِي الْبُعْثِ﴾²¹³.

المراد من حديث: كنت أول النبيين في الخلق وأخروهم في البعث، الاختيار الرباني لأنبيائه ورسوله من صفوة بني آدم ومرد ذلك إلى علمه الأزلي، وإحاطته وإرادته المطلقة قال صلى الله عليه وسلم: ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (الأنعام: 80)، وقال: ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا نَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (هود: 97)، وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (الأنبياء: 4)²¹⁴.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا﴾ المعنى: واذكر إذ أخذنا ﴿مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾ أي: عهدهم؛ وفيه قولان: أحدهما: أخذ ميثاق النبيين: أن يُصدق بعضهم بعضاً، قاله قتادة. والثاني، أن يعبدوا الله ويدعوا إلى عبادته، ويصدق بعضهم بعضاً، وأن ينصحووا لقومهم، قاله مقاتل. وهذا الميثاق أخذ منهم حين أخرجوا من ظهر آدم كالذر، قاله الزجاج²¹⁵. فإن قيل لما خص الأنبياء بالذكر دون غيرهم من الأنبياء؟ فالجواب، أنه نبه بذلك على فضلهم، لأنهم أصحاب الكتب والشرائع، وقدم نبينا صلى الله عليه وسلم بيانا لفضله عليهم²¹⁶. وقال غيرهم: وأخذ الله تبارك وتعالى ميثاق النبيين بالتبليغ وتصديق بعضهم بعضاً، وبجميع ما تتضمنه النبوة²¹⁷.

213- رواه ابن جرير الطبري من طريق سعيد بن بشير مرسلًا، 125/21، وسعيد بن بشير الأزدي ضعيف كما قال ابن حجر في التقريب. والحديث ذكره ابن كثير من رواية ابن أبي حاتم من حديث سعيد بن بشير قال: حدثني قتادة عن الحسن عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ﴾، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (كنت أول النبيين في الخلق وأخروهم في البعث، فبدأ بي قبلهم) قال ابن كثير: سعيد بن بشير فيه ضعف. وقد رواه سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة مرسلًا وهو أشبه، ورواه بعضهم عن قتادة موقوفًا، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 121/11.

وللحديث رواية أخرى من حديث مسيرة الفجر بلفظ: (كنت نبيا وآدم بين الروح والجسد) وهو صحيح الإسناد أخرجه أحمد والبخاري في تاريخه، والبيهقي، دلائل النبوة، 129/2، بلفظ: (متى كنت نبيا)، والحاكم في المستدرک، رقم: 4234، 705/2 وصححه، وقال الترمذي: حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه عن أبي هريرة، بلفظ: (متى وجبت لك النبوة)، في أبواب المناقب، رقم: 3609، 9/6.

214- محمد علي قطب، إرهابات نبوة خاتم المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم، ص 26.

215- ابن عطية، المحرر الوجيز، 371/4.

216- ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، 254-255/6.

217- نفسه، 255/6.

كان محمد ﷺ يفضل عن الأنبياء كلهم للدرجة التي منحها الله تعالى عن سائر الخلق، ولذلك كان أول المذكورين في أخذ الميثاق قبل غيره من الأنبياء ﴿وَمِنْكُمْ نُوحٌ﴾، بالرغم أنه كان خاتم الأنبياء وآخرهم في البعث. وفضل منزلته على الأنبياء والمرسلين كان خلقه: بين خلق آدم ونفخ الروح فيه. وهذا لا يدل على الخلق الجسماني والوجود البشري قبل أول البشر سيدنا آدم عليه السلام، ولكن على الميزة والفضل اللذان يتمتع بهما النبي ﷺ عن السابقين من الأنبياء الذين بعثهم الله تعالى قبله.

ثانيا: نبوته الخاتمة:

قال ﷺ: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (الأحزاب: 40).

إذا كان محمد ﷺ خاتم الأنبياء فهو خاتم المرسلين، ذلك أن كل رسول نبي. ومعنى كونه خاتم الأنبياء والمرسلين أنه لا يُبعث رسول من بعده يغير شرعه ويطل شيئا من دينه، لأن الدين في بعثته كُتب له الكمال، والشريعة كُتبت لها التمام. ولما كانت الرسالة الخاتمة رسالة شاملة وتشريعا واقعيا لأمر المسلمين جاءت عامة للناس جميعا، قال ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سبأ: 28)، "وقد تكفل الله بحفظها من التحريف والتبديل والضياع، بحفظ كتابه القرآن وحفظ سنة رسوله، فقد صح أن تختم بها الرسالات السماوية. ومن ذلك فقد ختم الله سبحانه بنبوة نبيه ﷺ الذي أرسله إلى الناس كافة جميع النبوات، وختم النبوة ختم للرسالة لأن كل رسول نبي" 218.

وكون النبوة ختم للرسالة، فإن هذه الرسالة التي جاءت عامة وشاملة تحقق فيها المعنى المطلق للهداية والهيمنة على جميع الرسائل السابقة، وبذلك كانت النبوة خاتمة للنبوات السابقة، "بالإضافة إلى الاستعدادات الفطرية المركوزة في النفس الإنسانية، ومنحة العقل وتسخير الطبيعة، أرفده الله تعالى "بإمكان الهداية"، عن طريق الوحي الأعلى، الذي رافق مسيرة الوجود الإنساني من

218- عبد الرحمن حسن حنكة الميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها، ص 525.

بدايتها إلى أن ختمت سلسلة الرسائل على يد محمد ﷺ بالإسلام، الذي أودع فيه الله سبحانه تعالى خلاصة القوانين والسنن المفتاحية، التي يتناغم الجهد الإنساني مع مراد الله وسننه في خلقه، وينسجم مع مهمته الوجودية²¹⁹، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَمَرْضَيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة: 3) بحيث صار التشريع الحاصل بالقرآن والسنة كافيًا لهداية الإنسان²²⁰.

ثالثًا: أفضلية الأنبياء:

المكانة التي اختارها الله ﷻ للأصفياء من عباده، جعلتهم يمتازون عن غيرهم بخصائص وميزات تميزهم وتفضلهم عن غيرهم من البشر. أول هذه الفصائل هي منحهم الله تعالى منحة النبوة وهي درجة رفيعة، لا يمتلكها إلا من رفع الله درجته وتبوأ الدرجات العليا.

قال جل ثناؤه: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ إِنَّ مَرَبَّنَا حَكِيمٌ عَلِيمٌ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَنَزَّلْنَا بِرَأْسِنَا لِقَابَ إِصْرَ آلِ إِيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُونُسَ وَكُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام: 83-86).

وقد كان للأنبياء والمرسلين ميزة الأفضلية لأنهم أكمل البشر وأفضلهم، فهناك تفاضل بين الأنبياء والرسل عند الله تعالى، وقد أخبر أنه فضل بعض النبيين عن بعض، قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ نَبُوءًا﴾ (الإسراء: 55).

وقد خص الله تعالى خمسة من الأنبياء والرسل بالذكر في أكثر من موضع، وسماهم أولو العزم من الرسل قال جل وعلا: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ (الأحقاف: 35).

219- الطيب برغوث، المنهج النبوي في حماية الدعوة ومنجزاتها، ص173.

220- ابن عاشور، التحرير والتنوير، 103/6.

كما خصهم الله تعالى بالميثاق الغليظ الذي أخذ منهم، وذكرهم في الآية القرآنية دون غيرهم من الأنبياء والرسل، قال ﷺ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ (الأحزاب: 7).

وقال: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَأَتَيْنَا عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ (البقرة: 253).

في الآية الكريمة حديث عن تفاوت في الأفضلية بين الأنبياء والمرسلين، وهناك رواية تنهى عن الخوض في تفضيل بعض الأنبياء عن بعض، عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال:

﴿لَا تُخَيِّرُوا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ﴾²²¹. وهناك من تحدث في هذا الموضوع في أن النهي كان قبل نزول الآية، وأن النبي ﷺ كان ينهى صحابته عن التفضيل بينه وبين الأنبياء²²².

يقول القرطبي: "وأما النبوة في نفسها فلا تتفاضل وإنما تتفاضل بأمر آخر زائدة عليها؛ ولذلك منهم رسل وأولو عزم، ومنهم من اتخذ خليلاً، ومنهم من كلم الله، ورفع بعضهم درجات، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَأَتَيْنَا دَاوُدَ نَرْبُومًا﴾ (الإسراء: 55) وقال: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ (البقرة: 253).

فإن الله تعالى لما أخبر أنه فضل بعضهم على بعض جعل يبين بعض المتفاضلين ويذكر الأحوال التي فضلوا بها فقال: ﴿مِّنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَأَتَيْنَا عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ (البقرة: 253)، وقال: ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ نَرْبُومًا﴾ وقال تعالى: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ﴾ (المائدة: 46)، ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (الأنبياء: 48) وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا

²²¹ - رواه البخاري في صحيحه، كتاب الخصومات، باب: ما يذكر في الأشخاص والملازمة، والخصومة بين المسلم واليهودي، رقم: 2412،

180/2، ورواه مسلم في الصحيح، كتاب: الفضائل، باب: من فضائل موسى ﷺ، رقم: 2374، 101/7، وأبو داود في السنن، كتاب السنة، باب: في التخيير بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، رقم: 4668، 36/5. كلهم من حديث أبي سعيد الخدري.

²²² - ينظر: الواحدي، الوسيط، 353/1، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 254/4.

داوودَ وسليمانَ علماً ﴿ (النمل: 15) وقال: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ ﴿ (الأحزاب: 7)، فعم ثم خص وبدأ بمحمد ﷺ، وهذا ظاهر²²³.

ومن الفضائل التي شرف الله تعالى نبيه كونه خاتم الأنبياء والمرسلين وجعل رسالته للناس كافة، هداية وبشرى للناس أجمعين من خلق آدم ﷺ إلى قيام الساعة، ومن أهم الفضائل التي ذكرها النبي ﷺ وقد خصه الله سبحانه بها، ما ذكره النبي ﷺ وتواترت الأخبار ما يلي:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ﴿ مَا مِنْ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا وَقَدْ أُوتِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا آمَنَ عَلَيَّ مِثْلَهُ الْبَشَرُ وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾²²⁴.

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ قال: ﴿ أُعْطِيتُ خُمْسًا لَمْ يُعْطَنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي نَصْرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهْرًا وَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكْتُهُ الصَّلَاةَ فَلْيَصِلْ وَأَحَلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ ﴾²²⁵.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ﴿ فَضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِسِتِّ أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ وَنَصْرْتُ بِالرُّعْبِ وَأَحَلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ طَهْرًا وَمَسْجِدًا وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً وَخِمْتُ بِي النَّبِيُّونَ ﴾²²⁶.

²²³ - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 4/257، 255.

²²⁴ - سبق تخريجه ص 75.

²²⁵ - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: التيمم، باب: 1، رقم: 335، 126/1، وكتاب: الصلاة، باب: قول النبي ﷺ (جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً)، رقم: 438، 158/1، وطرفه: 3122، ومسلم في الصحيح، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: 1، رقم: 2، 63/521، ورواه أحمد في المسند، رقم: 14198، 397/11، ورقم: 21211، 488/15.

²²⁶ - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: 1، رقم: 2، 64/523، والبخاري في صحيحه كتاب: الجهاد والسير، باب: قول النبي ﷺ: (نصرت بالرعب مسيرة شهر)، وقول الله ﷻ: ﴿ سَلِّطْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ ﴾ (آل عمران: 151) رقم: 2977، بلفظ: (بعثت بجوامع الكلم)، (353/2، وأطرافه: 7273، 7013، 6998، وأحمد في المسند، رقم: 7575، 343/7، ورقم: 9828، 335/9.

رابعاً: إخباره بالغيب:

من بين الأمور التي تميز بها النبي ﷺ الإخبار بالغيب، الذي يأتيه بوحى من الله سبحانه، وقد ورد ذكر الكثير من الغيبات في القرآن الكريم وإعلام النبي ﷺ بها. من ذلك قوله تعالى:

﴿ ذَلِكُمْ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَقْلَامُهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرِيماً وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ (آل عمران: 44).

وقال ﷺ: ﴿ تِلْكَ الْقُرَى نَقِصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴾ (الأعراف: 101).

وقال جل وعلا: ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا مَرَجْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَنْبَاءِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (التوبة: 94). وغيرها من الأخبار²²⁷ التي أوحاها الله تعالى إلى نبيه الكريم حديثاً عن أخبار الأنبياء السابقين والأمم الغابرة التي لا يعلم خبرها إلا الله تعالى، وتبشيراً بما يكون في القادم من الزمان.

وقد بين النبي ﷺ هذه الميزة التي خصه الله ﷻ بها حين قال عليه الصلاة والسلام: ﴿ مَا مِنْ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا وَقَدْ أُوتِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا آمَنَ عَلَىٰ مِثْلِهِ الْبَشَرُ وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيْهِ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾²²⁸.

هذه الأخبار التي تلقاها النبي ﷺ فيها عبرة عظيمة لشخصه الكريم، ولصحابته، وكذا للمسلمين من بعده. فهو دليل على أن الوحي من الله تعالى، وليس بكلام البشر، وأن الأمر بيد الله تعالى وعلى الإنسان المسلم الأخذ بالأسباب حتى يصل إلى بر الأمان وسلاحه التوحيد لله تعالى لينال الجنة التي عرضها السموات والأرض.

²²⁷ - سورة المائدة، الآيات 27-31، سورة هود، الآيتين 49، 100، سورة يوسف، الآية 102، سورة الكهف، الآيات 9-27، و83-99، سورة طه،

الآية 9، سورة القصص، الآيات 44-46، سورة الروم، الآيات 1-6، سورة ص، الآيتين 21-22.

²²⁸ - سبق تخريجه، ص 75.

"إن العاقل المستقل المفكر إذا عرف تاريخ محمد ﷺ وتاريخ بني إسرائيل عليهم السلام فإنه يرى أن محمد ﷺ قد نشأ أمياً لم يتعلم القراءة ولا الكتابة، وإن قومه الذين نشأ فيهم كانوا أميين وثنيين جاهلين بعقائد الملل وتواريخ الأمم وعلوم التشريع والفلسفة، حتى إن مكة عاصمة بلادهم، وقاعدة دينهم، ومثوى كبرائهم ورؤسائهم، ومثابة الشعوب والقبائل للحج والتجارة فيها، والمفاخرة بالفصاحة والبلاغة في أسواقها التابعة لها، لم يكن يوجد فيها مدرسة ولا كتاب مدون قط، فما جاء به من الدين التام الكامل، والشرع العام العادل، لا يمكن أن يكون مكتسباً ولا أن يكون مستنبطاً بعقله وفكره"²²⁹.

إن الصورة كانت قائمة في الجزيرة العربية قبل مبعث محمد ﷺ، لأن العرب تحوروا داخل دائرة مغلقة بعيدة عن العالم الخارجي وبعيدا عن كل صور العلوم الكسبية التي كانت منتشرة عند الأمم المتاخمة لشبه الجزيرة العربية.

كل ذلك جعل الجهل والأمية ينتشر بشكل يبين في أوساط العرب، فلم يعرف عن الأمم السابقة إلا اللمم من أخبار اليهود والنصارى، وجاء خاتم النبيين محمد ﷺ بمعجزة القرآن الكريم التي أفردت سور كثيرة للحديث عن الأمم السابقة وأخبار الأمم الغابرة، وكذا أخبار المستقبل من الزمان.

خامساً: تنوع معجزة محمد ﷺ.

أيد الله سبحانه وتعالى أنبياءه ورسله بالمعجزات الدالة على صدقهم، وثباتهم على الحق حتى يكونوا جميعاً حجة على الناس. وقد اختلفت هذه المعجزات وتباينت، إلا أنها اجتمعت في عجز البشر عن إتقانها أو تقليد الأنبياء والمرسلين في فعلها.

وكانت معجزة كل رسول مناسبة للقوم الذين بعث فيهم، وما عُرف عند القوم من فن أو علم ونحو ذلك. "في عهد محمد ﷺ كان العرب قد بلغوا الغاية في الفصاحة وقوة البيان، وجزت الحكمة على ألسنتهم؛ حتى اتخذوا ذلك ميداناً للسباق والمباراة؛ فأنزل الله القرآن على رسوله عليه الصلاة والسلام، فكانت بلاغته وبيانه وما تضمنه من الحكم والأمثال جانب ما كان من تأكيد إعجازه"²³⁰.

²²⁹ - محمد رشيد رضا، الوحي الحمدي، ص 100.

²³⁰ - عبد الرزاق عفيفي، الحكمة من إرسال الرسل، دار الصميعي، المملكة العربية السعودية، ط2، 1420هـ، ص 69.

معجزة النبي ﷺ كانت القرآن الكريم كتاب الله تعالى إلى الناس، ودستور الأمة الإسلامية، وهذه المعجزة كانت آية صدق محمد ﷺ، وحجة نبوته.

"جعل نبوة خاتم النبيين عين موضوع نبوته، وهو كتابه المعجز للبشر بهدايته وبعلمومه، وبإعجازه اللفظي والمعنوي، وبأنباء الغيب الماضية والحاضرة والآتية فيه"²³¹.

وهذه المعجزة جاء التحدي بها للقوم المشركين، قال ﷺ: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي مَرِيبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: 23).

لأن المعجزة هي الأمر الخارق للعادة، المقرون بالتحدي، السالم عن المعارضة²³². وكل ماجرى على يد النبي ﷺ من الآيات الكونية هي خوارق جاءت من أجل التيسير على النبي ﷺ وصحابته وشد عزمهم في الحرب والسلام. وعنايته بهم في الشدائد أثناء غزوة بدر ومدهم بجند لم يروها من الملائكة وحفظ من شدة العدو، وتكثير الطعام والماء بين يدي رسول الله ﷺ في غزوة الأحزاب وغزوة تبوك. وغيرها من المعجزات التي كانت بين يدي محمد ﷺ التي لم يقصد منها التحدي مثل إنشقاق القمر، وانبثاق الماء من أصابعه الشريفة، وتسييح الحصى في كفه، وحين الجذع إليه...

كل هذه الخوارق والآيات التي جرت بين يدي محمد ﷺ كانت متنوعة وقد روى العلماء في دلائل النبوة الكثير من هذه الخوارق منها الصحيح ومنها الضعيف، كل هذا فضل من الله تعالى على النبي عليه الصلاة والسلام، لأن محمد ما هو إلا بشر اصطفاه الله تعالى لتبليغ رسالته ولا يملك من الأمر شيئاً.

قال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ (الأنعام: 50).

²³¹ - محمد رشيد رضا، الوحي الحمدي، ص 115.

²³² - السفاريني: محمد بن أحمد بن سالم بن سليمان السفاريني الأثري، لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرر المضية في عقد الفرقة المرضية، (د.ت)، 290-289/2.

وفي حديث النبي ﷺ أن معجزته التي ثبت التحدي بها هي وحي الله تعالى إليه القرآن الكريم، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: ﴿ مَا مِنْ نَبِيٍّ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا وَقَدْ أُوتِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا آمَنَ عَلَى مِثْلِهِ الْبَشَرُ وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيته وَحِيًّا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [233].

وقال سبحانه: ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ (النجم: 3-4).

من خلال ما تقدم فإن نبوة محمد ﷺ هي خاتمة النبوات كلها في هذه الأرض، وهي العنوان الختام لعلاقة السماء بالأرض وبها تم التشريع الإلهي واكتمل الدين. ولهذا كان لا بد أن تنفرد بخصائص لوحدها أو تجمع الخصائص المختلفة للنبوات السابقة. ومن بين هذه الميزات التي خص الله تعالى بها نبيه الكريم محمد عليه الصلاة والسلام:

- فضَّله الله تعالى على سائر الأنبياء والمرسلين.
- جعله أول الأنبياء في الفضل والذكر ورسالته هي الخاتمة في المبعث.
- إخبار الله تعالى نبيه بالغيب خلاف الأنبياء السابقين.
- تنوع المعجزات التي أيده الله تعالى بها، وجعل معجزته المطلقة القرآن الكريم.

الباب الثالث: البعث الرسالي للسيرة النبوية:

تمهيد :

المعطيات المقدمة في تحليل السيرة النبوية تتكامل بالحديث عن الأبعاد المختلفة للسيرة، لأن كل زاوية موضوع البحث هي بعد واتجاه يتمحور حوله العديد من الروايات في السيرة النبوية والأخبار المختلفة، التي تُوضع في إطار الدراسة الأكاديمية للبحوث في مجال سيرة المصطفى ﷺ .
والحديث عن الامتداد والأثر الذي تركته سيرة المصطفى ﷺ منذ بعثته في القرن السادس الميلادي إلى اليوم، يبين ذلك الوقع الأكيد لهذه السيرة في عقول ونفوس المسلمين عبر الزمن وفي بقاع العالم، لأن الرسالة الإلهية التي جاء بها إلى الناس، هي دستور الحياة وحبل النجاة في الآخرة، عنوانها التوحيد، ومحورها الاستخلاف بتحقيق معنى العبودية لله تعالى.

هذه الرسالة التي عانى النبي ﷺ الشدة والعنت في تلقيها من جبريل عليه السلام وهو يُترل عليه وحيا من الله تعالى. ولاقى الشدائد في تبليغها للناس وحمل المسلمين على الحفاظ عليها وتبليغها دعوة للتابعين بعدهم. كانت تتميز بخصائص عن غيرها من الرسائل السماوية، وتُعرف بأبعاد مميزة لها، كل هذه العناصر جمّلت الرسالة التي جاء بها محمد ﷺ، وجعلتها خاتمة الرسائل إلى الناس أجمعين، وجعلت الدين عند الله الإسلام وحمل الأنبياء على الإيمان به وتصديقه .

من خلال ما تقدم، فهذا الباب الأخير من هذه الدراسة يشتمل على البحث في النقاط

التالية:

- الجانب الأخلاقي للسيرة النبوية.

- الجانب الدعوي للسيرة النبوية.

- الجانب الحضاري للسيرة النبوية.

الفصل الأول: الجانب الأخلاقي.

المبحث الأول: صفات النبي وأخلاقه مع الناس:

المطلب الأول: صفات النبي محمد ﷺ:

صفات النبي المصطفى من الله سبحانه من بين البشر، حتى يكون حاملاً لرسالة الله تعالى إلى العالمين، حيث جعل الله تعالى هذه الرسالة خاتمة الرسالات السماوية، فلا رسول بعد محمد ﷺ يأتي بعده بنبوة أو رسالة يجمل الناس عليها.

محمد رسول الله وخاتم الأنبياء، كان خلقه القرآن كما أخبرت بذلك أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، لقد كان محمد ﷺ النبي الإنسان بخلق وميزاته التي ميزه الله تعالى بها عن البشر، وقد ذكر القرآن الكريم العديد من هذه الصفات التي تميز بها رسولنا الخاتم. كما ذكرت كتب السيرة والحديث الكثير من الروايات والأخبار عن مجموع الأخلاق والصفات التي عُرف بها .

أولاً: صفة الرحمة.

قال ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران:159).

قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ فيها معنى التأكيد، يذكر الزجاج أن: "ما" بإجماع النحويين صلة لا تمنع الباء من عملها، وقد أحدثت بدخولها توكيد المعنى¹، ومعنى الآية التقرير لجميع من أحل يوم -أحد- بمركزه، "أي كانوا يستحقون الملام منك، وأن لا تلين لهم، ولكن رحم الله جميعكم، أنت يا محمد بأن جعلك الله على خلق عظيم، وبعثك لتتم محاسن الأخلاق، وجعلت بهذه الصفات لما علم تعالى في ذلك من صلاحهم وأنتك: ﴿لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ

¹ -الزجاج: أبو إسحاق بن إبراهيم بن السري بن سهل، معاني القرآن وإعرابه، ت: عبد الجليل عبده شلي، عالم الكتب، بيروت، ط1، 1408هـ/1988م، 482/1.

لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ ﴿﴾ وتفرقوا عنك، والفظ الجافي في منطقه ومقاطععه، وفي صفة النبي عليه السلام في الكتب المترلة: ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق².

"ما" في الآية زائدة للتأكيد والدلالة على أن لين النبي محمد ﷺ ما كان إلا برحمة من الله تعالى. وقد جاءت "ما" صلة لا تمنع الباء من عملها³، مثل قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَفَضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ﴾ (المائدة:13).

ومعنى الرحمة في الآية: رَبط الله على جأشه وتوفيقه للرفق والتلطف بهم، لأنه لو كان فظا قاسي القلب لتفرقوا عنه حتى لا يبقى حوله أحد منهم. والعفو يختص بمحمد ﷺ والاستغفار بحق الله تعالى⁴.

وفي قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾، في مسألة الشورى فهذه الصفة المتعلقة برسول الله ﷺ، فإن الله تعالى أمره بمشاورة أتباعه لأن: "أمر الله نبيه أن يُشاور أصحابه في الأمور وهو يأتيه وحي من السماء؛ لأنه أطيب لأنفس القوم، وإن القوم إذا شاور بعضهم بعضا وأرادوا بذلك وجه الله - عزم لهم على رُشده⁵".

"اشتمل هذا النص على وصفه بخلق الرحمة التي أمده الله بها، ووصفه بلين الجانب، ثم وجهه توجيهها تربويا للأخذ بجملة من مكارم الأخلاق وفضائل السلوك⁶".

قال ﷺ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة:128).

²- ابن عطية، المحرر الوجيز، 533/1.

³- ينظر: الواحدي، الوسيط في تفسير القرآن المجيد، 512/1، والزنجشيري، الكشاف، 647/1. والكلبي: أبو القاسم محمد بن أحمد بن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1415هـ/1995م، 163-164، وأبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، 103/3.

⁴- الزنجشيري، الكشاف، 647/1، والكلبي، التسهيل لعلوم التنزيل، 163/1.

⁵- السيوطي: أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، ت: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مركز هجر للبحوث والدراسات الإسلامية، القاهرة، ط1، 1424هـ/2003م. 87/4.

⁶- عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، الأخلاق الإسلامية وأسسها، دار القلم، دمشق، ط5، 1420هـ/1999م، 438/1.

قوله تعالى: ﴿مَرَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ﴾، "من جنسكم، ومن نسبكم عربي قرشي مثلكم، ثم ذكر ما يتبع المجانسة والمناسبة من النتائج بقوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: شديد عليه شاق- لكونه بعضا منكم-عنتكم ولقاؤكم المكروه، فهو يخاف عليكم سوء العاقبة والوقوع في العذاب، ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾: حتى لا يخرج عنكم عن إتباعه، والاستعداد بدين الحق الذي جاء به"⁷.

عبارة ﴿مِّنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ لدليل على الارتباط العميق بين النبي ﷺ وقومه، لأنه عربي منهم، قرشي من بني هاشم الطيبين الأخيار الذي يمتد نسبهم إلى سيدنا إسماعيل وأبيه الخليل إبراهيم عليهم السلام. وهذا يقتضي مدحا لنسبه ﷺ، كما قال ابن عطية⁸.

ولذلك كان عليه الصلاة والسلام حريص على إيمانهم وطاعتهم لأمر الله تعالى، وهو الرؤوف بالمؤمنين، الرحيم بالمذنبين، لكنه غليظ على الكافرين العاصين لأمر الله تعالى⁹.

وقوله: ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾ معناه عَنَّتْكُمْ؛ فـ "ما" مصدرية، والعنت: المشقة، وهي هنا لفظة عامة، أي: عزيز عليه ما شق عليكم: من قتل وإسارٍ وامتحان¹⁰.

وقرب الشيء من قلب النبي ﷺ، نتيجة خوفه على القوم والرغبة في نجاحهم، وهذا ذكر في صفة النبي ﷺ، لأنه ظهر أثره في الرفق والرحمة بالقوم، ومن آثار ذلك شفاعته للناس يوم الحساب. "جاءت خاتمة هذه السورة آيتين بتذكيرهم بالمنة ببعثة محمد ﷺ والتنويه بصفاته الجامعة للكمال. ومن أخصها حرصه على هدايتهم، ورغبته في إيمانهم ودخولهم في جامعة الإسلام ليكون رؤوفاً رحيماً بهم ليعلموا أن ما لقيه المعرضون عن الإسلام من الإغلاظ عليهم بالقول والفعل هو استصلاح لحالهم .

وهذا من مظاهر الرحمة التي جعلها الله تعالى مقارنة لبعثة رسوله ﷺ بقوله: وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين"¹¹.

7- الزمخشري، الكشاف، 110/3.

8- ابن عطية، المحرر الوجيز، 100/3.

9- الطبري، جامع البيان، 114/2.

10- ينظر: أبو حيان التوحيدي، البحر المحيط، 120/5، والثعالبي، الجواهر الحسان، 232/3.

11- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984م، 70/11.

والمأمل في مظاهر خلق الرأفة والرحمة يتبين له أن معظم الفضائل التي تتعدى آثارها النافعة للآخرين، ترجع إلى هذا الخلق، فهي إما فروع له، أو مدفوعة من قبله أو موجهة منه. لذلك كان عزيز عليه أن يُصيب المؤمنين جانب من المشقة أو العذاب، فكان يحرص دائما أن يجنبهم الصعب من الأمور ويحاول إبعادهم عن المخاطر والمكائد التي تصيب القوم من جهل المشركين وحقد اليهود والمنافقين، الذين يبذلون الجهد في إسقاط كلمة الحق والنيل من رسول الله وصحابته المؤمنين.

ثانيا: النبي الأمي.

قال ﷺ: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الأعراف: 157).

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ﴾، "هذا من بقية خطابه تعالى لموسى عليه السلام. وفيه تبشير له ببعثة محمد ﷺ - وذكر لصفاته وإعلام له أيضا. ومعنى الإتيان: الاقتداء فيما جاء به اعتقادا، وقولا، وفعلا. وجمع هنا بين الرسالة والنبوة، لأن الرسالة في بني آدم أعظم شرفا من النبوة"¹².

حالة الأمية التي عرّف بها النبي محمد ﷺ في الآية تبين أن محمد لا يقرأ ولا يكتب بمقاييس عهد البعثة في القرن السادس الميلادي. وقد روي في الأمر روايات عدة: منها أن أكثر العرب لا يقرأ ولا يكتب، وقيل نسبة إلى أم القرى وهي مكة، وقيل كونه أميا من جملة المعجز، لأنه نزل عليه قرآن من لغة العرب كان معجزا في فصاحته وبيانه، وجاء متحديا العرب في الإتيان بمثله¹³.

12- أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، 402/1.

13- نفسه.

قال الزجاج: "الأمي هو على خِلقَة الأُمَّة، لم يتعلم الكتاب فهو على جبلته. وقوله: ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾، وهذا أبلغ في الاحتجاج عليهم لأنه إخبار بما في كتبهم، والني ﷺ لم يكن يكتب ولا قرأ في التوراة والإنجيل، ولا عاشر أهلها فإتيانه بما فيهما من آيات الله العظام. ومحال أن يجيء مدع إلى قوم فيقول لهم ذكري في كتابكم، وليس ذلك فيه" ¹⁴.

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (يوسف: 2)، وقال ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ (الشورى: 7).

الأصل في كلمة أمي بالضم كما قيل في النسب أمية، أموي بالفتح، أو على أنه نسب إلى المصدر من "أم" ومعناه: المقصود، لأن هذا النبي مقصد للناس وموضع أم. وقال أبو الفضل الرازي: "وذلك مكة فهو منسوب إليها لكنها ذكرت إرادة للحرم أو الموضع" ¹⁵.

والقول الأول هو الثابت والصحيح، لأنه جاء في السير أن النبي ﷺ لم يكن يعرف القراءة والكتابة منذ الصغر ولم يتعلمها حتى مع تنزل آيات القرآن الكريم على فؤاده الطاهر.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾، معناه الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، يجدون نعته ونبوته وأمره ¹⁶. وقد ذكر القرآن الكريم صفات النبي ﷺ التي يعرفها أهل الكتاب.

وأول هذه الصفات النبوة التي اصطفاه الله تعالى لهذه المترلة العظيمة من بين البشر.

ثانياً: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ قال ابن عباس وعطاء:

يريد مكارم الأخلاق وصلة الرحم، وقال مقاتل: الإيمان. "﴿وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾،

¹⁴ - الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، 381/2.

¹⁵ - أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، 402/1.

¹⁶ - الواحدي، الوسيط في تفسير القرآن، 416/2.

قال ابن عباس: عبادة الأوثان وقطع الأرحام، وقال مقاتل: الشرك، وقيل الباطل، وقيل: الفساد ومساوئ الأخلاق، وقيل: القول في صفات الله والكفر بما أنزل وقطع الرحم والعقوق¹⁷.
 ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾، يعني ما كان يحرمه أهل الجاهلية من البحيرة والسائبة وغيرها،
 ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ من الميتة والدم وما ذكر معهما.

قال الزمخشري: "ما حرم عليهم من الأشياء الطيبة كالشحوم وغيرها، أو ما طاب في الشريعة، واللحم مما ذكر اسم الله عليه من الذبائح وما خلا كسبه السحت"¹⁸.
 ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ﴾، يقول الزجاج: الإصر ما عقدته من عقد ثقيل، قال سعيد بن جبير: هو شدة العبادة والأغلال التي كانت عليهم. وقال المفسرون هي الشدائد التي كانت عليهم¹⁹.
 هذه الصفات المذكورة في الآية القرآنية الكريمة، تجعل الأمر بين عنصرين: الأول فاعل في قومه والثاني المستقبل لهذا الفعل، فهذه الميزات هي خصائص نبي، وليس بالنبي البسيط ولكنه محمد عليه الصلاة والسلام خاتم الأنبياء والمرسلين. والخطاب في الآية موجه إلى أهل الكتاب الذين يجدون هذه الصفات في كتبهم، ففي الآية بشارة بمبعث النبي محمد ﷺ، والأمر الثاني الدعوة إلى الإيمان برسالته.

والنبوة هي المكانة العظيمة التي اختار الله تعالى نبيه محمد ﷺ لهذه المترلة ثم تأتي صفتي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي خص الله تعالى بها نبيه وأمه دون سائر الأنبياء والأقوام السابقين، على الرغم من أن هذا العمل، عرفه السابقون من المرسلين في تاريخ دعوتهم.

قال الله تعالى: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: 104).

17- الواحدي، الوسيط، 417/2. وأبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، 402/4.

18- الزمخشري، الكشاف، 165/2.

19- الواحدي، الوسيط، 417/2.

يقول أبو حامد الغزالي: " الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، وهو المهمة التي ابتعث الله لها النبيين أجمعين، ولو طوي بساطه، وأهمل علمه وعمله، لتعطلت النبوة، واضمحلت الديانة، وعمت الفترة، وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد، واتسع الخرق، وخربت البلاد، وهلك العباد.."²⁰.

من الأدلة الثابتة عند أهل الكتاب وجود اسم النبي وصفته في كتبهم بالرغم من التحريف الذي لحق بها، والنسخ الكثيرة التي جاءت في العصور اللاحقة، إلا أن القرآن الكريم أثبت وجود هذه الأدلة في التوراة والإنجيل. ﴿النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾، وهذه عبارة صريحة قاطعة على كذب من ادعى غير ذلك.

صفة النبي "الأمي" منسوبة إلى الأمة الأمية، التي هي على أصل ولادتها، لم تتعلم الكتابة ولا القراءة، فأكثر العرب لا يكتب ولا يقرأ، قاله الزجاج، وكونه أميا من جملة المعجز²¹.

فعن النبي ﷺ قال: ﴿إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسُبُ﴾²².

وقال ابن عباس: كان نبيكم ﷺ أميا لا يكتب ولا يقرأ ولا يحسب²³.

وأما عن صفة رسول الله ﷺ عند أهل الكتاب فقد أخرج البخاري في صحيحه عن عطاء بن يسار قال لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص قلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة، فقال: ﴿أَجَلٌ وَاللَّهِ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي الْقُرْآنِ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (الأحزاب: 45) وَحِرْزًا لِلْأُمِّيِّينَ أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي سَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكَّلَ لَيْسَ بِفِظٍ وَلَا غَلِيظٍ وَلَا سَخَّابٍ فِي الْأَسْوَاقِ وَلَا يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ وَلَكِنْ يَغْفُو وَيَغْفِرُ وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ

20- أبو حامد الغزالي: محمد بن محمد بن محمد الغزالي، إحياء علوم الدين، مكتبة ومطبعة كرياضه فوترا سماراغ، (د.ت)، 302/2.

21- ينظر: الواحدي، الوسيط في تفسير القرآن المجيد، 416/2، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 353/9-354، وأبو حيان، البحر المحيط، 402/4.

22- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب: قول النبي ﷺ لا نكتب ولا نحسب، رقم: 1913، 33/2، ومسلم في صحيحه، كتاب: الصيام،

باب: وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال، رقم: 1080، 124/3، وأحمد في المسند، مسند عبد الله بن عمر بن الخطاب ﷺ، رقم: 5017، 484/4.

23- البغوي، معالم التنزيل، 288/3.

حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعُوجَاءَ بِأَنْ يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَيَفْتَحُ بِهَا أَعْيُنًا عُمِيًّا وَأَذَانًا صُمًّا وَقُلُوبًا غُلْفًا ﴿٢٤﴾ .

قال **عَنْكَ**: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (الجمعة: 2).

بدأت سورة الجمعة بالتسبيح والثناء لله تعالى، وإثبات لقدرته ووحدانيته المطلقة، قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (الجمعة: 1)، وبعد تزيه الله تعالى نفسه عن الشرك، وذكر صفاته، عدَّ بعض خصائص محمد ﷺ التي تميز بها، "ومعنى ﴿بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ بعث رجلا أميا في قوم أميين... يعلمون نسبه وأحواله" ²⁵.

الله سبحانه وتعالى هو الذي أرسل في العرب الأميين رسولا من جنسهم ونسبهم، يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، قال **عَنْكَ**: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ (التوبة: 128)، ليقراً عليهم كتاب الله تعالى الذي ألقاه في قلبه، بالرغم من صفة الأمية التي وصف بها مع قومه، فهي أمة عرف عنها قلة القراءة والكتابة، لأسباب مختلفة، ومع كل هذا فقد بُعث إليهم رسولا منهم يعلمهم الكتاب ويطهرهم من أدران الشرك، ويخلصهم من إتياع الطاغوت، ويخرجهم أمة خيرة للفتح العظيم وإقامة رسالة الله عز وجل في الأرض.

"ومع كونه أميا لا يقرأ ولا يكتب ولا تعلم من أحد، كان يتلو على أمته آيات القرآن التي ترشدهم الخير، ويطهرهم من دنس الكفر والذنوب وأخلاق الجاهلية، ويعلمهم القرآن والسنة والشرائع والأحكام وحكمتها، وإن كانوا في الدنيا والآخرة جاهليتهم في ضلال وخطأ واضح في العقيدة والتشريع والنظام، إذ كانوا قديما متمسكين بدين إبراهيم الخليل عليه السلام، فبدّلوه وغيروه، واستبدلوا بالتوحيد شركا ووثنية، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها الله" ²⁶.

²⁴ - سبق تخريجه ص 26.

²⁵ - الزمخشري، الكشاف، 6/110.

²⁶ - وهبة بن مصطفى الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر المعاصر، بيروت، دمشق، 1418هـ، 193/28.

الأمي منسوب إلى أمة العرب، لأنهم أمة أمية لا كتاب لها، ولا تقرأ كتاب ولا تكتب. وقيل الأميون الذين هم على ما خلُقوا عليه. ﴿مَرْسُولًا مِنْهُمْ﴾ يعني محمدا ﷺ نسبة من نسبهم، وهو من جنسهم، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾، وكان ﷺ أميا مثل أمته التي بُعث فيها، وكانت البشارة به في الكتب السابقة بأنه النبي الأمي، وكونه بهذه الصفة فهو أبعد من توهم الاستعانة على ما أتى به من الحكمة بالكتابة²⁷.

ثالثا: البشير والندير.

قال ﷺ: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْشَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف: 188).

الآية القرآنية تحمل دلائل قوية على صدق الرسول محمد ﷺ، فهو نبي مرسل لا يملك في الأرض، ولا يعلم من الأمر إلا ما علمه الله سبحانه وتعالى.

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾، "إظهار للعبودية، والانتفاء عما يختص من الربوبية من علم الغيب، أي: أنا عبد ضعيف لا أملك لنفسي اجتلاب نفع، ولا دفع ضرر، كما الممالك والعبيد، إلا ما شاء ربي ومالكي من النفع لي والدفع عني"²⁸.

وبعد أن نفى النبي محمد ﷺ معرفته الغيب وما يحمل له علم الغيب من جلب المنفعة، ودفع الضر عنه، أخبر مهمته الأساسية، وصفته التي عرفه الله تعالى بها، ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، أخبر بما بُعث به من الإنذار والتبشير، والظاهر تعلقها بالمؤمنين، لأن منفعتهما معا وجدواهما لا يحصل إلا لهم، قال تعالى: ﴿وَمَا تَعْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (يونس: 101)²⁹.

27 - الرازي، مفاتيح الغيب، 30/3.

28 - الزمخشري، الكشاف، 540/2.

29 - أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، 434/4، بتصرف.

"وإنما قدم وصف النذير على وصف البشير، هنا: لأن المقام خطاب المكذبين المشركين، فالندارة أعلق من البشارة"³⁰. والنسبة بين القولين أن الآية تحتملها، يقول الزمخشري: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾: يجوز أن يتعلق بالنذير، والبشير جميعاً؛ لأن الندارة والبشارة إنما تنفعان فيهم، أو يتعلق بالبشير وحده، ويكون المتعلق بالنذير محذوفاً، أي: إلا نذير للكافرين، وبشير لقوم يؤمنون"³¹.

رابعا: صدق النبي محمد ﷺ:

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْكَ بَعْضَ الْأَقْوَالِ لِأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ (الحاقة: 44-47).

جاء النبي محمد ﷺ بكتاب معجز، تزيل من رب العالمين نزله على لسان جبريل عليه السلام فهو قرآن معجز بكلماته وآياته وسوره جاء لهداية الناس إلى طريق الله تعالى. وقد سمى الله تعالى "الافتراء تقولا لأنه قول متكلف والأقوال المفتراة أقاويل تحقيرا لها كأنها جمع أفعولة من القول كالأضاحيك (جمع أضحوكة) .

"قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لِحَقُّ الْيَقِينِ﴾ الذي لا يحوم حوله ريب ما. ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾؛ أي فسبح بذكر اسمه العظيم تزيها له عن الرضا بالتقول عليه وشكرا على ما أوحى إليك"³². بعث الله سبحانه وتعالى إلى العالمين خاتم الأنبياء والمرسلين، وكانت بعثته في العرب الذين أراد الله تعالى أن يصطفي منهم خير الخلق وأفضلهم ليكون نبيا رسولا.

قال ﷺ: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ (النجم: 1-4).

في مطلع هذه السورة أقسم الله تعالى بالنجم وذكر ما اتصف به نبيه الكريم من صفات الأمانة والنصح، والقيام بأداء الرسالة على الوجه الذي أراده الله ﷻ، وجواب القسم: ﴿مَا ضَلَّ

³⁰ - محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، 209/9. ينظر: الزمخشري، الكشاف، 540/2، وابن عطية، المحرر الوجيز، 485/2.

³¹ - الزمخشري، الكشاف، 540/2.

³² - أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 387/5.

صَاحِبُكُمْ. والعرب لا تقول النجم إلا للثريا، يقول مجاهد وسفيان في قوله: ﴿وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ﴾: النجم هو الثريا وهويها سقوطها مع الفجر³³.

"هذه السورة مكية، ومناسبتها لآخر ما قبلها ظاهرة، لأنه قال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ﴾ (الطور:33) أي: اختلق القرآن ونسبوه إلى الشعر، وقالوا هو كاهن ومجنون، فأقسم تعالى أنه ﷺ ما ضل، وأن ما يأتي به هو وحي من الله"³⁴.

خامسا: بشرية النبي محمد ﷺ:

قال ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ (فصلت:6).

من خلال حديث البخاري السابق، يُلاحظ عبارة "عبدى"³⁵ وكلمة عبد تشير على البشر المخلوق من الله تعالى، فهو عبد بصفات بشرية يمشي في الأسواق يأكل ويشرب، ويتزوج، يحيا ويموت. فكل معالم البشرية تنطبق على هذا الرسول المبعوث إلى قومه لتبليغ رسالة ربه. الأمر بالكلام موجه من محمد رسول الله إلى المعرضين عن دعوته، فهو بشر من خلق بني آدم في الجنس والصورة والهيئة³⁶، وفي هذا الوصف نفي لصفة الملك عنه لأنه واحد من البشر لقوله تعالى: ﴿مَرَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، النبي محمد ﷺ واحد من القوم من جنسهم ومن نسبهم. أخبر أنه بشر مثلهم لا ملك لكنه أوحى إليه دونهم. وقال الحسن: علمه تعالى التواضع وأنه ما أوحى إليه توحيد الله ورفض آهتكم³⁷.

33- الطبري، جامع البيان، 7-5/22.

34- أبو حيان، البحر المحيط، 154/8.

35- ينظر الحديث ص 273.

36- الطبري، جامع البيان، 379/20، بتصرف.

37- ينظر: ابن عطية، المحرر الوجيز، 4/5، وأبو حيان، البحر المحيط، 464/7.

في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ ؛ أي إنما أنا واحد منكم ولولا الوحي ما دعوتكم، وهو قوله: ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا﴾ لا تميلوا عن سبيله وتوجهوا إليه بالطاعة³⁸.

وضمن استقيموا معنى التوجه، فلذلك تعدى بـ إلى أي: وجهوا استقامتكم إليه³⁹.

سادسا: صفة الاستقامة.

قال ﷺ: ﴿فَلِذَلِكَ فَادُعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَكَاتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (الشورى: 14).

الآية القرآنية الكريمة يربطها رابط المناسبة بينها وبين الآيات القرآنية السابقة في قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ (الشورى: 13).

لأن اللام في قوله: ﴿فَلِذَلِكَ﴾ هي بمتزلة إلى، كما قال تعالى: بأن ربك أوحى لها الزلزلة، أي إليها، كأنه قال: فإلى ما وصى به الأنبياء من التوحيد ﴿فَادُعُ﴾⁴⁰.

والدين الذي شرعه الله تعالى لأنبيائه هو التوحيد، والذي أمرهم بأن يقيموه، قال مجاهد: (يعني أنه شرع لكم ولمن قبلكم من الأنبياء دينا واحدا)، فكان الأمر المباشر والمطلق إلى خاتم الأنبياء والمرسلين، ﴿فَلِذَلِكَ فَادُعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾، وهي إشارة إلى ما وصى به الأنبياء من التوحيد والاستقامة على الدين، والأمر موجه إلى النبي ﷺ. والنهي عن اتباع أهوائهم، لأن محمد

38- الواحدي، الوسيط في تفسير القرآن المجيد، 25/4.

39- أبو حيان، البحر المحيط، 464/7، بتصرف.

40- ابن عطية، المحرر الوجيز، 30/5.

يقول: ﴿آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ﴾، وكان أمر الله تعالى إلى محمد ﷺ بأن يعدل بين الناس بما جاء به من التشريع والتبليغ الإلهي⁴¹.

في الآية القرآنية تظهر صفات محمد ﷺ التي ميزه الله سبحانه وتعالى بها، فكان الرسول المؤمن بما أنزل إليه، المستقيم على دين ربه، القائم بين الناس بالعدل، وما الأوامر التي جاءت من عند الله تعالى إلا لتأكيد الصفة، ودوام النبي ﷺ عليها.

"حوطب عليه السلام بأمر الاستقامة، وقد كان مستقيماً، بمعنى دُم على استقامتك، وهكذا الشأن في كل مأمور بشيء هو متلبس به إنما معناه الدوام، وهذه الآية ونحوها كانت نصب عين النبي ﷺ، وكانت شديدة الموقع من نفسه، أعني قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ (هود: 112) لأنها جملة تحتها جميع الطاعات وتكاليف النبوة، وفي هذا المعنى قال عليه السلام: شيبتي هود وأخواتها، فقيل له: لم ذلك؟ فقال: لأن فيها: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾، وهذا الخطاب له عليه السلام بحسب قوته في أمر الله تعالى وقال هو لأتمته بحسب ضعفهم استقيموا"⁴².

سابعاً: محمد رسول الله.

قال الله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ مِرْحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرْمِذٍ أُخْرِجَ شَطَؤُهُ فَاِزْمِرُهُ فَاسْتَغَاظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الفتح: 29).

في هذه الآية القرآنية يخاطب الله سبحانه وتعالى نبيه الكريم باسمه "محمد"، ولم يخاطبه قبلاً إلا بالرسول أو النبي، بعكس الأنبياء والرسل السابقين الذين تُذكر أسماءهم في كل مناسبة، وفي

41- الواحدي، الوسيط، 47-46/4، بتصرف.

42- ابن عطية، المحرر الوجيز، 30/5.

كل قصة من القصص القرآني. ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾، ومع الاسم جاء التشريف الرباني بأن محمد هو رسول الله إلى الناس، المبلغ عن ربه الدعوة الإسلامية.

وبما أن هذا الرجل المصطفى من البشر هو رسول الله فإن صفاته المميزة هي التي جعلته يختص بهذه الرسالة الإلهية، وبالمقابل كان القوم المرسل إليهم يحملون الأخلاق العالية التي كونت منهم جيلا ربانيا يحمل عبء الرسالة الإلهية إلى العالمين، مبلغين لكلمة التوحيد في كل بقاع الأرض.

"قوله: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ (الفتح:29)، فهذا كله شهادة منه لرسوله، قد أظهرها وبينها، وبين صحتها غاية البيان بحيث قطع العذر بينه وبين عبادته، وأقام الحجة عليهم. فكونه سبحانه شاهدا لرسوله: معلوم بسائر أنواع الأدلة: عقليها ونقلها وفطريها وضروريها ونظريها"⁴³.

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾: ذلك الرسول المرسل بالهدى ودين الحق، والاسم الشريف خير مبتدأ محذوف ورسول الله عطف بيان أو نعت أو بدل، والجملة استئناف مبين لقوله تعالى: هو الذي أرسل رسوله . ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾: مبتدأ خبره قوله سبحانه: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾، لأن الذين معطوف على محمد ورسول صفته وأشداء خير عن الجميع. لأن الوصف بالشدّة والرحمة يشمل النبي ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم⁴⁴.

ومن فضائله إخبار الله ﷻ عن إجلال قدر نبيه ﷺ، وتبجيله، وتعظيمه، وذلك أنه ما خاطبه في كتابه، ولا أخبر عنه إلا بالكناية التي هي النبوة والرسالة التي لا أجلّ منها فخرا، ولا أعظم خطرا، وخاطب غيره من الأنبياء وقومهم وأخبر عنهم بأسمائهم، ولم يذكرهم بالكناية التي هي غاية المرتبة، إلا أن يكون الرسول ﷺ في جملتهم. بمشاركته معهم في الخطاب والخبر، فأما في حال الانفراد فما ذكرهم إلا بأسمائهم، والكناية عن الاسم غاية التعظيم للمخاطب المجلل والمدعوى العظيم، لأن من بلغ به غاية التعظيم كُنِيَ عن اسمه، إن كان ملكا قيل: يا أيها الملك، وإن كان أميرا قيل: يا أيها الأمير، ... ففضل الله ﷻ نبيه ﷺ، وبلغ به غاية الرتبة وأعلى الرفعة فقال لنبيه:

43- ابن قيم الجوزية: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي، الضوء المنير على التفسير، جمعه: علي الحمد الحمد الصالح، مؤسسة النور للطباعة والتجليد، مكتبة دار السلام، الرياض، (د.ت)، 405/5.

44- الألوسي، روح المعاني، 123/26، بتصريف، وينظر: الكلبي، التسهيل لعلوم التنزيل، 353/2.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ (الأحزاب: 45)، وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَاءِرُونَ فِي الْكُفْرِ ﴾ (المائدة: 41) ⁴⁵.

وقد جمع الله تعالى للنبي ﷺ وصحابته الكرام بين الهدى والرحمة والصلاة عليهم، فقال تعالى: ﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ (البقرة: 157).

ولما كان نصيب كل عبد من الرحمة على قدر نصيبه من الهدى كان أكمل المؤمنين إيمانا أعظمهم رحمة، قال تعالى في أصحاب رسول الله ﷺ: ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ مِرْحَمَاءٌ بَيْنَهُمْ ﴾ (الفتح: 29) ⁴⁶.

الآية القرآنية تكلمت بصفة واضحة عن محمد رسول الله ﷺ وصحابته ﷺ، وقد بين الله تعالى الوصف الدقيق والواضح لهذا النبي ومجموعة الرجال الذين رباهم على المنهج النبوي. حيث وصفهم الله سبحانه بأن بعضهم رحيم على بعض، وأن عليهم السكينة، وهم أشداء على الكفار في الحق رحماء بينهم، والخير جاء ليصف الجميع بهذه الصفات ومحمد ﷺ وأولهم. ومثل هذا قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (المائدة: 54).

وقوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ ﴾، أي ذلك صفة محمد ﷺ وأصحابه في التوراة، ثم أعلم أن صفتهم في الإنجيل أيضا ⁴⁷.

ثامنا: النبي العبد.

قال الله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ (الجن: 19).

45 - أبو نعيم الأصبهاني، دلائل النبوة، ص 40.

46 - ابن قيم الجوزية، الضوء المنير على التفسير، 404/5.

47 - الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، 29-28/5، بتصرف.

من الصفات التي عرف بها النبي محمد ﷺ، ومن سبقه من الأنبياء، العبد من العباد الذين أنعم الله عليهم نعمة الخلق، وأفرده خاصة بالنبوة والرسالة، فكان النبي البشر الموصوف بالعبودية لله تعالى، قال جل شأنه: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَكَأُشْرِكُ بِهِ إِلَهِيهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبٌ﴾ (الرعد:36). فهو عبد الله المأمور بعبادة الله وعدم الإشراف به، لأن الغرض الثاني من خلق الإنسان في الأرض بعد الاستخلاف هو العبادة، وإفراد الله سبحانه دون غيره بالتوحيد، فالنبي ﷺ مأمور بعبادة الله جل جلاله، ودعوة الناس إلى عبادته، فهو عبد الله المصطفى بالنبوة لتبليغ رسالة الله تعالى، وهي صفات فريدة اجتمعت في شخص محمد ﷺ.

﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾، يعني النبي ﷺ حين قام يصلي صلاة الفجر بطن نخلة ويقرأ القرآن ويعبد الله تعالى، كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا، ومعنى لِبَدًا يركب بعضهم بعضا. متراكمين من ازدحامهم عليه تعجبا مما شاهدوا من عبادته وسمعوا من قراءته واقتداء أصحابه به قياما وركوعا، كما لم يروا من قبل هذا المنظر .

وقرأ الأكثرون لِبَدًا بكسر اللام وفتح الباء، ومن قرأ لُبْدًا بضم اللام فهو بمعنى الكثير من قوله تعالى: ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبْدًا﴾، ومعنى القراءتين واحد يُقال لِبْدَةٌ وَلُبْدَةٌ⁴⁸. يقول الزجاج: "ومعنى لُبْدًا يركب بعضه بعضا، وكل شيء ألصقته بشيء إلصاقا شديدا فقد لبده ومن هذا اشتقاق هذه اللبود التي تفرش، فأما من قرأ لِبْدًا فهو جمع لِبْدَةٍ وَلِبْدَةٍ. ومن قرأ لُبْدًا فهو جمع لِبْدَةٍ وَلِبْدَةٍ في معنى واحد"⁴⁹.

"وإيراده عليه الصلاة والسلام بلفظ العبد دون لفظ النبي أو الرسول أو الضمير إما لأنه مقول على لسانه ﷺ لأنه أمر أن يقول أحى كذا فجاء به على ما يقتضيه مقام العبودية والتواضع أو لأنه تعالى عدل عن ذلك تنبيها على أن العبادة من العبد لا تستبعد ونقل عليه الصلاة والسلام كلامه سبحانه كما هو رفعا لنفسه عن البين"⁵⁰. الآية القرآنية المترلة وحيا على محمد ﷺ تبين أن

48 - ينظر: الألوسي، روح المعاني، 92/29، والواحدى، الوسيط، 368/4، وابن الجوزي، زاد المسير، 383/8.

49 - الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، 237/5.

50 - الألوسي، روح المعاني، 92/29.

من جملة ما أوحى إليه هو قيامه بالمهام التعبديّة في جماعة صحابته الكرام في مختلف أوقات الصلوات المخصوصة. ومقام العبادة يقتضي ذكر النبي ﷺ بصفة العبد لأنه ﷺ الأولى في مقام العبودية لله تعالى وقيامه بها على أحسن وجه أمره الله تعالى به، "وإيراده بلفظ العبد للإشعار بما هو المقتضى لقيامه وعبادته للتواضع لأنه واقع موقع كلامه عن نفسه"51.

في هذه الآيات القرآنية من سورة الجن، محور الكلام هو التوحيد المطلق لله تعالى، ويتجلى الأمر من خلال الذكر وقراءة القرآن والقيام بالشعائر التعبديّة، ومكان العبادة الأول هو المسجد، لذلك جاء ذكر المسجد في مستهل الحديث عن عبادة النبي ﷺ وصحابته أمام مشركي قريش، قال ﷺ: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ (الجن:18). ولما قام النبي ﷺ يدعو الله سبحانه وتعالى، أي يتعبده اجتمع عليه العدد الكثير من الجن وهم يرون هذا المشهد الرباني العجيب أمامهم، فكان وحي الله تعالى الذي أخبره فيه بالأمر. وليؤكد صفة العبودية لمحمد ﷺ وصفه بالعبد لأنه مقام العبودية لله ونبد الشرك ودعوة الإنس والجن لعبادته.

قال تعالى: ﴿فَذَكَرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ لِّسْتَعْلِيهِمْ بِمُصِطَرِّ﴾ (الغاشية:21-22).

التذكير وصف آخر للنبي ﷺ جاء في العديد من الآيات القرآنية البيان بأن محمد ﷺ جاء بشيرا ونذيرا من الله تعالى ليذكر الناس بالفطرة الأولى التي فطر عليها الإنسان.

استفهم الله تعالى عن الإدراك الناقص للمشركين في النظر إلى المخلوقات الشاهدة على قدرة الله تعالى، ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ مَرْفُوعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (الغاشية:17-20)، "حتى لا ينكروا اقتداره على البعث فيسمعوا إنذار الرسول ﷺ ويؤمنوا به ويستعدوا للقاءه"52.

فالرسول ﷺ جاء ليبلغ رسالة ربه للعالمين، فهو المذكر ولا يملك من أمر الناس شيئا، قال ﷺ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ (الشورى:48)، فالتذكير والتبليغ خاصية الرسول الكريم، والأمر يعود إلى الناس في عدم النظر وعدم ذكرهم لنعم الله تعالى عليهم،

51- أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 407/5.

52- الزمخشري، الكشاف، 366/6.

وفي المقابل يقفون سدا أمام دعوة محمد ﷺ ﴿لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ (الغاشية: 22) أي متسلط، ومسؤول عن عدم استجابتهم للذكر. وبالرغم من جهد النبي ﷺ وأمنيته الملحة في اهتدائهم، فالأمر كله يعود لله تعالى، ﴿إِلَّا مَنْ تَوَكَّلَ وَكَفَرَ﴾، قيل استثناء منقطع، وقيل استثناء من قوله: ﴿فَذَكِّرْ﴾؛ أي فذكر إلا من انقطع طمعك من إيمانه وتولى فاستحق العذاب الأكبر، وما بينهما اعتراض⁵³.

الإعراض عن الدعوة الإسلامية التي جاء بها النبي محمد عليه الصلاة والسلام أمر واقع من كفار قريش، لأن قوة تقليدهم للأباء والأجداد أعمت البصائر عن نور الحق، كما أن العناد والأنفة حال دون إيمانهم بإله واحد دون غيره من المعبودات، فهذا جعل النبي يتصدى لجميع ممارسات المشركين الذين تصدوا بالقوة المعنوية والمادية للحول دون وصول الدعوة إلى قلوب الناس في مكة.

ولهذا خاطب القرآن الكريم النبي بأنه المبلغ لرسالة الله تعالى، ولا يملك من الأمر شيئاً آخر إلا التذكير بدعوة الله تعالى في كل وقت وفي كل مكان .

⁵³ - السابق، وينظر: الألوسي: روح المعاني، 117/30.

المطلب الثاني: أخلاق الرسول ﷺ مع الناس:

أولاً: الخلق العظيم للنبي محمد ﷺ.

من النعم الفارقة التي حصلت لمحمد ﷺ أن متعه الله تعالى بمكارم الأخلاق، التي زينت نفسه الطاهرة، واجتمعت فيه أحسن الأخلاق دون غيره من الأنبياء والرسل عليهم السلام. قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم:4). "فقد أخبر سبحانه في هذه الآية عما كان عليه المصطفى من أخلاق فاضلة، ووصف خلقه ﷺ بأنه عظيم وأكد ذلك بثلاثة أشياء بالإقسام عليه بالقلم وما يسطرون وتصديره بأن وإدخال اللام على الخبر، وكلها من أدوات تأكيد الكلام"⁵⁴. واختلف العلماء في بيان مفهوم لهذا الخلق العظيم الذي وصف به محمد ﷺ، إلا أن الجمهور أن حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بين كيفية هذا الخلق العظيم، فعندما سئلت عن خلق زوجها رسول الله ﷺ قالت: ﴿كَانَ خَلْقَهُ الْقُرْآنَ﴾⁵⁵. ومعنى هذا أن النبي ﷺ امتثل أوامر القرآن ونواهيه أمر أمراً سجية وخلقاً له تطبعه، مهما كان أمر القرآن أو نهي، وهذا مع ما جبله الله عليه من الخلق العظيم، فلم يذكر خلق محمود، ونعت جميل، إلا وكان للنبي ﷺ الحظ الأوفر لأنه ﷺ لم يكن له هم آخر غير تبليغ رسالة الله تعالى إلى الناس، فاجتمعت فيه مكارم الأخلاق التي أرسل لإتمامها⁵⁶.

54- عبد المحسن بن حمد العباد، من أخلاق الرسول الكريم ﷺ، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط5، 1411هـ، ص27.

55- سبق تخريجه ص17.

56- أبو أسامة سليم بن عبد الهلالي، الأخلاق النبوية المعطرة في الآيات القرآنية المطهرة، دار الإمام مالك للنشر، البليدة، الجزائر، ط1، 1415هـ/1995م، ص32-33، بتصرف.

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: ﴿ إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ ﴾⁵⁷، في الحديث الشريف الذي بيّن فيه رسول الله ﷺ المبعوث رحمة للعالمين أن مهمته في الناس هي الإتمام؛ أي إكمال صالح الأخلاق للعرب خاصة الذين بُعث فيهم. وفي الحديث فوائد أهمها، اعتراف الوحي الرباني أن العرب كانوا على أخلاق حميدة بالرغم من التحريف الذي طال شرائع الحنيفية السمحة، وهو ظاهر في كلمة لأتمم فقد أقر العرب على مكارم الأخلاق التي عندهم، وأتمها بإزالة سيئ الأخلاق، وإظهار محاسن الأخلاق عندهم في أحسن صورها وأفضل ما وضعت له.

إن الخلق العظيم الذي وصف به محمد ﷺ، جعله يحمل رسالة الله تعالى بكل أمانة ويبلغها الناس، ليزكيهم ويعلمهم الحكمة والكتاب. فكانت أخلاقه عليه الصلاة والسلام مثالا للرسول في تعامله مع الناس، وكان القدوة في حمل مكارم الأخلاق للعباد حتى يتيقنوا من صدق القول ويتبعوا دعوة الحق.

ثانيا: خلق الرحمة.

قال ﷺ: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنبياء: 107).

محمد ﷺ مبعوث إلى القوم لدعوتهم إلى سبيل الله تعالى، فكان الاستثناء والحصر أنه مرسل بالرحمة للعالمين.

هذا الاستثناء جعله يتميز عن الأنبياء والرسل بالخلق الحميد، والقلب الرحيم والنفس الطاهرة النقية، وبالرغم من شدة الوحي في تنزله عليه، ومن حالة اليأس من إدبار قومه عن الدعوة، وجحودهم في عبادة الله سبحانه وحده لا شريك له، وكل القسوة والعذاب الذي لقيه مع الصحابة الكرام ﷺ، إلا أن هذا الرجل كان يصبر على قومه. وينتظر اهتداء السادة فيهم لأنهم الأكثر تبصرا بحقيقة الوحي وصدق دعوة النبي عليه الصلاة والسلام.

57- أخرجه البخاري في الأدب المفرد، ص42، وأحمد في المسند، رقم: 8932، 57/9، والحاكم في المستدرک، كتاب: تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين، باب: من كتاب آيات رسول الله ﷺ التي دللت النبوة، رقم: 4280، 720/2. وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران: 159).

في الآية القرآنية مفهوم للرحمة كيف تلامس قلب نبي مرسل من الله تعالى لتبليغ الرسالة. الرحمة هي اللين مع المجموعة بالرغم من الخطأ العظيم، لأنهم خالفوا أوامر النبي ﷺ في معركة مع الشرك. وهذا الأمر المخالف لا يمس أصل من أصول العقيدة ولا حكما شرعي قطعي الثبوت. هو خطأ يتعلق بطاعة رسول، قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (آل عمران: 132).

وقال: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ (آل عمران: 32).
﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَأَخِذُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا إِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (المائدة: 92).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَاتَّبِعُوا تَمَعُونَ﴾ (الأنفال: 20).
﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (النور: 54).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ (محمد: 33).

الملاحظ في الآيات القرآنية يجد أن طاعة الرسول ﷺ من طاعة الله تعالى، والطاعة أمر؛ أي واجب شرعي، لأن التولي عن طاعة الله ورسوله فيه هلاك للناس، لأن الرسول مأمور بتبليغ رسالة ربه إلى الناس، فهو يحمل رسالة فيها تبشير وإنذار للعالمين .

الأمر الثاني الخطاب موجه للمؤمنين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهم يسمعون كلام النبي ﷺ فيهم، وتوليهم عن أمر النبي هو عدم طاعتهم له، وهذا يؤدي إلى إبطال أعمالهم الخيرة والكثير من صلاة وصيام، وقيام وجهاد في سبيل الله تعالى، وبالمقابل الطاعة تجعل المؤمن يسلك طريق الهداية إلى الله.

ومن خلال ما تقدم فإن رحمة الله تعالى بالنبي محمد ﷺ جعلته يستغفر للمؤمنين الخطاءين، ويصفح عن ميلهم عن طاعة الرسول ﷺ في المعركة. هذا بالنسبة لمعنى اللين، أما العفو والصفح فهي صفة محمد ﷺ الذي ينظر إلى مستقبل الدعوة لا إلى الخطأ في نفسه.

عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: **مَا خَيْرَ رَسُولٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ أُمَّرَيْنِ إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ وَمَا اتَّقَمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِنَفْسِهِ إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللَّهِ فَيَنْتَقِمَ اللَّهُ بِهَا** **﴿٥٨﴾**.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ **﴿٥٩﴾** قَالَ: **كُنْتُ أَمْشِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَيْهِ رِدَاءٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظٌ حَاشِيَةٌ فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ فَجَبَذَهُ بِرِدَائِهِ جَبَذَةً شَدِيدَةً نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عُنُقِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ أَثَرَتْ بِهَا حَاشِيَةُ الرِّدَاءِ مِنْ شِدَّةِ جَبَذَتِهِ ثُمَّ قَالَ يَا مُحَمَّدُ مُرِّ لِي مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي عِنْدَكَ فَالْتَقَتَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَضَحِكَ ثُمَّ أَمَرَهُ بِعَطَاءٍ** **﴿٥٩﴾**.

قوله تعالى: **﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾**، معناه فبرحمة من الله، و"مَا" قد جرد عنها معنى النفي ودخلت للتأكيد وهي ليست زائدة لا معنى لها. يقول الزجاج: "ما" بإجماع من النحويين صلة وفيها معنى التأكيد⁶⁰. ولأن خلق النبي ﷺ عظيم، فإن صفة الرحمة أدركت المسلمين في يوم عظيم، لأنه لو كان فظا جافي المنطق والمقطع، قاسي القلب، فالغضب الشديد كان الطريق السهل ليتفرق الناس من حوله، ولا يدركون الرسالة العظيمة التي جاء بها لهداية الناس من ضلال الشرك. لكن رحمة الله هو السبيل الوحيد لحماية الدعوة الإسلامية ونيها محمد ﷺ والناس أجمعين. الأمر الثالث الاستغفار فبعد أن عفا الرسول ﷺ عن المؤمنين، كان أن استغفر الله تعالى لهم ليغفر لهم خطيئتهم ويكفر عنهم سيئاتهم.

58 - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب: صفة النبي ﷺ، رقم: 3560، 518/2، ومسلم في صحيحه، كتاب: الفضائل، باب:

مباعدته ﷺ للأثام واختياره من المباح أسهله وانتقامه لله عند انتهاك حرماته، رقم: 2327، 80/7.

59- رواه البخاري في صحيحه، كتاب اللباس، باب: البرود والخبر والشملة، رقم: 5809، 58/4، ورواه مسلم في صحيحه، كتاب: الزكاة، باب:

إعطاء من سأل بفحش، رقم: 1057، ، وأحمد في المسند، مسند أنس بن مالك، رقم: 12487، 494/10-495، ورقم: 13127، 111/11.

60- ينظر: الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، 482/1، وابن عطية، الحرر الوجيز، 533/1.

"أمر الله تعالى رسوله بهذه الأوامر التي هي بتدرج بليغ، وذلك أنه أمره بأن يعفو عليه السلام عنهم ما له في خاصته عليهم من تبعة وحق، فإذا صاروا في هذه الدرجة، أمره أن يستغفر لهم فيما لله عليهم من تبعة، فإذا صاروا في هذه الدرجة كانوا أهل للاستشارة في الأمور والشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام، ومن لا يستشر أهل العلم والدين فعزله واجب وقد مدح الله المؤمنين بقوله: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ (الشورى:38)"⁶¹.

إن خلق الرحمة الذي تميز به النبي محمد ﷺ، جعله أشد الأنبياء قربا من الناس وحرصا على هدايتهم أجمعين، وكان يبذل الجهد العظيم ليؤمن القوم ويتقربوا إلى الله تعالى. لكن العناد والكفر كان أشد وقعا في نفوس المشركين من قبول دعوة التوحيد.

ثالثا: خلق اللين مع الناس.

قال وَعَلَىٰ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ (الكهف:6).

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الحجر:88).

إنه أمر الله تعالى إلى نبيه الكريم أن لا يذهب نفسه حسرات على إعراض المشركين عن الدعوة، وفي نفس الوقت يأمره أن يخفض جناحه للمؤمنين يأخذهم بالرحمة والرأفة.

قال تعالى اسمه: ﴿أَفَمَنْ زُجِرَ لَهُ سَوْءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا

تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (فاطر:8).

الآية القرآنية تسلية للنبي ﷺ بعد الإعراض الذي لقيه من المشركين، فقد أمره الله تعالى بالإعراض عن أمرهم وأن لا يبضع نفسه أسفا عليهم. وأن يمثل لسنة الله ﷻ في هداية من شاء وإضلال من شاء⁶². "والحسرات: مفعول له يعني: لا تهلك نفسك للحسرات، وعليهم صلة تذهب، كما تقول: هلك عليه حبا، ومات عليه حزنا. أو هو بيان للمتحسر عليه، ويجوز أن يكون حالا، كأن كلها صارت حسرات لفرط التحسر"⁶³.

⁶¹ - ابن عطية، المحرر الوجيز، 534-533/1.

⁶² - ينظر: ابن عطية، المحرر الوجيز، 430/4، وأبو حيان، البحر المحيط، 288/7، الثعالبي، الجواهر الحسان، 383/4.

⁶³ - الزمخشري، الكشاف، 142-141/5.

والحسرة: هم النفس على فوات أمر، واستشهد ابن زيد على ذلك بقوله تعالى: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتِي عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ (الزمر: 56).

وفي السنة الشريفة أحاديث عظيمة تبين رحمة النبي ﷺ وحرصه الشديد على إيمان قومه واهتدائهم إلى طريق الله تعالى، منها حديث عائشة رضي الله عنها.

قال النبي ﷺ: ﴿بَلْ أَرْجُوا أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا﴾⁶⁴.

يقول ابن حجر العسقلاني في شرح هذا الحديث: "وفي هذا الحديث بيان شفقة النبي ﷺ على قومه، وفريد صبره وحلمه، وهو موافق لقوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ﴾، وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾"⁶⁵.

مربعاً: شفقة النبي ﷺ على الأمة:

قال ﷺ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة: 128).

جاء رسول الله ﷺ من جنس العرب ومن نسبهم الشريف، فالنبي أقرب الناس إليهم، لذلك يعز عليه ويكبر في نفسه تعنتهم وعدم سماعهم لخطاب الحق. كما يعز عليه المشقة والعذاب الذي يجده المؤمنون من الكفار، فهو القائد عليهم في السراء والضراء، يعني الذي يحمي جماعتهم ويرشدهم إلى دين الله تعالى، ويبين لهم الأحكام التشريعية المترلة عليهم.

قوله سبحانه: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾، توضح تلك العلاقة النفسية والرابطة القوية التي تجمع بين النبي ﷺ والمؤمنين، لأنه يعز عليه الأمر الذي يسبب لهم المشقة والعنت.

⁶⁴ - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: بدء الخلق، باب: إذا قال أحدكم "آمين" والملائكة في السماء فوافقتة الأخرى عُفِر له ما تقدم من ذنبه، رقم: 3231، 428/2-429، ومسلم في الصحيح كتاب: الجهاد والسير، باب: ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، رقم: 1795، 181/5.

⁶⁵ - ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، 530/7.

لفظ عزيز يعني شديد، وفي سورة براءة: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾، يعني شديدا يشق عليه ما عنت القوم⁶⁶. والعنت المشقة، فالنبي ﷺ شديد عليه ما يجده المؤمنون من الامتحان الصعب في سبيل الدعوة الإسلامية، وما يعانوه من التعذيب والقتل، والشدة من الكفار، وهو حريص على إيمانهم وهداهم أشد الحرص. وقوله: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ﴾: أي مبالغ في الشفقة عليهم، قال أبو عبيدة: الرأفة أرق الرحمة، وقيل رءوف بالمؤمنين، رحيم بالمذنبين⁶⁷.

خامسا: تواضع الرسول عليه الصلاة والسلام:

الرحمة واللين والخلق الجميل هي صفات وسمات رُسمت على شخص النبي ﷺ وجعلته إنسانا متميزا بخلقه العظيم فكان النبي الذي عرف الحق عن ربه ﷻ وجاء مبعوثا إلى الناس للتبليغ. فكان الرسول القدوة الذي من خلاله يتربى جيل الصحابة على الأخلاق الإسلامية وهم يرون قرآنا يمشي بينهم، والتواضع أحد هذه الأخلاق الكثيرة التي عُرف بها محمد ﷺ.

قال جل ثناؤه: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء: 215).

وقال ﷻ: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الحجر: 88).

عن أبي هريرة ﷺ قال: ﴿جَلَسَ جِبْرِيلُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَنَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ فَإِذَا مَلَكٌ يَنْزِلُ فَقَالَ جِبْرِيلُ إِنَّ هَذَا الْمَلَكُ مَا نَزَلَ مِنْذُ يَوْمِ خُلِقَ قَبْلَ السَّاعَةِ فَلَمَّا نَزَلَ قَالَ يَا مُحَمَّدُ أُرْسَلْتَنِي إِلَيْكَ رَبُّكَ قَالَ أَفَمَلِكًا نَبِيًّا يَجْعَلُكَ أَوْ عَبْدًا رَسُولًا قَالَ جِبْرِيلُ تَوَاضَعُ لِرَبِّكَ يَا مُحَمَّدُ قَالَ بَلْ عَبْدًا رَسُولًا﴾⁶⁸.

66- الدامغانى: الحسين بن محمد، قاموس القرآن، إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، ت: عبد العزيز سيد الأهل، دار العلم للملايين، بيروت لبنان، ط 3، 1980، ص 324.

67- ينظر: البغوي، معالم التنزيل، 116/4، والثعالبي، الجواهر الحسان، 232/3.

68- أخرجه أحمد في المسند، رقم: 7160، 13/7، والبخاري، وأبو يعلى، 6105. قال البزار: لا نعلمه يروي أبي هريرة إلا بهذا الإسناد، وقال الهيثمي: "رواه أحمد والبزار وأبو يعلى ورجال الأولين رجال الصحيح" الهيثمي، مجمع الزوائد، 18/9-19. والحديث صحيح على شرط الصحيحين.

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: ﷺ لَا تُظْرُونِي كَمَا أَطْرَثُ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ ﷺ.⁶⁹

القارئ للحديث الشريف يلحظ ثلاثة أمور:

1- نهى النبي صلى الله عليه وسلم أن يُمدح، أي المبالغة في الإطراء الذي يوقع في الكذب المحرم.
2- المثال الذي قدمه النبي صلى الله عليه وسلم عن النصارى الذين بالغوا في وصف عيسى عليه السلام ومدحه حتى وقعوا في الشرك المحرم حين أهوا عيسى عليه السلام وجعلوا معه شركاء ما أنزل الله به سلطانا.

3- تواضع النبي المرسل أمام الناس، وهو تواضع لله تعالى الذي جعله عبدا رسولا، وفيه شكر لله سبحانه على نعمة العبودية، والاصطفاء الذي جعل محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وعن الأسود قال: سألت عائشة رضي الله عنها: مَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَصْنَعُ فِي بَيْتِهِ قَالَتْ: ﷺ كَانَ يَكُونُ فِي مَهْنَةِ أَهْلِهِ تَعْنِي خِدْمَةَ أَهْلِهِ فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ ﷺ.⁷⁰
وحدثنا هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أنها سألت: مَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَفْعَلُ فِي بَيْتِهِ قَالَتْ: ﷺ كَانَ يَخِيطُ ثَوْبَهُ وَيَخْصِفُ نَعْلَهُ وَيَعْمَلُ مَا يَعْمَلُ الرَّجَالُ فِي بُيُوتِهِمْ ﷺ.⁷¹

في السيرة النبوية الكثير من الأمثلة التي تصف رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو رجل في بيته يخيط ثوبه ويأكل الطعام ويمزح ويجلس مع أهله، ولعبادة الله تعالى جانب أيضا في حياته بالرغم من مشقة الدعوة، وصعوبة المسؤولية التي كان يحمل وزرها على عاتقه . وهذا يوضح أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان المبلغ عن ربه البشير النذير، القائم بمهام قيادة الأمة المسلمة في المدينة المنورة، وكان القائد المجاهد في سبيل الله لرد الشرك على أهله ورد حقوق المؤمنين المسلوبة، وهو صاحب الكرم، والزوج

69- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الأنبياء، باب: قول الله: ﷺ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّيَدَّتْ مِنْ أَهْلِهَا ﷺ (مریم: 16)، رقم: 3445، 490/2.

70- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الآذان، باب: من كان في حاجة أهله فأقيمت الصلاة فخرج، رقم: 676، 224/1، وطرفاه: 5363، 6039، والترمذي في السنن، كتاب: القيامة، باب: 45، رقم: 2489، 267/4 وقال هذا حديث صحيح، وأحمد في المسند، مسند عائشة رضي الله عنها، رقم: 24829، 472/17، ورقم: 25586، 35/18.

71 - أخرجه أحمد في المسند، مسند عائشة رضي الله عنها، رقم 24784، 259-260، والبخاري في الأدب المفرد، رقم: 539، ص188.

الخلق في بيته والأب الحنون لبناته وأحفاده، وأبناء المسلمين أجمعين. وكل هذه المهام كانت تقع بصفة التواضع والخضوع لله تعالى بكل إجلال وإكبار للرسالة التي كلفه الله سبحانه بتبليغها.

سادسا: لين جانب النبي ﷺ .

قال ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ (آل عمران: 159).

قال ﷺ: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة: 128).

خلق الرحمة والرأفة وهي أرق الرحمة التي ملأت قلب الرسول القائد ﷺ، جعلت منه رجلا لين الجانب طيب العشرة وكثير الحياء من أمته التي بعث فيها نبيا رسولا، "وفي هذا بيان واضح أن لين الجانب، وخفض الجناح من أسباب تأليف القلوب وتوحيد الصفوف"⁷².
ومن أهم الأحاديث التي تُبين خُلُق اللين الذي تميز به النبي ﷺ، حديث الأعرابي الذي بال في المسجد، وتحكيم العقل في هذا الفعل اليوم.

عن أنس بن مالك ﷺ: قال: ﴿بَيْنَمَا نَحْنُ فِي الْمَسْجِدِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ جَاءَ أَعْرَابِيٌّ فَقَامَ يَبُولُ فِي الْمَسْجِدِ فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَهْ مَهْ⁷³ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا تُزْرِمُوهُ⁷⁴ دَعُوهُ فَتَرَكُوهُ حَتَّى بَالَ ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَعَاهُ فَقَالَ لَهُ إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لَا تَصْلِحُ لَشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ وَلَا الْقَدَرِ إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالصَّلَاةِ

72- أبو أسامة سليم بن عبد الهلالي، الأخلاق النبوية المعطرة، ص 60.

73- مه مه: كلمة زجر وهي اسم مبني على السكون بمعنى اسكت. نقله النووي في شرح مسلم، 193/3.

74- لا تُزرموه لا تقطعوا عليه بوله، وأصل الإزرام: القطع.

قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ فَأَمَرَ رَجُلًا مِنْ الْقَوْمِ فَجَاءَ بِدَلْوٍ مِنْ مَاءٍ فَشَتَّهُ عَلَيْهِ ﷺ⁷⁵.

الملاحظ لهذه الحادثة التي وقعت أمام نظر صحابة رسول الله ﷺ، وهم في بيت الله، يسأل الإنسان، إذا وقع هذا الفعل من أي شخص قروي أو بدوي دخل مسجد في مدينة إسلامية، ماذا يكون رد الفعل من المصلين ومن إمام المسجد؟ الجواب يتوقع أن تكون هناك شدة في التعامل مع الواقعة، وفي لحظة ينسى الجميع هذا الحديث الشريف ويتعامل بما تمليه عليه عاطفته وليس عقله. النبي ﷺ كان القائد الأول للمسلمين، وإمامهم ونبیهم المبعوث من الله تعالى، لكنه صرح عن الأعرابي وعامله بلين ورحمة، ليوضح له المسألة من خلال الأجواء التي كان فيها الرجل.

سابعاً: خلق العفو.

قال سبحانه: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ (آل عمران: 159).

وقال تجلت قدرته: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (المائدة: 13).

العفو سمة عظيمة من الأخلاق التي ميزت النبي ﷺ في تعامله مع الصحابة ومع الناس أجمعين، لقد كان يعفو عن المخطئين شرط أن لا يمس أصلاً من أصول الدين، لأن العقاب حينها واجب شرعاً حتى يتربى المؤمنون على الأصول الصحيحة للدين الإسلامي، ويتعلمون دينهم بالطريقة المثلى التي تكفل للجميع تبليغ الدعوة الإسلامية بالقُدوة السليمة. وقد أمر الله تعالى نبيه بأخذ العفو، قال ﷺ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأعراف: 199).

عن عبد الله بن الزبير قال: (أمر الله نبيه أن يأخذ العفو من أخلاق المسلمين)⁷⁶. في رواية عبد الله بن الزبير بيان لخلق العفو حيث يُكون العلاقة بين النبي ﷺ وبين المسلمين، وكيف يكون

75- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الوضوء، باب: ترك النبي ﷺ والناس الأعرابي حتى فرغ من بوله، رقم: 219، 90/1، وطرفاه: 221،

6025، وباب: صب الماء على البول: في المسجد، رقم: 220، 91/1، وطرفه: 6128، ومسلم في صحيحه، كتاب: الطهارة، باب: وجوب غسل البول وغيره من النجاسات إذا حصلت في المسجد وأن الأرض تطهر بالماء من غير حاجة إلى حفرها، رقم: 285، 163/1، واللفظ له.

76- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین، رقم: 4644، 231/3-232.

خلقه مع الجميع. عن جعفر الصادق قال: "ليس في القرآن آية أكمل لمكارم الأخلاق منها، ووجهه بأن الأخلاق ثلاثة بحسب القوة الإنسانية: عقلية وشهوية وغضبية، فالعقلية الحكمة ومنها الأمر بالمعروف، والشهوية العفة ومنها أخذ العفو، والغضبية الشجاعة ومنها الإعراض عن الجاهلين"⁷⁷.

قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ هذا أمر من الله تعالى لنبيه ﷺ يعم جميع أمته وأخذ بجميع مكارم الأخلاق، وقال الجمهور في قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ إن معناه أقبل من الناس في أخلاقهم وأقوالهم ومعاشرتهم ما أتى عفواً دون تكلف، فالعفو هنا الفضل والصفو الذي يتهيأ للنبي ﷺ دون تخرج⁷⁸.

قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾، والعرف والعارفة: ما يعرف كل أحد صوابه وتستحسنه النفوس قال مقاتل وعروة والضحاك: وأمر بالمعروف⁷⁹، ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾، صن نفسك عن مقابلتهم، بسبب سفههم، قال قتادة⁸⁰: في هذه الآية أخلاق أمر الله بها نبيه ﷺ ودله عليها. والإعراض عن الجاهلين يكون بعدم الإقبال عليهم وعدم مقابلة سفههم بسفه، لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ (الفرقان: 63)⁸¹.

قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْزِعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (الأعراف: 200).

نزغ: نزغه إذا طعنه وكان الشيطان يطعن حين يغري الناس إلى المعاصي، وحاصله إذا عرض لك منه أدنى وسوسة تصدك عن الإعراض عن الجهال فاستعذ بالله فإنه الملجأ أو المنجي، لأنه سبحانه سميع الدعاء، عليم بمصالح الناس وأحوالهم⁸².

77- ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب: قوله خذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين، 143/144، رقم: 4644. ذكره: البغوي، معالم التنزيل، 224/2، والرازي، مفاتيح الغيب، 78/15، القرطبي، جامع الأحكام، 219/7، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم، 308/3، وأبو حيان، البحر المحيط، 441/4.

78- ابن عطية، المحرر الوجيز، 492/2.

79- الطبري، جامع البيان، 644/10، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 536/3-537.

80- ينظر: الطبري، جامع البيان، 645/1، وابن كثير، تفسير القرآن، 154/3، والسيوطي، الدر المنثور، 154/3.

81- ابن قيم الجوزية، الضوء المنير على التفسير، 257/3.

82- الإيجي: محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الإيجي الشيرازي، جامع البيان في تفسير القرآن ومعه حاشية محمد بن عبد الله الغرنوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1424هـ/2004م، 684/1.

خلق العفو الذي تميز به النبي ﷺ، وعاش وفق هذه السمة بين الناس حتى لا يصل إلى حد انفضاض القوم من حوله، أو بعدهم عن الدعوة الإسلامية. فالعفو عيش وفق خلق المسلمين الذين شكلوا المجتمع المسلم في المدينة المنورة وكانوا النواة الأولى للأمة المسلمة، وطبيعي أن يكون أمر الدين الإسلامي جديد على نفوسهم، وهم الذين عاشوا فترة في ظل الشرك الذي حرف دين إبراهيم عليه السلام عن أساسه الأول وهو التوحيد، فكان النبي ﷺ أقرب إلى الناس من أنفسهم. ثم كان الصفح عن الأخطاء التي يرتكبها الإنسان من دون قصد منه. فالرسول ﷺ هو القدوة التي تقام عليها جميع القواعد الأخلاقية التي يجب على المسلمين الاضطباع بها.

قال **عَلِيٌّ**: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (المائدة:13).

وكما يذكر المؤلفون في سيرة المصطفى ﷺ والباحثين فيها، أن سيرته ملئ بالمواقف والأخبار التي تبين أخلاق النبي ﷺ مع أصحابه من جهة، ومع الناس من جهة أخرى. عن عائشة رضي الله عنها قالت: **ﷺ** مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا قَطُّ بِيَدِهِ وَلَا امْرَأَةً وَلَا خَادِمًا إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا نِيلَ مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ فَيَنْتَقِمَ مِنْ صَاحِبِهِ إِلَّا أَنْ يُنْتَهَكَ شَيْءٌ مِنْ مَحَارِمِ اللَّهِ فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ **ﷺ** 83.

وعن أنس **رضي الله عنه** قال: **ﷺ** كُنْتُ أَمْشِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَيْهِ رِدَاءٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظٌ حَاشِيَةٌ فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ فَجَبَذَهُ بِرِدَائِهِ جَبَذَةً شَدِيدَةً نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عُنُقِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ أَثَرَتْ بِهَا حَاشِيَةُ الرِّدَاءِ مِنْ شِدَّةِ جَبَذَتِهِ ثُمَّ قَالَ يَا مُحَمَّدُ مُرِّ لِي مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي عِنْدَكَ فَالْتَقَتِ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَضَحِكَ ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ **ﷺ** 84.

83- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الفضائل، باب: مبادئه ﷺ للأثام واختياره من المباح أسهله وانتقامه لله عند انتهاك حرمانه، رقم: 2328.

80/7.

84- سبق تخريجه، ص 288.

العفو هو كف الضرر مع القدرة عليه، والعفو من صفات الله تعالى، أحب الله من عفا وأجزل له العطاء، فهو سبحانه عفو كريم يحب العفو⁸⁵، قال تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تَخْفَوْهُ أَوْ نَعَفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوًا قَدِيرًا﴾ (النساء: 149)، هذا أمر من الله تعالى إلى عباده المؤمنين بفعل الخير، فإبداء فعل الخير أو إخفاءه فيه عطاء كبير من الله ﷻ، والعفو أعظم خلق يصل إليه الإنسان المؤمن لأنه قادر على رد الإساءة لكن إيمانه يمنعه، ولا أعظم من الله تعالى فهو العفو القدير، يملك القدرة على كل شئ يقول له كن فيكون، ولكنه كان العفو عن أخطاء ومعاصي الناس.

ثامنا: النبي ﷺ قدوة الناس في الأخلاق الطيبة:

قبل بعثة محمد ﷺ كان على درجة كبيرة من الأخلاق الفاضلة التي ميزه الله تعالى من دون سائر شباب قريش، فهو الصادق الأمين العفيف الكريم... وبعد أن جاءه الوحي في غار حراء، برزت هذه الأخلاق العظيمة وصبغة بصباغ الإسلام، وجاد الله سبحانه وتعالى في فضله على نبيه الكريم بأن أكرمه بالرسالة الخاتمة وربى به جيلا ربانيا كان ميزانه، ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (الشورى: 52). وكان محمد ﷺ أسوة المسلمين في مكارم الأخلاق، قال ﷺ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب: 21).

من الأخلاق التي أضاعت في قلوب الصحابة رضوان الله عليهم، خلق الرأفة والرحمة الذي وصفهم الله تعالى به في القرآن الكريم، فهم الذين تأسوا به وساروا وفق دين الله تعالى وهم يجاهدون أنفسهم في محاربة الزبغ عن طريق الله تعالى، قال ﷻ: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ (الفتح: 29).

85 - صفى الرحمن المباركفوري، ومن إعداد مجموعة من العلماء، وإنك لعلى خلق عظيم الرسول محمد ﷺ، الرواد للإعلام، جدة، (د.ت)، 287/2.

هذه الأخلاق العظيمة التي ميزت النبي ﷺ والجيل الأول من المسلمين، جعلت من هذا المجتمع جسدا واحدا صدق فيه تسمية الأمة، لأن الأمة هي التي تكتمل فيها جميع مقومات الحياة الإيمانية القوية.

قال النبي ﷺ: ﴿مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِهِمْ وَتَرَاحِمِهِمْ وَتَعَاطِفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَى﴾⁸⁶.

"التودد سبب التراحم، والتعاطف مظهر التراحم، وبذلك يكون الرسول ﷺ ذكر سبب التراحم وثمرته،... وحسبك دليل على هذا التشبيه الفصيح حيث شبه الرسول ﷺ المجتمع الإيماني الرباني بالجسد الواحد، ليدل على قوة وشائج التواصل بين المسلمين، ومثانة أوامر أخوة المؤمنين"⁸⁷.

أما الصفة الثانية التي ميزهم الله ﷻ بها هي اسم الرجولة، قال عز ذكره: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ (التوبة: 108). الطهارة المادية لأجسامهم والطهارة المعنوية لقلوبهم من كل الآثام والأحقاد والأدران، وهي أمراض تصيب القلب الخالي من توحيد الله تعالى والإخلاص له في العبودية.

قال سبحانه: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ۗ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ (النور: 37). رجال أقاموا العبادة على حقها، وهم على يقين من حق الإسلام عليهم وهم يحملون اسمه، فهم بذلك يستحقون اسم رجال بمعناه العظيم.

قال تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَجْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ ۗ وَمَا بَدَّلُوا بَدِيلًا﴾ (الأحزاب: 23).

⁸⁶ - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الأدب، باب: رحمة الناس والبهائم، رقم: 6011، 93/4، ومسلم في صحيحه، كتاب: البر والصلة والآداب،

باب: تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، رقم: 2586، 20/8، واللفظ لمسلم.

⁸⁷ - أبو أسامة سليم بن عبد الهاللي، الأخلاق النبوية المعطرة، ص 87.

وهذا دليل آخر على مكارم الأخلاق التي تميز بها جيل الصحابة، وهو الثبات في الموقف، وصدق العهد، لأن أمر الرسالة السماوية أمر جليل لا يمكن التهاون في حقه أو أخذه بالهزل.

قال ﷺ: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ (النساء: 34).

الفضل الذي ميز الله تعالى بها الرجال من دون النساء من أجل التكوين السليم للأسرة المسلم وفق التشريع الإسلامي، لأن الرجل يفضل على المرأة بميزات عدة بما فيها الإنفاق، يجعله رب الأسرة وولي المرأة في شؤون الحياة المختلفة.

كما وصف الله تعالى الأنصار بخلق الإيثار الذي عُرفوا به يوم هاجر إليهم أصحاب رسول الله ﷺ ولحقهم النبي ﷺ مع رفيقه أبي بكر الصديق.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّامِرَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَكَأِ بُرُوجٍ فِي سُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنَهُ فَوَلِّكَ اللَّهُ الْمَفْلُحُونَ﴾ (الحشر: 9).

تاسعا: حق النبي ﷺ على أمته المؤمنة:

بعث الله سبحانه وتعالى محمد رسول الله صلى إلى الناس جميع رحمة بهم، ليزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وذلك لا يكون إلا بعد تخليصهم من الشرك المتمكن من عقولهم، بإدراك من القوم أو تعنتا وصد عن سبيل الله تعالى.

هذا النبي معروف عند قومه بالأخلاق الكريمة التي يشارك العرب في البعض منها، ويفضل في الكثير عنهم. إن مكارم الأخلاق التي اتصف بها النبي ﷺ بين قومه وشهدوا له بذلك كانت الدليل اليقين على صدق نبوته، فعن خديجة بنت خويلد قالت بعد أ جءه الوحي وهو في غار حراء وقد خاف النبي ﷺ على نفسه، قالت له: ﴿كَلَّا وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ وَتَحْمِلُ الْكَلَّ وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ وَتَقْرِي الضَّيْفَ وَتُعِينُ عَلَىٰ نَوَائِبِ الْحَقِّ﴾⁸⁸.

ومن أقوال أهل مكة في أخلاقه، ما يروى عن بناء قريش للكعبة قبل البعثة النبوية، تنازع القوم من يحمل الحجر الأسود ويضعه في مكانه، وبعد خلاف شديد اتفقوا على تحكيم أول من يدخل عليهم من الباب، فكان محمد ﷺ أول الداخلين، وفرح القوم وقالوا جاء الأمين، جاء محمد، وقد كانت قريش تلقب محمد ﷺ بالأمين لما يعلمونه من أمانته في كل الأمور.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَإِذْ عَشِيرَتُكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء: 214)، صَعِدَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الصَّفَا فَجَعَلَ يُنَادِي يَا بَنِي فِهْرٍ يَا بَنِي عَدِيٍّ لِبَطُونِ قُرَيْشٍ حَتَّى اجْتَمَعُوا فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولًا لِيَنْظُرَ مَا هُوَ فِجَاءٌ أَبُو لَهَبٍ وَقُرَيْشٌ فَقَالَ أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِ تُرِيدُ أَنْ تُغَيِّرَ عَلَيْكُمْ أَكْثَمَ مُصَدِّقِي قَالُوا نَعَمْ مَا جَرَبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا قَالَ فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ تَبًّا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ أَلْهَذَا جَمَعْنَا ۗ﴾⁸⁹.

هذه الروايات والشهادات وغيرها في كتب السنة النبوية، والسيره النبوية، تشهد على مكارم الأخلاق التي تربي عليها النبي ﷺ منذ نشأته إلى أن اختاره الله تعالى نبيا رسولا للعالمين. الأخلاق الكريمة والصفات المميزة، لدليل صادق وبرهان أكيد على صدق دعوته ونبوته عليه الصلاة والسلام

وبما أن محمد ﷺ هو النبي المرسل، فالقدوة الحسنة هي صفته الأولى حتى يكسب في حربه ضد الشرك وأهله، والحرب التي وقعت في زمن بعثته ﷺ كانت للضرورة الملحة، لأنه كان الرجل صاحب الأخلاق العالية الذي يدعو قومه إلى دين الله ويتمنى هدايتهم في العاجل دون الآجل، حتى أنه كان يدعو ربه عز وجل أن يولد من أصلابهم من يوحد الله تعالى.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: 4)، كان النبي ﷺ يحمل من الأخلاق ويتميز في الصفات حتى وصفه الله تعالى بأنه على خلق عظيم، وقد قالت السيدة عائشة رضي الله عنها

89- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب ﴿وَإِذْ عَشِيرَتُكَ الْأَقْرَبِينَ﴾، رقم: 4770، 272/3-273.

"كان خلقه القرآن" يتبين أن الخلق العظيم الذي وصف به الرسول الكريم محمد ﷺ هو الدين الجامع لجميع ما أمر الله به ونهى عنه مطلقاً، حتى صارت المبادرة إلى امتثال ما يحبه الله ويرضاه، واجتناب ما يبغضه ويكرهه بطيب نفس وانشراح صدر⁹⁰، ومن أجل أن يكون الامتثال لأوامر الله ونواهيه ينطبع بطاعة الله تعالى ورسوله، كانت الأخلاق الطيبة هي الأساس الذي ينشأ عليه المؤمن من أجل بلوغ مرضاة الله ﷻ. ولهذا قال النبي ﷺ: ﴿ إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ ﴾⁹¹.

العرب كانوا على قدر من صالح الأخلاق التي عرفوها منذ إبراهيم التيمي، لكن بعدهم عن الدين الحق جعلهم يفقدون روح هذه الأخلاق الطيبة، فجاء النبي ﷺ ليخرج هذه الأخلاق من ظل الشرك ويلونها بنور الإيمان وتوحيد الله تعالى.

مجموع الصفات التي تميز بها محمد ﷺ هي صفات نبي إنسان، لم يحمل هذه الصفات لأجل أن يكون النبي القدوة في كل ما ميزه الله تعالى به ليصطفيه لحمل الرسالة الخاتمة، بل كانت جميع الميزات والصفات لمحمد الإنسان الذي يعيش بين قومه ويحمل رسالة إلى العالم كله، ستتوجه بها كل حملات الفتوحات الإسلامية في بقاع الأرض، وحتى يكون النبي المرسل من ربه تعالى إنساناً فهو يعيش اللحظة مع الناس في كل مراحل الإيمان بالله تعالى والسير وفق المنهج الرباني الذي ارتضاه للإنسان فوق هذه الأرض.

الأمر الثاني أخلاق النبي ﷺ لم تفرق عن الصفات التي ميزه الله تعالى بها، بل كان الرسول الإمام والقائد العظيم يتميز بخلق القرآن الكريم، فهو مثال الرسالة التي يحملها للناس وهو القدوة المثلى للجميع. "جعل الله من صفاته أنه يزكيهم، ولا تكون هذه التزكية بالقول المجرد، بل لا بد فيها من أن يكون الرسول مثالا واقعياً حياً لما يدعو إليه مما تكون به تزكيتهم"⁹²، حتى لا يجرد أمر الدعوة الإسلامية عن أصله من بعثة النبي ﷺ إلى جميع الدعاة في العالم الإسلامي عبر التاريخ إلى أن يرث الله سبحانه الأرض ومن عليها.

90- أبي أسامة بن عبد الهلالي، الأخلاق النبوية المعطرة، ص32.

91 - سبق تخرجه ص 286.

92 - عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، الأخلاق الإسلامية وأسسها، ص437.

الفصل الثاني: الجانب الدعوي:

المبحث الأول: محمد ﷺ رسول الله:

المطلب الأول: الداعي إلى الله:

محمد ﷺ هو آخر الأنبياء بعثة، بعد فترة من الرسل في المنطقة العربية، وهو بذلك يختم الرسالات الربانية إلى الأرض بعد مدة طويلة من ذلك الاتصال بين السماء والأرض، أين يصطفي الله تعالى أفضل خلقه لحمل الأمانة الثقيلة، وهي الدعوة إلى دين الله سبحانه وتعالى.

قال ﷻ: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾ (الأحزاب: 45-46).

قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ (فاطر: 23-24).

عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة، قال: ﴿ أَجَلٌ وَاللَّهِ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي الْقُرْآنِ: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ (الأحزاب: 45) وَحِرْزًا لِلْأُمِّيِّينَ أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي سَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكِّلَ لَيْسَ بِفِظٍّ وَلَا غَلِيظٍ وَلَا سَخَّابٍ فِي الْأَسْوَاقِ وَلَا يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ وَلَكِنْ يَغْفُو وَيَغْفِرُ وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعُوجَاءَ بَأَنْ يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَيَفْتَحُ بِهَا أَعْيُنًا عُمِيًّا وَأَذَانًا صُمًّا وَقُلُوبًا غُلْفًا ﴾ 93

قوله: ﴿ وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا ﴾، فيه ترتيب حسن وذلك لأن النبي عليه السلام أُرسِلَ شاهداً بقول: "لا إله إلا الله" ويرغب في ذلك بالبشارة فإن لم يكف ذلك يُرهب بالإندار ثم لا يكتفي بقولهم: "لا إله إلا الله" بل يدعوهم إلى سبيل الله كما قال تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ (النحل: 125)، وقوله: ﴿ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾ أي مبرهننا على ما يقول مظهرها له بأوضح الحجج وهو المراد بقوله تعالى: ﴿ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾.

الخطاب موجه لمحمد ﷺ المرسل إلى الناس، يحمل بين يديه رسالة الله تعالى. والإرسال الذي بينه الله سبحانه للنبي ﷺ، أنه جاء بصفة الشاهد والمبشر والنذير، والداعي إلى الله، فكان يحمل جميع هذه الصفات حتى يتحقق فيه فعل الرسول المرسل من رب العالمين.

إن هذه الدعوة التي جاء بها محمد عليه الصلاة والسلام، لم تكن أمراً ذاتياً من هذا الرجل بل إذناً ربانياً أراد أن يكون من خلاله آخر الأنبياء بعثة في الأرض.

الشاهد هو النبي ﷺ زمن البعثة بين قومه؛ شاهداً بالتبليغ إليهم، وهو شاهد عند تحمل الشهادة وعند أدائها، وقد انتصب (شاهداً) على أنه حال مقدرة⁹⁴.

قوله سبحانه: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾، "أي شاهداً على أمتك بالإبلاغ، إبلاغ الرسالة، ومبشراً بالجنة، ومنذراً من النار، وهذا كله منصوب على الحال، أي أَرْسَلْنَاكَ فِي حال الشهادة والبشارة والإندار"⁹⁵.

الداعي إلى الله هو النبي الذي يدعو الناس إلى عبادة الله تعالى وتوحيده، والامتثال لشريعته وطاعته، وهذا العمل الذي يقوم به النبي المرسل من الله سبحانه وتعالى، لا يكون سهلاً ميسوراً إلا بإذن الله تعالى، وأمره وتقديره في الزمان والمكان. "قوله: ﴿ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾ استعارة للنور الذي يتضمنه شرعه فكأن المهديين به والمؤمنين يخرجون به من ظلمة الكفر"⁹⁶. وقد وُصِفَ السراج بالإنارة لأن من السراج ما لا يضيء إذا قل سليله ودَقَّت فتيلته⁹⁷.

94- ينظر: الزمخشري، الكشاف، 78/5، ابن عطية، المحرر الوجيز، 389/4، أبو حيان، البحر المحيط، 230/7.

95- الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، 231/4.

96- ابن عطية، المحرر الوجيز، 389/4.

97- الزمخشري، الكشاف، 78/5.

القول الثاني حال كون النبي ﷺ هو السراج المضيء؛ أي مصباحاً منيراً في الظلام؛ يستضاء به في ظلم الضلالة، كما يستضاء بالمصباح في الظلمة، ففي الكلام تشبيهه بليغ. يقول الزجاج: **وَسِرَاجًا**؛ أي: ذا سراج منير؛ أي كتاب نير، والحازن سماه سراجاً منيراً؛ لأنه جلا به ظلمات الشرك، واهتدى به الضالون، كما يُجلى ظلام الليل بالسراج المنير، وقيل أمد الله بنور نبوته نور البصائر، كما يمد بنور السراج نور الأبصار، ووصفه بالإنارة؛ لأن من السرج ما لا يضيء إذا قل سليلته ودقّت فتيلته. وقد تكلم المفسر⁹⁸ كلاماً طويلاً حول وصف الله تعالى نبيه بالسراج المنير ولم يصفه بالشمس أو القمر التي تحمل معاني الضياء والإنارة.

بعث الله تعالى النبي محمد ﷺ إلى الناس داعياً إليه بالعبادة والطاعة، ولا يكون ذلك إلا بإذن الله جل جلاله فهو الميسر والمقدر للأمر في وقته وأوانه، وما على الرسول إلا التبليغ وبذل الجهد في إنذار القوم العاصين، وتبشير المؤمنين الطائعين لأمر الله ورسوله.

قال **خَلَّالٌ**: ﴿إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر: 23-24).

"إن" هنا بمعنى ما النافية: ما أنت إلا نذير أي: المحذر من المعصية ومن العذاب، فمهمة محمد ﷺ هي الإنذار فقط، أما الهداية فهي أمر الله سبحانه وتعالى لو أراد هداية الناس جميعاً لفعّل، ولو أرادهم الله جميعاً مؤمنين لجاءوا طائعين خاضعين لله رب العالمين⁹⁹.

الوصف الذي ذكره الله سبحانه وتعالى يبين أن النبي صلى الله عليه وسلم هو رسول من الله تعالى، مهمته الأساسية تتمثل في الدعوة إلى الله، ويكون ذلك بإنذار القوم، لأن في الإنذار دليل على حقيقة اليوم الآخر وفكرة الجزاء والعقاب التي تخص عالم الإنس وعالم الجن.

وحقيقة هذا الإنذار تمثله الآية السابقة، قال **عَلَّك**: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَالْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ (فاطر: 22). الأحياء لا يستوون مع الأموات، وفيه تشبيه للقوم الذين ران على قلوبهم الكفر، وقاموا بصد النبي ﷺ، وكذبوا إنذاره. والأمر لله سبحانه وتعالى الذي يُسمع من يشاء من عباده، "واستعير ﴿مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ للذين لم تنفع فيهم النذر،

⁹⁸ - ينظر: محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي المرري الشافعي، حقائق الروح والريحان في رواي علوم القرآن، دار طوق النجاة، بيروت، لبنان، ط1، 1421هـ/2001م، 67-64/23.

⁹⁹ - محمد متولي الشعراوي، تفسير الشعراوي، قطاع الثقافة، (د.ت)، 289/20، بتصرف.

وعبر عن الأموات بـ ﴿مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ لأن من في القبور أعرق في الابتعاد عن بلوغ الأصوات لأن بينهم وبين المنادي حاجز الأرض. فهذا إطناب أفاد معنى لا يفيد الإيجاز بأن يقال: وما أنت بمسمع الموتى¹⁰⁰. وإذا كانت مهمة محمد ﷺ هي الإنذار ذلك لأن سياق الكلام جاء عن العاصين المصممين على الكفر، فدوره هنا هو إنذارهم بالعقاب وسوء خاتمة الكافر.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾، قوله: بالحق إما حال من ضمير المتكلم في أرسلناك أي محقين غير لاعبين، أو من كاف الخطاب، أي مُحِقًّا أنت غير كاذب، أو صفة لمصدر محذوف، أي إرسالًا ملاسًا بالحق لا يشوبه شيء من الباطل، أو صلة لبشير ونذير على: بشيرا بالوعد الحق، ونذيرا بالوعيد الحق¹⁰¹.

والإنذار للأمة التي تمثل جماعة كبيرة من الناس يُكوِّنون عائلات كبيرة أو قبائل، أو عشائر ينتهي نسبها إلى جد واحد، وقد بين الله تعالى أنه ما من أمة خلا فيها نذير يدعو إلى الله تعالى ويبين وعيده الحق للناس أجمعين. وهذا تكذيب واضح لاستبعاد المشركين أن يرسل الله تعالى نبيًا بشرًا إليهم، وهي شبهة جعلوها لتكذيب النبي ﷺ في دعواه، ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدُعَا مِنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْمِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (الأحقاف:9).

في الآيات القرآنية من سورة الملائكة، ثناء وبيان لفضل مقام النبوة الذي اصطفى له محمد ﷺ، فهو النذير إلى القوم المشركين الذين شابه حالهم حال أصحاب القبور، الذين لا يسمعون كلام الله تعالى ولا يعقلونه، كما أن الله تعالى أرسله بالحق الثابت الذي لا يتغير وهو وحيه المنزل عليه من طرف جبريل عليه السلام.

فرسالة النبي ﷺ تجمع بين البشارة والندارة؛ فهو البشير بالوعد الحق لمن قبل الهدى، والنذير بالوعد الحق لمن أعرض عنه، فهي رسالة الحق المطلق الذي لا شبهة فيه لأنه منزل من الله سبحانه.

100- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، 296/22.

101- ينظر: الزمخشري، الكشاف، 151/5، وابن عاشور، التحرير والتنوير، 296/22.

المطلب الثاني: المرسل إلى الأمة:

قال ﷺ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (الأعراف: 158).

الدعوة إلى الإسلام تحتاج إلى إعلان وبيان، وهذا ما قام به النبي ﷺ عندما أمره الله تعالى بالجهر بدعوته، وأنذر عشيرتك الأقربين، وعرفنا سابقا أن الإنذار يحمل معاني الإنذار بوعيد الله تعالى من عقاب يوم القيامة لمن كفر بالله سبحانه وتعالى وأعرض عن الدعوة إلى الإيمان به جل جلاله، وفي الآية القرآنية إعلان صريح من محمد ﷺ أنه الرسول المصطفى من الله عز وجل. وفيها دليل أنه مرسل إلى الناس جميعا لتحقيق غاية النبوة الخاتمة وهي عموم الدعوة الإسلامية، والخطاب الموجه إلى الناس جميعا من بدء البعثة إلى العصور التي جاءت بعدها.

"﴿إِلَيْكُمْ﴾ متعلق برسول و﴿جَمِيعًا﴾ حال من ضمير ﴿إِلَيْكُمْ﴾، وهذا الوصف يقتضي الإذعان والانقياد لمن أرسله إذ له الملك فهو المتصرف بما يريد. وفي حصر الإلهية له نفى الشركة، لأن من كان له ملك هذا العالم لا يمكن أن يشركه أحد، فهو المختص بالإلهية. وذكر الأحياء والإماتة، إذ هما وصفان لا يقدر عليهما إلا الله، وهما إشارة إلى الإيجاد لكل شيء يريده والإعدام"¹⁰².

محمد رسول الله إلى الناس جميعا، بعثه الله جل ثناؤه لتبليغ الرسالة، وفي الآية وصف لله تعالى وبيان لمضمون الرسالة السماوية: الله رب العالمين الذي تجب في حقه توحيد الربوبية لأنه خالق السموات والأرض الملك المبدع في الخلق، وهو الوحيد دون شريك في العبادة لأنه لا إله إلا الله، وفي الآية أيضا بيان لحدوث البعث، وحقيقة اليوم الآخر، لأن الله تعالى هو المحيي والمميت، وهذا لا يتحقق إلا من الله القادر على كل شيء.

ففي الآية الكريمة أدلة يقينية على إرسال النبي ﷺ بالرسالة الربانية التي تُقرر معنى توحيد الألوهية لله سبحانه وتعالى وتوحيد الربوبية.

﴿فَأْمِنُوا﴾ لما ذكر أنه رسول الله أمرهم بالإيمان بالله تعالى وبنبوته. وعدل عن ضمير المتكلم إلى الظاهر وهو الالتفات، لما في ذلك من البلاغة بأنه النبي السابق في قوله: ﴿الَّذِي﴾ وأنه هو المأمور بإتباعه، المعروف بالأوصاف السابقة، والظاهر أن كلماته هي الكتب الإلهية التي أنزلت على من تقدمه. ولما كان الإيمان بالله هو الأصل يتفرع عنه الإيمان بالرسول والنبي بدأ به، ثم أتبعه بالإيمان بالرسول، ثم أتبع ذلك بالإشارة إلى المعجز الدال على نبوته، وهو كونه النبي الأمي¹⁰³.

الآية القرآنية خاصة بخاتم الأنبياء والرسول محمد ﷺ الذي جاء مرسلًا للناس كافة، والآيات القرآنية التي دلت على هذا الإرسال العام للناس عديدة، قال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَتَيْكُمْ لِشَهِدُونَ أَنْ مَعَ اللَّهِ إِلَهٌ آخَرُ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (الأنعام:19).

صرح الله تعالى أن محمد ﷺ نذير للناس، وكل من بلغه القرآن العظيم فقد وقع في حقه الإنذار من النبي ﷺ، وفي الآية معنى أن الإنذار عام لكل من بلغه القرآن الكريم، فالواجب عليه الإيمان به وتصديق نبوة المصطفى ﷺ، لأن وحي الله تعالى إليه، يبين أن الله واحد لا شريك له، وكل من أشرك معه آلهة أخرى فالرسول ﷺ منه بريء.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ (الأعراف:158)، وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (الفرقان:1)، وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَفَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ (سبأ:28) وجزاء الكافر والمعرض عن النبي ﷺ النار في قوله سبحانه: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (هود:17). والأمم التي لم تبلغها دعوة النبي ﷺ فلها حكم أهل الفترة الذين انقطع عنهم خبر السماء ولم يُبعث إليهم نبي ولا رسول¹⁰⁴.

103- أبو حيان، البحر المحيط، 4/404، بتصرف.

104- الشنقيطي: محمد الأمين بن محمد المختار الجكني، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار عالم الفوائد، جدة، (د.ت)، 2/222.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ ، هذا النداء يجمع بين ما قبله من الآيات البينة، ومناسبته أن جميع الصفات التي ذكرها الله تعالى في صحف أهل الكتاب، وقد بين الدليل على ثبوت هذا الكلام في كتبهم والحديث عن النبي الخاتم الأمي وصفاته. أمر النبي ﷺ أن ينذر الناس جميعا بنداء واحد يبين من خلاله أن الرسالة التي جاء بها تنسخ جميع الأديان السابقة، لأن الدين عند الله الإسلام، والجميع مأمور بالإتباع حتى اليهود والنصارى الذين يؤمنون بالله تعالى ويصدقون الرسل السابقين. لأن الخير الذي يصيب المؤمنين، لا يخص فرقة دون أخرى لأن النداء الإلهي واحد والسير نحو مرضات الله طريق ثابت للجميع، ومحمد ﷺ بُعث للثقلين لتحقيق السعادة في الدارين¹⁰⁵.

قال ﷺ: ﴿مَرَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (البقرة: 129).

هذا دعاء سيدنا إبراهيم وولده إسماعيل عليهم السلام بعد أن رفعوا قواعد البيت الحرام، أراد سيدنا إبراهيم ﷺ أن يُعبد الله في هذه الأرض وأن يتحقق للأمة مسمى المسلمين لأنهم من سيحملون شعار التوحيد في هذه الأرض المباركة. قال إبراهيم: ﴿مَرَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾، كان دعاؤه تصديقا لحكم الله تعالى، لأنه يعلم أن الله ﷻ لا يتخلى عن عباده وسيكرمهم بالنبوة حتى لا يضيع الناس في ظلمات الجهل والتحريف.

والرسول المذكور في الدعاء هو محمد ﷺ، حين استجاب الله دعاء إبراهيم ﷺ وبعث فيهم رسولا من أنفسهم، وأراد أيضا الأمة المسلمة في هذا الدعاء¹⁰⁶.

عن أبي أمامة قُلْتُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ مَا كَانَ أَوَّلُ بَدْءِ أَمْرِكَ قَالَ: ﴿ دَعَاؤُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ وَبُشْرَى عِيسَى وَرَأَتْ أُمِّي أَنَّهُ يَخْرُجُ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ مِنْهَا قُصُورُ الشَّامِ ﴾¹⁰⁷.

¹⁰⁵ - ينظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 416/2.

¹⁰⁶ - ينظر: البقاعي، الدر المنثور، 161/2، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 97/2، والشوكاني، فتح القدير، 144/1.

¹⁰⁷ - سبق تخريجه ص 247.

الرسول المبعوث إلى الناس كان منهم من جنسهم ونسبهم، كانوا يعرفونه ويتحققوا فضله ويشفق عليهم ويحرص عليهم، أي بُعث محمد ﷺ رسولا إلى أمته، وحقق الله تعالى لنبية إبراهيم عليه السلام وأكرم الأمة العربية بنبي منهم جاءهم بالرسالة الخاتمة.

وكان هذا النبي يتلو آيات الله تعالى وحيا أو حاه الله تعالى يتزل به جبريل عليه السلام على محمد ﷺ، ويعلم الناس القرآن الكريم، والحكمة، "قال قتادة: الحكمة السنة وبيان النبي ﷺ الشرائع، وروى ابن وهب عن مالك أن الحكمة الفقه في الدين والفهم الذي هو سجية ونور من الله تعالى"¹⁰⁸. والهدف الرئيس لدعوة النبي ﷺ هو تزكية القوم من الشرك، وإلباسهم لباس التقوى والإيمان بالله الواحد الذي لا شريك له.

قال عز ثناؤه: ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَتَتْلُو عَلَيْهْمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهْمٌ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٌ﴾ (الرعد:30).

في الآية القرآنية من سورة الرعد بيان واضح لبعثة النبي ﷺ، فهو المرسل من الله تعالى إلى أمة قد سبقتها أمة كثيرة في التاريخ الإنساني وتاريخ الرسالات السماوية. وهذا من أجل أن يتلو الرسول عليهم رسالة الله سبحانه وتعالى، لأنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، تحقيقا لمحور الحياة العام وهو التوحيد بكل أشكاله والذي اختصر هنا في ﴿رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ﴾: الكاف اسم بمعنى مثل، وذا اسم إشارة واللام للبعد والكاف حرف خطاب، والتقدير مثل ذلك الإرسال أرسلناك إرسال الرسل السابقين. ﴿فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ﴾، متعلق بـ "أرسلناك" بمعنى في جماعة قد تقدمتها أمة كثيرة قبلها، فهي آخر الأمم وأنت خاتم النبيين جميعا¹⁰⁹.

قال الزمخشري: "مثل ذلك الإرسال أرسلناك، يعني أرسلناك إرسالاً له شأن"¹¹⁰.

¹⁰⁸- ابن عطية، المحرر الوجيز، 212/1. وينظر: تفسير ابن عباس، ص18، الطبري، جامع البيان، 576/2، وابن كثير، تفسيره، 97/2، عن الحسن وقتادة ومقاتل وأبي بن مالك، والرازي، مفاتيح الغيب، 65/4.

¹⁰⁹- مجت عبد الواحد الشبخاني، بلاغة القرآن الكريم في الإعجاز-إعرابا وتفسيرا بإيجاز-، مكتبة دنديس، عمان، الأردن، والصفحة الغربية، الخليل، ط1، 1422هـ-2001م، 192/5. بتصرف.

¹¹⁰- الزمخشري، الكشاف، 359/2. وينظر: السمين الحلبي: أحمد بن يوسف، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، (د.ت)، 49/7.

قوله تعالى: ﴿فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ﴾ قال ابن عباس: "في قرون قد مضت من قبلها قرون"، وهذا لتتلو عليهم القرآن الكريم الذي كان وحيا تترل به جبريل عليه السلام على محمد صلى الله عليه وسلم. أرسل الله تعالى محمد صلى الله عليه وسلم إلى الأمة، وهذا الإرسال وقع شبيها للإرسال السابق في القرون الماضية وبعثة الأنبياء والمرسلين. وهذا الإرسال كان لتبليغ رسالة الله تعالى. وكل نبي سابق عن عهد محمد صلى الله عليه وسلم بُعث إلى قومه لإنذارهم، أما خاتم الأنبياء فقد بعث للثقلين، جاء برسالة خاتمة إلى الأمم كلها من تحمل كتاب ومن لم تحمل، وآمنت بألهة متعددة من دون الله سبحانه.

قال عليه السلام: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ وَكُفُّهُمْ أَلِيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (النحل: 63)، وقال جل في علاه: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى آتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الأنعام: 34).

وفي الآية بيان أن الرسل السابقين كذبوا وأعرض عنهم قومهم كما يفعل بك القوم اليوم من تكذيب وإنكار للرسالة الإلهية. وفيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم كونه يحمل هذه الأمانة العظيمة ويتمنى تبليغها وأن يهتدي القوم أجمعين.

سبب نزول هذه الآيات من سورة الرعد، أن قوم قريش لا يصدقون باسم الله تعالى الرحمن الرحيم، ولهذا رفضوا كتابة الوثيقة تحت اسم الله الرحمن الرحيم، لأنهم لا يؤمنون به، وقالوا: "ما ندري ما الرحمن الرحيم"¹¹¹.

وفي رواية أن النبي صلى الله عليه وسلم كان في الحجر يدعو، وأبو جهل يستمع إليه وهو يقول: "يا رحمن"، فلما سمعه يذكر الرحمن ولى مدبرا إلى المشركين وقال لهم: إن محمداً كان ينهانا عن عبادة الآلهة وهو يدعو إلهين يدعو الله، ويدعو لها آخر يقال له الرحمن، فأنزل الله هذه الآية¹¹².

وكان الجواب من الرسول صلى الله عليه وسلم الذي أراده الله تعالى ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٌ﴾، أي الرحمن هو الله ربي لا إله إلا هو، الرحمن هو إله واحد له من الأسماء والصفات ما لا يُعد ويحصى، لكنه إله ورب واحد لا شريك له.

¹¹¹ - رواه البخاري في صحيحه، كتاب: الشروط، باب: الشروط في الجهاد، رقم: 2731، 2732، ورقم: 1694، وأحمد في المسند رقم: 18963، 18981، 323/4، 328، وأبو داود في السنن، كتاب: الجهاد، باب: في صلح العدو، رقم: 2765، 143-142/3، من حديث المسور بن مخرمة.

¹¹² - ينظر: البغوي، معالم التنزيل، 318/4، والواحدي، الوسيط، 16/3.

قال قتادة، ومقاتل وابن جريح: "الآية مدنية نزلت في صلح الحديبية، وذلك أن سهيل بن عمرو لمَّا جاء إلى النبي ﷺ واتفقوا على أن يكتبوا كتاب الصلح فقال رسول الله ﷺ لعلي ﷺ: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم، قالوا: لا نعرف الرحمن إلا صاحب اليمامة- يعنون مسيلمة الكذاب- اكتب كما كنت تكتب: "باسمك اللهم"، معنى قوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾¹¹³.

والمعروف أن الآية مكية، وسبب نزولها: أن أبا جهل سمع النبي ﷺ وهو في الحجر يدعو يا الله يا رحمن، فرجع إلى المشركين فقال: إن محمداً يدعو إلهين؛ يدعو الله، ويدعو إلهاً آخر يسمى الرحمن، ولا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة فترلت هذه الآية، ونزل قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ (الإسراء: 110)¹¹⁴.

وروى الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنها نزلت في كفار قريش حين قال لهم النبي ﷺ: اسجدوا للرحمن، قالوا: وما الرحمن؟¹¹⁵ قال الله تعالى: ﴿قُلْ﴾، لهم يا محمد إنَّ الرحمن الذي أنكرتم معرفته، ﴿هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾، اعتمدت ﴿وَأَلِيهِ مَتَابِ﴾، أي: توبتي ومرجعي. هذه الروايات وان اختلفت إلا أن المعنى الواضح هو هذا الإنكار الذي لقيه ذكر اسم من أسماء الله تعالى أمام المشركين الذين كانوا يعددون في الآلهة داخل مكة وخارجها وعندما ورد هذا الاسم أنكروا على النبي ﷺ التعدد في الدعاء والذكر. لأنهم لم يعلموا أن الله رب الناس لا إله إلا هو، إليه المآل والمرجع وعلينا التوحيد، والتوبة من كل ذنب في الحياة أثقل علينا التقرب إلى الله سبحانه وتعالى وأبعد عنا الجنة درجات.

قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُنزِّلُ عَلَيْهِمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (الجمعة: 2)

الله سبحانه وتعالى هو الذي بعث النبي ﷺ رسولا إلى أهل مكة والذين سماهم الأميين، وهذا وصف لهم لأن المعروف عن سكان الجزيرة العربية بعدهم عن الحضارات المعاصرة لهم- الروم والفرس- نتيجة للطبيعة الصحراوية القاسية التي شكلت مجتمعا متماسكا وبعيدا عن أي تمدن أو

¹¹³- ذكره الطبري، جامع البيان، 531-530/13، السيوطي، الدر المنثور، 453-452/8، نسبه لابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة، وكذا ابن المنذر عن ابن جريح، وينظر: الواحدي، أسباب النزول، ص315، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 70-69/12، أبو حيان، البحر المحيط، 381/5.

¹¹⁴- البغوي، معالم التنزيل، 318/4، وينظر: القرطبي، جامع الأحكام، 70/12، وأبو حيان، البحر المحيط، 381/5.

¹¹⁵- البغوي، معالم التنزيل، 318/4، وينظر: الواحدي، أسباب النزول، ص315.

تحضر، وبالرغم من الإيجابيات التي حققها هذا التمركز للعرب وسط الجزيرة، إلا أن السلبية الظاهرة بعدهم عن مجال العلوم والمعرفة والانتشار الواسع للأمم وسط الأفراد.

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾، محمد ﷺ كان من جنس الأميين ومن نسبهم فهو منهم، أو من أنفسهم كما عبر القرآن الكريم عن الرباط القوي بين محمد ﷺ وقومه.

وورد ذكر الأميين في قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ

اهْتَدَوْا﴾ (آل عمران:20)، وذكر الأميين لا ينفي أن رسالة النبي ﷺ يخاطب بها جميع الناس، إنما

هو تخصيص للشرف العظيم الذي لقيه العرب من إرسال النبي فيهم، قال ﷺ: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ

لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ (الزخرف:44)، هذه الخاصية هي أمانة عظيمة للنبي ﷺ ولقومه، لأنها

تذكير لهم بالمسؤولية التي كلفهم الله تعالى بها في تبليغ رسالة الله إلى الناس في كل زاوية من

الأرض، ولكل إنسان يعيش فيها. الدعوة لا تتوقف في قبيلة واحدة أو قطر واحد بل تمتد إلى كل

الأقطار شرقا وغربا وشمالا وجنوبا.

المبحث الثاني: تبليغ رسالة الله سبحانه وتعالى:

المطلب الأول: التبشير والإنذار:

إرسال الأنبياء الذي تم منذ خلق الإنسان على الأرض، كان لأجل تحقيق غاية هامة في حياة البشرية، وهي بلوغ مرضاة الله تعالى وتوحيده الخالص، لأنه سبحانه الإله ورب العالمين. فهو الأحق بالعبادة من كل ما وجد في هذا الكون، لأنه خالق الكون، فكيف يُعبد المخلوق ويُشرك بالخالق. ولهذا كان الإرسال لتبليغ الرسالة الربانية إلى الناس بوسيلتين، وهما التبشير بالوعد الحق، والإنذار بالوعيد الحق من الله تعالى.

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ (البقرة: 119). في الآية القرآنية الخطاب موجه إلى النبي ﷺ بأنه مرسل من الله تعالى بالحق، وهذا الحق اليقين هو كل ما أوحى إليه ﷺ، وحتى يبلغ هذا الحق الذي جاءه من الله عليه بالتبشير والإنذار. ثم تكلم الله تعالى عن المعرضين عن هذا الحق والمكذبين به، وأخبر أنهم من أصحاب الجحيم. قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾، يقول ابن عباس: الْحَقُّ: القرآن كقوله: ﴿حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ (الزخرف: 29)، وكقوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ (ق: 5)، وقال ابن كيسان: الحق في هذه الآية: الإسلام، نحو قوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ (الإسراء: 81). في الآية القرآنية حديث عن إرسال النبي ﷺ بالحق؛ أي كل ما جاء به محمد ﷺ فهو يقين لا يحتمل الخطأ، لأنه من مصدر واحد، ولا يقبل التشكيك.

من خلال هذا الإرسال حقق النبي ﷺ معنى التبشير والإنذار في الأمة، بِشِيرًا: هو فاعل بمعنى الواعد بالجنة لمن اتقى وخاف الله تعالى. وَنَذِيرًا أي: منذر بمعنى: مخوفاً محذراً، كالبديع بمعنى المبدع¹¹⁶، وهو النذير بوعد الله الحق الذي جاء يحذر الناس منه إذا أعرضوا عن سبيل الله تعالى. "لما أجرى الله سبحانه من الخطاب عن أهل الكتاب والعرب نبأ ردهم لما أنزل أولاً وأخراً ونبأ ما اقترفوه مما لا شبهة في دعواه أعرض بالخطاب عن الجميع وأقبل به على النبي ﷺ تسلياً له وتأكيذاً لما أعلمه به في أول السورة من أن الأمر يجري على تقديره وقسمته الخلق بين مؤمن

116- الواحدي، الوسيط، 119/1.

وكافر ومنافق، فأنبأه تعالى أنه ليس مضمون رسالته أن يدعو الخلق إلى غير ما جبلوا عليه، وأن مضمون رسالته أن يستظهر خبايا الأفتدة والقلوب على الألسنة والأعمال فيبشر المهتدي والثابت على هدى سابق، وينذر الآبي والمنكر لما سبق إقراره به قبل، فعم بذلك الأولين والآخريين من المبشرين والمنذرين¹¹⁷.

قال ﷺ: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (سبأ:28).

كلام الله تعالى عن بعثة النبي ﷺ يُقر أنه المرسل لرسول الله تعالى وقبلة السابقين من الأنبياء والرسول، وهذا الإرسال ليكون هذا النبي مبشرا ومنذرا للناس. وفي الآية القرآنية إرسال النبي الخاتم كان للناس كافة، والحصر الذي كان في الآية بحرف "إلا" جاء لبيان أن المخاطب هم الناس أجمعين، "كافة اسم فاعل من كف. وقيل: مصدر كالعاقبة والعافية فيكون على حذف مضاف. أي: ذا كف للناس. أي: منع لهم من الكفر أو ذا منع من أن يشذوا عن تبليغ. وإذا كان اسم فاعل فقال الزجاج وغيره: هو حال من الكاف في أرسلناك والمعنى إلا جامعا للناس في الإبلاغ. والكافة بمعنى الجامع. والهاء فيه للمبالغة. كها في علامة ورواية¹¹⁸.

وإذا كان هذا الاختلاف واضح بين النحويين حول دلالة "كافة" في الآية القرآنية فإن أبوحيان الأندلسي يذكر أن أكثر النحويين يذكرون أن كافة وقعت حالا، بمعنى عامة ولم يتصرف فيها بغير ذلك¹¹⁹.

الخطاب جاء من الله تعالى موجه إلى محمد ﷺ، وهو يحمل خطابا موجه إلى الناس أيضا لأن محمد ﷺ جاء بشيرا ونذيرا إلى الناس. وجميع الخلق مطالبون بالسماع والتفكير والتدبر في قول الله تعالى، لأنه وحي من السماء جاء به النبي ﷺ ليدركهم من عذاب الجحيم ويشملهم برحمة الله سبحانه وتعالى. يذكر ابن عباس أنه يريد جميع الخلق وتقدير الكلام للناس كافة كقوله: ﴿ ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾ (البقرة:208)، والمعنى وما أرسلناك إلا للناس عامة كلهم أحمرهم وأسودهم¹²⁰.

117- البقاعي، نظم الدرر، 137/2-138.

118- أبو حيان، البحر المحيط، 268/7-269. ينظر: السمين الحلبي، الدر المصون، 285/9-287، وفيه بين أوجه ودلالات لفظ كافة عند اللغويين.

119- أبو حيان، البحر المحيط، 269/7.

120- ينظر: الواحدي، الوسيط في تفسير القرآن المجيد، 495/3.

أسلوب الإخبار في الآية القرآنية يتحدث عن رسالة النبي ﷺ والكلام موجه إلى محمد ﷺ بصفة خاصة ومن ورائه المخاطبون بهذه الرسالة، لأن الخطاب هنا موجه للجميع؛ أي كل من سمع هذا الخطاب فهو مأمور بقبولها وعدم الإعراض عنها. وفي الآية الكريمة وما تبعها من الذكر الحكيم يُلاحظ أمرين:

الأمر الأول يتعلق بهذا التشريف العظيم الذي لحق النبي ﷺ بوصفه مرسل من الله تعالى إلى الناس عامة، وما في ذلك من التفضيل على الأنبياء السابقين لكونه خاتم الأنبياء والمرسلين وحامل رسالة الله تعالى إلى الناس جميعاً وشريعته ناسخة لجميع الشرائع السابقة.

الأمر الثاني في الآية خطاب للناس كافة، وفي ذلك إثبات لرسالة المصطفى ﷺ على منكريها من العرب، وإثبات لعمومها على المنكرين من اليهود¹²¹. وتأكيد واضح على صدق نبوته.

﴿يَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (سبأ: 29) يريدون بالوعد العذاب النازل لهم بعد الموت، وإنما قال العرب هذا لأنهم كانوا ينكرون البعث بعد الموت، فقال تعالى: ﴿قُلْ لَكُمْ مِيعَادٌ يَوْمَ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ (سبأ: 30)، "ثم حكى عنهم مقالتهم في الهزء بأمر البعث واستعجالهم على معنى التكذيب بقولهم متى هذا الوعد فأمر الله تعالى نبيه أن يخبرهم عن ميعاد هو يوم القيامة لا يتأخر عنه أحد ولا يتقدمه"¹²².

قال جلالة: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر: 24).

﴿إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ (فاطر: 23)، مهمة النبي ﷺ الأساسية هي الإنذار، ولهذا أمره الله تعالى حين الجهر بالدعوة بالإنذار، قال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء: 214). "ما عليك إلا أن تبلغ وتنذر، فإن كان المنذر ممن أراد الله هدايته سمع واهتدى وإن كان ممن أراد الله ضلاله فما عليك لأنه تعالى هو الذي يهدي ويضل"¹²³.

121- ابن عاشور، التحرير والتنوير، 198/22.

122- ابن عطية، المحرر الوجيز، 420/4.

123- أبو حيان، البحر المحيط 295/7.

لأن الآية التي بعدها تبين أن هذا النبي مرسل من الله تعالى بالحق، وهذا الحق اليقين حتى يشته النبي ﷺ هناك طريقين الأول: الإنذار والثاني: التبشير، وقد بدأ النبي ﷺ بالإنذار قبل التبشير، لأن الأمر عظيم وأساسه هي غايته في الآخرة، أما الدنيا فهي دار الفناء، والذي يريد أن يضمن لنفسه طريقاً صحيحاً لمرضاة الله ﷻ عليه بتجنب وعيد الله الحق فهو الأمر الجلل، وفيه دليل على أن هذا الدين حق ورسالة النبي ﷺ صادقة لهذا بدأ بالإنذار قبل التبشير وهو المعروف بين القرشيين "بالصادق"، فكيف يكذبونه في أمر الآخرة الذي عليهم الإيمان بوقوعه.

﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾، دعوة الله تعالى إلى عباده تدور حول محور التوحيد، لأجل أن لا يترك الله تعالى عباده في الأرض يلقون مصيرهم دون حماية وقيادة تحميهم من هوى النفس التي يطول عليها الأمد، ومن كيد إبليس الذي أبي أن يسجد لآدم وأقسم أمام الله تعالى وقال: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الأعراف: 16). فأرسل سبحانه وتعالى إلى هذه الأمم رسل وأنبياء يدعوهم إلى طريق الله، ويبينون لهم سبل الرشاد منذ سيدنا آدم عليه السلام وهو نبي في أهله، إلى محمد ﷺ خاتم الأنبياء والرسل، في الآية القرآنية "تقرير لأمرين (أحدهما) لتسليته قلبه حيث يعلم أن غيره كان مثله محتملاً لتأذي القوم (وثانيهما) إلزام القوم بقوله فإنه ليس بدعا من الرسل وإنما هو مثل غيره يدعى ما ادعاه الرسل ويقرره"124.

قال ﷻ: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ (فصلت: 4).

قال تعالى: ﴿حَمْدٌ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (فصلت: 1-3)، هذا الوحي منزل من الله تعالى منجماً في ثلاث وعشرين سنة (23)، وقد وصفه الله تعالى بالكتاب الذي يكون بين دفتين، ويبيّن أن هذا الكتاب هو القرآن الكريم الذي تكفل الله تعالى ببيان معانيه وحلاله وحرامه بلسان عربي بين واضح للجميع. وبالرغم من نزوله بلسان قومه إلا أن أكثر أهل مكة أبوا سماعه وأعرضوا عنه تكبراً منهم وحسداً لأن الأمر آل إلى النبي ﷺ وبني هاشم في اعتقادهم. وقد بيّن الله سبحانه هذا الإعراض بقوله: ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ (فصلت: 4)، وكان نفي السماع عنهم لآيات القرآن وقع حقيقة؛ وهذا لسبب أنهم أعرضوا سماع الحق من رسول الله ﷺ بقلوبهم وعقولهم.

قوله سبحانه: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ (فصلت:4)، الوصف هنا يعود على القرآن الكريم الذي بدأ الحديث عنه في بداية السورة وبين وصفه وميزاته، "﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أي: في حال كونه لفظاً عربياً، بيّناً واضحاً، فمعانيه مفصلة، وألفاظه واضحة غير مشكّلة، كقوله: ﴿كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود:1) أي: هو معجز من حيث لفظه ومعناه، ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (فصلت:42)¹²⁵، ثم أكد في الآية الرابعة من السورة أنه بشير للقوم المؤمنين بالحق، نذير للمكذّبين الذين يصدون عن دين الله تعالى، والضمير في أكثرهم عائد على القوم المذكورين وهم الكافرين بالقرآن الكريم.

قال سبحانه: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأعراف:2).

الكتاب المنزل على النبي عليه الصلاة والسلام كان لأجل الإنذار العام، فالآية القرآنية تبين أن القرآن هو للإنذار، بالإضافة إلى أنه ذكرى للمؤمنين.

وفي آيات أخرى تبين من المقصود بهذا الإنذار، قال تعالى: ﴿وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ (مريم:97)، وقال: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ (يس:6).

كما بين الله تعالى المصير الذي ينتظر القوم المنذرين، والذين لم يستجيبوا لنداء النبي، قال: ﴿لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ﴾ (الكهف:2)، وقال: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ (الليل:14)، وقال ﷺ: ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ (النبا:40).

وإذا تعلق الإنذار بالكفار لأنهم أعرضوا عن دعوة الله سبحانه، وأن الذكرى تتعلق بالمؤمنين وتقتصر عليهم، بل المؤمنون أيضاً مخاطبون بالإنذار، قال ﷺ: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ (يس:11).

125- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 215/12.

النبى المرسل من الله تعالى جاء لتحقيق توحيد العبودية لله تعالى، والسير على دين الإسلام، جاء لإندار الناس جميعاً بأمر الدعوة الإسلامية، فهو البشير بالوعد الحق من الله عز ثناؤه، والنذير بعذاب الله لمن خالف أمر الله تعالى، فالإندار يتحقق للناس جميعاً ويختص بالكافرين لأنهم أكثر الناس مخاطبة بأمر الإندار من الله تعالى لأنهم أكثر بعدا عن الحقيقة.

المطلب الثاني: الجهر بالدعوة.

قال سبحانه: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ (الحجر: 94-95).

في هذه الآية القرآنية أمر من الله تعالى إلى رسوله محمد ﷺ بإعلان الدعوة إلى الله جهرا إلى القوم وعلى رؤوس الأشهاد، من غير خوف ولا خفية، وقد أوضح هذا المعنى في مواضع منها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ (المائدة: 67).

أخرج ابن جرير عن أبي عبيدة، أن عبد الله بن مسعود قال: ﴿ما زال النبي ﷺ مستخفياً حتى نزل: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾، فخرج هو وأصحابه ﷺ¹²⁶.

فاصدع معناه¹²⁷: نفذ وصرح بما بُعثت به، والصدع: التفريق بين ملتئم كصدع الزجاج ونحوه، فكان المصرح بقول يرجع إليه، وقال الزجاج: "﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾، أي أبن ما تؤمر به، وأظهره، وأخذ ذلك من الصديع وهو الصبح. قال الشاعر¹²⁸:

كَانَ بِيَاضِ غُرَّتِهِ الصَّدِيعُ تَرَى السَّرْحَانَ مُفْتَرِشاً يَدِيهِ¹²⁹.

ومعنى الصدع هنا هو الجهر بالدعوة وبيان الأمر للناس جميعا حتى يعلموه، وإظهار أمر الدعوة صراحة وبيان أن ما جاء به النبي ﷺ هي رسالة من الله جل وعلا.

قال جل ثناؤه: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء: 214).

إذا كان الصدع بالأمر إلى الناس جميعا في الآية السابقة ففي سورة الشعراء هنا تخصيص في الإنذار بقوم محمد عليه الصلاة والسلام وعشيرته الأقربين.

¹²⁶ - الطبري، جامع البيان، 143/14، من قول عبد الله بن عبيدة الرزدي، وينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 283/8، عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود، والسيوطي، الدر المنثور، 656/8، وعزاه لابن جرير عن أبي عبيدة عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

¹²⁷ - ابن عطية، المحرر الوجيز، 375/3.

¹²⁸ - هو عمرو بن معد يكرب الزبيدي، يصف ذئبا.

¹²⁹ - الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، 186/3.

والإنذار الذي جاء به النبي ﷺ إلى عشيرته الأقربين لم يكن، إلا لأن العشيرة أعرِف بصدقه وأمانته من غيرهم من الناس، فهم أهله وناسه الذين ولد وترى بينهم.

في الآية القرآنية الإنذار يخص العشيرة، وهذا لا ينافي الأمر بالإنذار العام كما دل قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ (الفرقان:1)، وقوله سبحانه: ﴿ وَأَوْحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ ﴾ (الأنعام:19)، وفي آية قوله ﷺ: ﴿ وَنُذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴾ (مریم:97) ¹³⁰.

في الحديث الذي أخرجه البخاري وغيره يبين سبب نزول هذا الآية من سورة الشعراء، أو العمل الذي قام به النبي ﷺ بعد أن أمره الله تعالى بإعلان دعوته أمام الناس، بعد ثلاث سنين والأمر بين قلة من الناس يخفونه في صدورهم قبل الإعلان عنه.

عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية خرج النبي ﷺ حتى صعد الصفا، فهتف:

﴿ يَا صَبَاحًا هَؤُلَاءِ قَالُوا مَنْ هَذَا فَاجْمَعُوا إِلَيْهِ فَقَالَ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا تَخْرُجُ مِنْ سَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِي قَالُوا مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا قَالَ فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ ¹³¹، يقول عبد الرحمن الثعالبي: "وخص بإنذاره عشيرته؛ لأنهم مظنة الطواعية، وإذ يمكنه من الإغلاظ عليهم ما لا يحتمله غيرهم، ولأن الإنسان غير متهم على عشيرته، والعشيرة قرابة الرجل" ¹³².

وفي رواية عند الشيخان عن أبي هريرة ؓ قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ وَأُنذِرْ عَشِيرَتَكَ

الْأَقْرَبِينَ ﴾. دَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُرَيْشًا فَعَمَّ وَحَصَّ فَقَالَ: ﴿ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ انْقِدُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ يَا مَعْشَرَ بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ انْقِدُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ يَا مَعْشَرَ بَنِي عَبْدِ مَنَاةٍ انْقِدُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ يَا مَعْشَرَ بَنِي هَاشِمٍ انْقِدُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ انْقِدُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ

¹³⁰ - الشنقيطي، أضواء البيان، 425/6، بتصرف.

¹³¹ - سبق تخريجه، ص 80.

¹³² - عبد الرحمن الثعالبي، الجواهر الحسان، 238/4.

يَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ أَتَقْذِرِي نَفْسَكَ مِنَ النَّارِ فَإِنِّي وَاللَّهِ مَا أَمَلْتُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِلَّا أَنْ لَكُمْ رَحِمًا سَأَلَهَا
بِبَالِهَا 133.

الملاحظ في الرواية السابقة أن محمد ﷺ في جهره بالدعوة بدأ بالإندار بالوعيد الحق، قبل التبشير بجنات الله تعالى للمؤمنين الصادقين.

وبالرغم من أن دعوته جاءت عامة، وقد وردت آيات قرآنية تدل على ذلك، ومع ذلك فقد خص أهله وعشيرته الأقربين بالدعوة، لأنهم أهله والسند الذي يعتمد عليه في أمر هام مثله. في الروايتين خاطب النبي ﷺ عشيرته خطاب الرجل من أهله، لأنه منهم، رسول من أنفسهم. وفي مستهل الكلام كان استفهام القائد العالم بالجواب: "أكنتم مصدقي؟"، وهذا دليل على أن حديث الدعوة يجب أن يكون بأدب وأخلاق الرجل القدوة، والذي يتميز بالأخلاق الكريمة بين قومه قبل أن يخاطبهم في أي أمر يهم الدعوة الإسلامية، لأن ذلك سبيل الصدق في الدعوة إلى الله تعالى.

والأمر الثاني والذي يلاحظ في الروايتين هو الإندار بعذاب النار لمن أعرض عن الدين، وهذا أمر يقين جاء به النبي إلى الناس حتى يُثبت لهم أن الأمر لا يتعلق بالحياة الدنيا ومتاعه، بل الأهم هو الفوز برضوان الله تعالى ودخول الجنة.

ولهذا فإن الرسالة بين أيدي الدعوة هي رسالة حق ويقين وليس دعوة إلى الدنيا ومتاعها.

المطلب الثالث: الإنذار بالوحي.

الفرع الأول: الوحي.

قال عز ثناؤه: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ (الأنبياء:45).

بعث الله سبحانه النبي ﷺ بالوحي رسولا إلى العالمين، فمحمد ﷺ لا ينطق عن الهوى بل كلامه وحي منزل من الله ﷻ. فكان هذا الوحي يحمل إنذارا للناس فهم إما معرضون عن القرآن كافرون به يصدق فيهم الإنذار، وإما مؤمنون بالقرآن مقبلين على الله تعالى ولهم جنة الرضوان جزاء من الله جل جلاله. كما صدق في هذا الوحي أنه بشير ونذير لأن الله تعالى نعتة بذلك، قال ﷻ: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ (فصلت:4).

﴿إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾، "أي أعلمكم بما تخافون منه بوحى من الله لا من تلقاء نفسي، وما كان من جهة الله فهو الصدق الواقع لا محالة كما رأيتم بالعيان من نقصان الأرض من أطرافها، ثم أخبر أنهم مع إنذارهم معرضون عما أنذروا به، فالإنذار لا يجدي فيهم إذ هم صم عن سماعه، ولما كان الوحي من المسموعات كان ذكر الصمم مناسبا"134.

الفرع الثاني: إتباع الوحي.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ لَأَقُولَ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ وَأُنذِرُ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُخْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَاكِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (الأنعام:50-51).

النبي محمد ﷺ وهو يخاطب الناس يتكلم بالوحي ولا يتكلم من عند نفسه، فهو يخاطب الجميع بكلام الله المتزل عليه، وهذا القرآن وصفه أنه البشير والنذير لأنه جاء بآيات قرآنية تدعو

الناس إلى دين الله تعالى وتبشر المؤمنين الصادقين بنعم الله عليهم، كما تنذر الكافرين بعقاب الله تعالى لهم.

ومن خلال القرآن الكريم الذي يدعو الناس إلى إتباع الوحي المتزل على النبي ﷺ. ففي الآية الأولى يتحدث النبي ﷺ وينفي ملكه الذي يتصور عند بعض الناس، حتى الهداية لا يضمنها لأحد لأن الله تعالى هو الهادي إلى طريق الحق.

﴿إِنِ اتَّبَعُوا مَا يُلْحَقُهُمْ إِذَا يَرْجِعُونَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَأَعْتَبَ اللَّهُ سُلَيْمَانَ وَدَاوُدَ وَإِسْمَاعِيلَ إِذِ اتَّبَعُوا وَابْتَلَىٰ هَارُونَ إِذِ اتَّبَعَهُ وَقَالَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا رَسُولَهُ فَذَكَرْنَا آلَ هَارُونَ وَابْتَلَىٰ نُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ نَجْوَاهُ أَنْ ارْكَبْ مَعِيَ الْوَاوِيلَ لَأُرِيدَ أَنْ نَمُنَّ بِمَا نُنَادِيكَ بِهِ وَنَكْفُرَ بِمَا نَكْفُرُ بِهِ أَفِئْتَانًا يَلْعَبُونَ﴾، ينفي النبي محمد عيه الصلاة والسلام صفة الملك عن نفسه، لأنه بشر اصطفاه الله تعالى ليحمل رسالة إلى العالمين فلا يملك خزائن الله، ولا يعلم الغيب ولم يكن ملك، "وإنما الذي يلزم منه أن الملك أعظم موقعا في نفوسهم وأقرب إلى الله" ¹³⁵.

في الآية الكريمة تخصيص كفار قريش بالإنذار على الرغم من أن الدعوة عامة، وذلك نتيجة للسياق حين تكلم القرآن الكريم عن الكفار وهم يصدون عن ذكر الله تعالى، ويسألون النبي ﷺ معجزات وأمور ليس له بها قبل، فكان الجواب في سورة البقرة أن القوم سواء عليهم أنذرهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون. وقد بين الله تعالى في الآيات أن كلام محمد ﷺ هو وحي ليس من صنع محمد ﷺ لكنه كلام الله وعلى القوم إتباع الوحي الذي جاء به النبي ﷺ، "والنبي عليه السلام مأمور بإنذار جميع الخلائق، وإنما وقع التخصص هنا بحسب المعنى الذي قصد، وذلك أن فيما تقدم من الآيات نوعا من اليأس في الأغلب عن هؤلاء الكفرة" ¹³⁶.

وفي الآية الكريمة دعوة إلى التدبر والتفكير في القرآن الكريم، لأنه عقد مقارنة عقلية بين الأعمى والبصير، وهما يمثلان الكافر والمؤمن ¹³⁷ أو المهتدي والضال ¹³⁸.

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَخْرُجَ إِلَيْكَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (يونس: 109).

هذا أمر من الله تعالى إلى نبيه المصطفى عليه الصلاة والسلام، أن يسير على طريق الله سبحانه ولا يجيد عنه أبدا، وذلك بإتباع الوحي المتزل عليه. وفي الوقت نفسه يجب على هذا النبي الصبر والتوكل على الله، لأن دعوة أهل الشرك إلى عبادة الله الواحد من دون شريك يُعبد معه،

¹³⁵- ابن عطية، المحرر الوجيز، 294/2.

¹³⁶- نفسه.

¹³⁷- قاله ابن عباس، ينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 277/6، والطبري، جامع البيان، 257/9، عن قتادة.

¹³⁸- قاله سعيد بن جبير، ومجاهد والضحاك، ينظر: ابن عباس، تفسيره، ص110، ومجاهد بن جبر، تفسيره، ت: محمد عبد السلام أبو النيل، دار

الفكر الإسلامي الحديثة، مدينة نصر، ط1، 1410هـ/1989م، ص322، والطبري، جامع البيان، 257/9، السيوطي، الدر المنثور، 53/6، والشوكاني،

فتح القدير، 120/2.

هو تغيير جذري في عقيدة القوم وفي نفوسهم وعقولهم، فالمسألة في غاية الدقة ولا يمكن للنبي ﷺ أن يستسهل الأمر أو تركه وهو عليه قادر لأن الله تعالى هو الذي أرسله بدين الإسلام.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ (يونس: 108)، الخطاب في الآية القرآنية

موجه إلى أهل مكة لأنه خطاب مباشر، والحق الذي جاء من الله تعالى هو حجة النبي ﷺ على القوم فهو جاء بالمعجزة البينة للقوم، فمن صدق القرآن الكريم فهو المهتدي، ومن ضل وكذب بما جاء به محمد ﷺ فضلاله على نفسه لأنه اشترى الآخرة بالضلال، والرسول ﷺ ما هو إلا مبلغ رسالة ربه ولا يملك من أمر الناس شيئاً. ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ﴾، اعتقاداً وعملاً وتبليغاً على نهج التجدد والاستمرار من الحق المذكور المتأكد يوماً فيوماً وفي التعبير عن بلوغه إليهم بالمجيء وإليه عليه السلام بالوحي تنبيه على ما بين المرتبتين من التناهي ﴿وَاصْبِرْ﴾: على ما يعتريك من مشاق التبليغ حتى يحكم الله بالنصرة عليهم أو بالأمر بالقتال وهو خير الحاكمين¹³⁹.

محمد عليه الصلاة والسلام هو رسول الله إلى الناس وهو المأمور الأول بإتباع الوحي لأنه النبي القائد الذي يحمل شعار القدوة. ومن خلاله يكون نجاح الدعوة مرهون بتصديق النبي ﷺ للرسالة، ثم إتباع وحي الله تعالى المترل عليه، ومن ثم تبليغه إلى عامة الناس.

قال ﷺ: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (النحل: 123).

ملة إبراهيم عليه السلام هي دين الإسلام، لأن الأنبياء جميعاً وجدوا لغاية واحدة هي الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، وكل دعواتهم تدور حول محور التوحيد، والمعروف أن العرب كانوا على الحنيفية السمحة التي جاء بها إبراهيم عليه السلام، وبعد طول الأمد بين الناس والرسالات السماوية انحرف العرب عن التوحيد واختاروا الشرك بديلاً عنه.

ولهذا فإن أمر الله تعالى إلى محمد ﷺ بإتباع ملة إبراهيم عليه السلام لأنها الملة الصحيحة التي لا تحريف فيها فكل الديانات كانت تدعوا إلى الإسلام. قال عز ثناؤه: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الحج: 78).

¹³⁹- أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، 713/2، بتصرف.

قال ﷺ: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لَأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَنتُمْ لَتَسْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (الأنعام: 19).

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَهَلْ أُنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (الأنبياء: 108).

الله سبحانه وتعالى هو الشاهد على صدق النبي ﷺ وليس هناك شهادة أكبر من شهادته، هذا النبي جاء لينذر الناس بالوحي الذي نزل به جبريل عليه السلام أن الله لا إله إلا هو، ومن دعا آلهة مع الله فإن الله سبحانه وتعالى ومحمد ﷺ منهم بريء مما يشركون.

فالإنذار هنا جاء ليؤكد الحجة على القوم أن محمد ﷺ يدعوا إلى إله واحد ولا يعبد آلهة متعددة ولا يسمح للقوم بهذا التعدد في الآلهة، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ (الكافرون: 1-2).

عن قتادة في قوله: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لَأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾. أن النبي ﷺ قال: ﴿بَلِّغُوا عَنِ اللَّهِ، فَمَنْ بَلَّغْتَهُ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَقَدْ بَلَّغْتَهُ أَمْرَ اللَّهِ ﷻ﴾¹⁴⁰. وأخرج ابن جرير من طريقه عن قتادة، قوله ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ، بَلِّغُوا وَلَوْ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، فَمَنْ بَلَّغْتَهُ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَقَدْ بَلَّغْتَهُ أَمْرَ اللَّهِ؛ أَخْذَهُ أَوْ تَرَكَهُ ﷻ﴾¹⁴¹.

قال ﷺ: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقَلَّبَ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَذْحُومًا﴾ (الإسراء: 39).

البلاغة البيانية والإعجازية في الآية القرآنية أمر ظاهر في غاية الجمال، أين يبين الله تعالى أن الآيات المتلوة من محمد ﷺ هي وحي منزل من الله تعالى على النبي المصطفى، وهذه الآيات دليل على وحدانية الله سبحانه لأنها كلامه ولا يمكن للبشر أن يأتي بمثل هذا الكلام.

140- أورده عبد الرزاق في المصنف، 205/1. عبد الرزاق: أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعائي، المصنف، ت: حبيب الرحمن الأعظمي، منشورات المجلس العلمي، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1390هـ/1970م، وابن جرير، جامع البيان، 182/9، وعزاه السيوطي في الدر المنثور إلى ابن جرير الطبري من حديث قتادة، 30/6.

141- أخرج ابن جرير، جامع البيان، 182/9، بنحوه دون ذكر الحسن، والسيوطي، الدر المنثور، 30/6، وعزاه إلى ابن جرير من طريق قتادة.

﴿ذَلِكَ﴾ بدأ الكلام عن التوحيد من قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ (الإسراء: 22)، وقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ (الإسراء: 23). ثم بين مجموع الأوامر التي يجب الامتثال لها، والنواهي التي يجب تركها، وبعدها قال: ذلك المذكور في الآيات السابقة من الأخلاق الحميدة والرذائل التي ينبغي تركها، فهي مجموع أوامر ونواهي مما أوحى إلى محمد صلى الله عليه وسلم، وكونها ﴿مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ التي هي معرفة الحق وامتثال أمره واجتناب نواهيهِ بإخلاص العقيدة لله سبحانه وتعالى. "الخطاب نظير الخطاب السابق كرر للتنبيه على أن التوحيد مبدأ الأمر ومنتهاه وأنه رأس كل حكمة وملاكها، ورتب عليه أولاً ما هو عائد إلى الشرك في الدنيا حيث قال ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ ورتب عليه ههنا نتیجته في العقبى فقیل ﴿فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا﴾ من جهة نفسك ومن جهة غيرك ﴿مَذْحُورًا﴾ مبعدا من رحمة الله تعالى" ¹⁴².

يقول الزجاج: ﴿مَذْحُورًا﴾: أي مُبَاعِدًا من رحمة الله. يقال دَحَرْتُهُ أَذْحَرُهُ دَحْرًا وَدُحُورًا إذا باعدته عنك ¹⁴³.

في الآيات الأولى من سورة الإسراء (21-39) يلاحظ نقطتين، الأولى أمر الله تعالى عباده بالتوحيد والثانية تهيئهم عن الشرك، وهذا النهي جاء بوصفين: النهي الأول: فتقعد مذموما مخذولا والثاني: فتلقى في جهنم ملوما مدحورا.

والفرق بين مذموم وملوم أن كونه مذموما أن يُذكَر له أن الفعل الذي أقدم عليه قبيح منكر، كونه ملوما أن يقال له بعد الفعل وذمه لما فعلت كذا؟ وما استفدت منه إلا إلحاق الضرر بنفسك، فأول الأمر الذم وآخره اللوم، والفرق بين مخذول ومدحور: أن المخذول هو المتروك إعانته ونصره، والمفوض إلى نفسه، والمدحور والمطرود المبعد على سبيل الإهانة له والاستخفاف به، فأول الأمر الخذلان، وآخره الطرد مهانا، والوصف بالذم والخذلان يكون في الدنيا، ووصف اللوم والدحور يكون في الآخرة ﴿مَذْحُورًا﴾ ¹⁴⁴.

142- الألويسي، روح المعاني، 77/15.

143- الزجاج، إعراب القرآن ومعانيه، 233/3.

144- أبو حيان، البحر المحيط، 36/6، وينظر: محمد الأمين، حدائق الروح والريحان، 114/14.

قال تجلت قدرته: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْشَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف: 188).

قال ﴿عَلَيْكَ﴾: ﴿فَلَعَلَّكَ تَأْمُرُكَ بِغُضِّ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (هود: 12).

في هاتين الآيتين يتضح المعنى الذي من أجله بُعث النبي محمد عليه الصلاة والسلام، إنه أمر الله سبحانه إليه فهو يحمل رسالة الله تعالى إلى العالمين، وهو أمر عليه امتثاله لأنه نبي الله وهو النذير البشير الذي لا يملك حتى أمر نفسه، والأمر المهم هو وجوب تبليغ وحي الله سبحانه من غير نقصان لأنه لا يحمل من الخوارق التي طلبها القوم منه ولا يملك لنفسه ضرا ولا نفعاً.

المبحث الثالث: الدعوة إلى الله تعالى:

المطلب الأول: طرق الدعوة إلى الله:

الفرع الأول: الدعوة إلى الله بالحكمة:

قال ﷺ: ﴿ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ

اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ (النساء: 113).

النبى محمد ﷺ بشر اختاره الله تعالى للمنزلة العظيمة من النبوة وحمل الرسالة لمجموع الصفات التي أهلته ليكون نبيا رسولا، وهذا لا ينفي عنه بشريته لأنه بشر رسول وليس ملكا، والله تعالى نزل عليه الكتاب الذي هو وحيه الذي أوحاه له طيلة ثلاث وعشرين سنة، وأثار عقله بالحكمة وعلمه أشياء لم يكن محمد ﷺ ليعرفها لولا فضل الله سبحانه عليه من خفيات الأمور أو من أمور الدين والشراع والغيبيات، ومن أنزل الله تعالى عليه الكتاب والحكمة وأهله لحمل الرسالة، وأمره بتبليغ ذلك هو معصوم عن الوقوع في الضلال والشبه¹⁴⁵.

قوله: ﴿ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾، فضلُ الله على محمد ﷺ بالنبوة والعصمة هو الذي نباه من كيد الظالمين، الذين أرادوا أن يُخطئوا النبي ﷺ في الحكم، لأنهم يعملون عمل الضالين، وهذا الحفظ والرحمة من الله تعالى للنبي كان لأنه نزل عليه الكتاب والحكمة فهو نبي الله ورسوله الذي يحمل رسالته إلى العالمين. قال الزجاج: "بين لك في كتابه من الحكمة التي لا يقع معها ضلال"¹⁴⁶، وفي آخر الآية يذكره بفضل الله تعالى عليه بأن اصطفاه لأمر النبوة وأمده بالحكمة.

يقول ابن قيم الجوزية في الحكمة: "هي العلم النافع والعمل الصالح، وسمي حكمة؛ لأن العلم والعمل قد تعلقا بمتعلقهما وأوصلا إلى غايتهما، وكذلك لا يكون الكلام حكمة حتى يكون موصلا إلى الغايات الحمودة والمطالب النافعة؛ فيكون مرشدا إلى العلم النافع والعمل الصالح فتحصل الغاية المطلوبة. فإذا كان المتكلم به لم يقصد مصلحة المخاطبين، ولا هداهم ولا إيصالهم إلى سعادتهم ودلاتهم على أسبابها وموانعها، ولا كان ذلك هو الغاية المقصودة المطلوبة، ولا تكلم

¹⁴⁵- ينظر: الزمخشري، الكشاف، 148/2، والرازي، مفاتيح الغيب، 40/11، وأبو حيان، البحر المحيط، 362/3.

¹⁴⁶- الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، 104/2، ينظر: الواحدي، الوسيط، 114/2.

لأجلها ولا أرسل الرسل وأنزل الكتب لأجلها، ولا نصب الثواب والعقاب لأجلها؛ لم يكن حكيما ولا كلامه حكمة فضلا عن أن تكون بالغة¹⁴⁷.

الاختيار الذي حظي به النبي ﷺ ليكون النبي الرسول، كان بفضل الله تعالى الذي علمه الكتاب والحكمة وعلوما لم يعرفها محمد ﷺ من قبل، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (الشورى: 52)، وبين الله سبحانه للنبي المصطفى أنه ما كان يرجو هذا الفضل من ربه ولا خطر يوما عليه أن يُنزل الله عليه كتابا، قال جل جلاله: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ (القصص: 86)، ولهذا كان فضل الله تعالى على النبي ﷺ فضلا عظيما. وفيه دليل على صدق النبي ﷺ أنه رسول من الله تعالى.

الفرع الثاني: الدعوة إلى الله بالموعظة والمجدال الحسن:

قال ﷺ: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (النحل: 125).

في الفرع الأول كان الحديث عن فضل الله تعالى أن نزل على محمد ﷺ الكتاب الذي هو القرآن الكريم والحكمة، وفي هذه الآية من سورة النحل أمر من الله تعالى إلى نبيه بأن يقوم بتبليغ الرسالة ودعوة الناس إلى كتاب الله تعالى، وهذه الدعوة تكون بالحكمة أولا ثم الموعظة الحسنة، فكيف تكون الدعوة بالحكمة؟.

يذكر الرازي أن الآية تكلمت عن ثلاث طرق للدعوة الإسلامية الصحيحة: الحكمة، الموعظة الحسنة، والمجادلة بالطريق الأحسن، وكان الكلام عن الجدال في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (العنكبوت: 46)، ويقول الرازي أن الله تعالى ذكر هذه الطرق وعطف بعضها على بعض للدلالة على أنها متغايرة متباينة¹⁴⁸.

147- ابن قيم الجوزية، الضوء المنير على التفسير، 293/2.

148- الرازي، مفاتيح الغيب، 140/20، بتصرف.

قصر الدعوة على ذكر هذين القسمين، لأن الدعوة إن كانت بالدلائل القطعية فهي الحكمة، وإن كانت بالدلائل الظنية فهي الموعظة الحسنة، أما الجدل فليس من باب الدعوة، بل المقصود منه غرض مغاير للدعوة وهو الإلزام والإفحام، فلهذا السبب لم يقل ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة والجدل الأحسن، بل قطع الجدل عن باب الدعوة تنبيهاً على أنه لا يحصل الدعوة، وإنما الغرض منه شيء آخر¹⁴⁹.

الإمام الرازي بداية يتكلم عن ثلاث طرق للدعوة من خلال الآية القرآنية من سورة النحل، ثم يخرج طريقة الجدل من الدعوة بالرغم من ثبوتها، لأن الداعية في كثير من الأحيان يحتاج إلى الجدل الحسن مع غير المسلمين أو المرتدين أو الكفار. وهي طريقة ثابت ذكرها والعمل بها في عهد النبي ﷺ والتاريخ الإسلامي، قال ﷺ: ﴿وَمَا تَجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (العنكبوت: 46)، وفي فعل سيدنا إبراهيم عليه السلام مع الملك الظالم، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: 258).

وقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا آتَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ كُنَّا كَانُوا أَبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (البقرة: 170).

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ كُنَّا كَانُوا الشَّيْطَانَ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ (لقمان: 21).

الآية القرآنية من سورة النحل نزلت بمكة المكرمة أين كان النبي ﷺ يجاهد كل يوم ليهتدي قرشي واحد إلى دين الله تعالى. وفي هذه المرحلة كان أمر الله تعالى إلى نبيه أن يدعو إلى الله وشرعه بلطف ولين، وهو أن يسمع المدعو حكمه، وهو الكلام الصواب القريب الواقع في النفس أجمل موقع، والموعظة الحسنة التخويف والترجية والتلطف بالإنسان بأن يجعله بصورة من يقبل الفضائل، فهذه حالة من يدعى وحالة من يُجادل دون مخاشنة أو فضاضة وغلظة¹⁵⁰.

149- الرازي، مفاتيح الغيب، 141/20.

150- ينظر: ابن عطية، المحرر الوجيز، 432/3.

والدعوة هنا في صورتها الأولى من الكلام عن الشرع وحكمة الله تعالى فيه، والدعوة إلى توحيد الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال إن اقتضى الأمر ذلك لتوضيح أمور الدين وأحكامه وحكمه، وبيان وعد الله تعالى للمؤمنين الصادقين وإنذار الكافرين المكذبين بالدعوة. أما الأمر الثاني فهو القتال الذي جاء بعد بناء الدولة الإسلامية وإرساء قواعدها الأساسية، وكذا القوة الإيمانية التي عرفها المجتمع المدني من عدة وعتاد، هنا كان الأمر بالقتال من الله تعالى لتبليغ رسالته في ميادين أوسع في الأرض ولأقوام أكثر، لأجل قيام الأمة الإسلامية في رقعة أوسع.

المطلب الثاني: وسائل الدعوة إلى الله تعالى.

الفرع الأول: تعليم الناس الكتاب والحكمة.

قال ﷺ: ﴿ رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُنْزِلُ عَلَيْهِمْ إِنْكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (البقرة: 129).

هذه الكلمات من دعاء سيدنا إبراهيم عليه السلام يوم رفع قواعد البيت، وحين تم البناء رفع يديه إلى السماء داعياً ربه أن يبعث في الأمة العربية التي تسكن أرض مكة رسولا منهم، يتلوا عليهم آيات الله تعالى ويعلمهم القرآن الكريم ويطهر قلوبهم من الشرك وعبادة الأوثان. وبهذا الدعاء الصادق من نبي الله إبراهيم عليه السلام سكن العرب أرض مكة واستوطنوا فيها وكانوا عشائر وقبائل، وفيهم بُعث النبي الخاتم محمد ﷺ الذي جاء بمعجزة القرآن الكريم.

﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾

﴿ يَتْلُو ﴾ في موضع نصب نعت للرسول أي تاليا عليهم، ويصح أن يكون في موضع الحال، والآيات المتلوة هي آيات القرآن الكريم، ﴿ الْكِتَابَ ﴾ هو القرآن الكريم، ونسب التعليم إلى النبي ﷺ من حيث هو يعطي الأمور التي ينظر فيها ويعلم طرق النظر بما يلقيه الله إليه من وحي¹⁵¹. يقول الزمخشري: "يتلو عليهم آياتك يقرأ عليهم، ويبلغهم ما يوحي إليه من دلائل وحدانيتك وصدق أنبيائك ويعلمهم الكتاب القرآن"¹⁵². لأن النبي ﷺ هو الذي كان الوحي يتزل عليه تباعا، ثم يقرأ مما نزل عليه من آيات بين يدي الصحابة رضوان الله عليهم وهم يتلقون هذه الآيات البينات ويحفظونها في الصدور بعد أن فهموا معانيها من خلال التطبيق العملي لكل آية تتزل على رسول الله عليه الصلاة والسلام.

﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ ﴾ أي يفصح عن ألفاظه ويوقفهم بقراءته على كيفية تلاوته كما قال ﷺ لأبي بن كعب إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن، وذلك حتى يتعلم أبي من النبي ﷺ كيفية أداء

151- ابن عطية، المحرر الوجيز، 212/1، بتصرف.

152- الزمخشري، الكشاف، 189/1.

القرآن الكريم، ومقاطعته، ومواصله، وفي قوله ويعلمهم الكتاب أي: يبين لهم وجوه أحكامه، حلاله وحرامه، ومفروضه، ومسنونه، ومواعظه، وأمثاله، وترغيبه، وترهيبه والحشر، والنشر، والعقاب والثواب، والجنة والنار¹⁵³. وبذلك يتم تعليم النبي ﷺ للصحابة والناس القرآن الكريم وتعليمه لغيرهم حتى ينال الجميع خير علمه وتعليمه، إلى تمام هذا الكتاب وتقنين هذا الدستور العظيم، قال جل وعلا: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة:3).

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾، "أي ويعلمكم القرآن الكريم ويبين لكم ما انطوى عليه من الحكم الإلهية، والأسرار الربانية التي لأجلها وصف بأنه هدى ونور، فالنبي ﷺ كان يتلوه عليهم ليحفظوا نظمه ولفظه حتى يبقى مصونا من التحريف والتصحيف، ويرشداهم إلى ما فيه من أسرار وحكم ليهتدوا بهديه، ويستضيئوا بنوره"¹⁵⁴.

والحكمة فيها اختلاف عند المفسرين، منهم من يقول أنها السنة وبيان الشرائع، وروى ابن وهب عن مالك: أن الحكمة الفقه في الدين والفهم الذي هو سجية ونور من الله تعالى¹⁵⁵، وقال مجاهد: الحكمة فهم القرآن، وقال مقاتل: العلم والعمل به لا يكون الرجل حكيما حتى يجمعهما، وقال ابن زيد: كل كلمة وعظمتك أو دعتك إلى مكرمة، أو نهتتك عن قبيح فهي حكمة، وقال أبو جعفر محمد بن يعقوب: كل صواب من القول ورث فعلا صحيحا فهو حكمة¹⁵⁶، بين أبو حيان أن هذه الأقوال متقاربة ويمكن الجمع بينها، الحكمة هي السنة النبوية الشريفة التي جاءت قولاً أو فعلاً من رسول الله ﷺ، جاءت تبين ما في الكتاب من مجمل، وتوضح المشكل، وتفصح عن مقادير وأعداد ما لم يتعرض الكتاب إليه، ويثبت أحكاماً لم يتضمنها القرآن الكريم¹⁵⁷.

دعاء إبراهيم عليه السلام ربه بالأمن لمكة وبالرزق لأهلها، وأن يجعل من ذريته أمة مسلمة، ختم الدعاء بما فيه سعادة لأهل مكة بالسعادة في الدنيا والآخرة، وهو بعثة محمد ﷺ رسولا منهم، وقد خص ذريته بالدعاء للشفقة والحنو عليهم، ولأن في صلاح نسل الصالحين نفعاً كثيراً للتابعين إذ

153- أبو حيان، البحر المحيط، 564/1.

154- أحمد مصطفى المراغي، تفسير المراغي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، 1365هـ/1946م، 19/2.

155- ابن عطية، المحرر الوجيز، 212/1.

156- أبو حيان، البحر المحيط، 563/1.

157- نفسه، 564/1، بتصرف.

يكونون سببا لصلاح من وراءهم، والذرية هنا هم العرب، لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ (الجمعة:2)، هي أمة محمد ﷺ في النهاية.

الفرع الثاني: تركية الله سبحانه للعباد.

قال تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:151).

قال ﷺ: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (الجمعة:2).

﴿يُزَكِّيهِمْ﴾ التزكية معناه يطهرهم وينميهم بالخير، ومعنى الزكاة لا يخرج عن التطهير أو التنمية. والتزكية باطنا من أرجاس الشرك وأنجاس الشك، وظاهرا بالتكاليف التي تمحص الآثام، وتوصل الأنعام، يقول ابن عباس: التزكية: الطاعة والإخلاص¹⁵⁸. ومن ذلك إخراج الزكاة التي تطهر الأموال وتزكيها وتنميها.

هذه التزكية التي كانت فضلا عظيما من الله تعالى على عباده، كانت من قبل الأنبياء المرسلين، ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا﴾، ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا﴾، وهذا الدور الذي قام به النبي ﷺ من أهم الأعمال التي يقوم بها نبي ليخرج أجيال من عبادة الأوثان وتطهيرهم من الشرك العالق بقلوبهم لعصور من الزمن، وهذه من أشق الأعمال التي جاهد النبي ﷺ فيها مدة ثلاث عشرة سنة في مكة، وهو يحاول هداية القوم وتزكية قلوبهم وعقولهم من ظلم الشرك العظيم، الذي تغلغل في النفوس، وصار تقليدا للقوم من آبائهم وصعب التخلص منه.

والترتيب في الآيات القرآنية بين، فالنبي ﷺ قام بتلاوة القرآن الكريم على القوم الذي نزل بلغتهم العربية التي كانت فطرتهم وسلاحهم العتيق. ويزكيهم بعد قراءة القرآن عليهم، واستمالة قلوبهم لسماعه، وإذا حصلت الهداية، جاء وقت تعليم أحكام القرآن وحكمه وسنة المصطفى ﷺ.

¹⁵⁸- ينظر: ابن عطية، المحرر الوجيز، 212/1، وأبو حيان، البحر المحيط، 564/1.

التزكية والتطهير من أصعب الأعمال وأشدّها على الإنسان، ولهذا وكل أمر تزكية النفوس وتطهيرها إلى الرسل عليهم السلام لأن لهم القدرة الكافية على هذا العمل. ولأن بعثة الأنبياء والرسل في الأقوام لأجل تزكية النفوس من الشرك وأمراض القلوب، وتوجيهها إلى التوحيد الخالص إلى رب العالمين، وهم بذلك أقدر المعالجين لنفوس البشر بالتزكية، "تزكية النفوس مُسَلَّم إلى الرسل، وإنما بعثهم الله لهذه التزكية وولاهم إياها، وجعلها على أيديهم: دعوة وتعلّيمًا، وبيانا وإرشادا، لا خلقًا ولا إلهامًا. فهم المبعوثون لعلاج نفوس الأمم. قال الله -تعالى-: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾¹⁵⁹.

في الآية القرآنية من سورة البقرة أحر الله تعالى التزكية عن تعليم الكتاب والحكمة، والتزكية هي تطهير قلوب القوم بما أوتي النبي ﷺ من دقائق الحكمة، فترتقي النفوس بصفاتها إلى القمة التي يؤمن فيها الردة عن الدين. والتزكية في الآية هي نماء النفس بما هو بمنزلة الغذاء للجسم. في سورة الجمعة ذكر الله سبحانه بعثة النبي إلى الأميين، اقتضى المقام تقديم التزكية التي رأسها البراءة من الشرك الأكبر ليقبلوا ما جاءهم من العلم، وأما تقديمها في آل عمران مع ذكر البعث للمؤمنين فلاقتضاء الحال بالمعاقبة على الإقبال على الغنائم الذي كان سبب الهزيمة لكونها إقبالا على الدنيا التي هي أم الأدناس، ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾، أي الذي يغلب كل شيء ولا يغالبه شيء، والحكيم أي الذي يتيقن ما أراد فلا يأتي نقضه ولا متصف بذلك غير¹⁶⁰.

الفرع الثالث: فضل الله تعالى على العباد.

قال ﷺ: ﴿وَأذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يُعْظُمُ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: 231).
قال ﷺ: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (آل عمران: 164).

159- ابن قيم الجوزية، الضوء المنير على التفسير، 65/6.

160- البقاعي، نظم الدرر، 162/2، بتصرف.

إرسال النبي ﷺ إلى الناس لهدايتهم لطريق الله فضل عظيم من الله ﷻ، وهو الرسول الذي جاء ليعلم الناس دينهم بتعليم الكتاب والحكمة التي أرسله الله تعالى بها. فالنبي ﷺ لم يحتفظ بالكتاب لنفسه، ولم يرد الهداية لشخصه بل كان رسولا صادقا وأدى أمانة تبليغ الرسالة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ مَرِسَاتَهُ﴾ (المائدة: 67).

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا﴾، "لأتم نعمتي عليكم باستيلائكم¹⁶¹ على البيت الذي جعلته قبلة لكم، وتطهيركم له من عبادة الأصنام، كما أتمها عليكم بإرسال رسول منكم وهو محمد ﷺ، فالقبلة في بلادكم، والرسول من أمتكم، وهو يتلو عليكم آياتنا التي ترشدكم إلى الحق، وتهدىكم إلى سبيل الرشاد، وهي تشمل آيات الكتاب الكريم وغيرها من الدلائل والبراهين التي تدل على وحدانية الله، وعظيم قدرته وبديع تصرفه في السموات والأرض.

ووجه المنة في ذلك، أنه يهديهم إلى الحق مصحوبا بالدليل والبرهان، دون التقليد والتسليم بلا تبصر وفهم، وبذا يكون العقل مستقلا، والدين له مرشدا وهاديا¹⁶².

إن تمام النعمة التي رضيها الله تعالى للأمة العربية خاصة ولعباده عامة، جاءت لتخرج الإنسان من ظلم نفسه باتخاذ الشيطان وليا وعبادة غير الله تعالى، والعبد بذلك عبد للهوى والشيطان، وهو بعيد عن نور الله تعالى وقدرته التي تملك الإنسان نفسه ويعمل على تسييرها لأجل مرضاة الله تعالى والسعادة في الدنيا والفوز بجنت الرضوان عند الله سبحانه وتعالى. ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا﴾، هذا الإرسال إما متعلق بما قبله، أي: ولأتم نعمتي عليكم في الآخرة بالثواب كما أتممتها عليكم في الدنيا بإرسال الرسول، أو بما بعده، أي: كما ذكرتكم بإرسال الرسول، ﴿فَاذْكُرُونِي﴾ بالطاعة، ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بالثواب ﴿وَأَشْكُرُوا لِي﴾ ما أنعمت به عليك، ﴿وَلَا تَكْفُرُون﴾ ولا تجحدوا بفضل الله تعالى عليكم¹⁶³. وفي كل خير فالله تعالى لم يترك عباده

161- المصطلح المستخدم (باستيلائكم) في تعبير منطقة مكة بجوار البيت الحرام غير منطقي، لأن عرب جرهم جاؤوا لإسماعيل عليه السلام وأمه، وصارت بينهم قرابة وتنازل القوم إلى أن تكونت القبائل العربية في المنطقة التي آمنت بوحداية الله تعالى وكانت على حنيفة إبراهيم عليه السلام، وقامت بخدمة بيت الله الحرام إلى بعثة النبي صلى الله عليه وسلم.

162- أحمد مصطفى المراغي، تفسير المراغي، 18/2.

163- الزمخشري، الكشاف، 1-347، بتصرف.

في ظلمات الجهل وأوثان الشرك بل أنعم عليهم فضل إرسال الرسل لهدايتهم إلى طريق الله تعالى، والعباد إن اختاروا هذا الطريق الصحيح كان فضل الله عليهم عظيماً وأنعم عليهم بثواب الآخرة، لأنهم شكروا نعم الله تعالى وقابلوها بالرضا والطاعة لله تعالى ورسوله ﷺ .

الآية القرآنية تُذكر النبي عليه السلام أنه رسول مبعوث من الله تعالى، ووسيلته الصحيحة لتحقيق الدعوة إلى الله سبحانه هو السير على المنهج الرباني الذي أراده الله ﷻ منه من خلال:

- 1- الدعوة إلى الله بالحكمة التي تضمن السلامة له ولمن تبعه من المؤمنين، وتحقيق نجاح أوسع في إقبال الناس على الإسلام، لأن الحكمة في تسيير الأمر من بدايته هي عصب الأمر كله، والنجاح في استمرار الدعوة الإسلامية وإيمان الناس بها هو السبيل إلى تكوين أمة مسلمة.
- 2- الدعوة إلى الله بالموعظة والجدال الحسن بعيداً عن الجدال والنقد المستمر لكل الأعمال والأخلاق التي عرفها الناس، لأن الخطاب القرآني يعتمد على الدليل والمنهج السليم لقبول الدعوة.
- 3- مفتاح الدعوة إلى الله هو العلم، وتعليم الناس كتاب الله من الوسائل التي تركز النفوس وتطهر القلوب، وتجعل الناس مقبلين على دين الله تعالى بكل ثقة وعن يقين ثابت.

الفصل الثالث: الجاذب الحضاري:

المبحث الأول: الدعوة الإسلامية.

المطلب الأول: الحكم لله .

الفرع الأول: الحكم لله تعالى .

قال ﷺ: ﴿أَفْحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (المائدة: 50).

قوله ﷺ: ﴿أَفْحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾، فيه مناسبة مع الآية السابقة، قال تعالى: ﴿وَأَنْ أَحْكُمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ (المائدة: 49).

الله تعالى أنزل على نبيه قرآنا هو معجزته، وهو كتاب مصدق لما بين يديه من الكتاب، وفي هذا الكتاب أمر من الله تعالى بالحكم بما أنزل الله تعالى من أحكام تشريعية، وأوامر ونواهي.

"أن" في موضع نصب بـ"التتريل"، وقد أمر الله تعالى النبي ﷺ أن لا يتبع أهواء اليهود وأحكامهم المحرفة عن الكتب السماوية، وحكمهم المحرف في قتلهم، والذي أرادوا من خلاله أن يكون الرسول محمد ﷺ معهم في هذا الحكم الجائر.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾، والقول هنا يعود على اليهود الذين وصفهم الله تعالى بالفسق، لأنهم يتركون العمل بكتاب الله سبحانه، وهم خارجون عن طاعته ويدعون أنهم أهل كتاب وسلالة الأنبياء الذين فضلهم الله تعالى على الخلق أجمعين.

والرواية التي تذكر فعل اليهود المحرم والذي أرادوا به تحكيم النبي ﷺ، يرويها الطبري عن محمد بن إسحاق، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ¹⁶⁴ قال كعب بن أسد، وابن صلوبا، وعبد الله بن صوريا، وشأس بن قيس بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه. فأتوه فقالوا: يا محمد، إنك قد عرفت أنا أحرار يهود وأشرافهم وسادتهم، وإنا إن اتبعناك اتبعنا يهود ولم يخالفونا، وإن بيننا وبين قومنا خصومة، فنحاكمهم إليك، فتقضي لنا عليهم وتؤمن لك ونصدقك.

164 - ابن صوري في دلائل النبوة للبيهقي، 536/2.

فأبى رسول الله ﷺ، فأنزل الله فيهم: ﴿وَأَن احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ إلى قوله: ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ 165.

﴿أَفْحَكُمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾، استفهام معناه الإنكار على اليهود، حيث هم أهل كتاب وتحليل وتحريم من الله تعالى، ومع ذلك يُعرضون عن حكم الله، ويختارون عليه حكم الجاهلية، وهذا حكم الهوى لأن فيه تفضيل الأشرف عندهم وترجيح الفاضل عندهم في الدنيا على المفضول، وهذا أشد النعي عليهم، حيث تركوا الحكم الإلهي بحكم الهوى والجهل، وقال الحسن: هو عام في كل من يتنغي غير حكم الله والحكم حكمان، حكم بعلم فهو حكم الله، وحكم بجهل فهو حكم الشيطان¹⁶⁶.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، الحكم لله تعالى لأنه الأول والأخر، وهو خالق كل شيء والأمر بيده سبحانه وهو الذي يُشرع لعباده في هذا الكون العظيم ما يصلح لحياتهم في الزمان والمكان، والمؤمنون الذين يوقنون بأمر الله تعالى وبكتابه سبحانه هم الذين يثبتون عهد الله تعالى في حكمه، وخصوا بالذكر لسرعة إذعائهم لحكم الله تعالى، لأنهم يعرفون أن لا عدل منه ولا أحسن حكماً¹⁶⁷. والمتيقن من أيقن تبين عدل الله وحكمه¹⁶⁸.

قال ﷺ: ﴿إِن الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف: 40).

"فمن التَّعَبَّدَ لله العزيز الحكيم إفراده تعالى بالحكم فلا يُنَازَعُ في هذا الأمر فهو حق لهذا الإله صاحب العزة والحكمة، فلا مجال لأحد مهما كان أن يشارك الحكيم في حكمه، والعزيز في ملكه"¹⁶⁹.

165 - أخرجه ابن هشام في السيرة النبوية، 567/1، وأخرجه البيهقي في الدلائل، 536/2 من طريق يونس به، واللفظ للطبري، جامع البيان، 502/8.

166 - أبو حيان، البحر المحيط، 516/3.

167 - نفسه، 517/3.

168 - الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، 181/2.

169 - سيد سعيد عبد الغني، إخلاص العبودية للعزيز الحكيم، مكتبة الملك فهم، مكة المكرمة، ط1، 1425هـ/2004م، ص170.

ولهذا كانت النصوص القرآنية صريحة بجروف التوكيد، أن الحكم لله وبالخصر الذي يبين أن الأمر بيد الله وحده دون غيره، فلا حكم إلا لله، وهذا الحكم المطلق لله تعالى كان للأمر التالية¹⁷⁰:

1- الكون مخلوق لله ومملوك له فهو خالقه، والمملك الحقيقي يستلزم حق الانفراد بالتصرف، والبشر جزء من هذا المملك.

2- الله تعالى هو الخالق والممد بحق الوجود باستمرار، والرازق بالعطاء والنعم، فهو الذي يملك تحديد طريق سلوكنا في الحياة، فله الخلق والأمر.

3- ليس لأحد من البشر الحق في التشريع الديني، والحكم بالإباحة في أي أمر، إلا إذا علم أن الله سبحانه حكم بذلك، وكذا ليس للإنسان الحكم بالتحريم إلا إذا علم نصا من الله تعالى.

قال سبحانه: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ۚ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (القصص: 88).

الأمر في الآية القرآنية موجه للنبي ﷺ ومن خلاله إلى كل المؤمنين، بأن لا يعبد مع الله غيره من الآلهة التي يُظن أنها تحقق معنى العبودية، لأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وهنا نفى الشريك مع الله تعالى لأنه وحده المتفرد بالألوهية والربوبية لأنه هو الخالق الرازق المملك.

ومفهوم آخر يُحقق له هذه العبودية هي نفي الهلاك عنه لأنه الأول والآخر، وكل شيء هالك إلا وجهه سبحانه وتعالى. اختلف في معنى الوجه في الآية القرآنية بين المفسرين¹⁷¹ منهم من قال: كل شيء هالك إلا هو، قاله الطبري، وقال الزجاج: إلا إياه، وقال سفيان الثوري: المراد إلا ذا وجهه، ومنهم من قال: أردت بفعلي وجه الله تعالى ومنه قوله ﷻ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ (الأنعام: 52).

والمعنى أن كل شيء هالك ومنعدم الوجود إلا وجه الله تعالى، وبما أن الله تعالى ذكر وجهه فيتحقق ذلك لأنه لو أراد غير ذلك لقال: كل شيء هالك إلا هو... وغيره، فذكر الوجه يحقق الأمر.

﴿لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، معناه له فصل القضاء وإنفاذ القدرة في الدنيا والآخرة، والفصل بين الخلائق في الآخرة دون غيره وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ إخبار بالحشر والعودة من القبور،

170- عبد الرحمن حسن حنكة الميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها، ص 253-255، بتصرف.

171- ينظر: ابن عطية، المحرر الوجيز، 304/4.

وقد قرأ الجمهور " تَرْجَعُونَ " بضم التاء وفتح الجيم، وقرأ عيسى " تَرْجَعُونَ " بفتح التاء وكسر الجيم، وقرأ أبو عمرو بالوجهين¹⁷².

في الآية القرآنية إقرار مطلق بوحدانية الله تعالى من خلال أمر الله تعالى إلى نبيه بالنهي عن عبادة آلهة مع الله تعالى، ثم بيان تحقق هذه الوحدانية لأن كل شيء هالك من دون الله تعالى وهو وحده الباقي من دون الخلائق كلها، وهذه الأدلة كافية ومطلقة ليكون الحكم لله تعالى في الدنيا والآخرة، لأنه منزل الكتاب الحق على أنبيائه الذي شرع للعباد أمور دينهم، وإذا التزموا بهذا التشريع الرباني، حققوا العبودية لله تعالى فقضاء الله تعالى في الآخرة هو القضاء العدل بين جميع الخلائق.

قال **عَلَى**: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكُ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ (غافر: 12).

لما ذكر الله تعالى ما يوجب التهديد في حق المشركين، أردفه بذكر ما يدل على كمال قدرته وحكمته، ليصير ذلك دليلاً على أنه لا يجوز جعل غيره شريكاً له، والمعنى أن الوقوف على دلائل توحيد الله كالأمر المركوز في العقل إلا أن القول بالشرك والاشتغال بعبادة غير الله يصير كالمانع من تجلي تلك الأنوار، فإذا أعرض العبد عنها وأتاب إلى الله تعالى زال الغطاء فظهر النور التام، ولما قرر هذا المعنى صرح بالمطلوب وهو الإعراض عن غير الله، والإقبال بالكلية عليه سبحانه، فقال: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ (غافر: 14)¹⁷³.

بلاغة القرآن الكريم تتجلى في هذه العبارات التي كانت فصل الخطاب للقوم الكافرين، الذين ضلوا عن سبيل الله واختاروا طريق الشيطان من دون طريق الله تعالى. فقد بين الله تعالى للقوم أمرهم الذي هم عليه من الضلال، إذا دعي الله بالوحدانية كفر القوم وأنكروا، أما إذا أشرك معه آلهة من دونه آمنوا واستبشروا بالأمر لأن الهوى غلب عقولهم المقلدة. ثم أخبرهم سبحانه وتعالى أن هذا المنطق الضال الذي يقفون معه يخص القوم الكافرين، وأن الحكم لله وليس للطاغوت لأنه العلي الكبير.

¹⁷² - ابن عطية، المحرر الوجيز، 304/4، وينظر: الواحدي، الوسيط، 411/3، أبو حيان، البحر المحيط، 133/7.

¹⁷³ - الطبري، جامع البيان، هامش 8/4-9، الواحدي، الوسيط، 6/4.

قال ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ (غافر: 10-12).

المشهد في الآيات القرآنية يصور حال الكافرين يوم القيامة وهم بين يدي الله تعالى، وهم ينادون ربهم وهم في غمرات النيران التي لا قبل لبشر بها. حينها مقتوا أنفسهم أشد المقت لأهمم عرضوا عن دين الله تعالى في الحياة الدنيا، وأساءوا الفعل فكان السبب وراء دخولهم النار، فأخبرتهم الملائكة أن مقت الله لهم أشد من مقت أنفسهم وهم يعرض عليهم الإيمان فيأبون إتباعه.

قال قتادة: في قوله: ﴿لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ "لمقت الله أهل الضلالة حين عرض عليهم الإيمان في الدنيا، فتركوه وأبوا أن يقبلوه، أكبر مما مقتوا أنفسهم حين عاينوا عذاب الله يوم القيامة"¹⁷⁴.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾، قال الثوري¹⁷⁵: عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص، عن ابن مسعود: هذه الآية كقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (البقرة: 28). وكذا قال ابن عباس، والضحاك، وقاتادة، وأبو مالك¹⁷⁶.

كانوا أمواتا في أصلاب آبائهم، ثم أخرجهم فأحياهم، ثم أماتهم، ثم يحييهم بعد الموت. سؤال الرجعة إلى الدنيا لم يكن مرة بل جاء عدة منهم¹⁷⁷، وفي هذه الآيات من سورة غافر تلتطفوا في السؤال وهم بين يدي الله سبحانه وتعالى حين قدموا لكلامهم ببيان قدرة الله تعالى العظيمة في الإحياء والإماتة، وهو قادر على ما يشاء، ثم ذكروا ذنوبهم الكثيرة وأنهم كانوا لأنفسهم ظالمين، وسألوا الرجعة إلى الدنيا من أجل التكفير عن ذنوبهم وإتباع الحق الذي أضاعوا طريقه سابقا.

¹⁷⁴ - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 176/12، وأخرجه الطبري في جامع البيان عن سعيد عن قتادة، 288/20.

¹⁷⁵ - رواه ابن جرير الطبري في جامع البيان، من طريق عبد الرحمن بن مهدي، 291/20، ورواه السيوطي من طريق الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير، وابن مردويه، وابن المنذر وابن أبي حاتم، الدر المنثور، 23/13، ورواه الطبراني في المعجم الكبير من طريق أبي إسحاق عن أبي الضحاك عن ابن مسعود به، رقم: 9044، 9045، 90-43/9، والحاكم في المستدرک، كتاب: التفسير، تفسير سورة المؤمن، رقم: 3693، 514/2، من طريق إسرائيل أنبا أبو إسحاق به، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

¹⁷⁶ - ينظر: الطبري، جامع البيان، 291/20.

¹⁷⁷ - ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 176-177/12.

فأجابهم الله تعالى بأن لا سبيل إلى الرجوع لأنها النهاية ، وعلل ذلك بأنهم طبع على قلوبهم المنع وعدم قبول الحق ولو جاءت الرجعة مرات عدة، قال تعالى: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكُ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾ أي: ذلكم العذاب الذي نزل بكم إذا قيل: لا إله إلا الله أنكرتم وقتلتم: ﴿أَجْعَلِ الْإِلَهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ (ص:5)، وإن يجعل له شريك تصدقوا وتبعوا، أنتم هكذا تكونون، وإن رددتم إلى الدنيا، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (الأنعام:28).

قوله: ﴿فَالْحُكْمَ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾، الله تعالى هو الحاكم في خلقه، العدل الذي ليس من صفته الجور، لأنه حرّم الظلم على نفسه، وهو الذي يهدي من يشاء من عباده، ويضل من يشاء ويرحم من يشاء ويعذب من يشاء، لأنه الخالق الملك الذي لا إله إلا هو.

اللام في قوله: ﴿لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾، أي جنس الحكم ملك لله تعالى، وهو قصر حقيقي إذ لا حكم يوم القيامة لغير الله تعالى. وصفتي "العلي والكبير" جاء ذكرهما في هذا المقام مناسب لحرمان الكفار من الخروج من النار، أي لعدم نقض حكم الله عليهم بالخلود في النار، لأن العلو بمعنى شرف القدر وكماله، فهو العلي في مراتب الكمالات كلها بالذات، ومن جملة ما يقتضيه ذلك تمام العلم وتمام العدل، وعليه لا يحكم إلا بما تقتضيه الحكمة والعدل. ووصف "الكبير" هو قوة صفات كماله، فإن الكبير قوي وهو الغني المطلق الذي تنافي من كانت صفته الظلم والجور ومخالفة الحق¹⁷⁸.

جاء أمر الله تعالى بإرسال الرسل لتعليم الناس دينهم الحق، وإتباع الرسل ذلك بتوحيد الله الذي لا إله إلا هو ورد الأمر إليه وحده لأنه الحكم العدل والخالق المالك. فالأمر بيد الله سبحانه وتعالى، وهو يقضي بحكمه العدل في كل أمر لأنه لا يحكم إلا بالحق ولا يقضي إلا بما تقتضيه الحكمة، ولهذا جاءت نهاية الآية بقوله "العلي الكبير" لأنه وحده المتصف بالعلو، فليس كمثلته شيء في ذاته وصفاته وأفعاله، ولذا اشتدت سطوته بمن أشرك به واقتضت حكمته خلوده في النار فلا سبيل لخروجهم منها أبداً لأن ذلك مقتضى كونه العلي العالي في الحكم والمقام.

178- ابن عاشور، التحرير والتنوير، 101/24-102، بتصرف.

الفرع الثاني: الحكم بما أنزل الله تعالى.

الله تعالى نزل الوحي على الأنبياء والرسل ليُعلم الناس دينهم، ويسيروا وفق التشريع الرباني ولهذا كان أمره بإتباع أوامره والانتهاز عن نواهيه وذلك حكم الله تعالى الذي ينبغي على العباد إتباعه والعمل به لينال الجميع رضوان الله تعالى ويتحقق لهم الفوز بجنات الخلد .

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴾ (النساء:105).

قال مجاهد: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ (المائدة:48).

هذا بيان من الله سبحانه إلى نبيه محمد ﷺ بأنه تعالى أنزل عليه الكتاب بالحق، وهو الكتاب المصدق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولو اجتمع الإنس والجن على ذلك. كل هذه الحقائق المطلقة لأجل مهمة النبي ﷺ وهي الحكم بين الناس بما أنزل الله تعالى عليه من الكتاب.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ (النساء:105).

روي أن النبي ﷺ همَّ بخصام الخائن، فأمره الله تعالى بالاستغفار مما هم به، وذكر أن الخائنين الذين عاتب الله ﷻ نبيه محمد عليه الصلاة والسلام في خصومته عنهم من بني أبيرق، واختلف في الخيانة التي كانت منهم والتي وصفهم الله تعالى بها، وفيها نزل قوله سبحانه¹⁷⁹.

هذا الخطاب موجه للرسول محمد ﷺ، وبيان أن الكتاب هو حق من الله تعالى، وهو يتضمن الحق في خبره وطلبه.

وقوله: ﴿ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ ﴾، احتج بهذه الآية من ذهب من علماء الأصول إلى أنه كان عليه الصلاة والسلام له أن يحكم بالاجتهاد بدليل الآية، وبما ثبت في الصحيحين¹⁸⁰.

¹⁷⁹ - سبب نزول الآية الأولى ما أحرجه الترمذي في الجامع، أبواب تفسير القرآن، باب: من سورة النساء، رقم: 3036، 128/5-131، قال أبو عيسى هذا حديث غريب لا نعلم أحد أسنده غير محمد بن سلمة الحراني، ورواه ابن جرير في تفسيره، 458/7-462، وينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 165-160/4.

¹⁸⁰ - ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 259/4.

"وفي تأكيد الحكم إيدان بالاعتناء بشأنه كما أن في إسناد الإنزال إلى ضمير العظمة تعظيما لأمر المسند وتقديم المفعول الغير الصريح للاهتمام والتشويق، وقوله سبحانه: ﴿بِالْحَقِّ﴾ في موضع الحال أي إنا أنزلنا إليك القرآن متلبسا بالحق ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ﴾ برهم وفاجرهم ﴿بِمَا أَمَرَكَ اللَّهُ﴾ أي بما عرفك وأوحى به إليك، ... ﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ خصيما وهم بن أبيرق، أو طعمة ومن يعينه، أو هو ومن يسير بسيرته"181.

الآية القرآنية تحمل بيانا أن الله تعالى نزل القرآن الكريم على محمد ﷺ بالحق لأجل تحقيق الحق وبيانه وذلك يتم بالحكم العدل بين الناس، وليقضي النبي ﷺ بين الناس بما علمه الله تعالى في هذا الكتاب من الأحكام والحكم التي جاءت وحيا أوحاه الله عز وجل عليه.

يقول ابن الجوزي: "وفي قوله: ﴿بِمَا أَمَرَكَ اللَّهُ﴾ قولان:

أحدهما: أنه الذي علمه، والذي علمه لا يقبل دعوى أحد على أحد إلا ببرهان. والثاني: أنه ما يؤدي إليه اجتهاده. ذكره الماوردي"182.

ولأجل أن يحقق النبي ﷺ في الحكم بين الناس بالحق، لأنه يحمل بين يديه كتاب جاء بالحق وهو حق في بيانه، لا بد أن يتجنب الجماعة الخائنة ولا يكن لهم خصيما حتى لا يحقق للقوم الكافرين الجدل في حكم الله تعالى، وأن يحكم بما أنزل الله تعالى من الحق، ويتجنب هوى القوم الكافرين وأطماعهم، أي¹⁸³ لا تكن مدافعا ومخاصما عن الخائنين تجادل وتدافع عنهم، وهم طعمة بن أبيرق وجماعته، بنو أبيرق بشر وبشير ومبشر، كما أخرجه الترمذي في الجامع من حديث قتادة بن النعمان، وفي الآية نهي للنبي ﷺ أن يظلم بريئا من ذنب السرقة وهو اليهودي زيد بن سمين، لأجل الدفاع عن الخائنين وهم طعمة وقومه، اعتمادا على شهادتهم بالزور بأن اليهودي هو السارق.

قال ﷺ: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ (المائدة:48).

181- الألويسي، روح المعاني، 140/5.

182- ابن الجوزي، زاد المسير، 191/2.

183- محمد الأمين، حدائق الروح والريحان، 333/6.

ذكر الله سبحانه في الآيات السابقة الكتب السماوية التي أنزلها على الأنبياء السابقين، التوراة التي نزلها على موسى عليه السلام وأمر قومه بإتباعها وإقامة أحكامها، ثم الإنجيل الذي نزله الله تعالى على عيسى عليه السلام وما فيه من أحكام وتشريعات التي أمر أهله بإقامتها وإتباع حكم الله عز وجل، جاء دور آخر الكتب السماوية نزولا وهو القرآن الكريم الذي نزله وحيا على نبيه محمد عليه السلام، فقال:

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أي بالصدق الذي لا ريب في أنه من عند الله سبحانه، وهو الكتاب الذي جاء مصدقا للكتب السابقة التي جاءت تحمل الإخبار عنه ومدحه وذكر النبي الذي جاء به عليه الصلاة والسلام. وهذا التصديق الذي وصف به القرآن الكريم، كان لما يحمله من أخبار وذكر عن الرسالات السماوية السابقة وأخبار عن الأنبياء والرسل السابقين وتأكيد صدقها لأنها وحى الله تعالى إلى أنبيائه، فهي كلام صدق على لسان النبي المصطفى، وما التحريف الذي أصابها بعد ذلك إلا بفعل الإنسان الذي اتبع هواه وأراد بكلام الله ثمنا قليلا.

"من الكتب المتقدمة المتضمنة ذكره ومدحه وأنه سيتزل من عند الله على عبده ورسوله عليه السلام، فكان نزوله كما أخبرت به، مما زادها صدقا عند حاملها من ذوي البصائر الذين انقادوا لأمر الله، واتبعوا شرائع الله، وصدقوا رسل الله؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ (الإسراء: 107-108) أي: إن كان ما وعدنا الله على السنة الرسل المتقدمين من مجيء محمد عليه السلام لمفعولا أي: لكائنا لا محالة ولا بد" 184.

المهيمن قال جماعة من أهل اللغة: والمهيمن الرقيب الحافظ، يقال: هيمن الرجل يهيمن هيمنة إذا كان رقبيا على الشيء وهو قول الخليل وأبي عبيدة، قال أبو عبيدة: المهيمن: الشاهد المصدق، واحتج بقول حسان: إن الكتاب مهيمن لنبينا والحق يعرفه ذوو الألباب 185.

وحكاة الزجاج، وبه فسر الزمخشري 186 قال: ﴿وَمُهَيْمِنًا﴾ رقبيا على سائر الكتب، لأنه يشهد لها بالصحة والبيان.

184- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 245/5.

185- الواحدي، الوسيط، 195/2.

186- الزمخشري، الكشاف، 640/1.

قال ابن عباس: أمينا، في رواية التيمي، وابن جبير وعكرمة وعطاء والضحاك والحسن، وقال ابن جريج: القرآن أمين على ما قبله من الكتب، وقال ابن عباس في رواية أبي صالح: شاهدا¹⁸⁷ وبه قال الحسن، وقتادة والسدي ومقاتل، وقال ابن زيد: مصدقا على ما أخبر من الكتب¹⁸⁸.

قال ابن عطية: " أنه شاهد، وأنه مؤتمن، وأنه مصدق، وأنه أمين، وأنه رقيب، قال: ولفظة المهيمن على الشيء، هو المعنى بأمره الشاهد على حقائقه، الحافظ لحامله، فلا يدخل فيه ما ليس منه، والقرآن جعله الله مهيمنا على الكتب، يشهد بما فيها من الحقائق، وعلى ما نسبه المحرفون إليها، فيصح الحقائق ويبطل التحريف"¹⁸⁹.

قوله: ﴿فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾، قال بعض العلماء هذه الآية ناسخة لقوله تعالى أو أعرض عنهم، والجمهور: أنه ليس بنسخ، والمعنى إن اخترت أن تحكم فاحكم بينهم بما أنزل الله، ثم حذر الله تعالى نبيه من إتباع إرادتهم المريضة وتحقيق غايتهم في تحريف أحكام الله تعالى عن مقاصدها التي جاءت بها للحكم بين الناس. والحكم هنا يتعلق بالحكم بالقرآن الكريم وهو الرجم على الزانين. والمعنى الأكيد في الآية القرآنية أن النبي ﷺ مطالب بالحكم بأحكام القرآن الكريم على اليهود، وأن لا يتبع أهواءهم وأباطيلهم لأن بين يديه كتاب جاء بالحق وهو حق في بيانه وأحكامه، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾، فالحق الذي بين يدي النبي ﷺ لا ينبغي تركه وإتباع الهوى وتحريف اليهود، وهذا يحقق هيمنة القرآن الكريم على الكتب السماوية وتصديقه لها.

﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾، اختلف في معنى الشريعة والمنهاج قال علي بن أبي طالب وقتادة لكل أمة شريعة أي: لليهود شريعة وللنصارى شريعة، وللمسلمين شريعة، وقال ابن عباس والحسن ومجاهد: شريعة ومنهاج سبيلا¹⁹⁰ سنة.

الشريعة والشريعة واحد وهي ما شرع الله تعالى للعباد من أحكام عبادات ومعاملات، وهي في اللغة: الطريقة، لشروع الناس فيها.

187- البغوي، معالم التنزيل، 42/2-43.

188- نفسه.

189- ابن عطية، المحرر الوجيز، 199/2.

190- الطبري، جامع البيان، 175/6 عن ابن عباس ومجاهد، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 249/5 عن ابن عباس والحسن ومجاهد والحسن وعكرمة،

تفسير ابن عباس، ص96.

والمناهج: الطريق الواضح يقال: نهج الأمر ونهج، لغتان إذا وضح¹⁹¹.

في الآيات السابقة من سورة المائدة ذكر الله تعالى أنه أنزل التوراة على موسى عليه السلام في هدى ونور، ولم يذكر المصدر الذي أنزلها، أو لم يبين ذلك. ثم ذكر عيسى عليه السلام وأنه آتاه الإنجيل كتاب من الكتب السماوية المقدسة، فذكره ليقر اليهود نبوته ويصدقوا الكتاب الذي جاء به لأنهم أنكروا نبوته وكذبوا بالكتاب، فنص الله تعالى على نبوته وعلى كتابه في نفس الوقت.

ثم ذكر إنزال القرآن الكريم على محمد صلى الله عليه وسلم فذكر الكتاب ومن أنزله مقرراً لنبوته وكتابه، لأن اليهود والنصارى ينكرون نبوته وكتابه، جاء هنا ذكر المتزل إليه بكاف الخطاب، لأنه نص على المقصود، وكثيراً ما جاء ذلك بلفظ الخطاب، لأنه لا يلبس البتة لأنه كتاب ملتبس بالحق¹⁹².

قال تعالى: ﴿وَأَن احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِن كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ (المائدة:49).

﴿وَأَن احْكُم﴾ معطوف على الكتاب في الآية السابقة وهنا تأكيد على وجوب الحكم

بشريعة الإسلام المتزلة على النبي صلى الله عليه وسلم فيما صدر من اليهود وهم يعيشون في المدينة بميثاق المدينة . وقد نهي الله تعالى النبي صلى الله عليه وسلم عن إتباع الهوى في الحكم وخاصة أهواء بني إسرائيل إذ هي مُضِلَّة، والهوى في الأغلب إنما يجيء عبارة عما لا خير فيه، وقد يأتي مقيداً بما فيه خير¹⁹³.

¹⁹¹- الواحدي، الوسيط، 195/2، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (ش.ر.ع)، الرازي: محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، مختار الصحاح، المطبعة

الكلية، مصر، 1329هـ، ص310، مادة (ش.ر.ع).

¹⁹²- أبو حيان، البحر، 512/3.

¹⁹³- ينظر: ابن عطية، المحرر الوجيز، 202/2.

المطلب الثاني طاعة الله سبحانه.

طاعة الله تعالى هي مقتضى الرسالة التي جاء بها النبي ﷺ إلى الناس، لأن طاعة الرسول من طاعة الله تعالى، وطاعة الله تُسير العبد إلى رضا الله سبحانه وتعالى.

ولفظ الطاعة في القرآن الكريم يكثر ذكرها بمختلف الصيغ، إما فعل أمر أو فعل مبني للمجهول وإما مصدر. وإذا تعلق الخطاب بالأمر فإن الفعل يأتي دائما بطاعة الله تعالى وطاعة الرسول لأن الأمر واحد، لأن طاعة الرسول في إتباع الرسالة التي جاء بها في كل أحكامها وتشريعاتها هو طاعة لله عز وجل، ولهذا كانت هذه الآيات التي من خلالها يتضح مفهوم هذا المطلب.

الفرع الأول: الأمر بالطاعة.

قال ﷻ: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ (آل عمران: 32).

قال ﷻ: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ (النور: 54).

الآيتين القرآنيتين تتحدثان عن الأمر بالطاعة، والخطاب موجه إلى النبي ﷺ بأن يدعوا الناس إلى طاعة الله تعالى وطاعة رسوله، وإذا أعرض القوم عن النبي ﷺ فإن الجزاء الأكيد من الله تعالى هو نفي الحب عن القوم الكافرين، ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ في الآية الأولى أما الآية الثانية فإنه بيان من الله تعالى أن لكل فريق ما حُمِّل من الأعمال، والطاعة هي السبيل إلى الهداية، وما على الرسول إلا البلاغ والأمر كله بيد الله سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ (النساء: 59)

قال ﷻ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَاتُّمَّ تَسْمَعُونَ ﴾ (الأنفال: 20)

قال عز ثناؤه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ (محمد: 33).

الخطاب في الآيات القرآنية المذكورة موجه مباشرة إلى المؤمنين بوجوب طاعة الله تعالى وطاعة الرسول ﷺ. في الآية الأولى الطاعة مفروضة لثلاثة عناصر، طاعة الله تعالى وطاعة الرسول، وطاعة أولي الأمر، والجواب في الآية إذا كان هناك تنازع بين المؤمنين بضرورة رد الأمر كله إلى الله تعالى وإلى رسوله. وهذا الرد هو مشروط بالإيمان بالله واليوم الآخر، لأن المؤمن الحق هو الذي يؤمن بالله سبحانه بإخلاص ويؤمن باليوم الآخر يوماً يقف فيه الناس جميعاً للحساب بين يدي الله جل وعلا. في الآية الثانية من سورة الأنفال لم يتكرر فعل الأمر أطيعوا، وإنما جاء فعلاً واحداً يخص الله سبحانه ورسوله ﷺ ليبين الله تعالى أن الطاعة هي في معين واحد ولا يتجزأ الأمر إلى عناصر. وإن تَحَقَّقَ أمر طاعة المؤمنين لله تعالى ورسوله الكريم، يشترط فيه عدم الإعراض عن السماع لأن في التولي ترك للطاعة فالسماع الصادق من المؤمنين لكلام الرسول ﷺ يجعلهم أول الطائعين للدين، وعليهم أن لا يبتلوا أعمالهم حتى تكون خالصة النية لله تعالى.

قال الله تعالى: ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (آل عمران: 132).

قال تجلت قدرته: ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (الأنفال: 1)

قال ﷺ: ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (النور: 56).

أمر الطاعة الموجه إلى الناس يكون برجاء الرحمة، لأن الطاعة الصادقة لله تعالى والرسول تحقق للعبد الرحمة من الله تعالى، كما أن الإيمان شرطه الطاعة لله والرسول.

قال ﷺ: ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا إِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾

(المائدة: 92).

الخطاب في الآية يتضمن الأمر بطاعة الله تعالى، وطاعة الرسول، مع النهي المتضمن في هذا الخطاب بضرورة الحذر من التولي والإعراض عن الحق، لأن الجزاء والعقاب لله تعالى، أما الرسول ﷺ فمهمته الأساسية هي التبليغ ولا يملك من أمر المؤمنين والكافرين شيء.

قال ﷺ: ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ

الصَّابِرِينَ ﴾ (الأنفال: 46).

طاعة الله تعالى ورسوله المصطفى ﷺ هي السبيل الوحيد لحماية المؤمنين من أنفسهم ومن الشيطان، لأنه على المؤمنين عدم التنازع في أمر الدنيا، لأن التنازع نتيجه الفشل في أمور الحياة وذهاب حظ المؤمنين وذكرهم بين الأمم وتشتتهم والفرقة العمياء التي تحكم الحياة بعد ذلك.

وما على المؤمنين إلا الامتثال لأمر الطاعة لحكم الله تعالى ورسوله ﷺ مهما كانت الظروف والصبر على مهلكات الأمور بجهد النفس الأكبر والله تعالى يكفل المعية للصابرين.

قال تعالى: ﴿الْأَشْفَقْتُمْ أَنْ تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المجادلة: 13)

قال سبحانه: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ مَرْسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (التغابن: 12).

الطاعة هي امتثال أوامر الله تعالى واجتناب نواهيه وهي سبيل بين طاعة الرسول وطاعة الله تعالى، في الآية أمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ثم طاعة الله ورسوله، وكأنه استثناء بخروج الحكم عن أحكام الطاعة. والأمر في حقيقته هو أهمية الصلاة والزكاة كونهما من أركان الإسلام، ومن شروط تحقيق عدم الارتداد عن دين الإسلام كما قال أبو بكر الصديق لعمر بن الخطاب وهو يجادله في أمر أهل الردة: "إلا بحقها يا عمر".

ويتكرر الخطاب في سورة التغابن أن الطاعة لله تعالى ورسوله أمر مفروض على المؤمن وأن النبي ﷺ لا يملك إلا تبليغ رسالة ربه إلى الناس والحكم كله لله سبحانه وتعالى.

الفرع الثاني: الطاعة والمجزاء.

قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ (النساء: 80).

قال ﷺ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (النساء: 13).

قال ﷺ: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ مَرْفِقًا﴾ (النساء: 69).

قال سبحانه: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (النور: 52).

في الآية الأولى من سورة النساء يبين الله تعالى أن طاعته سبحانه من طاعة رسوله الكريم، ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾، أما الجزء الذي يتعلق بالمتولي عن أمر الله تعالى فلا يعود للرسول لكنه حكم الله تعالى، لأن النبي ﷺ لم يرسله الله حفيظاً على الناس.

والجزء العظيم الذي يحققه المؤمن إذا أطاع الله ورسوله هو الفوز بالجنات التي تجري من تحتها الأنهار، وليس أعظم من هذا الجزء للعبد المؤمن الذي ينال رضا ربه سبحانه وتعالى، كما أن هذا العبد الذي أطاع الله تعالى واتبع رسوله ﷺ يكون في الحياة الآخرة مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وليس هناك أحسن للعبد المؤمن من هذه الرفقة العظيمة في جنات الله تعالى يوم يقوم الحساب والأمر يومئذ لله عز وجل.

الطاعة والتقوى لله سبحانه وتعالى أمر ضروري للمؤمن، يذكر الغزالي أن التقوى في القرآن تطلق على ثلاثة أشياء :

الأول: بمعنى الخشية والهيبة؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ (البقرة: 41)، وقال سبحانه: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ (البقرة: 281).

والثاني: بمعنى الطاعة والعبادة؛ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ (آل عمران: 102) قال ابن عباس: أطيعوا الله حق طاعته، وقال مجاهد: هو أن يطاع فلا يعصى، وأن يُذكر فلا يُنسى، وأن يُشكر فلا يُكفر.

والثالث: بمعنى تزيه القلب عن الذنوب، وهذه هي الحقيقة في التقوى دون الأوليين؛ ألا ترى أن الله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (النور: 52) ذكر الطاعة والخشية ثم ذكر التقوى، فعلمت أن حقيقة التقوى معنى سوى الطاعة والخشية، وهي تزيه القلب عن الذنوب¹⁹⁴.

194- ينظر: التعالبي: الجواهر الحسان، 194/4-195.

الفرع الثالث: الطاعة مصدر.

قال **حجّالاً**: ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ (النساء: 81).

الآية باتفاق المفسرين نزلت في المنافقين بالمدينة المنورة. الذين كانوا يقولون للنبي ﷺ طاعة لأمرك، قال مقاتل¹⁹⁵:

كانوا إذا دخلوا على النبي ﷺ قالوا: مرنا بما شئت فأمرك طاعة، والنحويون¹⁹⁶ على أن معناه أمرنا طاعة، أي: أمرنا وشأننا أن نطيعك، لكن المنافقين إذا خرجوا من عند رسول الله ﷺ أظهروا من الأمر غير الذي كانوا عليه في حضرة رسول الله عليه الصلاة والسلام.

﴿ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ ﴾ قال الزجاج: كل أمر فُكر فيه بليل فقد بُيئت¹⁹⁷، وبُيئت معناه فُعل ليلاً، فالأول: اشتقاقه من البيوتة، أي مأخوذ من بات، وإما من البيت لأنه ملتزم بالليل وفي الأسرار التي يخاف شياعها¹⁹⁸.

والثاني أنه مشتق من بيت الشعر لأن العرب إذا أرادوا قرض الشعر بالغوا في التفكير فيه فسموا المتفكر فيه المستقصي مبيتاً، تشبيهاً له ببيت الشعر من حيث أنه يسوي ويدبر¹⁹⁹.

فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ: الخطاب إلى النبي ﷺ بعدم جدال المنافقين وعدم الإخبار عن أسمائهم لأن أمر القتال لم يتزل بعد، ثم أمره سبحانه بالتوكل عليه لأنه حسبه والتمسك بعروته الوثقى ثقة في الله تعالى بقرب اليوم الذي ينتصر فيه النبي ﷺ والمؤمنين ويقاوم فيه المنافقين، والوكيل القائم بالأمر الذي يعود الأمر والحكم له، وهو الكفيل بالإصلاح والعقاب بعد إفساد المفسدين، والإعراض عن المنافقين ينافي القول بعدم دعوتهم أو الاهتمام بأمر إيصال الخطاب الإلهي إليهم، "﴿ فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ

¹⁹⁵ - الواحدي، الوسيط، 85/2، وينظر: أبو حيان، البحر المحيط، 317/3، الشوكاني، فتح القدير، 490/1 كلاهما عن ابن عباس، البغوي، معالم التنزيل، 254/2، والرازي، مفاتيح الغيب، 200/10.

¹⁹⁶ - ينظر: الزجاج، معاني القرآن، 86/2، والفراء، 178/1، وابن قتيبة: أبو محمد عبد الله بن مسلم، تأويل مشكل القرآن، ت: أحمد صقر، دار التراث، القاهرة، ط2، 1393هـ/1973م، ص375، والبغوي، معالم التنزيل، 254/2، عن النحويين.

¹⁹⁷ - الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، 86/2، ينظر الواحدي، الوسيط، 85/2.

¹⁹⁸ - ابن عطية، المحرر الوجيز، 83/2.

¹⁹⁹ - الرازي، مفاتيح الغيب، 200/10.

وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴿﴾ هذا مؤكد لقوله: ﴿وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ ﴿﴾ أي: لا تحدث نفسك بالانتقام منهم، وليس المعنى: فأعرض عن دعوتهم إلى الإيمان وعن وعظهم²⁰⁰.

يقول الزمخشري: "طاعة بالرفع أي: أمرنا وشأننا طاعة، ويجوز بمعنى أطعناك طاعة، وهذا من قول المرتسم: سمعا وطاعة، وسمع وطاعة، ونحوه قول سيويه: وسمعنا بعض العرب الموثوق بهم يقال له: كيف أصبحت؟ فيقول: حمد الله وثناء عليه، كأنه قال: أمرني وشأني حمد الله، ولو نصب حمد الله وثناء عليه. كان على الفعل والرفع يدل على ثبات الطاعة واستقرارها"²⁰¹.

قال عز ثناؤه: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةً مَعْرُوفَةً إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (النور: 53).

قوله: ﴿قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةً مَعْرُوفَةً﴾، يحتمل معاني عدة منها:

الأول: النهي عن القسم الكاذب؛ إذ قد عُرف أن طاعتهم رديئة فكأنه يقول: لا تغالطوا فقد عُرف ما أنتم عليه .

الثاني: أن المعنى لا تتكلفوا القسم؛ فطاعة معروفة على قدر الاستطاعة أمثل وأجدر بكم.

الثالث: أن يكون المعنى لا تقنعوا بالقسم طاعة تعرف منكم وتظهر عليكم هو المطلوب منكم.

الرابع: أن يكون المعنى لا تقنعوا لأنفسكم بإرضائنا بالقسم، طاعة الله معروفة وجهاد عدوه بين واضح²⁰².

قوله: ﴿طَاعَةً مَعْرُوفَةً﴾ اعتراض بليغ على قول المنافقين الذين جاءوا بالقسم ليبرروا طاعتهم الكاذبة للرسول ﷺ، وقوله قل أطيعوا الله الآية خطاب لأولئك المنافقين وغيرهم من الكفار، وبالرغم من القسم الذي أطلقه المنافقون بين يدي رسول الله ﷺ بالسمع والطاعة، إلا أنهم تولوا عن الحق وبيتوا غير الذي أظهروا، لأن قلوبهم المريضة هي التي صورة لهم هذه الطاعة الكاذبة التي لا تحمل النية الخالصة لله سبحانه وتعالى، "والذي حُمل رسول الله ﷺ هو التبليغ ومكافحة الناس بالرسالة وإعمال الجهد في إنذارهم، والذي حُمل الناس هو السمع والطاعة وإتباع الحق"²⁰³.

200- أبو حيان، البحر المحيط، 317/3.

201- الزمخشري، الكشاف، 114/2، وينظر: أبو حيان، البحر المحيط، 317/3.

202- ابن عطية، المحرر الوجيز، 192/4، وينظر: الثعالبي، الجواهر الحسان، 195/4.

203- ابن عطية، المحرر الوجيز، 192/4.

قال ﷺ: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ (محمد: 21).

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نَزَلَتْ سُورَةٌ﴾ (محمد: 20)، يقول ابن عباس رضي الله عنه:

أن المؤمنين سألوا ربهم أن يُنزل سورة فيها ثواب القتال في سبيل الله، فلما نزلت السورة على النبي ﷺ وفرح المؤمنون بفرض القتال في سبيل الله، أما المنافقون فالأمر يختلف بالنسبة لهم قال تعالى: ﴿فَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ مَرَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ﴾، قال ابن قتبية والزجاج: أنهم يشخصون نحوك بأبصارهم وينظرون كما ينظر الشاخص بصره عند الموت، وإنما ذلك لأنهم منافقون يكرهون القتال²⁰⁴. ﴿فَأَوْلَى لَهُمْ﴾، لكن الأولى والأحسن لو أطاع أولئك القوم النبي ﷺ وفرحوا بتزول أمر القتال عليهم كما فرح الصحابة رضوان الله عليهم، وقالوا لرسول الله قولا معروفاً لكان أفضل لهم من الحالة التي ظهرها بها والتي كشفت حقيقتهم أمام الناس وبينها القرآن الكريم الذي يتلى آتاء الليل وأطراف النهار، وهم يسمعون قوله سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾.

الطاعة والإجابة كانت أحسن وأولى بالنسبة للمنافقين لو أطاعوا الله ورسوله وأجابوا إجابة حسنة والآيات القرآنية تنزل على النبي ﷺ، وإذا عزم الأمر وجاء وقت القتال صدقوا ما عاهدوا عليه وكان أفضل لهم، "فلو صدقوه تعالى فيما قالوا من الكلام المنبئ عن الحرص على الجهاد بالجرى على موجهه ﴿لَكَانَ﴾ أي الصدق ﴿خَيْرًا لَهُمْ﴾ وفيه دلالة اشتراك الكل فيما حكى عنهم من قوله تعالى: ﴿لَوْلَا نَزَلَتْ﴾ وقيل فلو صدقوه في الإيمان وواطأت قلوبهم في ذلك ألسنتهم وأيا ما كان بهم فالذين في قلوبهم مرض وهم المخاطبون بقوله تعالى ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾ بطريق الالتفات لتأكيد التوبيخ وتشديد التقرير أي هل يتوقع منكم إن تَوَلَّيْتُمْ أمور الناس وتأمرتم عليهم ﴿أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ (محمد: 22) تناحرا على الملك وتهاك على الدنيا²⁰⁵.

²⁰⁴ - ينظر: الزجاج، معاني القرآن، 12/5، والبيهقي، معالم التنزيل، 286/7، الواحدي، الوسيط، 126/4.

²⁰⁵ - أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 147/5.

طاعة الله سبحانه وتعالى وطاعة رسوله ﷺ من الأوامر التي جاءت في القرآن الكريم للدلالة على فرض أمر الطاعة، وما المؤمنون إلا مطالبون بهذا الأمر والامتثال له لأنهم على وحدانية الله تعالى ويسيروا وفق التشريع الإسلامي الذي جاء به النبي ﷺ، وهذه الطاعة واجبة أن تكون طاعة لله سبحانه وطاعة للرسول ﷺ، لأن الذي لا يطيع الرسول فيما أمر أو نهي عنه فلا طاعة له لله عز وجل. والأمر بالنسبة للمنافقين واضح بين كما بينه القرآن الكريم أنهم قوم لا يظهرون ما يبطنون وهم قوم آثروا عداوة النبي ﷺ وعداوة الله تعالى في صورة المسلمين الذين يجلسون بين يدي الله تعالى، هم في الحقيقة قوم لا يحققون أمر الطاعة لله تعالى ولا لرسوله ﷺ في أي أمر أو تشريع. يريدون العودة إلى الجاهلية الأولى يسفكون الدماء ويقطعون الأرحام، ولا يُراعون الحرمات، قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ﴾ (محمد:23).

من خلال ما تقدم في هذا المبحث والذي جاء بعنوان: الدعوة الإسلامية، فإن الأساس الأول لنجاح الدعوة الحقيقية إلى الله تعالى، وتحقيق البناء الإسلامي بالمعنى الصحيح ينجح بفضل:

1- تحكيم الله تعالى في أمور الإنسان وبيان ذلك من خلال التشريع الرباني الذي نزل وحيًا على النبي ﷺ، فكل الأحكام التشريعية التي حملها القرآن والسنة جاءت تحت حكم الله تعالى، وما النبي محمد إلا مبلغ لدعوة الله سبحانه، كما أنه لا منافاة بين تحكيم الله تعالى وطاعته في حكمه وبين الاجتهاد الذي تحقق في عهد النبي ﷺ لأن ذلك حق مشروع للرسول لأن: "اجتهاد الرسول ﷺ هو بيان للوحي الذي بلغه عن الله تعالى وقد أذن الله له بهذا البيان فقال: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (النحل:44)، وهذا الإذن ضروري لا غنى عنه ونظيره اجتهاد القضاة والحكام في تفسير القوانين فطاعتهم فيما يحكمون فيه باجتهادهم في هذه القوانين إنما هو طاعة للقانون لا لشخص الحاكم يجعله شارعًا يُطاع لذاته" ²⁰⁶.

2- الأساس الثاني هو الطاعة المطلقة لله تعالى ثم للرسول المبعوث، لأن هذه الطاعة تحقق الحكم لله تعالى وشرعه في أمور الناس، وبذلك يكون الأمر تحت حكم الله سبحانه.

قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ (النساء:80)، المعنى ومن أعرض عن طاعتك التي هي طاعة الله فليس لك أن تُكرهه عليها، لأنك ما أرسلت إلا

مبشرا ونذيرا ولم ترسل مسيطرا أو رقيبا تحفظ على الناس أفعالهم وأقوالهم، فالإيمان والطاعة إنما يكونان بالاختيار والإقناع والاختبار²⁰⁷.

²⁰⁷ - المراغي، تفسيره، 101/5، بتصرف.

المبحث الثاني: الفتح والانتشار.

المطلب الأول: بعث النبي ﷺ ورسالته.

الفرع الأول: محمد رسول الله .

قال ﷺ: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ (آل عمران: 144).

في الآية القرآنية من سورة آل عمران عتاب وتقريع للمسلمين من الله تعالى بعد أحداث غزوة أحد العظيمة، "والمعنى أن محمدا ﷺ رسول كسائر الرسل، قد بلغ كما بلغوا، ولزمكم أيها المؤمنون العمل بمضمون الرسالة وليست حياة الرسول وبقاؤه بين أظهركم شرطا في ذلك، لأن الرسول يموت كما مات الرسل قبله" 208.

قال ﷺ: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآدَمَ دَاوُدَ زُرِّيْعًا وَمَرْيَمَ قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَرْسَلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا مَرْسَلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِنَّا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (النساء: 163-165).

سبب نزول هذه الآية كما يذكر الطبري، عن ابن عباس قال: ﴿ قال سكين وعدي بن زيد: يا

محمد، ما نعلم الله أنزل على بشر من شيء بعد موسى . فأنزل الله في ذلك من قولهما: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ إلى آخر الآيات 209.

وحي الله تعالى إلى الأنبياء والمرسلين هو ذلك العرفان الذي يجده الشخص من نفسه مع اليقين

بأنه من قبل الله ﷻ بواسطة أو بغير واسطة، ووحى الله تعالى إلى نبيه محمد ﷺ بالقرآن الكريم كما

208- ابن عطية، المحرر الوجيز، 516/1، وينظر: أبو حيان، البحر المحيط، 74/3، والثعالبي، الجواهر الحسان، 116/2.

209- الطبري، جامع البيان، 686/7، عن محمد بن إسحاق، وينظر: ابن هشام، السيرة النبوية، 562/2، والبيهقي، دلائل النبوة، 563/2، من طريق يونس

بن بكير به، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 370/4، والسيوطي في الدر المنثور، 130/5، وزاد نسبه إلى ابن المنذر.

أوحى إلى الأنبياء السابقين هو تأكيد على أن الوحي من الله تعالى سواء كان يحمل كتاب إلى النبي أم لا، وقد بدأ الله تعالى بذكر نوح لأنه أقدم الأنبياء، ثم توالى ذكر الأنبياء والرسل المذكورين في كتب اليهود²¹⁰، "والتأكيد (بانّ) للاهتمام بهذا الخبر أو لتزليل المردود عليهم منزلة من ينكر كيفية الوحي للرسل غير موسى، إذ لم يَجْرُوا على موجب علمهم حتى أنكروا رسالة رسول لم يُنزل إليه كتاب من السماء"²¹¹.

محمد ﷺ الرسول الذي اصطفاه الله سبحانه لحمل رسالة الإسلام إلى العالمين لم يكن رجلا غريبا يرسل إلى قومه، ولم يكن ملكاً أنزله الله من السماء ليقود البشر إلى عبادة الله تعالى، لكنه نبي رسول ليس بدعا من الرسل بل هو واحد من سلالة الأنبياء والمرسلين الذين اختارهم الله تعالى ليصححوا مسار العقيدة للإنسان في الحياة الدنيا عبر الزمان، لأن الله تعالى لم يترك عباده وحدهم تحكّمهم الفطرة لوحدها بل جعل نزعة الإنسان إلى التدين نزعة حقيقية وأرسل إليهم من يجيهم عن الأسئلة الكثيرة التي تطمئن القلوب وتسكن النفوس بشرعة الله تعالى الذي يعيشون من خلاله في الحياة الدنيا بالمنهاج القويم الذي يكفل للعبد المؤمن الفوز بجنت الله سبحانه، والقعود مع الأنبياء والصديقين والشهداء وغيرهم من رفقاء الجنة الصالحين.

قال ﷺ: ﴿إِنَّا أَمْرُسُكُنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر: 24).

الرسول ﷺ هو آخر الأنبياء والمرسلين بعثة في الأرض، جاء يحمل القرآن الكريم معجزته العقلية، التي خالفت غيرها من معجزات الرسل السابقين، لأنه آيات بينات تتزل وحيا على الرسول ﷺ، وهذه المعجزة بُعث النبي ﷺ بالحق من ربه بشيرا بالوعد الصادق نذيرا بالوعيد الصادق من رب العباد سبحانه وتعالى، والله ﷻ من خلال هذه البعوث لم يرد أن تخلو أمة عبر التاريخ من نبي يقيم عليها الحجة ويهدي القوم إلى عبادة الله تعالى، ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾.

الفرع الثاني: الرسول جاء بالحق.

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَمْرُسُكُنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَكَأ تَسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ (البقرة: 119).

²¹⁰ ذكر الله سبحانه وتعالى في هذه الآية عددا من الأنبياء والمرسلين الذين أوحى إليهم ولمعرفة أسمائهم وأقوامهم وشرح لتاريخ إرسالهم، ينظر: ابن عطية، المحرر الوجيز، 137-136/2، وابن عاشور، التحرير والتنوير، 35-32/6.

²¹¹ ابن عاشور، التحرير والتنوير، 31/6.

خلق الله سبحانه هذه الأكوان وجعل فيها كوكب الأرض سكنا لذرية بني آدم، فكانوا عبادا لله تعالى تحكّمهم عقيدة التوحيد التي ارتضاها الله لهم. فبعث فيهم أنبياء ورسلا يُبصرونهم شرع الله ﷻ، فكانت الكتب السماوية التي نزلها الله تعالى وحيا على أنبيائه عليهم السلام، هذه الكتب تحمل أحكام وتشريعات تخص الإنسان في أمور الدين والدنيا وآخرها القرآن الكريم الذي جاء بآيات بينات للمؤمنين، هذا الكتاب وصفه الباري سبحانه بأنه الحق، كما وصف الوحي الذي نزل على النبي ﷺ بأنه الحق من ربه. والمعلوم أن كتاب الله تعالى هو كتاب صدق لأنه كلامه سبحانه، فهذا تأكيد يقين من كلام الله ليعبر في الآيات القرآنية أنه حق، وأن ما جاء به حق من الله تعالى، وكل الآيات القرآنية التي تضمنها هذا الكتاب حق من الله تعالى.

﴿إِنَّا أَمْرُسُكُنَاكَ بِالْحَقِّ﴾، فقال تعالى مخاطبا النبي ﷺ ومن خلاله الناس أجمعين أنه أرسل رسوله بالحق، أي بعثة النبي ﷺ إلى القوم لدعوتهم إلى الإسلام لم تكن عبثا بل هي حقيقة ثابتة يدل عليها قوله سبحانه وفعل النبي ﷺ الذي جاهر القوم بالدعوة .

﴿لَكَ آيَاتُ اللَّهِ تَلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (البقرة: 252).

﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ (آل عمران: 3).

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران: 108)

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَكَأَنَّكَ لَمِنَ الْخَائِفِينَ خَصِيمًا﴾

(النساء: 105).

جاء بيان الله تعالى في الآيات السابقة أن الكتاب والآيات المتزلة على النبي ﷺ، آيات متلوة بالحق، وكتاب نُزل عليه بالحق، والحق يحتمل معنيين²¹²:

أحدهما: أن يكون المعنى ضَمَّن الحقائق في خيره وأمره ونهيه ومواعظه، فالباء على حدها في قوله: جاءني كتاب بخبر كذا وكذا أي ذلك الخبر مقتص فيه.

والثاني: أن يكون المعنى أنه نزل الكتاب باستحقاق أن يتزل لما فيه المصلحة الشاملة، وليس ذلك على أنه واجب على الله تعالى أن يفعله، فالباء في هذا المعنى على حدها في قوله تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي﴾ (المائدة: 116).

212- ابن عطية، المحرر الوجيز، 397/1، وينظر: الثعالبي: الجواهر الحسان، 7/2.

يقول أبو حيان: "البايع تحتمل السببية أي بسبب إثبات الحق وتحتمل الحال، أي محققا نحو (خرج زيد بسلاحه)"²¹³.

قوله سبحانه: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ (آل عمران:3)، معناه أن القرآن الكريم معجزة النبي ﷺ جاء موافقا ومثبتا لما جاء في الكتب السماوية المتقدمة عنه في التزول، وفي أخبار هذه الكتب عن بعثة النبي صلى وصفاته هو دليل صدق على ثبوت نبوة النبي ﷺ، وهو بذلك يصدق هذه الكتب فيما أخبرت به، فالخبر اليقين من القرآن الكريم على صدق ما جاء في الكتب السماوية السابقة دليل يقين على صدق النبوة الخاتمة وصدق القرآن الكريم وأنه منزل من الله تعالى على نبيه محمد ﷺ ليكون مهيمنا على الكتب والشرائع السابقة عنه، وهو الدين البديل لكل الأديان السابقة، وكان تعبير القرآن الكريم على ذلك بقوله: ﴿لَمَّا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ وما بين يديه هو الشيء الذي أمامك، فقبل لما تقدم على الشيء هو بين يديك، وكان القرآن الكريم يجمع كل الكتب السماوية السابقة بين يديه وهو الكتاب الخاتم لجميع هذه الشرائع، قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ (آل عمران:19)، وقال ﷺ: ﴿وَمَنْ تَبِعَ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (آل عمران:85).

قال ﷺ: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (المائدة:48).

اختلف المفسرون²¹⁴ في معنى ﴿مُهَيْمِنًا﴾، قال ابن عباس في رواية التيمي أمينا عليه، وقاله ابن جبير، وعكرمة وعطاء، والضحاك، والحسن، وقال ابن جريج: القرآن أمين على ما قبله من الكتب، وقال ابن عباس في رواية أبي صالح: شاهدا، وبه قال الحسن وقتادة ومقاتل، وقال ابن زيد: مصدقا على ما أخبر من الكتب، وحكى الزجاج والزمخشري²¹⁵: أن مهيمنا معناه الرقيب.

²¹³ - أبو حيان، البحر المحيط، 399/2.

²¹⁴ - ينظر: ابن عطية، المحرر الوجيز، 199/2، وأبو حيان البحر المحيط، 512/3، البغوي، معالم التنزيل، 65/3.

²¹⁵ - الزمخشري، الكشاف، 246/2.

لفظة مهيمن أخص من هذه الألفاظ، لأن المهيمن على الشيء هو المعنى بأمره الشاهد على حقائقه الحافظ لحاصله ولأن يدخل فيه ما ليس منه والله تعالى هو المهيمن على مخلوقاته وعباده، والرئيس مهيمن على رعيته وأحوالهم، والقرآن جعله الله مهيمنا على الكتب يشهد بما فيه من حقائق ويطل ما نسبه المحرفون لهذه الكتب، وهو الشاهد والمصدق والمؤمن والأمين²¹⁶.

جاء خبر الله تعالى إلى النبي ﷺ دليلاً يقينا على أن ما أنزل إليه من آيات الكتاب الحكيم هي وحي من الله سبحانه، ودليله حجة على الناس جميعاً؛ لأنه كتاب الحق من رب العالمين جاء مصدقاً لجميع الكتب السابقة.

فكان الأمر من الله تعالى أن يحكم بين الناس بما أنزل الله تعالى بالرغم من اختلاف الشرائع والطرائق عند الأمم السابقة، لكنهم اليوم تحت حكم الإسلام ويخضعون لحكم الله تعالى لأن القرآن كتاب مهيمن على جميع الكتب السابقة. "عند الاختلاف في الطرائق والمذاهب والشرائع، يكون أقربها إلى الحق؛ ما كان أدل على الله وأوصل إليه؛ لأنه كما أن مرجع الجميع إليه يوم القيامة وحده، وإن اختلفت أحوالهم وأزمنتهم وأمكنتهم؛ فمرجعهم إلى رب واحد وإله واحد"²¹⁷.

قال عز ثناؤه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَاٰمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (النساء: 170)

قال تجلت قدرته: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (التوبة: 33).

قال ﷺ: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (الفتح: 28).

في الآيات السابقة يخاطب الله تعالى نبيه الكريم ﷺ وفي الأمر تسلية وتثبيت لهذا النبي الكريم أن الله تعالى نزل إليه الكتاب بالحق مصدقاً للكتب السابقة، فمحمد ﷺ ليس بدعا من الرسل ولا جاء بكتاب مجهول المصدر لا يمكن معرفة صدقه من تحريفه، أما الآيات من سور النساء والتوبة

216- ابن عطية، المحرر الوجيز، 199/2، بتصرف.

217- ابن قيم الجوزية، الضوء المنير، 410/2.

والفتح، الخطاب موجه إلى الناس من خلال النبي ﷺ أن ما جاء به هذا الرسول هو الحق من الله تعالى لأنه رسول الله الذي اصطفاه لحمل رسالة الله تعالى إلى الناس.

قال ﷺ: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِنَاسٍ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلًّا بَعِيدًا إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ (النساء: 165-169).

قوله تعالى: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾، في رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

دخل على رسول الله ﷺ جماعة من يهود، فقال لهم: ﴿إني والله أعلم أنكم تعلمون أني رسول الله. فقالوا: ما نعلم ذلك. فأنزل الله: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ ﴿218﴾.

وقال بعض المفسرين²¹⁹: أن رؤساء مكة قالوا: يا محمد سألنا اليهود عنك وعن صفتك فرعموا أنهم لا يعرفونك في كتابهم فأتتنا بمن يشهد لك أن الله بعثك إلينا رسولا، فتزل: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾، يقول الزجاج²²⁰: الشاهد: هو المبين لما يشهد به، فالله جل وعزّ بينه ويعم مع إبانته أنه حق. ويبين الله تعالى ما في نفوس اليهود من حقد وغل نحو محمد ﷺ، حين أنكروا وجود اسمه وصفته في كتبهم المقدسة، فأخبر سبحانه أنه يشهد أن محمد ﷺ نبي الله الذي أرسله إلى العالمين، وما كلام اليهود إلا تكذيب بنبوته وصدق رسالته. واليهود ما هم إلا كافرين جاحدين للحق، ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلًّا بَعِيدًا﴾، اليهود صدوا عن دين الإسلام وأنكروا

218- الطبري، جامع البيان، 694/7، وأخرجه البيهقي في دلائل النبوة، 535/2، والسيوطي، الدر المنثور، 139/5، وعزاه إلى ابن إسحاق (سيرة ابن

هشام، 562/1-563)، وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في الدلائل.

219- الواحدي، الوسيط في تفسير القرآن المجيد، 141/2، وينظر: ابن عباس، تفسيره، ص86، الطبري، جامع البيان، 694/7-695، الواحدي، أسباب

التزول، ص138، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 384/4، عن ابن إسحاق.

220- الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، 134/2.

معرفتهم بنبوة محمد ﷺ وصفته فاستحقوا العذاب والضلال البعيد عن سبيل الخير والهداية إلى الله سبحانه. قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ يَخْفِرُ لَهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ طَرِيقًا إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾، اليهود الكافرين أنكروا نعت النبي ﷺ وكتّم الحق يوم طلب منهم الإدلاء بشهادتهم، لن يغفر الله تعالى لهم شهادة الزور، ولا يستحقون بيان طريق الهدى إلى دين الإسلام، وهم في جهنم خالدون أبدا.

بعد هذه الصورة الموضحة لأعمال اليهود الضالة، يتجه الخطاب إلى المشركين أن محمد رسول من أنفسكم جاء بالحق، أي بالصدق والهدى إلى طريق الله تعالى.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

الاختيار في الآية مرهون بمدى قابلية القوم إلى تصديق محمد ﷺ لأنه رجل منهم، وتكذيب اليهود الذين هم أهل كتاب، أو قبول أقوال اليهود في محمد الرجل القرشي المعروف بين قومه بالصادق الأمين، لأن إيمان القوم بصدق دعوة محمد ﷺ هو خير لهم من أكاذيب ومكائد اليهود، وهو فضل للناس يخرجهم من عبادة الأصنام وضلال الشرك إلى عبادة الله العليم الحكيم. النبي ﷺ جاء بالحق وحيا من الله تعالى وأهل الكتاب يملكون الدليل على صدق نبوته ودعوته، والله تعالى خير الشاهدين وكفى به شهيدا على صدق النبي محمد عليه الصلاة والسلام.

الفرع الثالث: رسالة التوحيد.

قال ﷺ: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِينَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ (آل عمران: 79).

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ﴾ أن يؤتیه اسم كان و لبشر خبرها. وقوله: ﴿ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ﴾ عطف على يؤتیه، وهذا العطف لازم من حيث المعنى ... ومعنى مجيء هذا النفي في كلام العرب نحو: "ما كان لزيد أن يفعل" ونحوه نفي الكون والمراد نفي خبره وهو على قسمين:

- قسم يكون النفي فيه من جهة العقل، ويعبر عنه بالنفي التام نحو هذه الآية، لأن الله تعالى لا يعطي الكتاب والحكم والنبوة لمن يقول هذه المقالة الشنعاء. نحو قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُثْبِتُوا شَجَرَهَا﴾ (النمل: 60)، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (آل عمران: 145).

- وقسم يكون النفي فيه على سبيل الانتفاء ويعبر عنه بالنفي غير التام كقول أبي بكر الصديق رضي الله عنه: "ما كان لابن أبي قحافة أن يتقدم فيصلي بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم" ويعرف القسمان من السياق، وهذه الآية من القسم الأول لأن الله تعالى لا يعطي الكذبة والمدّعين النبوة، وفي الآية دلالة على عصمة الأنبياء عليهم السلام²²¹.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، البشر الذي اختاره الله تعالى أن يؤتاه الكتاب والحكم؛ بمعنى الفصل بين الناس والنبوة، هو النبي المصطفى لحمل الرسالة، في الآية دلالة على بشرية الأنبياء جميعاً، وفضل الله تعالى عليهم بأن مكنهم في الأرض وأعطاهم الكتاب والحكم والنبوة، وهذه الأمور لا تنبغي لأي بشر كان بل رسول الله الذي يعلم الناس دينهم ويهديهم إلى طريق التوحيد.

هذا النبي المختار ينفي الله تعالى عنه الافتراء على الله سبحانه، وحاجته إلى التأله من دون الله جل جلاله، لأنه عبد من عباد الله تعالى اختاره ليعلم الناس معنى العبودية لله تعالى. ﴿عِبَادًا﴾ جمع عبد ومن جموعه عبيد وعبدي، ويقال في العبيد بني العبيد كأنه مبالغة تقتضي الاستغراق في العبودية. ولفظة العباد تكون لأجل الترفيع والدلالة على الطاعة المستغرقة من العبد لربه سبحانه وتعالى²²².

قوله: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِينَ﴾، يقول ابن عطية: "فجملة ما يقال في الرباني أنه العالم المصيب في التقدير من الأقوال والأفعال التي يحاولها الناس"²²³.

الرسول محمد عليه الصلاة والسلام هو البشر الذي اختاره الله تعالى من دون البشر وأعطاه الكتاب والحكم والنبوة، ليحمل الناس على طاعة الله تعالى والخضوع الكامل له، لأن الجميع تحت

221- أبو حيان، البحر المحيط، 528/2، وينظر: السمين الحلبي، الدر المنصون، 272/3.

222- أبو حيان، البحر المحيط، 529/2.

223- ابن عطية، المحرر الوجيز، 462/1، وينظر: أبو حيان، البحر المحيط، 530/2.

أمر الله سبحانه، وما جاء النبي ﷺ إلا ليعلمهم أن يكونوا ربانيين من خلال القرآن الكريم الذي بين أيديهم والسيرة النبوية لهذا الرسول البعوث رحمة للعالمين.

والربانية هي الصفة التي يرتقي إليها العبد المؤمن الذي خضع بالعبودية التامة لله تعالى، وزاده الله تعالى فضلا بأن منّ عليه من العلم الكثير الذي فضل الله تعالى به الإنسان من دون الحيوان.

قال ﷺ: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَنتُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَأَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (الأنعام:19).

قوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ﴾، في الآية الكريمة دليل صريح بأن النبي محمد ﷺ منذر لكل من بلغه هذا القرآن العظيم كائنا من كان، ويفهم من الآية أن الإنذار به عام لكل من بلغه الأمر²²⁴.

أعظم شهادة فوق الجميع هي شهادة الله تعالى، لأنه الخالق والمالك والعالم بكل شيء، فهو الشاهد الحق بين النبي ﷺ والمشركون. وهو الذي أوحى هذا القرآن وهو كلامه إلى النبي ﷺ لينذر القوم به إلى الطريق الحق. لكن المشركين أبوا الدخول في دين الله وصدوا عن سبيل الحق، فأجابهم النبي ﷺ: أن لا إله إلا الله، والله ورسوله براء مما يدعي القوم من آلهة أخرى مع الله.

ثم أخبر الله تعالى عن أهل الكتاب أهم أهل علم ومعرفة بوجود النبي ﷺ وصفته في كتبه، لأن الرسل كلهم بُشروا بوجود محمد ﷺ وبعثه وصفته وبلده ومهاجره وصفة أمته؛ ولهذا قال تعالى:

﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام:20)، أي خسروا كل الخسارة فهم لا يؤمنون بهذا الأمر الجلي الظاهر الذي بشرت به الأنبياء وجاء في الكتب السماوية²²⁵.

الآية تحتوي على دلالة التوحيد المطلق لله سبحانه وتعالى الذي جاء به النبي ﷺ من خلال وحي الله تعالى إليه. وفيها خطاب واضح للقوم المشركين أن تعدد الآلهة عندهم ما هو إلا افتراء على الله تعالى ولا يملكون على صدق هذه الدعوة دليلا عقليا أو شرعيا، وشهادة الله تعالى هي أعظم دليل على أنه سبحانه إله واحد، وهو الأحق بالعبودية من دون الآلهة والأوثان التي اتخذها المشركون.

224 - الشنقيطي، أضواء البيان، 222/2، بتصرف.

225 - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 18/6، بتصرف.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (الأعراف: 158).

الخطاب موجه للناس من خلال قول الرسول محمد ﷺ، فهو يدعو إلى التوحيد لأن الله تعالى أحق بالعبودية من غيره فهو المالك الذي يحيي ويميت فلا إله إلا هو. فالدعوة إلى الجميع بوجوب الإيمان به ورسوله الأمي الذي لم يتعلم من الكتب السابقة ولم يكن له معلم من الديانات الأخرى. والرسول الأمي المرسل من الله تعالى هو النبي القدوة للناس جميعاً لأنه آمن بالله الواحد وصدق بالرسالة وأراد تبليغها للناس بكل صدق وأمانة، فهو أحق بالإتباع لأنه الهادي إلى طريق الله تعالى.

قال ﷺ: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقَلَّبَ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا﴾ (الإسراء: 39).

الخطاب القرآني في هذه الآية شديد على النبي ﷺ، لأنه إنذار من الله تعالى إلى محمد ﷺ أن يتخذ من دون الله سبحانه إلهاً آخر وهو رسول الله إلى الناس. لأن وحي الله تعالى إلى النبي عليه الصلاة والسلام يتضمن في جميع محاوره الخضوع لإله واحد وهو الله عز وجل وهي الحكمة التي ارتضاها الله سبحانه لنبيه ﷺ، فلا ينبغي لهذا النبي إنكار هذا الفضل وإرادة العبودية لغير الله سبحانه؛ لأن مصيره جهنم يُلقى فيها ملوماً مدحوراً.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَهَلْ أُنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (الأنبياء: 108).

وحي الله تعالى إلى نبيه المصطفى ﷺ هو ذلك العرفان العظيم الذي يجده الرسول في نفسه بواسطة أو بغير واسطة، هذا الوحي يتضمن في أساسه الأول أن الله تعالى إله واحد وهو الأحق بالعبودية لأنه الخالق وحده والمالك لكل شيء، والرسول ﷺ جاء يبلغ الناس هذه الدعوة فهل الناس مؤمنين بهذه الدعوة مستسلمين خاشعين لله تعالى، كما سماهم نبي الله إبراهيم عليه السلام بالمسلمين.

يقول الشنقيطي: "التوحيد هو تحقيق معنى (لا إله إلا الله) وهي مترتبة من نفي وإثبات، فمعنى النفي منها: خلع جميع أنواع المعبودات غير الله كائنة ما كانت في جميع أنواع العبادات كائنة ما كانت. ومعنى الإثبات منها: أفراد الله جل وعلا وحده بجميع أنواع العبادات بإخلاص، على الوجه

الذي شرعه على ألسنة رسله عليهم الصلاة والسلام. وأكثر آيات القرآن في هذا النوع من التوحيد، وهو الذي فيه المعارك بين الرسل وأممهم ﴿أَجْعَلِ الْإِلَهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ (ص:5) "226".

قال ﴿عَلَيْكَ: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَكَذِكُرِ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يُعَلِّمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ (العنكبوت:45).

قال سبحانه: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:151).

المطلب الثاني: عالمية الرسالة.

الفرع الأول: مرسل لكافة الناس.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (سبأ: 28).

في الآية القرآنية إعلام من الله سبحانه وتعالى بأن رسالة محمد ﷺ جاءت للناس عامة، وهي إحدى خصائص الرسالة الخاتمة، ومعنى كافة الإحاطة في اللغة، والمعنى أرسلناك جامعا للناس في الإنذار والإبلاغ²²⁷. وهذا الإرسال كان عاما لجميع الخلائق، وفي الكلام تقديم وتأخير، تقديره: وما أرسلناك إلا للناس كافة²²⁸.

"كافة" من ألفاظ العموم ووقعت هنا حالا من الناس مقدمة على المجرور بالحرف، وجاء تقديم الحال على الاسم المجرور للاهتمام العظيم بأمر الإرسال العام للناس²²⁹.

وموقع الاستدراك في قوله تعالى: ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾، جاء ردا على الكافرين برسالة النبي ﷺ والقائلين بأن دعوته لم تخرج عن إطار أصحابه وأقربائه، لأنهم أنكروا عموم رسالته لأنهم ظنوا أن المنكرين أكثر عددا وأقوى من المؤمنين بدعوة النبي عليه الصلاة والسلام.

رواية عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ أُعْطِيَتْ خُمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهْرًا وَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكْتُهُ الصَّلَاةَ فَلْيُصَلِّ وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً وَأُعْطِيَتْ الشَّفَاعَةَ ﴾²³⁰.

227- الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، 254/4.

228- ابن الجوزي، زاد المسير، 456/6.

229- ينظر: ابن عطية المحرر الوجيز، 420/4، وابن عاشور، التحرير والتنوير، 198/22.

230- سبق تخريجه ص 258.

وفي صحيح مسلم: عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿أُعْطِيَتْ خُمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهْرًا فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكْتُهُ الصَّلَاةَ فَلْيُصَلِّ وَأُحِلَّتْ لِي الْمَعَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي وَأُعْطِيَتْ الشَّفَاعَةَ وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً ۖ﴾²³¹.

الخصائص التي اجتمعت للنبي ﷺ وميزته عن غيره من الأنبياء كانت من خصائص النبوة، وإذا تميز بأحد منها واحد من الأنبياء والرسل، فإن ذلك يدل على أن لكل نبي خاصية تميزه عن غيره من الأنبياء، أما سيدنا محمد ﷺ فإن الصفات والخصائص التي تميز بها كانت كلها تجتمع لأجل المحور الهام في رسالته وهي إرساله للناس عامة "وبعثت إلى الناس عامة" واستمرار رسالته إلى قيام الساعة، أما الأنبياء السابقين فإن ميزتهم العامة أن كل واحد منهم بعث إلى قومه خاصة، وانقطعت نبوته بعد مجيء نبي ورسول بعده، ومحمد ﷺ هو خاتم الأنبياء والمرسلين، يقول ابن حجر: "ويحتمل أن يكون معنى الخصوصية لنبينا ﷺ في ذلك بقاء شريعته إلى يوم القيامة، ونوح وغيره بصدد أن يبعث نبي في زمانه أو بعده فينسخ بعض شريعته، ويحتمل أن يكون دعاؤه إلى قومه بالتوحيد بلغ بقية الناس فتمادوا على الشرك فاستحقوا العقاب"²³².

تتضمن الآية القرآنية إخباراً عظيماً من الله عز وجل، بأن محمد ﷺ يحمل رسالة الله تعالى إلى كافة الناس، إذ أنه لم يختص بالعرب وحدهم بل شملت رسالته العرب والعجم ومن يأتي بعدهم. وهذا التشريف الذي خصه الله تعالى للرسالة الخاتمة جاء إثباتاً لصدق النبي ﷺ على من أنكر دعوته من العرب، وإثبات عمومها لمنكريها من اليهود.

الفرع الثاني: عموم رسالته.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَاْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (الأعراف: 158).

²³¹ - رواه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، رقم: 521، 63/2، وأحمد في المسند رقم 19623، 20/15.

²³² - ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، 15-14/2.

الأمر من الله سبحانه وتعالى أن ينادي في الناس أنه رسول الله تعالى إليهم جميعاً، وهذا الإشهار والإعلان عن الدعوة هو أمر بإتباعها لا يخرج عن نطاقه أحد ممن سمع الخطاب أو من جاء بعدهم ونقل إليه خبر الدعوة الإسلامية حتى في القرون الآتية من بعثة محمد عليه الصلاة والسلام. الآية من سورة الأعراف جاءت في سياق الحديث عن موسى عليه السلام وبني إسرائيل ومراحل الدعوة التي مرت بالقوم، وجهاد نبي الله موسى عليه السلام مع قومه، والجملة "جاءت مستطردة لمناسبة ذكر الرسول الأُمِّي تذكيراً لبني إسرائيل بما وعد الله به موسى عليه السلام، وإيقاظاً لإفهامهم بأن محمد ﷺ هو مصداق الصفات التي علمها الله موسى...".

وتأكيد الخبر بـ (إن) باعتبار أن في جملة المخاطبين منكرين ومترددتين، استقصاء في إبلاغ الدعوة إليهم.

وتأكيد ضمير المخاطبين بوصف ﴿جَمِيعًا﴾ الدال نصاً على العموم، لرفع احتمال تخصيص رسالته بغير بني إسرائيل، فإن من اليهود فريقاً كانوا يزعمون أن محمداً ﷺ نبيء العرب خاصة²³³.

﴿الَّذِي﴾ في موضع نصب على المدح ويمكن أن يكون مجرور صفة لله، ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ نعت لاسم الجلالة، دال على الثناء وتقديم المجرور للقصر أي: لا غيره مما يعبده المشركون والرد عليهم. وإليكم متعلق برسول.

وجاءت "جميعاً" حال من ضمير "إليكم"، وهذا الوصف يقتضي الإذعان والانقياد لمن أرسله إذ له الملك فهو المتصرف فيما يريد²³⁴.

جاء الخطاب الإلهي على لسان النبي ﷺ حتى يعلن الرسول عن دعوته، وذلك ضمن خطاب إلهي يتضمن الدليل اليقين على صدق هذا الرسول؛ وفيه حصر الإلهية لله وحده ونفي الشركة عنه، لأن من كان له ملك هذا العالم لا يمكن أن يشركه أحد، فهو المختص بالإلهية، ثم ذكر الإحياء والإماتة إذ هما وصفان وفعالان لا يقدر عليهما إلا الله تعالى، وهي أدلة واضحة على أن الدعوة الإسلامية كلام صدق من محمد ﷺ جاء بها ليدعو الناس جميعاً لإتباعها والإيمان بالله سبحانه والرسول الكريم.

233- ابن عاشور، التحرير والتنوير، 139/9.

234- ينظر: الزمخشري، الكشاف، 519/2، أبو حيان، البحر المحيط، 403/4-404، ابن عاشور، التحرير والتنوير، 140/9.

﴿فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَمَرْسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾ في الآية القرآنية الحزب على إتباع النبي ﷺ والدخول في دين الله سبحانه، وقوله: ﴿الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾، أي: يصدق بالله تعالى وآياته المترلة من عند الله تعالى؛ كالتوراة والإنجيل، واتبعوه، لفظ عام يدخل تحته كل إلزامات الشريعة²³⁵.

﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾، "وقد انتظم أن يفرع عن هذه الصفات الثلاث الطلب الجازم بالإيمان بهذا الرسول في قوله ﴿فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَمَرْسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾، والمقصود طلب الإيمان بالنبي الأمي لأنه سيق الكلام لأجله، ولكن لما صدر الأمر بخطاب جميع البشر وكان فيهم من لا يؤمن بالله، وفيهم من يؤمن بالله ولا يؤمن بالنبية الأمي، جُمع بين الإيمان بالله والإيمان بالنبية الأمي في طلب واحد، ليكون هذا الطلب متوجها للفرق كلهم، ليجمعوا في إيمانهم بين الإيمان بالله والنبية الأمي، مع قضاء حق التأدب مع الله بجعل الإيمان به مقدما على طلب الإيمان بالرسول ﷺ للإشارة إلى أن الإيمان بالرسول إنما هو لأجل الإيمان بالله²³⁶.

جاء الأمر من الله تعالى بإعلان النبي ﷺ عن دعوته للناس جميعا بضرورة الإتيان، والآية القرآنية جاءت ضمن قصص بني إسرائيل مع سيدنا موسى عليه السلام، وفيه أن الله تعالى ذكر لموسى عليه السلام محمد ﷺ وأخبر أن من أدركه وآمن به أفلح، أمر تعالى نبيه بإشهار دعوته ورسالته إلى الناس عامة وختم الخطاب أن من كان له فضل إتباع النبي ﷺ والإيمان بالله تعالى ورسوله فهو من المهتدين. كل هذا ضمن إطار أنه خاتم الأنبياء والمرسلين وأنه بشارة الأنبياء السابقين وهو موصوف في كتب اليهود والنصارى.

الإتيان مطلوب من الجميع وأولهم من سمع الخطاب من النبي ﷺ، والذي ينقله بنو إسرائيل أن دعوة موسى عليه السلام ومن جاء بعده هي دعوة الحق من الله تعالى وضرورة الإتيان لأنه الدين الإلهي الواحد منذ بدء الخليقة إلى خاتم الأنبياء محمد ﷺ، فالواجب عليهم عدم الميل عن دين الله تعالى وإتباع أنبيائه المرسلين، والكف عن تحريف كلام الله سبحانه وتعالى، لأن الدين الحق هو الذي يبقى إلى آخر الزمان ولا يتغير ودليله إرسال النبي ﷺ إلى الناس جميعا ويعاصره اليهود في المدينة بعدما عرفوه من اسمه وصفاته في كتبهم المقدسة.

235- ينظر: ابن عطية، المحرر الوجيز، 465/2، الثعالبي، الجواهر الحسان، 86/3.

236- ابن عاشور، التحرير والتنوير، 140/9.

قال ﷺ: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ (الأنعام: 19).

الآية القرآنية تتكلم عن أعظم شهادة وهي شهادة الله تعالى، وبما أن القرآن الكريم كتاب الله تعالى فهو الشاهد الحق على صدق النبي ﷺ ورسالته وهو الدليل الثابت في التاريخ على هذه الحقيقة. ﴿ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ عطف على ضمير المخاطبين أي: لأنذركم به يا أهل مكة وسائر من بلغه من الأسود والأحمر أو من الثقلين أو لأنذركم به أيها الموجودون يوم نزوله ومن سيوجد إلى يوم القيامة، وهو دليل على أن أحكام القرآن تعم الموجودين يوم نزوله ومن سيوجد بعد إلى يوم القيامة²³⁷. والإنذار في الآية بالقرآن الكريم يشمل جميع هذه الفئات دون استثناء، يقول الفراء: ومن بلغه القرآن من بعدكم²³⁸، وكان مجاهد يقول: حيثما يأتي القرآن فهو داع ونذير²³⁹.

الفرع الثالث: الإظهار:

قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَكُفْرَهُ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (التوبة: 33).

قال ﷺ: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَكُفْرَهُ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (الصف: 9).

قال ﷺ: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَكُفْرَهُ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (الفتح: 28).

بعث الله تعالى إلى الناس كافة رسولا مصطفى من البشر يحمل بين يديه الرسالة الخاتمة التي ارتضاها الله سبحانه لتكون دين الله الحق للعالمين إلى يوم القيامة، فكان الإظهار العام والشامل لهذا الدين على جميع الأديان السابقة، لأن الدين الوحيد عند الله هو الإسلام والذي أراده سبحانه أن يكون دينا للجميع، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ (آل عمران: 19)، وقال: ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ

²³⁷ أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 183/2، بتصرف.

²³⁸ ينظر: الطبري، جامع البيان، 104/7، عن ابن عباس والسدي، والسيوطي، الدر المنثور، 7/3، والشوكاني، فتح القدير، كلاهما عن ابن عباس.

²³⁹ ينظر: الطبري، جامع البيان، 104/7، والسيوطي، الدر المنثور، 7/3، عن مجاهد.

الإسلام دينًا فلن يُقبل منه وهو في الأخرى من الخاسرين ﴿ (آل عمران: 85)، وقال: ﴿ أَيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ (المائدة: 3). الآيات السابقة الذكر تتكلم عن دين واحد وليس عن أديان متعددة تحقق التوحيد لله تعالى، والإسلام دين الله تعالى للناس الذي يحقق للجميع بلوغ رضا الله تعالى والفوز بجناته سبحانه وتعالى. ﴿ يَبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَوَرِضَاوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴾ (التوبة: 21).

قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى ﴾، بعث الله تعالى محمدا ﷺ بالقرآن الكريم ودين الإسلام للناس ليظهره²⁴⁰ ويعليه²⁴¹ على جميع الأديان، وكون الأديان كلها راجعة إلى دين الإسلام فذلك إظهاره²⁴².

والإظهار لدين الحق على سائر الأديان بنسخه لهذه الأديان، حسبما تقتضيه الحكمة وما يقتضيه الزمان من إرسال خاتم الأنبياء الذي تم زمن بعثته الدين وكمل وتمت نعمة الله تعالى على عباده النعمة التي أرادها لهم. وبكمال الدين فإن العقل البشري زمن البعثة النبوية عقل راشد حتى يستوعب هذه الرسالة الخاتمة من الله تعالى ويبلغها جيلا بعد جيل ولا يحتاج إلى نبي آخر بعد محمد ﷺ ليعيد الناس إلى العقيدة الصحيحة، لأن التوحيد الخالص لله تعالى اكتملت معالمه وأصبح محور الحياة بعد وفاة النبي ﷺ والخلافة الراشدة.

﴿ وَكَوْكَرَةَ الْمُشْرِكُونَ ﴾، وصف الله تعالى المكذبين بدين الله والذين وجه إليهم الخطاب مباشرة أو بواسطة بالمشركين؛ للدلالة على أنهم ضموا الكفر بالرسول إلى الكفر بالله سبحانه وتعالى، "وخص ﴿ الْمُشْرِكُونَ ﴾ هنا بالذكر لما كانت كراهية مختصة بظهور دين محمد ﷺ فذكره العظم والأول ممن كره ذلك وصد فيه، وذكر الكافرون في الآية قبل لأنها كراهية إتمام نور الله في قديم الدهر وفي باقيه فعم الكفر من لدن خلق الدنيا إلى انقراضها إذا قد وقعت الكراهية والإتمام مرارا كثيرة"²⁴³.

240- ينظر: الزمخشري، الكشاف، 35/3، وابن عطية، المحرر الوجيز، 26/3، أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 546/2، وأبو حيان، البحر المحيط، 34/5.

241- ينظر: الواحدي، الوسيط، 491/2.

242- ابن عطية، المحرر الوجيز، 26/3.

243- نفسه.

إظهار دين الإسلام كان من الله سبحانه وتعالى من إرسال محمد ﷺ رسولا للناس، فهو تعالى الذي بعثه بالهدى ودين الحق ليكون إمام المرسلين وسيد الأولين والآخريين وخاتم الأنبياء والمرسلين وهو الحامل للرسالة الخاتمة التي نسخت جميع الأديان السابقة وأظهرها الله تعالى على كل دين إلى يوم القيامة، لتمام الدين عند الله تعالى وارتضائه إسلاما ولا غير الإسلام دينا.

﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾، معناه شاهدا، وذلك يحتمل معنيين: أحدهما شاهدا عندكم بهذا الخبر ومعلما به. والثاني: شاهدا على هؤلاء الكفار المنكرين أمر محمد الرادين في صدره ومعاقبا لهم بحكم الشهادة، والآية على هذا وعيد للكفار الذين شاحوا في أن يكتب محمد رسول الله، فرد عليهم بهذه الآية²⁴⁴، فكان تحقيق الفتح الأكبر للنبي ﷺ وصحابته رضوان الله تعالى وإظهار دين الله تعالى على الشرك وعلى الدين كله، وتحقق وعد الله تعالى بأنه الشاهد على الإظهار.

الفتح العظيم الذي وعد الله تعالى به نبيه محمد ﷺ أمر ثابت، وبدين الحق سيتحقق للمسلمين النصر على قوى الكفر في كل زمان ويتيح لهم من الغلبة على الأقاليم الكثيرة، يكون فيه فتح مكة البداية على إظهار دين الله على الأديان إلى يوم القيامة، وهذا الخبر اليقين لأن الله تعالى هو الشاهد على إرسال محمد وإظهار دينه على كل دين، "﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ على أن ما وعده كائن لا محالة أو على نبوته عليه الصلاة والسلام بإظهار المعجزات"²⁴⁵.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فِجْعَلٍ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتَحًا قَرِيبًا﴾ (الفتح: 27).

الله سبحانه جعل الرؤيا الصادقة للنبي ﷺ دليل صدق على انتصاره على الشرك، فرأى قبل أن يخرج إلى الحديبية، كأنه وأصحابه حلقوا وقصروا، فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا، وحسبوا أنهم دخلوا مكة عامهم ذلك وقالوا: إن رؤيا النبي ﷺ حق. فلما انصرفوا ولم يدخلوا مكة قال المنافقون: والله ما حلقتنا، ولا قصرنا، ولا دخلنا المسجد الحرام، فأنزل الله تعالى هذه الآية²⁴⁶، وأخبر أنه أرى رسوله ﷺ

244- ابن عطية، المحرر الوجيز، 140/5.

245- أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 167/5.

246- ينظر: تفسير مجاهد، ص608، الطبري، جامع البيان، 316/21-317، والبغوي، معالم التنزيل، 204/4، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 128/13،

والسيوطي، الدر المنثور، 80/6-81.

الصدق في منامه لا الباطل، وأنهم يدخلون المسجد الحرام فقال: ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾، والمناسبة بين الآيتين 27-28 من سورة الفتح، أن الله تعالى لما أخبر بهذه الأمور الجليلة والدقيقة المبنية على إحاطة العلم عللها سبحانه وبين الصدق فيها بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ﴾.

يقول ابن قيم الجوزية: " بين سبحانه حكمة ما كرهوه عام الحديبية من صد المشركين لهم حتى رجعوا ولم يعتمروا، وبين لهم أن مطلوبهم يحصل بعد هذا فحصل في العام القابل، وقال سبحانه: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (الفتح:27) وهو صلح الحديبية وهو أول الفتح المذكور في قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ (الفتح:1)، فإن بسببه حصل من مصالح الدين والدنيا والنصر وظهور الإسلام وبطلان الكفر ما لم يكونوا يرجونه قبل ذلك" ²⁴⁷.

الفرع الرابع: رحمة للعالمين.

قال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء:107).

قال ﷺ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (الفرقان:1).

ذكر الله سبحانه وتعالى في الآية الأولى من سورة الأنبياء، أنه ما أرسل محمدا صلى إلا رحمة للعالمين؛ ويدل أنه جاء بالرحمة للخلق ما تضمنه القرآن الكريم من أحكام وتشريعات تضمن للخلق الحياة الأفضل تحت قيم عقيدة واحدة، ونظام إلهي يكفل للجميع السعادة في الدارين، وجاء ذلك موضحا في آيات القرآن الكريم، قوله تعالى: ﴿أَوْ كَمْ يَكْفِهِمْ أَنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (العنكبوت:51)، وقوله سبحانه: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ (القصص:86).

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل يا رسول الله، ادع على المشركين. قال: ﴿إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَانًا وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً﴾²⁴⁸.

وعن عمرو بن أبي قرّة الكندي قال: كان حذيفة بالمدائن، فكان يذكر أشياء قالها رسول الله ﷺ، فجاء حذيفة إلى سلمان، فقال سلمان: يا حذيفة، إن رسول الله ﷺ كان يغضب فيقول، ويرضى فيقول، لقد علمت أن رسول الله ﷺ خطب فقال: ﴿أَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي سَبَبْتُهُ سَبَبَةً فِي غَضَبِي أَوْ لَعْنَتُهُ لَعْنَةً فَإِنَّمَا أَنَا مِنْ وَكْدِ آدَمَ أَغْضِبُ كَمَا يَغْضَبُونَ وَإِنَّمَا بَعَثَنِي رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ فَاجْعَلْهَا صَلَاةً عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾²⁴⁹.

﴿إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ "هو في حيز النصب على أنه استثناء من أعم العلل أو من أعم الأحوال، أي ما أرسلناك بما ذكر لعله من العلل إلا لرحمتنا الواسعة للعالمين قاطبة، أو ما أرسلناك في حال من الأحوال إلا حال كونك رحمة لهم فإن ما بعثت به سبب لسعادة الدارين ومنشأ لانتظام مصالحهم في النشاطين، ومن لم يغتنم مغامراته فإنما فرط في نفسه وحرمة حقه لا أنه تعالى حرمه مما يسعده وقيل كونه رحمة في حق الكفار أمنهم من الحسف والمسوخ والاستئصال حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ سورة الأنفال²⁵⁰.

الرحمة التي جاء بها النبي ﷺ هي رحمة عامة غير مقيدة أو مخصصة بل كانت للخلق جميعا الإنس والبشر والنبات والحيوان وجميع خلق الله سبحانه وتعالى، وهذه الرحمة لم تعتبر لمن نزل فيهم القرآن الكريم بل يتعدى ذلك إلى القرون الأخرى التي أكرمها الله سبحانه وتعالى بنعمة دين الإسلام الذي يحقق التوحيد الخالص لله تعالى لكل الشعوب على الأرض.

قال ﷺ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾.

²⁴⁸ - أخرجه مسلم في الصحيح، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: النهي عن لعن الدواب وغيرها، رقم: 2599، 24/8. ورواه أحمد بن حنبل في المسند، رقم: 22119، 238/16، ورقم: 22208، 266/16-267، من حديث أبي أمامة الباهلي بلفظ: "إن الله عز وجل بعثني رحمة وهدى للعالمين" وقال: إسناده حسن.

²⁴⁹ - أخرجه أحمد في المسند، رقم: 23813، 437/5، والبخاري في الأدب المفرد، باب: الخروج إلى المقبرة وحمل الشيء وعلى عاتقه إلى أهله بالزبيل، رقم: 234، وأبو داود في السنن، كتاب: السنة، باب: في النهي عن سب أصحاب رسول الله ﷺ، رقم: 4659، 214/4-215.

²⁵⁰ - أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 732/3.

وصف الله تعالى النبي ﷺ أنه عبده وفيه مدح لمحمد لأنه أضافه إلى عبوديته، كما وصفه بها في أشرف أحواله في ليلة الإسراء، فقال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ (الإسراء:1)، وكما وصفه بذلك في مقام الدعوة إليه: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ (الجن:19) وكذلك وصفه عند إنزال الكتاب عليه ونزول الملك إليه، فقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾²⁵¹، وقد خصه الله تعالى بهذا الكتاب لأنه سبحانه المتعظم في جلاله وهو الملك المالك نزل الفرقان على محمد ﷺ ليكون نذيرا بوعيد الله تعالى للعالمين،

قوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾، في الآية القرآنية دليل على أن محمد ﷺ هو رسول نذير للخلق جميعا، فقد أرسله الله تعالى خاتما للرسالات السماوية ليكون نذيرا بوعيد الله تعالى بما أنزله الله تعالى من الفرقان، وانتظام الآية السابقة مع هذه الآية يبين أن النبي ﷺ أرسله الله تعالى رحمة للعالمين لأنه جاءهم نذيرا بعقاب الله تعالى لينقذهم من الشرك وأحواله ويكرمهم بعقيدة الإسلام التي تخلص الناس من ضلال الكفر وترحمهم بفضل الله تعالى أن جاءهم الرسول ﷺ برسالة الإسلام.

من خلال هذا المبحث الأخير والذي جاء تحت مسمى: الفتح والانتشار، أي معرفة الوسائل والطرق الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ من أجل بعث الدعوة الإسلامية خارج الديار الإسلامية، ونشر كلمة الحق في أرجاء المعمورة لأجل تحقيق العبادة لله تعالى والاستخلاف في هذه الأرض نجد أن:

- 1- الوحي الرباني جاء لتحقيق: "لا إله إلا الله" لأنه المقصود الأصلي من البعثة، وما تبعه من الأحكام والتشريعات والمقاصد الإلهية فهي تباع للأصل الأول لا تتحرك من دونه، كما لا يمكن أن يقبل التوحيد الحق لله تعالى من دون التطبيق الصحيح للتشريعات والأحكام .
- 2- تكوين الجماعة المسلمة هو الأساس الصحيح الذي تقوم عليه الأمة، التي يمكنها تبليغ الدعوة من منطلق صحيح، والاهتداء بسيرة المصطفى محمد عليه الصلاة والسلام.
- 3- الفتح الإسلامي هو إعادة بناء لمفهوم عموم الرسالة الإسلامية، من خلال خاصية الشمولية التي تميزها ووقوعها في إطار تحقيق غايات الإنسانية في كل زمان ومكان.

251- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 283/10.

الخاتمة.

السيرة النبوية هي مظهر حياة عاشها النبي محمد ﷺ من ولادته إلى انتقاله إلى الرفيق الأعلى، وهذه الفترة الزمنية لم تكن حياة إنسان عادي، ولكنها كانت سيرة نبي أرسله الله تعالى ليكون الرجل المصطفى لتبليغ رسالة الله ﷻ، وخدمة دينه في إرساء دعائم الأمة المسلمة، التي أعدت لتحمل هذه الرسالة إلى الأمم الأخرى عبر التاريخ الإنساني. يقول محمد قطب: "نستطيع أن نقول في اطمئنان أن كل ما عرفته البشرية من خير حقيقي مرجعه إلى الوحي الرباني الذي حمله الرسل ودعوا إليه ووثقوا وجوده الواقعي في الأرض بجهادهم"¹.

الوحي الرباني الذي تنزل تباعا على محمد ﷺ منذ حادثة غار حراء، وبداية نزول الآيات القرآنية على محمد عليه الصلاة والسلام، الرجل الذي حمل صفة النبوة والرسالة ليكون إمام الأمة وقائدها في تبليغ رسالة الله تعالى إلى العالمين.

ولهذا فإن حياة النبي المرسل بكل مراحلها ومميزاتها ومصاعبها، تمثل سيرة نبي خاتم جاء يحمل آخر رسالة سماوية عهدا بالأرض وبالأمم في التاريخ الإنساني. فكانت خاتمة النبوات والرسالات في الأرض تحمل أبعادا مختلفة تميزها عن النبوات السابقة، وأهم هذه الأبعاد التي حققتها سيرة محمد ﷺ هو البعد التاريخي لحياة آخر الأنبياء المرسلين، وبالنظر إلى التداخل بين الأبعاد التي ميزت النبوة الخاتمة جاء عنوان الرسالة كما يلي: البعد التاريخي والرسالي للسيرة النبوية، وذلك للعمق والامتداد الموجود بين البعد التاريخي وتضمنه للبعد الرسالي، وكذا لأهمية البعد الرسالي الذي حققته السيرة النبوية في المجتمعات الإسلامية.

وبتوفيق من الله سبحانه وتعالى وبعد طرح مجموع الأسئلة في المقدمة، وتحديد الموضوع المدروس وأهميته وأهداف هذه الدراسة، وبعد البحث في ثلاثة أبواب يندرج تحت كل باب مجموعة من الفصول والمباحث، كانت هذه النتائج التي تجيب عن أسئلة الباحث في غالب الأمر.

¹ - محمد قطب، منهج علم التوحيد، مكتبة رحاب، الجزائر، 1990م، 48/3.

ولأجل الإجابة عن الإشكالية الموضوعية بصيغة مجموعة من الأسئلة في مقدمة هذا البحث، جاءت النتائج كما يلي:

أولاً: جاء ذكر أحداث السيرة النبوية في القرآن الكريم بشكل واضح، في السور والآيات القرآنية، بداية من التعريف بالنبى محمد عليه الصلاة والسلام والأحداث التي ميزت حياته قبل البعثة النبوية وبعدها، والملاحظ أن القرآن الكريم لم يذكر وقائع وحداث السيرة النبوية بتفاصيلها الدقيقة، مثلما نجد ذلك في كتب السير والشمال، ولكنه تحدث عن الحوادث التي تتعلق بالرسالة الخاتمة، وأهمية تبليغ الدعوة في حياة الرسول ﷺ والأمة الإسلامية.

ثانياً: الأمر الثاني هو الحديث عن البعد التاريخي والبعد الرسالي للسيرة النبوية، والنتائج التي يحققها هذا السؤال، كانت جميعها تدور حول محور واحد: لماذا كانت نبوة محمد ﷺ خاتمة النبوات السابقة؟ .

لقد جاء القرآن الكريم وحيًا من الله تعالى، تعهد له بالحفظ وتحقيق الغلبة لدين الإسلام على جميع الأديان في الأرض، ولهذا فإن :

1- دعوة جميع الرسل عبر التاريخ تهدف إلى تحقيق العبودية لله تعالى، لأن الأديان السماوية جميعها تعود إلى أصل واحد.

قال ﷺ: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (الأنبياء: 25).
 والتعدد الذي حصل في إرسال الأنبياء والرسل كان لحكمة الله تعالى منذ خلق آدم عليه السلام، وإرساله في هذه الأرض، وكذا للحفاظ على هذا الإنسان المخلوق والحفاظ على الميزات التي خصه الله تعالى بها من عقل وفؤاد حتى لا تزيغ عن الحق وتهلك في ظلمات الشرك والكفر الخارج عن فطرة الإنسان الأولى، قال ﷺ: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ (الأعراف: 172).

2- التوحيد هو أساس الحياة والمدار الذي يدور الناس حوله في هذه الحياة الدنيا، والذي بُعث لأجله جميع الأنبياء والمرسلين الذين جاءوا لتبليغ كلمة الله سبحانه وشرعه إلى الناس أجمعين.

والم تأمل في القرآن الكريم يجد آياته تدور حول محور التوحيد، قال جل جلاله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (الكهف: 110)، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوا لَهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ (فصلت: 06).

فالوحي الإلهي، إما خبر عن الله تعالى وأسمائه وصفاته وبيان لحقيقة التوحيد في وجود الله وتزيهه عن كل متشابهه في حياة الإنسان، وإما دعوة وأمر إلى طاعة الله تعالى والامتثال لأمره ونبذ الشرك العالق في قلوب البشر.

كل ذلك جاء في كتاب الله تعالى حتى يتبين المؤمن حقيقة الذات الإلهية وأحقيتها بالعبادة والطاعة، في إطار دعوة الأنبياء والرسل إلى دين الله تعالى والابتعاد عن جميع الأديان التي تحصر الإله في وثن محجوز في مكان واحد، أو تتجه بالعبادة إلى مخلوقات لله تعالى.

3- النبوة هي الهبة الربانية التي خص الله تعالى بها قلة من عباده، لتحقيق التوحيد الخالص لله عز وجل، فتتابعت النبوة في الأرض إلى محمد ﷺ الذي كان خاتم الأنبياء والمرسلين، وجاء الختم عنده نتيجة للمعجزة العقلية التي بعثه الله تعالى بها إلى الناس وهي القرآن الكريم، الذي أنزله الله سبحانه على قوم بلغوا من الفضل والعظمة مكنهم من حمل هذه الرسالة إلى الناس تباعاً دون تحريف أو ابتعاد عن الطريق الصحيح الذي وضعه النبي ﷺ ضمن المنهج الرباني وعليه:

أ- كانت النبوة تمتد في كل التاريخ الإنساني بعد وفاة النبي ﷺ، حفظاً من الله تعالى ونتيجة للوعي والإدراك الذي تحقق للإنسان زمن البعثة النبوية.

ب- عصرنا اليوم امتداد لعصر النبوة وذلك يعني أننا لا نحتاج إلى نبوة أخرى تعرفنا بالدين لأننا تحت حكم النبوة الخاتمة ولم يظهر الشرك بالصفة التي كان عليها في القرون الست الميلادية.

ج- الرسالة الربانية هي رسالة واحدة اكتمل منهجها ومعالمها في عهد النبي ﷺ، واكتمل الدين الإسلامي وتمت جميع التشريعات الربانية، والإنسان اليوم لا يحتاج إلى نبوة جديدة تشرح معاني الإسلام أو تكمل نقائصه التي يعبر عنها في بعض الأحيان أن التشريع الإسلامي لم يتطرق إلى بعض الأحكام التشريعية.

قال تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (فصلت: 42).
 القرآن الكريم كان يدعو الإنسان إلى التفكير والتدبر، حتى لا يعطل هذا الإنسان حواسه
 عن رؤية الحق الماثوث في الكون، فكانت الرسالة الإلهية والإنسان المتدبر في مسار واحد لا ينقطع
 السبيل بينهما أبدا حتى يتحقق للإنسان الحكمة من وجوده في هذه الأرض، "الرسالة الإسلامية
 كانت رسالة عقلية منطقية تخاطب العقل، وتجيء لإقناعه عن طريق الحجة القائمة على البراهين
 الاستدلالية، التي يستقيم عليها تفكير الناس جميعا...عامتهم وخاصتهم"².

النبوة الخاتمة بكل ميزاتها وخصائصها صنعت أثرا عميقا في التاريخ الإنساني، لأن الإنسان
 بالإدراك الذي مكّنه الله تعالى له زمن البعثة النبوية، جعلته يحفظ الرسالة الربانية والانتقال بها من
 مرحلة إلى أخرى دون الحاجة إلى نبي جديد يُقوم للإنسان مساره، ولا يصحح له عقيدة التوحيد
 التي ينحرف عنها، والواقع التاريخي يقول أنه حدث تكامل واضح بين الصورتين ليستمر الدين
 الإسلامي بهذه الصفة إلى اليوم، دون خلل عميق وبين في أصول العقيدة، ولا تحريف ظاهر
 للأحكام التشريعية والبعث الكلي عن الدين الإسلامي.

والحمد لله رب العالمين الذي وفقنا لهذا ولا معين لنا إلا هو على المصاعب والمشاق.

² - عبد الكريم الخطيب، النبي محمد ﷺ، دار الفكر العربي، الإسكندرية، ط2، 1976م، ص151.

فهرس الآيات القرآنية

سورة الفاتحة

الصفحات	رقمها	الآية
157	01	﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾
157	03-02	﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾
209 ، 157	05-04	﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾

سورة البقرة

18	2 ، 1	﴿الْم ، ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا مَرِيبَ فِيهِ.....﴾
205 ، 160	22 ، 21	﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ... وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾
348	28	﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا.....﴾
261 ، 224	23	﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي مَرِيبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ.....﴾
358	41	﴿وَأْمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ.....﴾
107	43	﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعًا.....﴾
98 ، 34	89	﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ.....﴾
218 ، 215	105	﴿وَاللَّهُ يُخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ.....﴾
366 ، 315 ، 234 ، 104 ، 82 ، 72	119	﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ.....﴾
43 ، 32	125	﴿وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ.....﴾
43 ، 40 ، 32	125	﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنَا.....﴾
187 ، 132 ، 53	126 ، 125	﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ..... وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾

187 ،43	127	﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ ﴾
187	128	﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً ﴾
187 ،147	128 ،127	﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ.... التَّوَابُ الرَّحِيمُ ﴾
248	129 ،127	﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ..... الْعِزِينَ الْحَكِيمُ ﴾
337 ،310 ،246 ،48 ،43 ،41	129	﴿ رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ... ﴾
252	133-130	﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ..... مُسْلِمُونَ ﴾
07	144	﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَكِّينَاكَ قِبْلَةً... ﴾
100 ،98 ،31	146	﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَغْرِبُونَ كَمَا ﴾
375 ،338	151	﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ..... ﴾
281	157	﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ... ﴾
157	164	﴿ إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ... ﴾
334	170	﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلِ تَّبِعْ... ﴾
53	171 ،170	﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ..... لَا يَعْتَلُونَ ﴾
07	176	﴿ ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ..... ﴾
109	185	﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى..... ﴾
07	186	﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ..... ﴾
108	190	﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُفَاغِرُوكُمْ وَكَ... ﴾
317	208	﴿ ادْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَافَّةً ﴾
.167 ،143	213	﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ... ﴾

111	218، 217	﴿سَأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ... غَفُورٌ مَرْحِيمٌ﴾
339	231	﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ...﴾
367، 104، 72	252	﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ...﴾
257	253	﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ...﴾
334، 186	258	﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ...﴾
358	281	﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى...﴾
213، 77، 71	285	﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ...﴾

سورة آل عمران

368، 367	3	﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا...﴾
123	13	﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ...﴾
380، 368	19	﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾
314، 42	20	﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنْ...﴾
355، 287	32	﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ...﴾
222، 217، 64	33	﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ...﴾
259	44	﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ...﴾
140، 27	64	﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ...﴾
372، 371، 240، 83	79	﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ...﴾
245، 244، 242، 232، 229، 35، 82	82، 81	﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ... هُمْ الْفَاسِقُونَ﴾

	83، 82	﴿وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ..... وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾
220، 213	84	﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَيَّ.....﴾
381، 368	85	﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ.....﴾
68	96	﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ.....﴾
50، 187	97، 96	﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ..... غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾
358	102	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ.....﴾
97	103	﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا.....﴾
272	104	﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ....﴾
367	108	﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ.....﴾
117	121	﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ.....﴾
117	122	﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ.....﴾
115	23	﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِدُرِّكُمْ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ.....﴾
114	127-124	﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفُرُوا بِاللَّهِ.....﴾
116	126	﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلَسَطَمِينَ.....﴾
356، 287	132	﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ...﴾
119	140	﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ.....﴾
208، 168، 125، 106، 82، 72، 58، 365، 228	144	﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ...﴾
372	145	﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ.....﴾
118	152	﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ.....﴾

118	155	﴿ إِن الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانَ إِنَّمَا... ﴾
294، 293، 288، 267	159	﴿ فَبِمَا مَرْحَمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ... ﴾
113	159	﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ... ﴾
339، 41	164	﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ... ﴾
117	167، 166	﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقَى... بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾
118	169	﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا... ﴾
100، 99	184	﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ... ﴾
126	196	﴿ لَا يَغُرَّتْكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴾

سورة النساء

أ	01	﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّ الَّذِي خَلَقَكُمْ... ﴾
357	13	﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ... ﴾
299	34	﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ... ﴾
37	36	﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ بِالْوَالِدِينَ... ﴾
355	59	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ... ﴾
357	69	﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ... ﴾
362، 357	80	﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى... ﴾
360، 359	81	﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا... ﴾
97	97	﴿ إِن الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ... ﴾

367, 350, 106	105	﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ... ﴾
332	113	﴿ وَكُلُوا فَضْلَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتَهُ لَهْمَتْ طَائِفَةٌ... ﴾
220	136	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ... ﴾
139	142, 143	﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ... تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴾
297	149	﴿ إِنْ تَبَدُّوا خَيْرًا أَوْ تَخَفُوهُ أَوْ نَعَفُوا عَنْ سُوءٍ... ﴾
230, 220	150, 151	﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ... عَذَابًا مُهِينًا ﴾
208, 168, 106, 72	163	﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ... ﴾
169, 168, 18, 17	165	﴿ مَرْسَلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِنَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ... ﴾
365	165-163	﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا... عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾
370	169, 165	﴿ مَرْسَلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ... عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾
07, 06	167	﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ... ﴾
234	170	﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ... ﴾
221	174	﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ... ﴾

سورة المائدة

381, 337, 256, 248, 124	03	﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالِدَمُّ وَلَحْمُ... ﴾
296, 294, 268, 140	13	﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ... ﴾
145, 140	13	﴿ فَبِمَا تَقَضَتْهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ... ﴾
145	14	﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ... ﴾

99 ، 31، 69 ، 27	16 ، 15	﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ مُسْتَقِيمٌ ﴾
99 ، 27	19	﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا ﴾
191	20	﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ ﴾
257	46	﴿ وَقَفَيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا... ﴾
368 ، 351 ، 350	48	﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ ﴾
167	48	﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَا جَا ﴾
354 ، 345 ، 344 ، 106	49	﴿ وَأَنْ أَحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ ﴾
344	50	﴿ أَفْحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ ﴾
119	51	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى ﴾
281	54	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ... ﴾
340 ، 322 ، 71	67	﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾
139	73	﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثَلَاثَةٍ ۗ ﴾
145 ، 139	77	﴿ وَمَا ﴾
356 ، 287	92	﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ ﴾
148	103	﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا ﴾
224	110	﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ ﴾
367 ، 141	116	﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِأَذْنِي ﴾
		﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ ﴾

سورة الانعام

75، 201، 235، 309، 323، 328، 373، 380	19	﴿ وَأَوْحِي إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنَ لَأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ... ﴾
75، 201	19	﴿ أَنْتُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ... ﴾
328	20	﴿ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ... ﴾
	24	﴿ وَتَوَرَّدُوا الْغَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ... ﴾
349	28	﴿ وَتَوَرَّدُوا الْغَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾
317	34	﴿ وَلَقَدْ كَذَّبْتَ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبِرُوا... ﴾
18	38	﴿ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ... ﴾
261، 105	50	﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا ﴾
325	50، 51	﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ... يَتَّقُونَ ﴾
346	52	﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ... ﴾
146	74	﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ إِتَّخِذْ أَصْنَامًا آلِهَةً... ﴾
183	75	﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكَوتَ السَّمَاوَاتِ... ﴾
182	75، 84	﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ... حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾
183	76	﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا... ﴾
255	83-86	﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ... الْعَالَمِينَ ﴾
240	89	﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ... ﴾
105، 70	92	﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقٌ الَّذِي بَيْنَ... ﴾

173	104	﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بِصَائِرٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ..... ﴾
219، 217	124	﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يُجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ..... ﴾
105	153	﴿ وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا..... ﴾
159	163، 162	﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي..... الْمُسْلِمِينَ ﴾

سورة الأعراف

320، 104، 75	02	﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صُدْرِكَ..... ﴾
319	16	﴿ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ..... ﴾
157	54	﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾
204، 172، 144	59	﴿ لَقَدْ أَمَرْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ..... ﴾
204، 172	59	﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ..... ﴾
173	64	﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ..... ﴾
175، 47	65	﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ..... ﴾
174	69	﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ..... ﴾
176، 174	70	﴿ قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَنَذَرَ مَا كَانَ..... ﴾
223	73	﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ..... ﴾
259	101	﴿ تِلْكَ الْقُرَى نَقِصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ..... ﴾
259	104	﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بِصَائِرٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ..... ﴾
191	127	﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُنَا مُوسَى وَقَوْمَهُ..... ﴾
146	138	﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ..... ﴾

193	140-138	﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ..... الْعَالَمِينَ ﴾
219	144	﴿ قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتٍ.. ﴾
194	148	﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجَلًا..... ﴾
24، 28، 31، 33، 42، 246، 270، 249	157	﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ..... ﴾
36، 71، 72، 101، 208، 233، 308، 309، 374، 377، 378، 379	158	﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا..... ﴾
209، 244، 388	172	﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ..... ﴾
163	173، 172	﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ..... فَعَلَّ الْمُبْطِلُونَ ﴾
161	180	﴿ وَكَلَّمَ الْأَسْمَاءَ الْحُسْنَى فَاذْعُوهُ بِهَا وَذَرَوْا الَّذِينَ..... ﴾
275، 330	188	﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ..... ﴾
149	192، 191	﴿ أَيَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ..... ﴾
294	199	﴿ خُذِ الْعَقُوبَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنْ..... ﴾
295	200	﴿ وَإِمَّا يَنْزِعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ..... ﴾

سورة الأنفال

115، 356	01	﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ..... ﴾
114	06	﴿ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا..... ﴾
112	08، 07	﴿ وَإِذْ يُعِدُّكُمْ اللَّهُ لِلْحَبَشِيِّ..... الْمَجْرُمُونَ ﴾
114	09	﴿ إِذِ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ..... ﴾
116	10	﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرًا وَكَتَمْنَاهُ بِهٖ قُلُوبَكُمْ... ﴾
113	11	﴿ إِذِ يُغَشِّيكُمُ الْغَيْمُ فَاسْتَعِذْ..... ﴾

114	12	﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ ﴾
115	17	﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ .. ﴾
355 ، 287	20	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَمَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا ﴾
94 ، 87	30	﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ ﴾
114	42	﴿ إِذِ اتَّمْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى ﴾
113	44	﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّيْتِمُمْ فِي أُغْيُكُمْ ﴾
336	46	﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَمَرَسُولَهُ وَلَا تَتَافَرَعُوا فَنفَشُلُوا ﴾
119	58	﴿ وَإِنَّمَا تَخَافَنَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى ﴾
116	68 ، 67	﴿ مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى عَظِيمٌ ﴾
116	70	﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأُسْرَى ﴾
102	72	﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ ﴾
102	75	﴿ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابٍ ﴾

سورة التوبة

151	09	﴿ اشْتَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَإِيمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَسَدُوا ﴾
381	21	﴿ يَشْرَهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ ﴾
151	29	﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾
151 ، 146	30	﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزِّي أُنْزِلَ اللَّهُ وَقَالَتِ النَّصَارَى ﴾
151 ، 146 ، 141	31	﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ ﴾
380 ، 369	33	﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ ﴾

95 ، 78	40	﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذَا أَخْرَجَهُ الَّذِينَ.....﴾
259	94	﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا مَرَجْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل.....﴾
298 ، 96	108	﴿لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ.....﴾
108	111	﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ.....﴾
184	113	﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا.....﴾
184	114	﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ.....﴾
293 ، 290 ، 274 ، 268 ، 73 ، 41	128	﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ.....﴾
110	160	﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ.....﴾

سورة يونس

62	02	﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ.....﴾
83	15	﴿وَإِذَا تَتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ.....﴾
83	16	﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا.....﴾
203	18	﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا.....﴾
201 ، 158	31	﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ.....﴾
195 ، 85	41	﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلكُمْ.....﴾
171	72 ، 71	﴿وَآتِلْ عَلَيْهِمْ بُنَى نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ..... الْمُسْلِمِينَ﴾
190	75	﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى.....﴾
199	29 ، 90	﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ..... خَلَقْنَا آتَةً﴾
	101	

275		﴿ وَمَا تُعْجِبُ الْآيَاتُ وَالنَّذِيرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾
327	108	﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ... ﴾
326	109	﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ... ﴾

سورة هود

320	01	﴿ كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْكَ... ﴾
105 , 32	02	﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾
330	12	﴿ فَلَعَلَّكَ تَمَارِكُ بَعْضُ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَضَاتِقٌ بِهِ... ﴾
309	17	﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ... ﴾
144 , 137	26 , 25	﴿ وَلَقَدْ أَمَرْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ... يَوْمَ الْيَمِّ ﴾
171	27	﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ... ﴾
85	35	﴿ أَمْ يَقُولُونَ اقْتِرَاهُ قُلْ إِنْ اقْتَرَبْتَهُ فَعَلَيْ إِجْرَامِي... ﴾
176 , 175	50	﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ... ﴾
176	52	﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا مِنْ رَبِّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ... ﴾
177	53	﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي... ﴾
177 , 175	54	﴿ قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُ أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا... ﴾
175	56	﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ... ﴾
177	59 , 58	﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا... جِبَارٍ عَنِيدٍ ﴾
46	59	﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ... ﴾
06 , 04	95	

254	97	﴿أَلَا بُعِدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتِ ثَمُودُ﴾ ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلِكِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرٌ....﴾
-----	----	--

سورة يوسف

271	02	﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾
74 ، 17	03	﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ..﴾
345	40	﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ....﴾
138	40 ، 39	﴿يَا صَاحِبِي السِّجْنِ الرَّبَّابُ..... لَا يَعْلَمُونَ﴾
202 ، 54	106	﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾
195 ، 175	111	﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾

سورة الرعد

177	27	﴿لَوْ لَا أَنْزَلْ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾
311	30	﴿كَذَلِكَ أَمْرُنَا فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا....﴾
282 ، 99	36	﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ....﴾
85	43	﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ.....﴾

سورة إبراهيم

61	03	﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾
144	9، 10	﴿الْمُيَاتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ..... بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾
188 ، 182 ، 146	35	﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا...﴾
48	37، 40	﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذِمَّتَيْهِ..... وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾

سورة الحجر

84	06	﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ ﴾
84	15 ، 14	﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِنْ قَوْمٍ مَسْحُورُونَ ﴾
214	49	﴿ نَبِيِّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾
214	51	﴿ وَبَنِيهِمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴾
104	87	﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾
291 ، 289	88	﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾
105 ، 71	89	﴿ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴾
206	94	﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾
322	95 ، 94	﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾

سورة النحل

231 ، 207 ، 204 ، 168 ، 159	36	﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ ... ﴾
62 ، 57 ، 22	43	﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِي إِلَيْهِمْ ﴾
362 ، 69	44	﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ ﴾
312	63	﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمْ ﴾
166	78	﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ .. ﴾
242 ، 41	113-112	﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ظَالِمُونَ ﴾
181	121 ، 120	﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَاتِمًا مُسْتَقِيمًا ﴾
178	122 ، 120	﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً الصَّالِحِينَ ﴾

327 ، 181 ، 74	123	﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا..... ﴾
333 ، 305	125	﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ ﴾
123	126	﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ..... ﴾
118	128 ، 126	﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ..... هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾

سورة الإسراء

385 ، 244	01	﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ..... ﴾
329	22	﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴾
329 ، 159	23	﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾
161	36	﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾
374 ، 328 ، 236	39	﴿ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ..... ﴾
257 ، 256	55	﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ..... ﴾
316	81	﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ..... ﴾
85	88	﴿ قُلْ لَنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا..... ﴾
83	90، 93	﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَنْجِرَ..... بِشْرًا مَّرْسُورًا ﴾
225	94	﴿ وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ..... ﴾
225	96 ، 95	﴿ قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ..... خَيْرًا بَصِيرًا ﴾
223 ، 221	101	﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾
352	108 ، 107	﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ..... لَمَفْعُولًا ﴾
313	110	﴿ قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا..... ﴾

سورة الكهف

320	02	﴿لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾
289 ، 86	06	﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن﴾
389 ، 218 ، 62 ، 57	110	﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا﴾

سورة مريم

139	38	﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُوتُنَا لَكِن﴾
183	43-41	﴿وَأذْكَرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ سَوِيًّا﴾
184	46	﴿قَالَ أَرَأَيْبُ أَنْتَ عَنِ الْهَيْيَ يَا إِبْرَاهِيمُ﴾
184	47	﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي إِنَّهُ﴾
216 ، 194 ، 189	51	﴿وَأذْكَرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ﴾
48	54	﴿وَأذْكَرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ﴾
214	57	﴿وَمَرَقَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾
322 ، 320	97	﴿وَنُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا﴾

سورة طه

86	03-01	﴿طه مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ لَمَن يَخْشَىٰ﴾
223 ، 13	21-17	﴿وَمَا تَلَكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ﴾
192	47	﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا مَرْسُولَا رَبِّكَ فَارْسِلْ مَعَنَا﴾
196	55-53	﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ تَامِرَةً أُخْرَىٰ﴾

197	59-56	﴿ وَقَدْ أَرْسَلْنَا آيَاتِنَا كَلِمَاتٍ... ضَحَى ﴾
198	61	﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَيَّ اللَّهُ... ﴾
223	69, 66	﴿ قَالَ بَلِ الْقَوْمُ إِذَا حِجَابُهُمْ... حَيْثُ أَتَى ﴾
198	76-69	﴿ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ... مَنْ تَرَكَى ﴾
193, 146	88-87	﴿ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلَكِنَا... فَتَنَسَى ﴾
142	124	﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً... ﴾
169	134-133	﴿ وَقَالُوا لَوْلَا يَا تَبِينَا بآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ... أَنْ نَنْزِلَ وَنَخْزِي ﴾

سورة الانبياء

254	04	﴿ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ... ﴾
225	09-07	﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا... الْمُسْرِفِينَ ﴾
159, 168, 204, 207, 209, 388, 229	25	﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ... ﴾
87	36	﴿ وَإِذَا مَرَّكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا... ﴾
325	45	﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصَّمْعُ... ﴾
185	55	﴿ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ... ﴾
146	57	﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا... ﴾
186, 184	67-57	﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ... أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾
186	65	﴿ ثُمَّ نَكِسُوا عَلَيَّ مِنْهُمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ... ﴾
223	69-68	﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ... إِبْرَاهِيمَ ﴾
195, 175	90	﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ... ﴾

30	105	﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ ﴾
383، 286، 169	107	﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾
374، 328، 236، 105	108	﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ ﴾

سورة الحج

188	26	﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ ... ﴾
108	39-41	﴿ أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنفُسِهِمْ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾
107	41	﴿ الَّذِينَ إِن مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ ... ﴾
116	52	﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ﴾
219	75	﴿ اللَّهُ يُصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ... ﴾
327	78	﴿ وَإِذَا تَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ ... ﴾

سورة المؤمنون

144	23	﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ ﴾
06	41	﴿ فَبَعَدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾
144، 06	44	﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولَنَا تُشْرِي كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً ﴾
157	88	﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾
158	88، 89	﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ تُسْحَرُونَ ﴾
169	115، 116	﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا الْعَرْشُ الْكَرِيمُ ﴾

سورة النور

173	25	﴿ يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ ﴾
-----	----	---

298	37	﴿مَرَجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ...﴾
358	52	﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ...﴾
360	53	﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَنْ أُمرْتَهُمْ.....﴾
355 ، 287 ، 174	54	﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا...﴾
30	55	﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا.....﴾
356	56	﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ...﴾

سورة الفرقان

، 322 ، 309 ، 101 ، 94 ، 69 ، 384 ، 383	01	﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ.....﴾
225	08 ، 07	﴿وَقَالُوا مَا لَ هَذَا الرَّسُولِ..... فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾
87	41	﴿وَإِذَا مَرَأُوكُ إِذْ يَتَّخِذُونَكَ إِلا هُزُوعًا هَذَا الَّذِي...﴾
135	43	﴿أَمْ رَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ...﴾
295	63	﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ.....﴾

سورة الشعراء

196	23، 24	﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ..... مُوقِنِينَ﴾
196	25، 26	﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ..... آبَائِكُمُ الْأُولِينَ﴾
197	26	﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَمَرْبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ﴾
197	28	﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ.....﴾
145 ، 141	83-69	﴿وَآتَلُّ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ..... بِالصَّالِحِينَ﴾
171	111	﴿قَالُوا أُوثْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذُلُونَ﴾

173	127 - 123	﴿ كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ..... رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾
47	134-123	﴿ كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ..... وَجَنَاتٍ وَعُيُونٍ ﴾
48	150-141	﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ..... وَأَطِيعُونَ ﴾
223	153، 154	﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسْحَرِينَ..... مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾
223	155	﴿ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ..... ﴾
104	195 - 192	﴿ وَإِنَّ لِنُذْرٍ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ..... بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾
35	197	﴿ أَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ..... ﴾
33، 79، 80، 205، 206، 300، 322، 318	214	﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾
291، 206	215	﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

سورة النمل

258	15	﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا..... ﴾
50	33 - 27	﴿ قَالَ سَتَنْظُرُونَ أَصَدَقْتُكُمْ أَمْ كُنْتُ..... تَأْمُرِينَ ﴾
242	35	﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمِ يَرْجِعُ..... ﴾
223	45	﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا..... ﴾
217	59	﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ..... ﴾
372	60	﴿ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا..... ﴾
86	70	﴿ وَلَا تَخْزَنُ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا..... ﴾

سورة الفصص

189	04	﴿ إِن فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا... ﴾
190	38	﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ... ﴾
192	39,40	﴿ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ... عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾
199	42-38	﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ... الْمُقْبُوحِينَ ﴾
188	56	﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي... ﴾
88	57	﴿ وَكَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ... ﴾
173	66	﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يُؤْمِنُونَ... ﴾
383، 333	86	﴿ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ... ﴾
346، 236	88	﴿ وَكَأ تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ۚ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ... ﴾

سورة العنكبوت

172	14	﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ... ﴾
179	16	﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ... ﴾
134	17	﴿ إِنَّمَا نَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ... ﴾
180	25	﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ... ﴾
179	26	﴿ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ... ﴾
240، 189	27	﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ... ﴾

201	31	﴿ وَكَمَا جَاءَتْ مُرْسَلْنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ ﴾
47 ، 46	38	﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ ﴾
375	45	﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ ﴾
334 ، 333	46	﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾
99	47	﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ ﴾
99	48	﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ ﴾
383	51	﴿ أَوْ كَمْ يَكْفِيهِمْ أَنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾
201 ، 54 ، 32	61	﴿ وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾
54	63	﴿ وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ ﴾
188	67	﴿ أَوْ كَمْ يَرَوْنَ أَنَا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَفُّ ﴾
84	68	﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾

سورة الروح

163	03	﴿ فَطَرَتِ اللَّهُ اللَّيِّ فِطْرَ النَّاسِ عَلَيْهَا ﴾
164	30	﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتِ اللَّهِ ﴾

سورة لقمان

235 ، 151	13	﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ ﴾
334	21	﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلِ اتَّبِعْ ﴾
202 ، 177	25	﴿ وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾

سورة الاحزاب

102	06	﴿ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي... ﴾
258، 257، 245، 243	07	﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ... ﴾
244	08	﴿ لَيْسَ أَلِ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ... ﴾
95، 45	13	﴿ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ... ﴾
297، 175	21	﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾
298، 118	23	﴿ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ... ﴾
121	27	﴿ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُواهُمْ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ... ﴾
ب، 199، 209	40	﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّنْ رِّجَالِكُمْ... ﴾
273، 251	45	﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾
304، 234، 207، 104، 96	45، 46	﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ... وَسِرًّا جَانِبًا ﴾
194	69	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا... ﴾
أ	72	﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ... ﴾

سورة سبأ

03	08	﴿ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ... ﴾
62	15	﴿ لَقَدْ كَانَ لِسِيَّ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ... ﴾
376، 317، 309، 255، 101	28	﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا... ﴾
318	29	﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾
318	30	﴿ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً... ﴾
84	43	

		﴿ وَإِذَا تَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا ﴾
--	--	--

سورة فاطر

289 ، 86	08	﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِن ﴾
306	22	﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَالْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ ﴾
318 ، 307 ، 306 ، 304	23، 24	﴿ إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾
366 ، 234 ، 169 ، 82	24	﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ ﴾

سورة يس

94	09-01	﴿ يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ لَا يُبْصِرُونَ ﴾
320	06	﴿ لَنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَنتَ بِمَلْمُومٍ مِنْهُمْ فَهَمَّ غَافِلُونَ ﴾
320	11	﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ ﴾
139	23، 24	﴿ أَلَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ مُبِينٍ ﴾
158	82	﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾

سورة الصافات

235	37-36	﴿ وَيَقُولُونَ إِنَّا نَتْلُو آيَاتِ الْكِتَابِ وَمَا كُنَّا بِمُعْجِزِينَ ﴾
186	96-95	﴿ قَالَ انْعَبُدُونِ مَا تَنحِتُونَ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾

سورة ص

150	04	﴿ وَعَجَبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ ﴾
375 ، 349	05	﴿ أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾

219	47	﴿ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴾
208 ، 206 ، 105 ، 71	65	﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنِّي إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾
105 ، 71	70	﴿ إِنَّ يُوْحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾

سورة الزمر

204	03 ، 02	﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ..... كَفَّارٌ ﴾
203 ، 201 ، 150 ، 138 ، 53 ، 32	03	﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ..... ﴾
290	56	﴿ أَنْ نَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتِي عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ..... ﴾

سورة خافر

348	12-10	﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُتَادَوْنَ..... الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴾
347	12	﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ..... ﴾
347	14	﴿ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾
190	24-23	﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ..... فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾

سورة فصلت

319	03-01	﴿ حَمْدٌ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ... لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾
325 ، 320 ، 319	04	﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا..... ﴾
389 ، 278 ، 277 ، 236	06	﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا..... ﴾
46	17-15	﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي..... يَكْسِبُونَ ﴾
137	37	﴿ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ..... ﴾
224	42-41	﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ..... حَكِيمٌ حَمِيدٌ ﴾

390 ، 320	42	﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ..... ﴾
06	44	﴿ أُولَئِكَ يَتَدَوَّنُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾

سورة السورى

271 ، 208 ، 104 ، 75 ، 74 ، 72	07	﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ..... ﴾
161	11	﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾
278 ، 229 ، 167	13	﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا..... ﴾
279 ، 278	14	﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ..... ﴾
85	24	﴿ أَمْ يَقُولُونَ اقْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا..... ﴾
289	38	﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾
283	48	﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا..... ﴾
75	51	﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا..... ﴾
333 ، 297 ، 222 ، 74 ، 68	52	﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا..... ﴾

سورة الزخرف

158	09	﴿ وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ..... ﴾
182	28-26	﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ..... يَرْجِعُونَ ﴾
316	29	﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَأَبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ.. ﴾
219	32-31	﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ..... يَجْمَعُونَ ﴾
314	44	﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾
207	45	﴿ وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا..... ﴾

190	46	﴿ وَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلِكِهِ... ﴾
158، 32، 53	87	﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ... ﴾

سورة الحجانية

240	16	﴿ وَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ... ﴾
135	23	﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾

سورة الاحقاف

228، 307، 106، 72	09	﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنَ الرَّسُلِ وَمَا أَدْرِي... ﴾
173	21	﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ... ﴾
208	32-31	﴿ يَا قَوْمِنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ... ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾
256	35	﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعُرْسِ مِنَ الرَّسُلِ... ﴾

سورة محمد

361	13	﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ... ﴾
361	20	﴿ فَإِذَا أَنْزَلْتُ سُورَةً مُحْكَمَةً وَذُكِّرَ... ﴾
361	21	﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ... ﴾
361	22	﴿ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ... ﴾
362، 355	23	﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُ اللَّهُ فَاصْحَهُمْ وَاعْمَى... ﴾
286	33	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا... ﴾

سورة الفسح

383	01	﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾
-----	----	---

122	01,02	﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا.....صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾
71	08	﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾
383 ,382	27	﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ..... ﴾
380 ,369 ,82	28	﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ..... ﴾
ب، 22، 23، 33، 279، 280، 297، 281	29	﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى..... ﴾

سورة ق

316	05	﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِجٍ ﴾
-----	----	--

سورة الزلزال

110	19	﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾
163	56	﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾
169 ،166 ،158	58	﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾

سورة الطور

277	33	﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ۗ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾
-----	----	--

سورة النجم

276	04-01	﴿ وَالتَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ..... ﴾
262 ،105	04-03	﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾
142	23	﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى النَّفْسُ..... ﴾

سورة الحديد

224 ، 69	09	﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ.....﴾
240	26	﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ.....﴾

سورة المجادلة

357	13	﴿الْأَشْفَقْتُمْ أَنْ تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ.....﴾
-----	----	--

سورة الطھر

101	09	﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّامِرَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ.....﴾
120	13-11	﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ..... يَنْفَتَهُونَ﴾
161	23	﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ...﴾

سورة المسحنة

182	04	﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي.....﴾
91	12	﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَنْ..﴾

سورة الصف

113	04	﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا.....﴾
191	05	﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تَأْتُونَنِي.....﴾
250 ، 65 ، 58 ، 35 ، 28 ، 23	06	﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي.....﴾
380 ، 224 ، 36 ، 22	09	﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ.....﴾

سورة الجمعة

،338 ، 314 ، 313 ، 274 ، 42 ، 339	02	﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو.....﴾
18	04-02	

73	04	﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمُ الْعَظِيمَ﴾ ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يُتْلُو.....﴾
----	----	--

﴿سورة التغابن﴾

357	12	﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا...﴾
-----	----	--

﴿سورة السحر﴾

212	03	﴿فَلَمَّا تَبَايَهًا بِهِ قَالَتْ مَنَ أَبْنَاكَ هَذَا قَالَ تَبَانِي.....﴾
-----	----	---

﴿سورة القلم﴾

300، 285، 222	04	﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾
---------------	----	-------------------------------------

﴿سورة الحاقة﴾

45	06-04	﴿كَذَبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ..... عَائِيَةً﴾
276	47-44	﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ..... حَاجِزِينَ﴾

﴿سورة المعارج﴾

110	26-25	﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾
-----	-------	--

﴿سورة نوح﴾

170	01	﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ.....﴾
172، 170، 136	23	﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا.....﴾

﴿سورة الجن﴾

283	18	﴿وَإِنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا.....﴾
281	19	

137	20-18	﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا...﴾ ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا... أَحَدًا﴾
-----	-------	--

سورة المدثر

78 ، 76 ، 70	05-01	﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ وَمَرْبِّكَ فَكْبَرُ وَيَا بَكَ فَطَهَّرْ وَالرَّجْزَ فَاهْجُرْ﴾
--------------	-------	--

سورة النازعات

190	24-21	﴿فَكَذَّبَ وَعَصَى... رَبُّكُمْ أَلْعَلَى﴾
196	23، 24	﴿فَحَشَرَ فَنَادَى فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ أَلْعَلَى﴾

سورة النبأ

214	02-01	﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبِإِ الْعَظِيمِ﴾
320	40	﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ...﴾

سورة الغاشية

283	20-17	﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ... سَطَحَتْ﴾
283	22-20	﴿فَذَكَرْنَاكُمْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ... بِمُصِيطِرٍ﴾
284	22	﴿لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُصِيطِرٍ﴾

سورة الليل

320	14	﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَى﴾
-----	----	----------------------------------

سورة الضحى

63	06-07	﴿الْمَجِدُّكَ تِيْمًا فَاَوْىٰ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾
----	-------	---

سورة العلو

73	05-01	﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ..... مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾
81	19-06	﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظِرٌ..... وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾

سورة الينة

66	05	﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾
103	06-05	﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَقِّيَّةَ﴾

سورة الكافرو

328	02-01	﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾
-----	-------	--

❁ فهرس الأحاديث النبوية والآثار ❁

الصفحات	الراوي	مقطع الحديث
274، 273، 304، 26	عطاء بن يسار	أَجَلُ وَاللَّهِ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَةِ بِبَعْضِ..... ❁
345، 344	عبد الله بن عباس	اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه..... ❁
59	أبو هريرة	استأذنت ربي في زيارة قبر أُمِّي فأذن لي..... ❁
202	أبو عمرو بن الشريد	اسْتَشَدَّنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمِثْلِ حَدِيثِ إِبْرَاهِيمَ. ❁
323، 80	عبد الله بن عباس	أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح... ❁
377	جابر بن عبد الله	أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي..... ❁
376، 258	جابر بن عبد الله	أعطيت خمسا لم يعطهن أحد - من الأنبياء... ❁
377، 135	جندب بن عبد الله	ألا إن من كان قبلكم يتخذون قبور أنبيائهم ... ❁
115	عبد الله بن عباس	اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك،..... ❁
136، 135	أبو هريرة	اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَتَنَا، لَعَنَ اللَّهُ قَوْمًا..... ❁
159	أبو هريرة	أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا..... ❁
110	قيس بن سعد بن عبادة	أمرنا رسول الله ﷺ بصدقة الفطر..... ❁
45	عبد الله بن زيد بن عاصم	إن إبراهيم حرم مكة ودعا لأهلها..... ❁
89	عائشة	إن الله قد سمع قول قومك..... ❁
58	العباس بن عبد المطلب	إن الله يوم خلق الخلق جعلني في خيرهم..... ❁
200، 57	وائلة بن الأسقع	إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل..... ❁

200	واثلة بن الأسقع	إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ مِنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلَ..... ﷺ
148	عبد الله بن مسعود	إِنَّ أَوَّلَ مَنْ سِيبَ السَّوَابِ وَعَبَدَ الْأَصْنَامَ... ﷺ
108	البراء بن عازب	أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ صَلَّى إِلَىٰ بَيْتِ الْمَقْدِسِ..... ﷺ
250	جبير بن مطعم	إِنَّ لِي أَسْمَاءَ، أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ..... ﷺ
34	رجال من قوم قتادة	إِنَّ مَا دَعَانَا إِلَى الْإِسْلَامِ مَعَ رَحْمَةِ اللَّهِ..... ﷺ
186	عبد الله بن عباس	إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَّمَهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ... ﷺ
23	أبو هريرة	أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ فِي الدُّنْيَا... ﷺ
273	عبد الله بن عمر	إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لَا تَقْرَأُ وَلَا تَكْتُبُ ﷺ
207	معاذ بن جبل	إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فَلْيَكُنْ..... ﷺ
301، 286	أبو هريرة	إِنَّمَا بَعَثْتُ لِأَتَمِّ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ ﷺ
93	عائشة	إِنِّي أُرَيْتُ دَارَ هَجْرَتِكُمْ ذَاتَ نَخْلٍ بَيْنَ لَاطِنَيْنِ ﷺ
253	العرباض بن سارية	إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ، وَإِنَّ آدَمَ..... ﷺ
253	العرباض بن سارية	إِنِّي عِنْدَ اللَّهِ مَكْتُوبٌ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ، وَإِنَّ آدَمَ... ﷺ
384	أبو هريرة	إِنِّي لَمْ أَبْعَثْ لِعَانَا، وَإِنَّمَا بَعَثْتُ رَحْمَةً ﷺ
370	عبد الله بن عباس	إِنِّي وَاللَّهِ أَعْلَمُ أَنَّكُمْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ... ﷺ
299، 241، 77، 70	عائشة	أَوَّلَ مَا بَدَأَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ..... ﷺ
384	حذيفة بن اليمان	أَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي سَبَبْتَهُ سَبَةً فِي..... ﷺ
125	أبو هريرة	أَيُّهَا النَّاسُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا فَإِنَّ مُحَمَّدًا... ﷺ

290، 89	عائشة	بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد ... ﷺ
328	قتادة	بَلِّغُوا عَنْ اللَّهِ، فَمَنْ بَلَغْتَهُ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ... ﷺ
76	جابر بن عبد الله	بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء ... ﷺ
87، 86	عمرو بن العاص	بينما كان النبي ﷺ يصلي في حجر الكعبة ... ﷺ
294، 293	أنس بن مالك	بينما نحن في المسجد مع رسول الله ﷺ
90	عبادة بن الصامت	تعالوا بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً ... ﷺ
291	أبو هريرة	جلس جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ... ﷺ
57	ابن عباس	خير العرب مضر وخير مضر بن عبد مناف.. ﷺ
89، 88	علي بن أبي طالب	خير نساءها مريم بنت عمران وخير نساءها ... ﷺ
310، 247	أبو أمامة	دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى ورأت ... ﷺ
81	ربيعة بن عباد الديلمي	رأيت رسول الله ﷺ بسوق ذي الحجاز ... ﷺ
148	أبو هريرة	رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه ... ﷺ
202	أبو عمرو بن الشريد	رَدِفْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ... ﷺ
136	عبد الله بن عباس	صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في ... ﷺ
300	عبد الله بن عباس	صعد النبي ﷺ إلى الصفا فجعل ينادي.... ﷺ
258	أبو هريرة	فضلت على الأنبياء بست أعطيت جوامع ... ﷺ
107	عبد الله بن عمر	كان المسلمون حين قدموا المدينة يجتمعون ... ﷺ
143	عبد الله بن عباس	كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على ... ﷺ
285، 17	عائشة	كان خلقه القرآن ﷺ

292	عائشة	كان يخيظ ثوبه ويخصف نعله..... ﷺ
292	عائشة	كان يكون في مهنة أهله..... ﷺ
217	أبو هريرة	كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء..... ﷺ
296، 288	أنس بن مالك	كنت أمشي مع رسول الله ﷺ..... ﷺ
254	أبو هريرة	كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث.. ﷺ
257	أبو سعيد الخدري	لا تخيروا بين الأنبياء ﷺ
292	عمر بن الخطاب	لا تطروني كما أطرت النصارى..... ﷺ
135	عائشة	لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور..... ﷺ
122	أبو زيد بن أسلم	لقد أنزلت عليّ الليلة سورة..... ﷺ
60	عبد الرحمن بن أبي بكر	لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان..... ﷺ
61	جابر بن عبد الله	لما بنيت الكعبة ذهب النبي ﷺ وعباس..... ﷺ
111، 110	أبو هريرة	لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم... ﷺ
245، 35	عبد الله بن عباس	ما بعث الله نبيا إلا أخذ عليه الميثاق لئن..... ﷺ
60	عبد الله بن عباس	ما بعث الله نبيا إلا وقد رعى الغنم..... ﷺ
322	عبد الله بن مسعود	ما زال النبي صلى الله عليه وسلم مستخفيا.. ﷺ
288	عائشة	ما خير رسول الله بين أمرين إلا اختار..... ﷺ
296	عائشة	ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم... ﷺ
164	أبو هريرة	ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه..... ﷺ
75	أبو هريرة	ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أعطي من... ﷺ

262، 259، 75	أبو هريرة	ما من نبي من الأنبياء، إلا وقد أوتي من... ﷺ
365	عبد الله بن عباس	ما نعلم الله أنزل على بشر من شيء بعد... ﷺ
168، 30	أبو هريرة	مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى... ﷺ
298	النعمان بن بشير	مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم... ﷺ
123	أبي بن كعب	نصبر ولا نعاقب ﷺ
253	أبو هريرة	وآدم بين الروح والجسد ﷺ
152	المقداد بن الأسود	والله لقد بعث الله النبي ﷺ على أشد... ﷺ
164	عياض بن حمار المجاشعي	وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم... ﷺ
34	سلمة بن سلامة بن وقش	وكان في بني عبد الأشهل جار من اليهود... ﷺ
328	قتادة	يا أيها الناس، بلغوا ولو آية من كتاب الله... ﷺ
323، 80	عبد الله بن عباس	يا صباحاه فقالوا: من هذا؟، فاجتمعوا إليه... ﷺ
324، 323، 81، 80	أبو هريرة	يا معشر قريش، أنقذوا أنفسكم من النار... ﷺ
206	أبو سعيد بن المسيب	يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها... ﷺ
253	أبو هريرة	وآدم بين الروح والجسد... ﷺ

❖ قائمة المصادر والمراجع ❖

- 1- القرآن الكريم
- 2- إبراهيم نويوى، الصبغة التاريخية لحركة انتشار الإسلام في نظر الشيخ محمد الغزالي، مجلة إسلامية المعرفة، معهد الفكر الإسلامي، العدد الرابع عشر، خريف 1419هـ/1998م.
- 3- ابن الأثير: مجد الدين المبارك بن محمد الجزري، النهاية في غريب الحديث، ت: محمود محمد الطناجي، دار الفكر، بيروت، لبنان، (د.ت).
- 4- أحمد بن حسن المعلم، القبور في اليمن - نشأتها - آثارها - موقف العلماء منها، المكتبة الشاملة، الإصدار الثالث، 2007م.
- 5- أحمد بن محمد بن علي الفيومي المقرئ، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، 1987م.
- 6- أحمد مصطفى المراغي، تفسير المراغي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، 1365هـ/1946م.
- 7- أحمد معاذ علوان خفي، فطرية معرف الله تعالى، مجلة الأحمديّة، دار البحوث للدراسات الإسلامية، دبي، 1420هـ/1999م.
- 8- أبو أسامة سليم بن عبد الهلالي، الأخلاق النبوية المعطرة في الآيات القرآنية المطهرة، دار الإمام مالك للنشر، البلدة، الجزائر، ط1، 1415هـ/1995م.
- 9- ابن إسحاق: محمد بن إسحاق بن يسار بن خيار أبو بكر القرشي المدني المطلبى، السيرة النبوية، ت: أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1424هـ/2004م.
- 10- الألويسي: أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألويسي البغدادي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان (د.ت).
- 11- إسماعيل بن عبد الغني الدهلوي، رسالة التوحيد، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة السعودية، ط1، 1417هـ.

- 12- إميل بديع يعقوب، المعجم المفصل في شواهد اللغة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1417هـ/1996م.
- 13- البخاري: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، الأدب المفرد
- 14- البخاري، الجامع الصحيح، ت: محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية ومكبتها، القاهرة، ط1، 1403هـ.
- 15- البرهان فوري: علاء الدين علي المتقي حسام الدين الهندي، كثر العمال في سنن الأقوال والأفعال، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط5، 1405هـ/1985م.
- 16- البغدادي: أبو منصور عبد القاهر طاهر التميمي البغدادي، كتاب أصول الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ت).
- 17- البغوي: أبو الحسين بن مسعود البغوي، معالم التزليل، ت: محمد عبد الله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط4، 1417هـ/1997م.
- 18- البقاعي: برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، (د.ت).
- 19- بجمت عبد الواحد الشيخاني، بلاغة القرآن الكريم في الإعجاز-إعرابا وتفسيرا بإيجاز-، مكتبة دنديس، عمان، الأردن، والضفة الغربية، الخليل، ط1، 1422هـ/2001م.
- 20- البيضاوي: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي، أنوار التزليل وأسرار التأويل (تفسير البيضاوي)، دار الجليل، (د.ت).
- 21- البيهقي: أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي، السنن الكبرى، ت: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3، 1424هـ/2003م.
- 22- البيهقي، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، ت: عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ودار الريان للتراث، القاهرة، 1408هـ/1988م.
- 23- التبريزي: محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي، مشكاة المصابيح، ت: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط2، 1399هـ/1979م.
- 24- الترمذي: أبو عيسى محمد بن عيسى، الجامع الكبير، ت: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1996م.

- 25- التهانوي: محمد علي بن علي بن محمد، كشاف اصطلاحات الفنون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1418هـ/1998م.
- 26- توشيهيكو أيزوتو، الله، الإنسان في القرآن - علم دلالة الرؤية القرآنية للعالم - ترجمة: هلال محمد الجماد، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، مارس 2007م.
- 27- ابن تيمية: أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم، درء تعارض العقل والنقل، ت: محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، ط2، 1411هـ/1991م.
- 28- ابن تيمية، مجموع الفتاوى، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم وابنه محمد، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، 1425هـ/2004م.
- 29- ابن تيمية، النبوات، ت: عبد العزيز بن صالح الطويان، أضواء السلف، الرياض، ط1، 1410هـ/2000م.
- 30- ابن تيمية، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، دار العاصمة للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ط2، 1419هـ/1999م.
- 31- الثعالبي: عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف أبو زيد، الجواهر الحسان في تفسير القرآن (تفسير الثعالبي)، ت: علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1418هـ/1997م.
- 32- الجرجاني: علي بن محمد السيد الشريف، التعريفات، ت: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، (د.ط)، 2003م.
- 33- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1989م.
- 34- جيران جهامي، موسوعة مصطلحات الفلسفة عند العرب، مكتبة لبنان، ط1، لبنان، (د.ت).
- 35- جلال مظهر، محمد رسول الله سيرته وأثره في الحضارة، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1971م.
- 36- جواد علي، المفصل في تاريخ العرب، جامعة بغداد، ط2، 1413هـ/1993م.
- 37- ابن الجوزي: أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي، زاد المسير في علم التفسير، المكتب الإسلامي، (د.ت).
- 38- وابن الجوزي: أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد، زاد المسير في علم التفسير، المكتب الإسلامي، بيروت، ط3، 1404هـ/1984م.

- 39- الجوهري: أبو نصر بن حماد، الصحاح في اللغة وصحاح العربية، ت: إميل بديع يعقوب ومحمد نبيل طريقي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1420هـ/1999م
- 40- الحاكم: أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، المستدرک علی الصحیحین، دار الحرمین، القاهرة، ط1، 1417هـ/1997م.
- 41- حسين مؤنس، دراسات في السيرة النبوية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ت.
- 42- أبو حامد الغزالي: محمد بن محمد بن محمد الغزالي، إحياء علوم الدين، مكتبة ومطبعة كرياضة فوترا سماراغ، (د.ت).
- 43- ابن حجر العسقلاني: أحمد بن علي، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، دار طيبة، الرياض، ط1، 1426هـ/2005م.
- 44- ابن حنبل: أحمد بن محمد بن محمد بن حنبل، المسند، ت: أحمد محمد شاكر، حمزة أحمد الزين، دار الحديث، القاهرة، ط1، 1416هـ/1995م .
- 45- أبو حيان الأندلسي: محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان النحوي الأندلسي، البحر المحيط، ت: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1413هـ/1993م.
- 46- الخازن: علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي، لباب التأويل في معاني التنزيل (تفسير الخازن)، ط1، 1415هـ.
- 47- ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد، المقدمة، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، ط2، 1996م .
- 48- الدارمي: أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام، مسند الدارمي المعروف بـ(سنن الدارمي)، ت: حسين سليم أسد، دار المغني، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، 1421هـ/2000م.
- 49- الدامغاني: الحسين بن محمد، قاموس القرآن، إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، ت: عبد العزيز سيد الأهل، دار العلم للملايين، بيروت لبنان، ط3، 1980م.
- 50- أبو داود: سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي، سنن أبي داود، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 1418هـ/1997م.

- 51- ر.ق.بودلي، حياة محمد الرسول، ترجمة: محمد محمد فرج وعبد الحميد جوده السحار، مكتبة مصر، جمهورية مصر العربية، (د.ت).
- 52- الرازي: محمد بن أبي بكر بن عبد القدر، مختار الصحاح، المطبعة الكلية، مصر، 1329هـ.
- 53- الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل الراغب، المفردات في غريب القرآن، ت: محمد سيد كيلاي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، (د.ت).
- 54- الراغب الأصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم، ت: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط3، 1423هـ/2002م.
- 55- الزبيدي: السيد محمد بن محمد الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1428هـ/2007م.
- 56- الزجاج: أبو إسحاق بن إبراهيم بن السري بن سهل، معاني القرآن وإعرابه، ت: عبد الجليل عبده شليبي، عالم الكتب، بيروت، ط1، 1408هـ/1988م.
- 57- الزرقاني: أبو عبد الله محمد بن عبد الباقي بن يوسف بن أحمد بن شهاب الدين بن محمد، شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1417هـ/1996م.
- 58- الزمخشري: جار الله أبو القاسم محمود بن عمر بن أحمد، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ت: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، وفتح عبد الرحمن أحمد حجازي، مكتبة العبيكان، الرياض، ط1، 1418هـ/1998م.
- 59- السرخسي: شمس الدين أبو بكر محمد بن أبي سهل، المبسوط، دار المعرفة، بيروت، لبنان، (د.ت).
- 60- السفاريني: محمد بن أحمد بن سالم بن سليمان السفاريني الأثري، لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرّة المضية في عقد الفرقة المرضية، (د.ت).
- 61- ابن سعد: محمد بن سعد بن منيع الزهري، كتاب الطبقات الكبير، ت: علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1421هـ/2001م.
- 62- أبو السعود: محمد بن مصطفى العمادي المولى الرومي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ت: عبد القادر أحمد عطا، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، (د.ت).

- 63- سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، ت: أسامة بن عطايا بن عثمان العتيبي، دار الصميعي، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، 1428هـ/2007م.
- 64- سميح دغيم، موسوعة مصطلحات علم الكلام الإسلامي، مكتبة لبنان، ط1، 1998م.
- 65- سميح دغيم، موسوعة مصطلحات الإمام فخر الدين الرازي، من موسوعة سلسلة مصطلحات أعلام الفكر العربي والإسلامي، مكتبة لبنان، ط1، 2001م.
- 66- السّمين الحلبي: أحمد بن يوسف، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، (د.ت).
- 67- السهيلي: أبو القاسم وأبو زيد عبد الرحمن بن الخطيب، الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، ت: عبد الرحمن الوكيل، دار الكتب الإسلامية، ط1، 1387هـ/1967م.
- 68- سيد سعيد عبد الغني، إخلاص العبودية للعزيز الحكيم، مكتبة الملك فهم، مكة المكرمة، ط1، 1425هـ/2004م.
- 69- سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، ط12، 1986م.
- 70- السيوطي: أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، الدر المنثور في التفسير بالمتأثر، ت: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مركز هجر للبحوث والدراسات الإسلامية، القاهرة، ط1، 1424هـ/2003م.
- 71- السيوطي، الخصائص الكبرى (كتاب الطالب اللبيب في خصائص الحبيب)، ت: محمد خليل هراس، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ت).
- 72- السيوطي، الإتيقان في علوم القرآن، ت: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1429هـ/2008م.
- 73- ابن سيده: أبو الحسين علي بن إسماعيل الأندلسي، المحكم والمحيط الأعظم، ت: عبد الحميد هنداي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1421هـ/2000م.
- 74- ابن سيده، المخصص، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ت).
- 75- الشاطبي: أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي، الاعتصام، ت: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، مكتبة التوحيد، المنامة، البحرين، ط1، 1421هـ/2000م.

- 76- الشامي: محمد بن يوسف الصالحى الشامى، سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية لجنة التراث الإسلامى، القاهرة، مصر، 1418هـ/1997م.
- 77- الشنقيطى: محمد الأمين بن محمد المختار الحكيمى، أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن، دار عالم الفوائد، جدة، (د.ت).
- 78- الشهرستانى: أبو الفتح محمد بن عبد الكرم بن أبى بكر أحمد، الملل والنحل، ت: محمد سيد الكيلانى، دار الجليل ودار صعب، بيروت، 1406هـ/1986م.
- 79- الشوكانى: محمد بن على بن محمد، فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط4، 1428هـ/2007م.
- 80- صالح بن عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم آل الشيخ، التمهيد لشرح كتاب التوحيد، دار التوحيد، الرياض، ط1، 1423هـ/2002م.
- 81- صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان، إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد لمحمد بن عبد الوهاب، مؤسسة الرسالة، ط3، 1423هـ/2002م.
- 82- صفى الرحمن المباركفورى، الرحيق المختوم، دار ابن خلدون، الإسكندرية، (د.ت).
- 83- صفى الرحمن المباركفورى، ومن إعداد مجموعة من العلماء، وإنك لعلى خلق عظيم الرسول محمد ﷺ، الرواد للإعلام، جدة، (د.ت).
- 84- الصنعانى: محمد بن إسماعيل، تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد، دار الخلفاء للكتاب الإسلامى، بيروت، ط2، 1403هـ/1983م.
- 85- الطبرانى: أبو القاسم بن سليمان بن أحمد، ت طارق بن عوض الله بن محمد وعبد المحسن بن إبراهيم الحسينى، دار الحرمين، مصر، 1415هـ/1995م.
- 86- الطبرى: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملى أبو جعفر، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبرى)، ت: عبد الله بن عبد المحسن التركى، دار هجر، القاهرة، ط1، 1422هـ/2001م.
- 87- الطيب برغوث، المنهج النبوى فى حماية الدعوة ومنجزاتها-مرحلة التأسيس العقدي والفكري للمجتمع الإسلامى بمكة- دار قرطبة، الجزائر، ط1، 1425هـ/2004م.

- 88- عائشة عبد الرحمن - بنت الشاطي-، مع المصطفى ﷺ، دار المعارف، القاهرة، جمهورية مصر العربية، (د.ت).
- 89- ابن عباد: إسماعيل بن عباد، المحيط في اللغة، ت: محمد حسن آل ياسين، عالم الكتب، بيروت، ط1، 1414هـ/1994م.
- 90- ابن عبد البر: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، مؤسسة الرسالة، (د.ت).
- 91- عبد الرحمن بن ناصر البراك، شرح العقيدة الطحاوية، دار التدمرية، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، 1429هـ/2008م.
- 92- عبد الرحمن بن ناصر السعدي، القول السديد شرح كتاب التوحيد لمحمد بن عبد الوهاب، ت: صبري بن سلامة شاهين، دارالثبات، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، 1425هـ/2004م.
- 93- عبد الرحمن حسن حنكة الميداني، الأخلاق الإسلامية وأسسها، دار القلم، دمشق، ط5، 1420هـ/1999م.
- 94- عبد الرحمن حسن حنكة الميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها، دار القلم، دمشق، بيروت، ط2، 1399هـ/1977م.
- 95- عبد الرحمن حسن حنكة الميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها، دار القلم، دمشق، ط2، 1399هـ/1979م.
- 96- عبد الرحيم بن صمايل السلمي، حقيقة التوحيد، دار المعلمة للنشر والتوزيع، (د.ت).
- 97- عبد الرزاق عفيفي، الحكمة من إرسال الرسل، دار الصميعي، المملكة العربية السعودية، ط2، 1420هـ.
- 98- عبد الرزاق: أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني، المصنف، ت: حبيب الرحمن الأعظمي، منشورات المجلس العلمي، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1390هـ/1970م.
- 99- ابن أبي العز: علي بن علي بن محمد بن أبي العز الدمشقي، شرح العقيدة الطحاوية، ت: عبد الله بن عبد المحسن التركي، شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة بيروت، ط2، 1411هـ، 1990م.
- 100- ابن عساكر: أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين، تاريخ مدينة دمشق، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1415هـ/1995م،

- 101- ابن عطية: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ت: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1422هـ/2001م.
- 102- عبد العزيز بن عبد الله الحميدي، تفسير ابن عباس ومروياته في التفسير من كتب السنة، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية، (د.ت).
- 103- عبد الكريم الخطيب، النبي محمد ﷺ، دار الفكر العربي، ط2، 1976م.
- 104- عبد الكريم زيدان، موجز الأديان في القرآن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1418هـ/1998م.
- 105- عبد الله بن عبد العزيز الجبرين، تسهيل العقيدة الإسلامية، دار الصميعي، الرياض، المملكة العربية الإسلامية، ط1، 1423هـ/2002م.
- 106- عبد المحسن بن حمد العباد، من أخلاق الرسول الكريم ﷺ، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط5، 1411هـ.
- 107- عطية محمد مصطفى شعبان، منهج الإسلام العلمي في دعوة الرسل، دار البشير للثقافة والعلوم، طنطا، مصر، 1418هـ-1997م.
- 108- علي شريعتي، الإنسان والتاريخ، ترجمة خليل علي، دار الصحف للنشر، طهران، إيران، ط1، 1211 هـ.
- 109- علي عبد العظيم، فلسفة المعرفة في القرآن الكريم، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، 1973م.
- 110- عمر سليمان الأشقر، الرسل والرسالات، مكتبة الفلاح، الكويت، دار النفائس، الكويت، ط4، 1410هـ/1989م.
- 111- عمر سليمان الأشقر، الرسل والرسالات، مكتبة الفلاح، دار النفائس، ط4، 1410هـ/1989م.
- 112- عمر سليمان الأشقر، العقيدة في الله، دار النفائس، عمان، الأردن، ط2، 1419هـ/1999م.
- 113- ابن فارس: أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، ت: عبد السلام محمد هارون دار الفكر، 1399هـ/1979م.
- 114- فاضل صالح السامرائي، نبوة محمد من الشك إلى اليقين، مكتبة القدس، بغداد، (د.ت).

- 115- فالخ بن مهدي آل مهدي، التحفة المهدية شرح الرسالة التدمرية، دار الوطن، الرياض، ط1، 1414هـ.
- 116- فخر الدين الرازي: أبو الفضل محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التيمي البكري، مفاتيح الغيب والمشتهر بالتفسير الكبير، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1، 1401هـ/1981م.
- 117- أبو الفضل عباس بن منصور السكسكي، البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان، ت: بسام علي سلامة، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن، ط2، 1417هـ/1996م.
- 118- الفيروزآبادي: مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، ت: مكتبة تحقيق التراث بمؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة، ط8، 1426هـ/2005م.
- 119- الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، ت: عبد العليم الطحاوي، المكتبة العلمية، بيروت، (د.ت).
- 120- ابن قتيبة: أبو محمد عبد الله بن مسلم، تأويل مشكل القرآن، ت: أحمد صقر، دار التراث، القاهرة، ط2، 1393هـ/1973م.
- 121- ابن قدامة: أبو محمد موفق الدين عبد الله بن قدامة، شرح لمعة الإعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد، شرح: صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان، أشرف على طباعته: عبد السلام بن عبد الله السليمان، (د.ت).
- 123- القرافي: شهاب الدين أبو العباس أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن، الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة في الرد على الملة الكافرة، ت: مجدي محمد الشهاوي، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط1، 1426هـ/2005م.
- 124- القرطبي: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ت: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1427هـ/2006م.
- 125- ابن قيم الجوزية: أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الدمشقي، هداية الحيارى في الرد على اليهود والنصارى، دار الكتب العلمي، بيروت، لبنان، ط2، 1415هـ/1994م.
- 126- ابن قيم الجوزية: ، مدارج السالكين - بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين-، ت: رضوان جامع رضوان، مؤسسة المختار، القاهرة، ط1، 1422هـ/2001م.

- 127- ابن قيم الجوزية، إغاثة اللفهان في مصايد الشيطان، ت: علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد الحلبي، دار ابن الجوزي، الأردن، (د.ت).
- 128- ابن قيم الجوزية، الضوء المنير على التفسير، جمعه: علي الحمد المحمد الصالحي، مؤسسة الرسالة للطباعة والتجليد، ومكتبة دار السلام، الرياض، (د.ت).
- 129- ابن كثير: عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، صحيح قصص الأنبياء، بقلم: أبي أسامة سليم بن عبد الهلالي السلفي الأشري، دار غراس، الكويت، ط1، 1422هـ/2002م.
- 130- ابن كثير، البداية والنهاية، ت: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، مصر، ط1، 1417هـ/1997م.
- 131- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ت: مجموعة من العلماء، مؤسسة قرطبة، ومكتبة أولاد الشيخ للتراث، القاهرة، ط1، 1421هـ/2000م.
- 132- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار طيبة، الرياض المملكة العربية السعودية، ط2، 1420هـ/1999م.
- 133- الكلبي: أبو القاسم محمد بن أحمد بن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1415هـ/1995م.
- 134- ابن الكلبي: أبو المنذر هشام بن السائب، الأصنام، الدار القومية، القاهرة، 1964م،
- 135- ابن ماجه: أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، سنن، ت: بشار عواد معروف، دار الجيل، بيروت، ط1، 1418هـ/1998م.
- 136- مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، سورية، دار الفكر، الجزائر، ط4، 1407هـ/1987م.
- 137- مالك: أبو عبد الله مالك بن أنس الأصبحي، موطأ الإمام مالك، ت: محمد مصطفى الأعظمي، مؤسسة زيد بن سلطان آل نهيان الخيرية الإنسانية، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، ط1، 1425هـ/2004م.
- 138- مجاهد بن جبر، تفسيره، ت: محمد عبد السلام أبو النيل، دار الفكر الإسلامي الحديثة، مدينة نصر، ط1، 1410هـ/1989م.

- 139- محمد أبو زهرة، خاتم النبيين ﷺ، المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية، الدوحة، قطر، 1400هـ/1980م.
- 140- محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهري الشافعي، حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، دار طوق النجاة، بيروت، لبنان، ط1، 1421هـ/2001م.
- 141- محمد بن رزق بن طرهوني، صحيح السيرة النبوية المسماة السيرة الذهبية، دار ابن تيمية، القاهرة، ط1، 1410هـ.
- 142- محمد بن محمد أبو شهبة، المدخل لدراسة القرآن الكريم، دار الجليل، بيروت، 1412هـ/1992م.
- 143- محمد بن محمد أبو شهبة، السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، دار القلم، دمشق، ط5، 1419هـ/1999م.
- 144- محمد الصادق إبراهيم عرجون، محمد رسول الله ﷺ - منهج ورسالة، بحث وتحقيق-، دار القلم، دمشق، ط2، 1415هـ/1995م.
- 145- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984م، (د.ط).
- 146- محمد بيومي مهران، العرب وعلاقتهم الدولية في العصور القديمة، الرياض، 1976م.
- 147- محمد جمال الدين القاسمي، دلائل التوحيد، دار النفائس، بيروت، لبنان، ط1، 1412هـ/1991م.
- 148- محمد جمال الدين القاسمي، دلائل التوحيد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1405هـ/1984م.
- 149- محمد رشيد رضا، الوحي المحمدي، مؤسسة عز الدين، بيروت، لبنان، ط2، 1352هـ.
- 150- محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم (المنار)، مطبعة المنار، مصر، ط1، 1338هـ.
- 151- محمد علي الهاشمي، شخصية الرسول ودعوته في القرآن الكريم، عالم الكتب، بيروت، ط3، 1403هـ/1983م.
- 152- محمد علي قطب، إرهابيات نبوة خاتم المرسلين محمد ﷺ، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ط1، 1425هـ/2004م.
- 153- محمد قطب، مذاهب فكرية معاصرة، دار الشروق، ط1، 1403هـ/1983م.

- 154- محي الدين محمد البركوي الرومي الحنفي، زيارة القبور الشرعية والشركية، دار البشير، عمان الأردن، ط2، 1417هـ/1996م.
- 155- المسعودي: أبو الحسن علي بن الحسين بن علي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ت: أسعد داغر، دار الهجرة، 1409هـ.
- 156- مسلم: أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، الجامع الصحيح.
- 157- مصطفى السباعي، السنة ومكانتها في التشريع، المكتب الإسلامي، دار الرواق، بيروت، لبنان، ط1، 1421هـ/2000م .
- 158- المعلم بطرس البستاني، دائرة المعارف، دار المعرفة، بيروت، لبنان، (د.ت).
- 159- دائرة المعارف الإسلامية، يصدرها باللغة العربية: أحمد الشتاوي، إبراهيم زكي خورشيد، عبد الحميد يونس، دار المعرفة، بيروت، لبنان، (د.ت).
- 160- ابن منظور: أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي بن أحمد الأنصاري الإفريقي، لسان العرب المحيط، دار الجليل، دار لسان العرب، بيروت، 1408هـ/1988م.
- 161- مهدي رزق الله أحمد، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ط1، 1412هـ/1992م.
- 162- النسائي: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب، السنن الكبرى، ت: حسن عبد المنعم شلبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1421هـ/2001م.
- 163- النسفي: عبد الله بن أحمد بن محمود، مدارك التزويل وحقائق التأويل (تفسير النسفي)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1415هـ/1995م.
- 164- أبو نعيم الأصبهاني، أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران، دلائل النبوة، ت: محمد رواس قلعجي وعبد البر عباس، دار النفائس، بيروت، ط2، 1406هـ/1986م.
- 165- النووي: محي الدين يحيى بن شرف بن مري بن حسن بن حسين بن حزام، صحيح مسلم بشرح النووي، المطبعة المصرية بالأزهر، ط1، 1347هـ/1929.
- 166- ابن هشام: أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري، السيرة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت، ط6، 1418هـ/1998م.

- 167- الهيثمي: نور الدين الشاذلي، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط3، 1402هـ.
- 168- الواحدي النيسابوري: أبو الحسن علي بن أحمد، الوسيط في تفسير القرآن المجيد، ت: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض ومجموعة من العلماء، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1415هـ/1994م.
- 169- وهبة بن مصطفى الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر المعاصر، بيروت، دمشق، 1418هـ.
- 170- أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرق، أخبار مكة وما جاء من الآثار، المطبعة الماجدية ومحمد سعيد عبد المقصود، جدة، ط2، 1425هـ/2005م،
- 171- ياقوت الحموي: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1397هـ/1977م.
- 172- الإيجي: محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الإيجي الشيرازي، جامع البيان في تفسير القرآن ومعه حاشية محمد بن عبد الله الغرنوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1424هـ/2004م.

المراجع المساعدة:

- 173- عبد الحميد بن باديس، مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، ط1، 1402هـ/1982م.
- 174- مجمع اللغة العربية، معجم ألفاظ القرآن الكريم، الإدارة العامة للبحوث وإحياء التراث، جمهورية مصر العربية، 1409هـ/1989م.
- 175- مجموعة من المستشرقين، المعجم المفهرس لألفاظ الحديث، نشره: أ. ي. وينستك، مكتبة يريل، لندن، 1932م.
- 176- أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، موسوعة أطراف الحديث، بيروت، لبنان، (د.ت).
- 177- وهبة الزحيلي ومجموعة من العلماء، الموسوعة القرآنية الميسرة، دار الفكر، دمشق، سورية، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ط3، 1425هـ.
- 178- كتاب الأصالة، ملتقى الفكر الإسلامي الثاني عشر، وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، 1398هـ/1978م.
- 179- محمد عابد الجابري، مدخل إلى القرآن الكريم، الجزء الأول في التعريف بالقرآن، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2006م.
- 180- وات مونتجومري، محمد في مكة، تعريب: شعبان بركات، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، لبنان، (د.ت).
- 181- أحمد عثمان رحمان، جهد الشاطبي في التفسير الموضوعي الكشفي، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية، دبي، العدد السابع والعشرون، 1425هـ/2004م.
- 182- عباس محمود العقاد، الفلسفة القرآنية، دار نهضة مصر، القاهرة، (د.ت).
- 183- سيد قطب، في التاريخ فكرة ومنهاجا، دار الشروق، القاهرة، (د.ت).
- 184- سهام عبد الرزاق، القراءة التاريخية، (ماجستير)، كلية العلوم الإسلامية، باتنة، جانفي 2004م.
- 185- سمية شباطة، الأبعاد الوظيفية للإيمان، (ماجستير)، كلية العلوم الإسلامية، باتنة، 2005م.

فهرس الموضوعات

أ	المقدمة
01	مدخل: المفاهيم الأساسية للبحث.
03	المطلب الأول: مفهوم البعد.
03	أولاً: البعد لغة
04	ثانياً: البعد في اصطلاح العلماء
06	ثالثاً: البعد في القرآن
08	المطلب الثاني: تعريف التاريخ.
08	أولاً: التاريخ لغة.
09	ثانياً: المعنى الاصطلاحي.
11	المطلب الثالث: تعريف الرسالة.
11	أولاً: المعنى اللغوي.
12	ثانياً: المعنى الاصطلاحي.
13	المطلب الرابع: تعريف السيرة.
13	أولاً: المعنى اللغوي.
14	ثانياً: المعنى الاصطلاحي.
16	الباب الأول: محطات السيرة النبوية في القرآن الكريم.
17	تمهيد.
20	الفصل الأول: مرحلة الإعداد الإلهي (قبل البعثة).
21	المبحث الأول: محمد ﷺ في الكتب السابقة.
22	المطلب الأول: الكتب السماوية.
24	أولاً: النبي ﷺ في التوراة.
27	ثانياً: محمد ﷺ في كتب النصارى.
32	المطلب الثاني: روايات المشركين.

38	المبحث الثاني: الامتداد الجغرافي والتاريخي للجزيرة العربية.....
39	المطلب الأول: الامتداد الجغرافي.
39	الفرع الأول: الطبيعة الجغرافية للجزيرة العربية.....
45	الفرع الثاني: سكان الجزيرة العربية.....
47	المطلب الثاني: الامتداد التاريخي للجزيرة العربية.....
47	الفرع الأول: الوجود التاريخي.....
49	الفرع الثاني: الحياة الاجتماعية والسياسية للعرب.....
52	الفرع الثالث: العقيدة الدينية عند العرب.....
56	المبحث الثالث: محمد ﷺ قبل البعثة النبوية.....
57	المطلب الأول: محمد ﷺ في مرحلة الطفولة.....
60	المطلب الثاني: حياة النبي ﷺ في مكة.....
66	الفصل الثاني: البعثة النبوية.....
67	المبحث الأول: المرحلة المكية.....
68	تمهيد.....
69	المطلب الأول: بداية الوحي.....
78	المطلب الثاني: الدعوة السرية.....
80	المطلب الثالث: الدعوة الجهرية.....
80	الفرع الأول: المرحلة الأولى.....
86	الفرع الثاني: المرحلة الثانية.....
92	المبحث الثاني: المرحلة المدنية.....
93	المطلب الأول: الهجرة إلى المدينة.....
93	الفرع الأول: أهمية الهجرة.....
95	الفرع الثاني: المدينة المنورة.....
97	أولاً: الحياة السياسية والاجتماعية في المدينة.....
101	ثانياً: ميثاق النبي ﷺ في المدينة.....

104المطلب الثاني: الدولة الإسلامية في المدينة.
104الفرع الأول: الوحي الإلهي.
106الفرع الثاني: الأحكام التشريعية.
111الفرع الثالث: الغزوات والسرايا.
127الباب الثاني: البعد التاريخي للسيرة النبوية.
128تمهيد.
130الفصل الأول: الرؤية التاريخية لعقيدة التوحيد ضد الوثنية.
131المبحث الأول: الوثنية.
132المطلب الأول: مفهوم الوثنية.
134المطلب الثاني: تاريخ الوثنية.
142الفرع الأول: بداية الوثنية في قوم نوح.
145الفرع الثاني: الوثنية عند اليهود والنصارى.
146الفرع الثالث: الوثنية عند العرب.
149عقيدة الشرك.
150عبادة الأصنام.
154المبحث الثاني: عقيدة التوحيد.
155المطلب الأول: مفهوم التوحيد.
155أولاً: التوحيد لغة.
155ثانياً: التوحيد اصطلاحاً.
156ثالثاً: أقسام التوحيد.
163المطلب الثاني: الفطرة السليمة.
165تعريف الفطرة.
167المطلب الثالث: دعوة الأنبياء المرسلين إلى التوحيد.
170الفرع الأول: دعوة نوح عليه السلام.
173الفرع الثاني: دعوة هود عليه السلام.

178 الفرع الثالث: دعوة إبراهيم الخليل عليه السلام.
189 الفرع الرابع: دعوة موسى عليه السلام.
199 الفرع الخامس: دعوة الرسول الخاتم محمد ﷺ.
211 الفصل الثاني: النبوة.
212 المبحث الأول: النبوة وتفسيرها.
213 تمهيد :
214 المطلب الأول: تعريف النبوة.
214 الفرع الأول: النبوة لغة.
215 الفرع الثاني: النبوة اصطلاحاً.
218 المطلب الثاني: تفسير النبوة.
227 المبحث الثاني: توالي ظاهرة النبوة.
228 المطلب الأول: تتابع ظهور الأنبياء.
232 المطلب الثاني: شهادة النبي على صدق دعوته.
238 المبحث الثالث: مظاهر النبوة الخاتمة.
239 المطلب الأول: نبوة محمد عليه الصلاة والسلام.
242 المطلب الثاني: شهادة الأنبياء على نبوة محمد ﷺ.
242 الفرع الأول: ميثاق النبوة.
245 الفرع الثاني: إيمان الأنبياء.
247 الفرع الثالث: تبشير الأنبياء عليهم السلام بالنبي ﷺ.
253 المطلب الثالث: خصائص النبوة الخاتمة.
263 الباب الثالث: البعد الرسالي للسيرة النبوية.
264 تمهيد:
265 الفصل الأول: الجانب الأخلاقي.
266 المبحث الأول: صفات النبي وأخلاقه.
267 المطلب الأول: صفات النبي محمد ﷺ.

268	أولاً: صفة الرحمة.
270	ثانياً: النبي الأمي.
275	ثالثاً: البشير والندير.
276	رابعاً: صدق النبي محمد ﷺ.
277	خامساً: بشرية النبي محمد ﷺ.
278	سادساً: صفة الإستقامة.
279	سابعاً: محمد رسول الله.
281	ثامناً: النبي العبد.
285	المطلب الثاني: أخلاق الرسول ﷺ مع الناس.
285	أولاً: الخلق العظيم للنبي محمد ﷺ.
286	ثانياً: خلق الرحمة.
289	ثالثاً: خلق اللين مع الناس.
290	رابعاً: شفقة النبي ﷺ على الناس.
291	خامساً: تواضع الرسول عليه الصلاة والسلام.
293	سادساً: لين جانب النبي ﷺ.
294	سابعاً: خلق العفو.
297	ثامناً: النبي ﷺ قدوة الناس في الأخلاق الطيبة.
299	تاسعاً: حق النبي ﷺ على أمته المؤمنة.
302	الفصل الثاني: الجانب الدعوي.
303	المبحث الأول: محمد ﷺ رسول من الله.
304	المطلب الأول: الداعي إلى الله.
308	المطلب الثاني: المرسل إلى الأمة.
315	المبحث الثاني: محمد ﷺ رسول الله.
316	المطلب الأول: التبشير والإنذار.
322	المطلب الثاني: الجهر بالدعوة.

325	المطلب الثالث: الإنذار بالوحي.
325	الفرع الأول: الوحي.
325	الفرع الثاني: إتباع الوحي.
331	المبحث الثالث: الدعوة إلى الله تعالى.
332	المطلب الأول: طرق الدعوة إلى الله.
332	الفرع الأول: الدعوة إلى الله بالحكمة.
333	الفرع الثاني: الدعوة إلى الله بالموعظة والجدال الحسن.
336	المطلب الثاني: وسائل الدعوة إلى الله.
336	الفرع الأول: تعليم الناس الكتاب والحكمة.
338	الفرع الثاني: تزكية الله سبحانه للعباد.
339	الفرع الثالث: فضل الله تعالى على العباد.
342	الفصل الثالث الجانب الحضاري.
343	المبحث الأول: الدعوة الإسلامية.
344	المطلب الأول: الحكم لله تعالى.
344	الفرع الأول: الحكم لله تعالى.
350	الفرع الثاني: الحكم بما أنزل الله.
355	المطلب الثاني: طاعة الله سبحانه.
355	الفرع الأول: الأمر بالطاعة.
357	الفرع الثاني: الطاعة والجزاء.
359	الفرع الثالث: الطاعة مصدر.
364	المبحث الثاني: الفتح والانتشار.
365	المطلب الأول: بعثة النبي ورسالته.
365	الفرع الأول: محمد رسول الله.
366	الفرع الثاني: الرسول جاء بالحق.
371	الفرع الثالث: رسالة التوحيد.

376 المطلب الثاني: عالمية الرسالة.
376 الفرع الأول: مرسل لكافة الناس.
377 الفرع الثاني: عموم رسالته.
380 الفرع الثالث: الإظهار.
383 الفرع الرابع: رحمة للعالمين.
386 الخاتمة .
391 الفهارس .
392 فهرس الآيات القرآنية.
425 فهرس الأحاديث النبوية والآثار.
430 فهرس المصادر والمراجع.
445 فهرس الموضوعات.
 الملخصات .
 الملخص باللغة العربية.
 الملخص باللغة الفرنسية.
 الملخص بالبلغ الإنجليزية.

الملخص باللغة العربية.

البعد التأريخي والرسالي للسيرة النبوية في القرآن الكريم.

النبى محمد عليه الصلاة والسلام جاء خاتماً للنبوات السابقة، وآخر الرسل المبعوثين للدعوة إلى توحيد الله تعالى، وجمع الناس على رسالة الإسلام .

حيث كانت معجزة محمد ﷺ القرآن الكريم؛ الكتاب الذي تحدث في نصوص عديدة عن شخصية محمد النبي والرسول المرسل إلى الناس كافة، الذي حمل الرسالة الخاتمة لهداية البشر إلى طريق الله تعالى، والعمل بالتشريع الإسلامي وتحقيق الغاية من خلق الإنسان، قال تعالى: ﴿ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (النور: 55).

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات: 56).

ومن خلال تتبع الآيات القرآنية التي تذكر حياة النبي محمد ﷺ، وتاريخ البعثة النبوية، وما تبعها من أعمال عظيمة، للرسول الذي بعث أقوى أمة في التاريخ الإنساني، جاء هذا البحث متكوناً من: مقدمة ومدخل وثلاثة أبواب مع مجموعة من الفصول كما يلي:

1- المقدمة: التي اشتملت على مجموعة من العناصر، الموضحة لمعالم الموضوع وحدوده المختلفة، مع بيان الخطة التفصيلية للبحث .

2- مدخل بعنوان "المفاهيم الأساسية للبحث"؛ والذي بحث في مصطلحات العنوان، من خلال المورد اللغوي، ثم البحث في استعمال هذه الألفاظ من الناحية الاصطلاحية. ولأهمية لفظ "البعد" في هذا الموضوع، وضع تعريف اصطلاحى، لاستخدام لفظ البعد في البحث موضوع الدراسة.

وفي آخر هذا المدخل وضعنا تعريف شامل للموضوع، وبشكل دقيق، حتى يُفهم الاتجاه الذي وضع للدراسة من خلال العنوان المذكور.

3- الباب الأول: تحدث عن محطات السيرة النبوية في القرآن الكريم؛ والذي كان الإطار الأول لبيان أسس هذا الموضوع، لأنه يبين كيفية ورود سيرة محمد ﷺ على طول القرآن الكريم، وتكون من فصلين: الأول بعنوان "مرحلة الإعداد الإلهي (قبل البعثة)، والثاني "البعثة النبوية".

4- الباب الثاني: الموسوم بـ "البعد التاريخي للسيرة النبوية"، والذي بحث أهم عنصرين في هذا الموضوع وهما: التوحيد، والنبوة.

5- الباب الثالث: كان بهذا العنوان: "البعد الرسالي للسيرة النبوية".

الحديث في عنصر البعد الرسالي، هو بيان أهمية الرسالة التي جاء بها النبي محمد ﷺ، والجانب الذي حققته في التاريخ الإسلامي، وقُسم هذا الباب إلى ثلاثة فصول مهمة:

الفصل الأول: الجانب الأخلاقي. ويعتبر الأساس الأول لقيام أمة إسلامية قوية، خاصيتها الأولى القدوة، التي تمثلت في شخص النبي ﷺ، الذي وصفه الله تعال بالخلق العظيم.

الفصل الثاني: الجانب الدعوي. وتضمن أهم الأعمال التي قام بها النبي ﷺ، ومنهجه في الدعوة الإسلامية، بداية من جهره بالإسلام في مكة المكرمة.

الفصل الثالث: الجانب الحضاري. من خلال الآيات القرآنية التي تحدثت عن بعثة النبي ﷺ، وجهاده المستمر لإيصال كلمة التوحيد إلى الناس في بقاع الأرض، وأهمية قيام حضارة إسلامية بأسس صحيحة، جاءت معالمها الأولى من خلال عمل الرسول عليه الصلاة والسلام.

6- الخاتمة: والتي ضمت مجموعة من النتائج الهامة، المتوصل إليها من خلال البحث في هذا الموضوع، والذي تناول أهم الأبعاد المميزة لسيرة الرسول محمد عليه الصلاة والسلام من خلال القرآن الكريم .

Résumé

Prophète Muhammad (PSL) était un anneau de prophéties précédentes, et le dernier des apôtres envoyés pour appeler à l'unification de Dieu, et amener les gens au message de l'Islam.

Lorsque le miracle de Muhammad, paix soit sur lui le Coran, livre, qui se produisent dans de nombreux textes sur la personnalité de Muhammad (PSL), le prophète et le prophète envoyé à toutes les personnes, qui ont porté le message final pour guider les gens sur le chemin de Dieu, et le travail de la législation islamique et atteindre l'objectif de la création de l'homme, Allah a dit:

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (النور: 55).

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات: 56).

En faisant le suivi des versets coraniques qui rappellent la vie du Prophète Muhammad, paix soit sur lui, et la date de la mission du Prophète, et le grand travail ultérieur, le messager qui a été envoyé la nation la plus puissante dans l'histoire humaine, est venu cette recherche de: Introduction et l'entrée et trois portes avec un groupe de chapitres, comme suit :

1-**Introduction** : qui comprenait une combinaison d'éléments, décrit les caractéristiques des différents sujets et de ses frontières, avec une déclaration du plan détaillé.

2-**Entrée intitulée** «concepts de base de la recherche», et les termes de recherche dans le titre, par le fournisseur linguistique, puis regarder l'utilisation de ces mots de l'idiomatique.

Et l'importance du mot «dimension» dans le sujet, une définition idiomatique, d'utiliser la dimension terme dans le sujet de l'étude de recherche.

Enfin l'entrée et de mettre une définition exhaustive du sujet, et avec précision, même de comprendre la direction dans laquelle le développement de l'étude à travers le titre.

3-**Partie I** parlé du prophète des stations biographie dans le Coran, et qui était le premier cadre à la déclaration des fondements de ce sujet, car il montre comment et Rod biographie de Muhammad, paix soit sur lui le long du Coran, et

être l'un des deux chapitres : le premier intitulé : phase de «préparation divine (avant la mission), et le second: «mission prophétique».

4-**Partie II** est marqué par "la dimension historique de la biographie du Prophète," qui traitent des éléments les plus importants de ce sujet, à savoir le monothéisme et la prophétie.

5-**Partie III**: Il était avec ce titre: "dimension missionnaire de la biographie du Prophète".

Parlez dans l'élément de dimension missionnaire, est la déclaration de l'importance du message qui est venu Ava Prophète Muhammad, paix soit sur lui, et le côté qui a réalisé dans l'histoire islamique, et cette partie de la porte à trois chapitres importants:

Chapitre One: le côté moral: La première base pour un forte cryptographique premier modèle de la nation islamique, qui était représentés à la personne du Prophète la paix soit sur lui, qu'il décrit comme Dieu Tout-Puissant, le caractère moral.

Chapitre II: Le costume de côté. Et veiller à ce que le travail le plus important réalisé par Ava Prophète, paix soit sur lui, et son approche de la Dawa islamique, le début de l'Islam, il a parlé à La Mecque.

Chapitre III: La partie de la civilisation. A travers les versets coraniques qui parlaient de la mission du Prophète, paix soit sur lui, et la lutte constante pour fournir le mot de Tawhid aux gens dans certaines parties de la terre, et l'importance d'une civilisation islamique fondamentaux sont corrects, les premiers jalons est venu à travers le travail du Prophète la paix soit sur lui.

6- **Conclusion**, qui comprenait une série de résultats importants, atteint par la recherche dans le sujet, qui portait sur les plus importantes dimensions caractéristiques de la biographie du Prophète Muhammad, paix soit sur lui par le Coran.

Summary

Prophet Muhammad (PBUH) was a ring of previous prophecies, and the last of the apostles envoys to call for the unification of God, and bring people to the message of Islam.

Where the miracle of Muhammad, peace be upon him the Koran; book, which occur in many texts of the personality of Muhammad (PBUH) the Prophet and the Prophet sent to all the people, who carried the message finale to guide people to the path of God, and the work of Islamic legislation and achieve the purpose of the creation of man, God said:

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (النور: 55).

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات: 56)

By tracking the Quranic verses that recall the life of the Prophet Muhammad, peace be upon him, and the date of the Prophet's mission, and the subsequent great work, the messenger who was sent the most powerful nation in human history, came this research of: Introduction and the entrance and three doors with a group of chapters as follows :

1-Introduction: which included a combination of elements, described the features of the different subject and its borders, with a statement of the detailed plan.

2-Entrance titled "basic concepts of search"; and which search terms in the title, through linguistic supplier, then look at the use of these words from the idiomatic.

And the importance of the word "dimension" in the subject, a definition idiomatic, to use the term dimension in the research subject of the study.

At last the entrance and put a comprehensive definition of the subject, and accurately, even understand the direction in which the development of the study through the title.

3-Part I spoke about the biography stations prophet in the Koran; and who was the first frame to the statement of the foundations of this subject, because it shows how and Rod biography of Muhammad, peace be upon him up

along the Koran, and be one of the two chapters: the first entitled: "divine preparation phase (before the mission), and the second: "prophetic mission".

4-**Part II** is marked by "the historical dimension of the biography of the Prophet," which discuss the most important elements in this topic, namely monotheism and prophecy.

5-**Part III**: It was with this title: "missionary dimension of the biography of the Prophet."

Talk in the missionary dimension element, is the statement of the importance of the message that came Ava Prophet Muhammad, peace be upon him, and the side that achieved in Islamic history, and this section of the door to three important chapters:

Chapter One: the moral side: The first foundation for a strong Islamic nation cryptographic first role models, which were represented in the person of the Prophet peace be upon him, which he described as God Almighty, moral character.

ChapterII: The side suit. And ensure that the most important work done by Prophet, peace be upon him, and his approach to the Islamic Dawa, the beginning of he spoke about Islam in Mecca.

ChapterIII: The side of civilization. Through Quranic verses that talked about the mission of the Prophet, peace be upon him, and the constant struggle to deliver the word of Tawheed to people in parts of the earth, and the importance of an Islamic civilization fundamentals are correct, the first landmarks came through the work of the Prophet peace be upon him.

6-**Conclusion**, which included a series of important results, reached it by searching in the subject, which dealt with the most important characteristic dimensions of the biography of Prophet Muhammad, peace be upon him by the Koran.